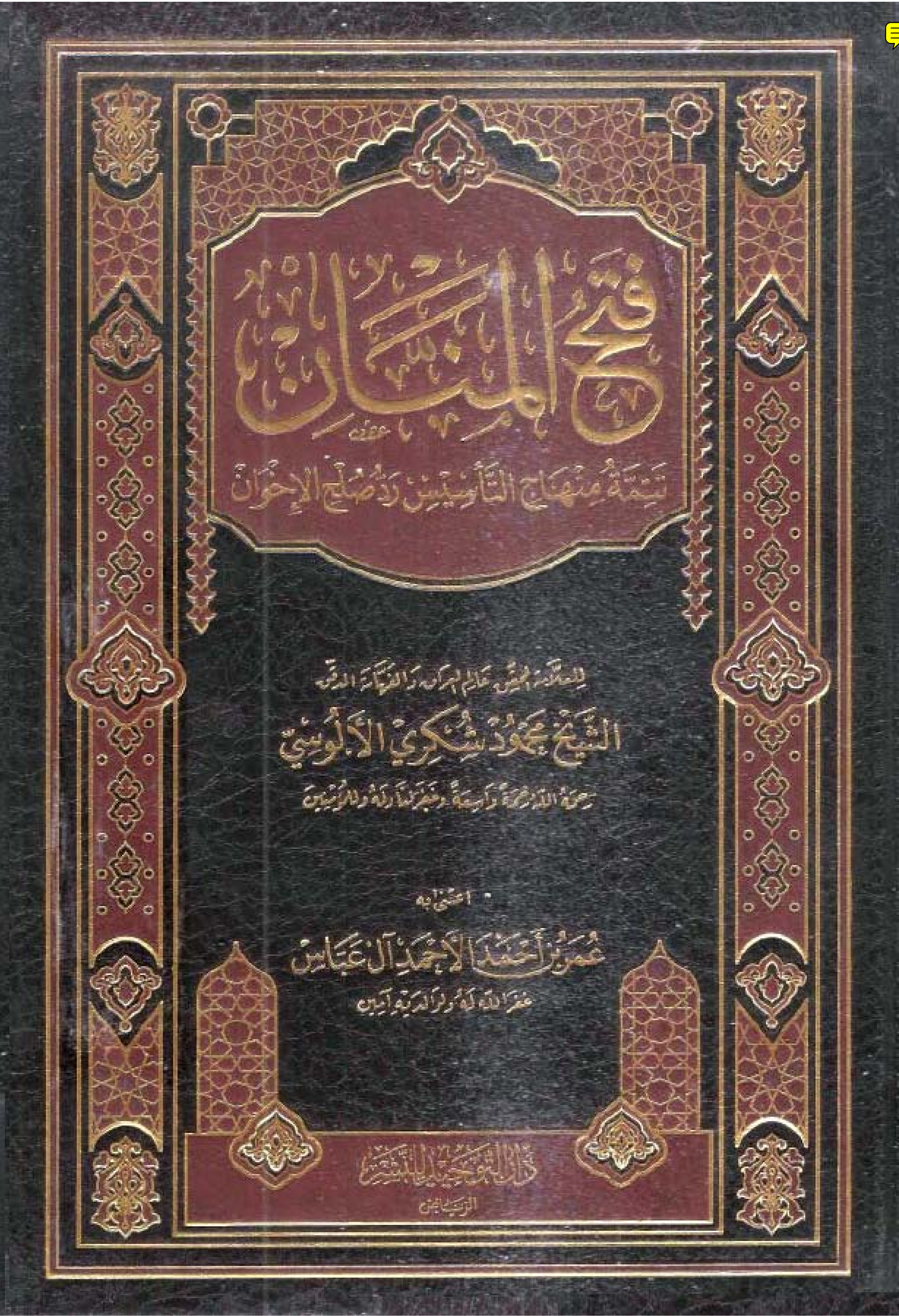

فتح المنان
تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان
الشيخ محمود شكري الألوسي
اعتنى به
عمر بن أحمد الأحمد آل عباس
غفر الله له ولوالديه آمين
دار التوحيد للنشر
الرياض

ح دار التوحيد للنشر والتوزيع ، ١٤٣٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الألوسي ، محمود شكري

فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صالح الإخوان . / محمود شكري الألوسي ،عمر أحمد الأحمد آل عباس . ـ الرياض ، ١٤٣٠ هـ

... ص ؛ .. سم

ردمك : ٢-٢-٠ - ٨٠٢٩ - ٣-٦٠٣-٩٧٨

١ - التوحيد ٢ - العقائد ٣ - علم الكلام ـ دفع مطاعن آل عباس، عمر أحمد الأحمد (محقق) ب ـ العنوان

ديوي ٢٤٠,٩٠١ ١٤٣٠ / ٣٤٤٦

رقم الإيداع : ١٤٣٠ / ٣٤٤٦

ردمك : ٢-٢-٠ - ٨٠٢٩ - ٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الناشر

دار التوحيد للنشر

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ ص.ب. ١٠٤٦٤ الرمز البريدي ١١٤٣٣

هاتف ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ وناسوخ ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤

البريد الإلكتروني : E-mail: dar.attawheed.pub.sa@gmail.com

فتح المنان

تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان

للعلامة المحقق عالم العراق والفهامة المدقق

الشيخ محمود شكري الألوسي

رحمه الله رحمة واسعة وغفر لنا وله وللمؤمنين

اعتنى به

عمر بن أحمد الأحمد آل عباس

غفر الله له ولوالديه آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

إنّ الحمد للّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد اللّه فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللّه، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أمَّا بعد:

فيقول اللّه عزَّ وجلَّ في محكم التّنزيل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ شأنه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه،**

فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١).

فالأمر بالمعروف والنَّهي عن ضدِّه وهو المنكر، ركن ركين وأسٌّ متين، وسور حصين للمسلمين، وسفينة نوح للناجين، حتى عدَّه البعض من العلماء الركن السادس من أركان هذا الدين.

قال ابن كثير في «تفسيره»(٢) عند تفسير الآية رقم (١٠٤) من سورة آل عمران: وإنَّما حازت هذه الأمَّة قصب السَّبق إلى الخيرات لنبيِّها محمَّد صلَّى اللَّه وسلامه عليه، فإنَّه أشرف خلق اللَّه وأكرم الرُّسل على اللَّه، وبعث اللَّه بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيًّا قبله ولا رسولًا من الرسل، فالعمل على منهاجه، وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه.

كما قال الإمام أحمد(٣): . . . عن محمَّد بن علي وهو ابن الحنفيَّة، أنَّه سمع عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**أُعطيت ما لم يُعْطَ أحدٌ من الأنبياء**»، فقلنا: يا رسول اللَّه، ما هو؟ قال: «**نُصرت بالرعب، وأُعطيت مفاتيح الأرض، وسُمِّيت أحمد، وجُعل التراب لي طهورًا، وجُعلت أمتي خيرَ الأمم**»، تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن. اهـ.

ألا وإنَّ من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، بل أعظمه الأمر بالتَّوحيد والدَّعوة إليه والأمر بالسّنَّة بلزومها، وهذان فيهما كل خير وفلاح ونجاح وصلاح.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» برقم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) (٣/ ١٤٣ ـ دار عالم الكتب).

(٣) في «المسند» (١/ ٩٨)، وحسنه الحافظ في «الفتح» (٨/ ٢٢٥)، وصححه أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (٣/ ٢١).

فالتوحيد إخلاص العبادة لله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وهذا هو الشرط الأول لقَبول العمل.

والسنَّة متابعة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذا هو الشرط الثاني من شروط قَبول العمل، فمتى تحقق هذان الشرطان قُبل العمل كما هو متقرر في كتب العقائد والسُّلوك[١].

فإذا قامت الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف كان لها حظ وافر من هذه الخيرية كما في الآية المتقدمة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾.

والحظ الآخر من هذه الخيرية: النهي عن المنكر، ومن المنكر، بل أعظم منكر يجب أن ينكر وينهى عنه هو الشرك الذي هو ضد التوحيد والإخلاص.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

والمنكر الآخر الذي يجب أن ينكر: هو البدعة، التي هي ضد السنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: والأمر بالسّنة والنَّهي عن البدعة هو أمر بمعروف ونهي عن منكر، وهو أفضل من الأعمال الصالحة[٢]. اهـ.

والبدعة كما عرَّفها بعض أهل العلم: ما أحدث في الدين من زيادة أو نقص قصد التعبد.

---

(١) وزاد بعضهم شرطًا ثالثًا، وهو الإيمان. انظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٣/ ٣٥٢).

(٢) «منهاج السنة» (٥/ ٢٥٣).

ولما كانت البدعة أمرها خطير، والداعي إلى البدعة مستحق للعقوبة، فقد حثَّ أئمة السنة على مجاهدته والتحذير منه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: والدَّاعي إلى البدعة مستحقّ العقوبة باتِّفاق المسلمين، وعقوبته تكون تارة بالقتل، وتارة بما دونه، كما قتل السلف جهم بن صفوان، والجعد بن درهم، وغيلان القدري، وغيرهم. ولو قدِّر أنّه لا يستحق العقوبة، أو لا يمكن عقوبته، فلا بد من بيان بدعته والتحذير منها، فإن هذا من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي أمر اللَّه به ورسوله. اهـ كلامه[١].

والبدعة إذا كانت بهذا الوصف كان لا بد من القيام بواجب الإنكار، بل عدَّه أئمة أهل السّنَّة من الجهاد في سبيل اللَّه، قال شيخ الإسلام: وقال بعضهم لأحمد بن حنبل: إنه يثقل عليَّ أن أقول: فلان كذا، وفلان كذا، فقال: إذا سكتَّ أنت وسكتُّ أنا، فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم[٢]...

وقال أيضًا في هذا الصدد: ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسّنّة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسّنَّة فإنَّ بيان حالهم، وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف، أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟

فقال: إذا قام وصلَّى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل.

فبيَّن أنّ نفع هذا عامٌّ للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل اللَّه، ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك، واجب على الكفاية باتِّفاق المسلمين.

ولولا من يقيمه اللَّه لدفع ضرر هؤلاء، لفسد الدين، وكان فساده أعظم

---

(١) «الفتاوى» له (٣٥/ ٤١٤).
(٢) «الفتاوى» (٢٨/ ٢٣١).

من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإنَّ هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلَّا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً[1] وقد قال ﷺ: «**إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2]. اهـ كلامه رحمه الله، إلى غير ذلك من الكلمات النيِّرات لشيخ الإسلام.

وقال تلميذه ابن القيم رحمه الله: واشتد نكير السلف والأئمة للبدعة، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذَّروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك بما لم يبالغوا في إنكار الفواحش والظلم والعدوان، إن مضرَّة البدع وهدمها للدين ومنافاته له أشد[3].

ولأئمة الدين وحرَّاس السُّنة من الأعلام كلام مبسوط في التحذير من أهل الأهواء والبدع[4].

لكنَّ العجب لا ينقضي ممَّن تربَّى منذ نعومة أظفاره على التوحيد ومسائله، يتخذ منهج السكوت على أهل البدع والأهواء مع وجود دواعي التحذير والتنبيه من خطرهم ـ زعمًا منهم ـ أنَّ هذا يفرِّق الصف ويشتِّت الكلمة، وقولهم أيضًا: فكيف وقد سلم منكم اليهود والنصارى، ولم يسلم منك أخوك المسلم، ويستشهدون بأثر عن الإمام الشافعي: ما ناظرت أحدًا قطُّ فأحببت أن يخطئ[5].

والرد عليهم ميسور وسهل، فقد تولَّى ذلك شيخ الإسلام، ولكن قبل

---

(1) «الفتاوى» (28/ 231 ـ 232).

(2) أخرجه مسلم برقم (2564).

(3) «مدارج السالكين».

(4) انظر: «الحوادث والبدع» للطرطوشي (ص 531 ـ ط. دار ابن الجوزي) و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالكائي (1/ 128) و«حقيقة البدعة وأحكامها» لسعيد بن ناصر الغامدي (2/ 262) وغيرها.

(5) صحيح ابن حبان (5/ 498) عن الحسن الزعفراني.

نقل كلامه، أنبِّه إلى ما استشهدوا به من أثر الشافعي ليزداد وضوحًا فأقول:

إنَّ الشافعي لم يخاطب بذلك المبتدعة، بل خاطب أهل السنة؛ لأنَّ الجدال دائر على أمر سنّي، لا مدخل للمبتدعة فيه، بل ثبت عنه رضي الله عنه أنه ناظر فرد الحفص وأفحمه.

روى ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري»[1] عن الحسن بن عبد العزيز الجردي قال: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحدًا أحببت أن يخطئ إلَّا صاحب بدعة، فإنِّي أحبُّ أن ينكشف أمره للناس.

والآن أنقل لك كلام شيخ الإسلام، فقد قال: وبإزاء هؤلاء المكفرين بالباطل، أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة كما يجب أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه، وما عرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتمونه ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة، ولا يذمون أهل البدع ويعاقبونهم، بل لعلَّهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين ذمًّا مطلقًا، لا يفرقون فيه بين ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، وما يقوله أهل البدعة والفرقة، أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة، كما يقر العلماء في مواضع الاجتهاد التي يسوغ فيها النزاع، وهذه الطريقة قد تغلب على كثير من المرجئة، وبعض المتفقهة، والمتصوفة، والمتفلسفة، كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام، وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة.

وإنما الواجب بيان ما بعث اللَّه به رسله، وأنزل به كتبه، وتبليغ ما جاءت به الرسل عن اللَّه، والوفاء بميثاق اللَّه الذي أخذه على العلماء، فيجب أن يعلم ما جاءت به الرسل، ويؤمن به، ويبلِّغه ويدعو إليه ويجاهد عليه، ويزن جميع ما خاض الناس فيه من أقوال وأعمال، في الأصول

---

(١) ص (٣٤٠).

والفروع الباطنة والظاهرة بكتاب اللَّه وسنة رسوله، غير متبعين لهوى: من عادة، أو مذهب، أو طريقة، أو رئاسة، أو سلف، ولا متَّبعين لظن: من حديث ضعيف، أو قياس فاسد ـ سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل ـ أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله، فإنَّ اللَّه ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم الهدى[١]. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

قلت: وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ثلاث منجيات وثلاث مهلكات...**»[٢].

فذكر من المهلكات: «**وهوًى متَّبع**»، وهذا كله يدل دلالة واضحة على خطر البدعة، بل إنَّ أئمة أهل البدع، أخطر على الأمة من أهل الذنوب والمعاصي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وأئمة أهل البدع أخطر على الأمة من أهل الذنوب، ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج، ونهى عن قتال الولاة الظلمة، وأولئك لهم نهْمَة في العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوساوس؟ تضلهم، وهم يظنونها هدى فيطيعونها، ما لا يعرض لغيرهم[٣].

قال ابن بطة: لأن يصحب ابني فاسقًا شاطرًا سفيهًا أحب إليَّ من أن يصحب عابدًا مبتدعًا[٤].

وقال شيخ الإسلام: إنَّ أهل البدع شرٌّ من أهل المعاصي الشهوانية ـ بالسنة والإجماع ـ إذ أهل المعاصي ذنوبهم فعل بعض ما نهوا عنه، من سرقة أو زنى أو شرب الخمر، أو أكل مال بالباطل.

---

(١) «الفتاوى» (١٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» باب الخوف من الله برقم (٧٤٥)، وأبو الشيخ في «التوبيخ» كما في «كنز العمال» (١٥/ ١٢٥٤) من حديث أنس

(٣) «الفتاوى» (٧/ ٢٨٤).

(٤) «الإبانة الكبرى» ص (١٣٢).

وأهل البدع ذنوبهم ترك ما أمروا به من اتباع السنة وجماعة المؤمنين[١].

ومع ذلك فأهل السنة الذابِّين عن الديانة، تجدهم أشد الناس خوفًا من الوقوع في أعراض العباد وغيبتهم. أخرج الخطيب في «تاريخه»: أن البخاري كان يقول: إني أرجو اللَّه أن ألقى اللَّه ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا[٢].

قال الشَّاطبي رحمه الله في كتابه الماتع النّافع «الاعتصام» (٢/ ٧٣١): روى عاصم الأحول قال: جلست إلى قتادة، فذكر عمرو بن عبيد، فوقع فيه ونال منه.

فقلت: أبا الخطَّاب! ألا أرى العلماء يقع بعضهم في بعض؟! فقال: يا أحول أوَ لا تدري أنَّ الرّجل إذ ابتدع بدعة فينبغي لها أن تذكر حتى تحذر؟

قال الشَّاطبي ـ معلِّقًا ـ: فمثل هؤلاء لا بد من ذكرهم والتَّشهير بهم؛ لأنَّ ما يعود على المسلمين من ضررهم إذا تركوا أعظم من الضَّرر الحاصل بذكرهم، والتنفير عنهم، إذا كان سبب ترك التَّعيين الخوف من التفرّق والعداوة، ولا شك أنَّ التفرّق بين المسلمين، وبين الدّاعين للبدعة وحدهم أسهل من التفرّق بين المسلمين وبين الدَّاعين ومن شايعهم واتبعهم. وإذا تعارض الضَّرران، فالمرتكب أخفُّهما وأسهلهما، وبعض الشرِّ أهون من جميعه، كقطع اليد المتآكلة، إتلافها أسهل من إتلاف النَّفس. وهذا شأن الشَّرع أبدًا، يطّرِح حكمًا أخفَّ وقايةً من الأثقل. اهـ.

ومع هذا النعاب[٣] الذي ينادي بالسُّكوت عن أهل البدع!! تجدهم

---

(١) «الفتاوى» (٢٠/ ١٠٣).

(٢) «تاريخ بغداد» (٢/ ٣٣٢).

(٣) نعب الغراب وغيره: صاح وصوَّت، وهو صوته. «لسان العرب» مادة (نعب).

يقفون من دعوة الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله موقفًا لا يُحمد؛ بل إنَّهم لا يرفعون بدعوته رأسًا!! وربَّما سأل بعضهم لماذا؟

وستأتي الإجابة إن شاء اللَّه، بل إنَّهم تكلموا في عقيدة الشيخ، وأثاروا حولها الشّبهات من عصره إلى هذا الوقت، حتى إنَّه في عصره أبان عن عقيدته وأوضحها.

فقال رحمه الله في رسالة لعبد الرحمن بن عبد الله السويدي ـ أحد علماء العراق ـ: . . . أخبرك أنِّي وللَّه متَّبع، ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين اللَّه به، مذهب أهل السنة والجماعة، الذي عليه أئمة المسلمين، مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة، لكني بيَّنت للناس إخلاص الدين للَّه، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يعبد اللَّه به، من الذبح والنذر والتوكل والسجود، وغير ذلك مما هو حقٌّ للَّه الذي لا يشركه فيه ملك مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أوَّلهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة[1].

إلى غير ذلك من الرسائل ـ كرسالته لأهل القصيم ـ والمؤلفات التي بيَّن فيها طريقته، ومن بعده من أئمة الدعوة، كالشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد (ت ١٢٨٥هـ)، والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٩٢هـ)، والشيخ حسين بن غنام الإحسائي (ت ١٢٢٥هـ)، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين (ت ١٢٨٢هـ)، وغيرهم من الأئمة الذين دعوا إلى سبيل ربهم، ودعوتهم فيها الدعوة الواضحة إلى التمسُّك، بمنهج وطريقة السَّلف المبارك في الاعتقاد والسلوك والفقه وغير ذلك من أمور الشريعة الغرَّاء.

(١) مجموعة مؤلفات الشيخ (الرسائل الشخصية) (٥/ ٣٦).

وقد تأثَّر بهذه الدعوة ـ الدعوة الإصلاحية ـ كثيرون ممن قرأ عنها، أو رأى أصحابها، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ عبد الرحمن بن عبد الله السويدي.

٢ ـ الأستاذ عبد العزيز بك بن عبد الله الشاوي.

٣ ـ الشيخ عبد الكريم بن فخر الدين الهندي.

٤ ـ محمد بن ناصر الشريفي الحازمي وغيرهم.

ومع هذا، فقد كان لهذه الدعوة خصوم، حاولوا تشويه جمالها والذهاب بصفاء بريقها بدعاوى أثاروها، وشبه زوَّروها، وأكاذيب روَّجوها لأسبابٍ كثيرة، لعلَّ من أبرزها: (هو ما كان عليه أولئك الخصوم، وكثير من المنتسبين إلى الإسلام، من الضلال والغيّ عن الصراط المستقيم).

وهناك سبب ثانٍ لهذا التحامل والمعاداة للدعوة السلفية: وهو ما أُلصق بهذه الدعوة ومجدِّدها وأنصارها من التهم الباطلة والأكاذيب والمفتريات[1]. فزعموا أنَّها مذهب خامس، وأنَّهم يستحلُّون دماء وأموال المسلمين، وأنَّ صاحبها يدَّعي النّبوَّة وينتقص الرسول ﷺ.

وسبب ثالث: وهو النِّزاعات السِّياسيَّة، فنجد في كلام الكوثري نموذجًا من ذلك، نقل عنه عباس عزاوي: ومن آخر من كتب في أيامنا الأستاذ الكوثري، كتب مقالات. . . كان يكتب بلسان السياسة العثمانية القديمة[2].

وهناك سبب رابع أدَّى إلى تراكم تلك المؤلفات المعادية للدعوة

(١) ولعلَّ أقبح كتاب ظهر في ذمِّ دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهاب، ما يعرف بكتاب مذكرات همفر. انظر: «مجلة الأصالة» الأعداد (٣١، ٣٢، ٣٣).

(٢) «تاريخ العقيدة» لعباس عزاوي (ق/١٩٦) يسَّر الله إخراجه بخير وعافية.

السلفية: وهو دفاع هؤلاء الخصوم ـ وبالأخصِّ الصوفيَّة[1] والرافضة ـ عن معتقداتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة؛ لأنَّهم وجدوا في هذا الواقع الآسن مرتعًا خصبًا لبثِّ سمومهم العقدية).

قال الشيخ عبد الكريم بن فخر الدين الهندي رحمه الله كما في «البيان والإشهار» لفوزان السابق ص (٤٣): فأما الذي جاء في ذم الشيخ محمد بن عبد الوهاب فمن أعدائه، وعامة عداوتهم له؛ لأنَّه هدم أسباب الشرك وخرَّب بنيان الباطل، ودعا إلى التوحيد، مصداق ذلك: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. . . إلخ كلامه.

أضف إلى أنَّ هذه الدعوة ـ وهو السبب الخامس ـ جاءت مصادمة لأهواء مشايخ ذلك الوقت وبعده، إما لأنها تصادم مصالحهم أو أمور أخرى دنيوية. وأيضًا ما أشرب في قلوب بعضهم من حبِّ أهل البدع وطرائقهم.

(فلما بدت أنوار هذه الدعوة تكشف غياهب الظلام، وتزيل أدران

---

(١) ذكر صلاح الدين مقبول ـ حفظه الله ـ في كتابه: «الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر من كتاباته» ص (٥٦) حاشية (٢) بعد أن عرَّف بحسين أحمد المدني، قال: كان شديد الحب ـ أي المترجم له حسين المدني ـ للشيخ عبد القادر الجيلاني، ويلقِّبه بالغوث الأعظم، وغوث الثقلين، وشديد الانتصار لابن عربي وغيره من أهل الحلول والاتحاد، وكان شديد العداوة لأئمة الدعوة، أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب، حتى قال ـ أي المدني ـ: محمد بن عبد الوهاب النجدي كان يحمل خيالات باطلة وعقائد فاسدة، وقاتل أهل السنة والجماعة. . . وكان يسيء القول في السلف الصالح. . .

فالحاصل أنه كان ظالمًا باغيًا سفاكًا فاسقًا، ولهذا بغضه العرب، كما أبغضوا أتباعه. . . نعم يجب بغضهم وعداوتهم لما صدر منهم من أنواع الإيذاء لهم. إنَّ بين عقائدنا وعقائد أكابرنا، وبين عقائد الوهابية بونًا بعيدًا، وفرقًا شاسعًا، كما بين السماء والأرض. «الشهاب الثاقب» (٤٢ ـ ٤٣).

الشرك ونجاساته، وتدعو الناس إلى تحقيق التوحيد بصفائه ونقائه، أدرك الخصوم أنَّ ظهور هذه الدعوة السلفية نذير بزوال عقائدهم، فحشد أولئك الخصوم قواهم وانبروا في التشنيع بهذه الدعوة وأنصارها، وهم أثناء تشنيعهم يذكرون معتقدهم الصوفي أو الرافضي ـ وغيرهما ـ ويزيِّنونه للناس ويزعمون أنه الحق)[1]. فنجد من أولئك الخصوم مثلًا:

١ ـ أحمد بن زيني دحلان (ت ١٣٠٤هـ).

٢ ـ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق (ت ١١٦٤هـ).

٣ ـ محسن الأمين العاملي (ت ١٣٧١هـ).

٤ ـ محمد بن فيروز (ت ١٢١٦هـ).

٥ ـ يوسف النبهاني (ت ١٣٥٠هـ).

٦ ـ حسين حلمي إيشيق التركي[2].

ومنهم أيضًا داود بن سليمان بن جرجيس البغدادي (ت ١٢٩٩هـ)، حيث إنَّه قدم إلى نجد، وتلقَّى شيئًا من العلوم الشَّرعيَّة عن طريق بعض مشايخ نجد، ثم ما لبث أن أظهر العداوة، وطعن في رسائل أئمة الدعوة، فادَّعى زورًا وكذبًا أنها تخالف ما أثبته السلف، كشيخ الإسلام ابن تيميَّة، وابن القيِّم، فألف كتابًا وسمه بـ «**صلح الإخوان من أهل الإيمان، وبيان الدين في تبرئة ابن تيمية وابن القيم**».

---

(١) «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» إعداد: عبد العزيز آل عبد اللطيف ص (٧٠ ـ ٧٥) وما بين قوسين منه بتصرف.

(٢) حسين حلمي ضابط متقاعد، ولا زال على قيد الحياة.

أضف إلى ذلك العداء المستحكم من قبل أعداء الدين من اليهود والنصارى وغيرهم حتى إنَّهم أوجدوا بعض الدعوات في الهند وغيرها كالقاديانية لتكون ضد هذه الدعوة الحقَّة.

وقد طبع هذا الكتاب قديمًا، وقام بالرد عليه العلماء، وفيما يأتي عرض لبعض تلك الردود.

ولا أنسى أن أتقدَّم بالشكر لكل من أسهم في معلومة لأجل هذا الكتاب، وأخصُّ منهم بالذكر أبا أحمد يوسف بن أحمد العُماني، والأخ أسامة العتيبي وأخي الدكتور علي بن أحمد الأحمد والأخ هاني بن سالم الحارثي.







كتاب

«فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان»

ومؤلفه أبو المعالي محمود شكري الألوسي (ت ١٣٤٢هـ)

إنَّ الشيخ عبد اللَّطيف رَحِمَهُ اللَّهُ ردَّ على داود بن جرجيس لكنه ما أتمَّه، فقد وقف في كتابه «منهاج التأسيس» عند قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩]، فجاء الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ فأتمَّه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة كتابه مبيِّنًا سبب تأليفه له: وإن كان ما كتبه كافياً في الإفحام والإلزام، فإنّه لما أتمَّ الكلام على قوله تعالى رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقف هناك وناداه داعي الأجل، فقال له: لبيك قد جئناك.

فانتقل إلى رحمة اللّه وعفوه وغفرانه، وأسرع إلى ما أعدَّه الله له في بحبوحة جنانه، وقد أحببت أن أتطفَّل في إكماله، وإن لم أُعدَّ من نظائر ذلك الشيخ الجليل وأمثاله، خوفًا أن يظنَّ البغيّ الجاهل، أنَّ ترك ذلك للعجز عن الردِّ عليه، أو رضًا بما هذاه العراقي المتطاول. . . اهـ.

قلت: وقد جاء هذا الكتاب كاملًا في مبناه، تامًّا في معناه، نصر فيه السنة، وقمع البدعة وأهلها، فقد قام بعرض الشُّبه التي أثارها ابن جرجيس، والتي أُتي فيها من سوء فهمه الذي اعتمد في غالب ما يذكره عليه، وليته رجع إلى ما حرَّره العلماء الأعلام، وأُتي ابن جرجيس أيضًا من اتِّباعه لهواه، فإنّه كان يورد ما يوافقه، وما لا يوافقه يبتره كما ستراه في استدلاله بأقوال شيخ الإسلام ابن تيميَّة الحرَّاني، وتلميذه ابن القيِّم ـ عليهما رحمة الله ـ في تجزئته

للنّصوص وبترها لتتوافق ومراده من الاستدلال بها، وكان يحرِّف في النقل، ويدلِّس ويبدِّل ويغيِّر، لأجل شُبَهِهِ التي تجيز بعض أنواع الشرك، وكان يرمي أئمة الدعوة بالجفاء وأنهم أعراب يكفِّرون المسلمين وأنّهم خوارج، وزعم أنَّ نجد هي قرن الشيطان... فاعتنى الألوسي رحمه الله برد هذه الشُّبَهِ وتفنيدها، ولم يترك لأحدٍ تعلَّق بتلك الشّبه، وزعم ابن جرجيس جواز الاستغاثة والتوسل بالأموات وغيرها، وقام الألوسي بعرضها، وتفنيدها شُبهةً شبهة، بأسلوب علميٍّ رصين، أدبيٍّ متين، وسيجد القارئ مصداق ذلك أثناء قراءته لهذا الكتاب.

وهذا الكتاب «**فتح المنان**» له محاسن ومزايا، فمن مزاياه: أن مؤلفه الألوسي رحمه الله أكثر فيه من قول: ولم يعمل به الصحابة، والأولى أن يفعل هذا الصحابة...، وهذا قيد منه رحمه الله سار فيه على ما سار عليه السلف الصالح، إذ عمومات النصوص لا بد للعمل بها من فهم الصحابة[1]، لذلك يستدلُّ المشوِّشون على أهل الحق بعمومات النصوص لإثبات باطلهم، أما أهل الحق فإنَّهم يفصِّلون الأدلة، ومن تفصيلهم معرفة ما ذهب إليه الصحابة في فهمهم للنصوص العامة.

ومن محاسن ومزايا هذا الكتاب ـ أيضًا ـ: حسن عرض مسائل التوحيد كالاستغاثة والاستعانة والذبح... وغيرها.

ومن محاسنه ومزاياه: دقّة المؤلف، ومعرفته بكلام الأئمة الأعلام، فتجده يستوقف ابن جرجيس، ويناقشه في بتره لكلام هؤلاء الأئمة ويردُّه برفقٍ مرة وبشدَّة مرة بأسلوبٍ علمي.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير عند تفسيره لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٣) وغيرهما.

ومن محاسنه ومزاياه: التنبيه على بعض الأحاديث التي استدلَّ بها هذا العراقي، إما بالتنبيه على ضعفها، أو لبيان ضعف الاستدلال بها إن صحَّت.

ومنها: استيعابه للمسألة التي يناقشها مع العراقي، استيعابًا يلملم أطرافها ويجمع شملها، في موضع واحد، إلى غير ذلك من المحاسن والمزايا، كما سيمرُّ معك.

وقد فرغ المؤلف من تأليفه سنة ١٣٠٦هـ، وطبع الكتاب قديمًا في الهند سنة (١٣٠٩هـ) في (بمبي)، ثم أعيد طبعه في مصر بمطبعة أنصار السنة المحمدية سنة (١٣٦٦هـ) بمراجعة وتصحيح الشيخ محمد بن حامد الفقي، وقد لاحظت زيادات في طبعة الشيخ محمد حامد أثبتها بين معقوفتين نبَّهت إليها أحيانًا.

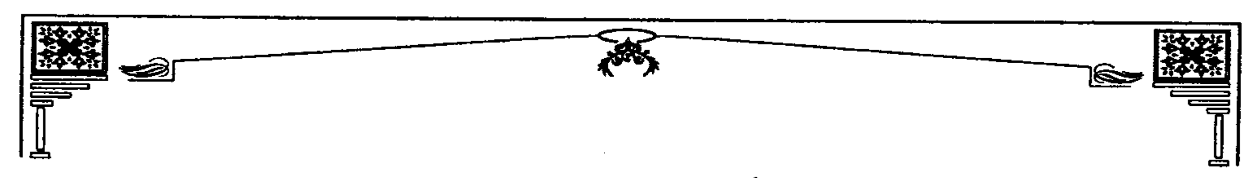
وهاتان الطبعتان قديمتان، وتحتاجان إلى إعادة طبع لتتوافق والطباعة العصرية؛ ونظرًا لقيمة هذا الكتاب العلمية وندرته، إلى جانب أنَّ الردَّ جاء من الألوسي وهو عراقي، مما يجعل عند المنصف نوع قَبول، رأيت من المناسب خدمة هذا الكتاب بإعادة طبعه[1] طبعة تليق به تكون مفرحةً لأهل السنة وشجًى في حلوق الغُلاة، وقذًى في عيونهم، وريبةً في قلوبهم.

وممَّا ينبغي التنبيه إليه، أنَّ النَّاس بحاجة إلى التَّوحيد، وخاصةً عندما ابتعد كثير من المسلمين عن مصدر التشريع الكتاب والسنة، ونَدَر فهمها وفق فهم السلف المبارك، حيث إن الجهل بحقيقة التوحيد وخصائصه أدَّى إلى الجهل بمعرفة ما يناقض التوحيد؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّ التوحيد الذي يجب على المكلف هو نوع واحد من أنواع التوحيد، ألا وهو توحيد الربوبيَّة فقط، مما

(١) وقد حاولت جاهدًا، الحصول على نسخة خطية لهذا الكتاب، ولكن لم أظفر بذلك.

أوقع كثيرًا من الناس في الشرك والبدعة والتكفير. . . وغير ذلك، فجاء هذا الكتاب دعوةً صادقةً إلى التمسك بالكتاب والسنة وفهمها على فهم الصحابة الكرام، وتحقيق التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

❊ ❊ ❊



العلماء الذين ردُّوا على داود ابن جرجيس

لقد قام بالردِّ على ابن جرجيس علماء كثر، غير ما نذكره ونقدِّم له في هذا الكتاب الذي أتمَّه الألوسي، والذي قد بدأ به الشيخ الإمام عبد اللَّطيف ابن عبد الرحمن بن حسن، بل إنَّ هناك من تناول ما أثاره العراقي من شبه، فتصدَّوا لها، منهم حسب ما ورد في «معجم مصنفات الحنابلة» للدكتور الطريقي وغيره.

١ ـ عبد الله بن عبد الرحمن، الملقب «أبا بطين» (ت ١٢٨٢هـ) مفتي الديار النجدية ردَّ عليه بـ:

ـ «تأسيس التقديس في الرد على ابن جرجيس»[(١)]، مطبوع.

ـ «الانتصار لحزب الله في الرد على ابن جرجيس»، مطبوع.

٢ ـ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٨٥هـ):

ـ «القول الفصل النفيس في الرد على داود بن جرجيس»، مطبوع.

ـ «كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس».

ـ «الرد والردع»، مخطوط.

٣ ـ أحمد بن إبراهيم بن حمد بن عيسى (ت ١٣٢٩هـ) بكتاب عنوانه: «الرد على شبهات المستغيثين بغير الله». يذكر الشيخ البسَّام وعبد

---

(١) وهذا الكتاب سُمِّيَ بـ«كشف تلبيس الأفاك المخالل لإبليس داود بن سليمان بن جرجيس». توجد منه نسخة في مكتبة الملك فهد.

الرحمن آل الشيخ صاحب «مشاهير علماء نجد»، أنَّ كتاب ابن عيسى ردٌّ على ابن جرجيس، وله أي ابن عيسى قصيدة ذمَّ فيها ابن منصور في مدحه لابن جرجيس.

قلت: وهذا الكتاب رد على كتاب لابن جرجيس سمَّاه بـ «أنموذج الحقائق» وأوضح في أوله فقال: فقد وقفت على كراسة لبعض المصريين من أهل العراق سمَّاها «أنموذج الحقائق» وضمَّنها كثيرًا من الهذيان والشقاشق، مضمونها الانتصار للشرك بالله المسمى بالتوسل، وتجويزه دعوات الأموات الغائبين.

٤ - ومن الذين ردّوا على داود: علامة العراق، السيد نعمان الألوسي.

- «شقائق النعمان في رد شقاشق داود بن سليمان».

٥ - وكذلك كتب الشيخ محمد بن ناصر الشريف التهامي اليمني، ردًّا قويًّا أسماه: «إيقاظ الوسنان على بيان الخلل في صلح الإخوان»، توجد منه نسخة خطية في مكتبة الأمير سلمان بجامعة الملك سعود برقم (٥٤٤)[١].

٦ - ونظم الشيخ عبد العزيز بن حسن الفضلي (ت ١٢٩٩هـ)، قصيدة يردُّ بها على ابن منصور، لما مدح شيخه داود بن جرجيس.

٧ - عبد اللَّطيف بن عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٩٣هـ).

- «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس»، مطبوع. بتحقيق الشيخ عبد السلام البرجس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد نبَّه إلى أنّه

---

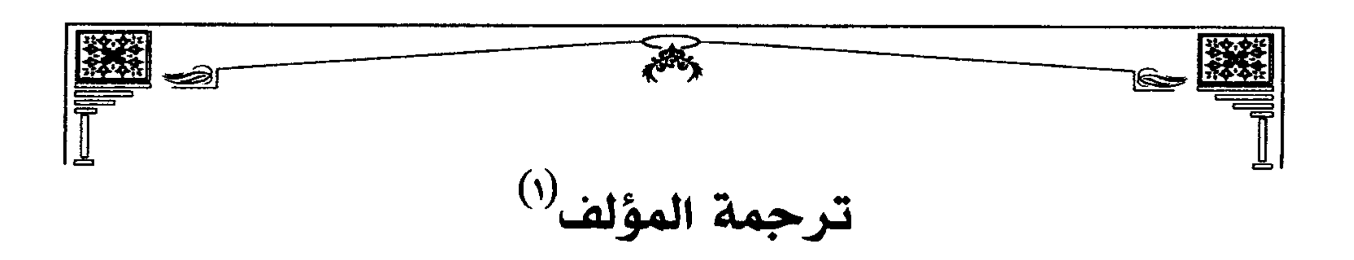
(١) وقد طبع الكتاب بتعليق علي بن محمد أبو زيد الحازمي عن دار الشريف سنة ١٤٢٠هـ.

هو المسمَّى بـ«دلائل الرسوخ في الرد على المنفوخ»، وأشار المحقق رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ المؤلف ألفه قبل وفاته بعامين.

وقد طبع كذلك ضمن «الدرر السنية» (٩/ ٢٨٧).

ـ ثم أعقبه بردٍّ أطول منه سمَّاه بـ«منهاج التأسيس والتقديس في الرد على داود بن جرجيس» هو الذي كمَّله الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ، وسيأتي الكلام عليه.





ترجمة المؤلف[(١)]

هو الإمام الكبير، والسَّلفي المبارك، والمصلح المشارك أبو المعالي محمود شكري، جمال الدين ابن السيد عبد الله بهاء الدين ابن السيد محمود

(١) **مصادر الترجمة:**
«أعلام العراق»، و«محمود شكري الألوسي، وآراؤه اللُّغوية»، وكل من ترجم للألوسي فإنّه يعتمد على هذين الكتابين. ومن مصادر الترجمة: و«مشاهير علماء نجد وغيرهم»، و«أعلام الفكر الإسلامي»، و«مقدمة الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر»، و«مقدمة المسك الأذفر»، و«مقدمة إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد»، و«قادة الفكر الإسلامي»، و«الموسوعة العربية الميسرة»، و«الأعلام» (٧/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، و«معجم المؤلفين» (٣/ ٨١٠) ترجمة رقم (١٦٦٠٣، ط الرسالة)، و«ديوان الرصافي» (١/ ٣٠٤)، و«مقدمة مختصر التحفة الاثني عشرية»، ومقدمة «الآية الكبرى»، ومقدمة تحقيق «النَّحت» ص (١١)، ومقدمة تحقيق «شرح أبيات الجنة من نونيَّة ابن قيِّم الجوزية»، و«طروس الإنشاء» (مخطوط)، و«عشائر العراق» (١/ ١٦٦ ـ ١٧)، و«جامع التصانيف»، و«جمهرة المراجع البغدادية»، و«قادة الفكر الإسلامي عبر القرون»، و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (٢/ ٧٨٧ ـ ٧٨٨)، و«تاريخ الأدب العربي لجرجي زيدان» (٤/ ٢٨٥)، و«دائرة المعارف البستانية» (١/ ٣٤٧)، و«المباحث اللغوية في العراق»، و«أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث»، و«الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي»، و«مجلة لغة العرب» السنة الرابعة ص (١٢١)، و«مجلة المنار» (١١/ ٤٧)، و(٢٥/ ٣٧٤)، و«اليقين» (ج ٣ س/ ٣ في ١٣٤٣هـ شعبان) ص (١٣٧ ـ ١٥٠)، و«عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي»، ومقدمة كتاب «صب العذاب على من سب الأصحاب»، وقد استفدت من الدراسة التي قام بها المحقق لهذا الكتاب، ومن أراد الاستزادة فلينظر في مقدمة الكتاب المذكور ص (١٩ ـ ١٨٣).

شهاب الدين صاحب «التفسير» ابن عبد الله بن صلاح الدين بن محمد الخطيب الألوسي البغدادي الحسيني، حيث ينتهي نسبه إلى جده الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ﵄.

قال محمد بهجة الأثري في كتابه «محمود شكري الألوسي وآراؤه اللُّغوية»[(١)]: فقد كتب أبوه ـ لما جاءه المولود ـ في مذكراته: «ولد ـ والحمد لله تعالى ـ الولد الأغر المبارك المحفوظ بعين عناية الله، السّيّد محمود المخلص بـ«شكري»، والملقب «بجمال الدين»، والمكني بـ «أبي المعالي» صباح السبت ١٩ رمضان، وكانت الساعة بالاثني عشر ونصف أو ثلث، سنة (١٢٧٣هـ) ١٢ أيار».

ولد ﵀ في دار جدّه أبي الثناء، فنشأ في كنف أبيه في دار عامرة بالعلم والعلماء، وفي أسرة عريقة في المجد والنسب، والعلم والدين[(٢)]...

ويقول كذلك (ص ٥١): «وأتاحت له العناية البالغة من أبيه الذي تفرّس فيه النجابة والألمعية».

والألوسي: نسبة إلى (ألوس)[(٣)] ....

---

(١) ص (٥١).

(٢) مشاهير علماء نجد (ص ٤٦٨).

(٣) انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (١/ ١٩٨) مادة [ألوس]، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٣٥٠)، و«اللباب» (١/ ٦٦). والنسبة إلى قرية تسمى «ألوس»: وهي جزيرة تقع في منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد، كانت موطن أجداده. قال الدكتور عبد الله الجبوري في تحقيقه لـ«المسك الأذفر» (ص ٩): وقد وجدت ضبطها (ألوس) في آخر نسخة مخطوطة من «صحيح البخاري» كتبها أبو الثناء الألوسي المفسِّر سنة (١٢٧٠هـ) فقيّد رسمَها بالقصر (ألوسى).

قلت: ولحظ الزركلي في «الأعلام» (٧/ ١٧٢) ـ عند عرضه لمخطوطتين ـ لحظ وضع المدة فوق همزة الألوسي. قال الزبيدي في «تاج العروس» (٤/ ٩٨) =

بقصر الهمزة، كما رجَّحه الأثري[١].

وقيل نسبة إلى (آلوسة) بمد الهمز، وفيها لغات أخرى ذكرها الأثري أيضًا[٢].

(والألوسيون، سادة أشراف، محبوكو الأطراف، ضمَّوا إلى زينة النَّسب حلية الأدب، فتفيَّأوا في الشَّرف مكانًا عليًا . . .)[٣].

فمن هذا النَّص يتَّضح وضوحًا جليًّا أنَّ هذه الأسرة «الألوسية» أسرة من آل البيت، وقد صرّح بذلك عدد منهم، وذكره غير واحد عنهم. وقد تميَّزت هذه الأسرة بعدَّة ميزات حفظت لها مكانتها، والقيام بنصرة دين نبيِّها.

فمنها مثلًا:

١ ـ هذا النسب العريق الشريف، قال أبو الثناء في «روح المعاني»[٤] عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]: «ومع شرف الانتساب إليه عليه الصلاة والسلام لا ينبغي لمن رُزقه أن يجعله عاطلًا عن التَّقوى، ويدنّسه بمتابعة الهوى، فالحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوة أحسن، والسيّئة في نفسها سيئة، وهي من أهل بيت النبوَّة أسوأ . . .».

قال أبو المعالي في «الآية الكبرى»[٥] وغيره متكلِّمًا عن نفسه: ومن

= مادة (ألس): وألوس كصبور، اسم رجل سُمِّيت به بلدة على الفرات قرب عانات.

(١) «أعلام العراق» ص (٧).

(٢) «أعلام العراق» ص (٧).

(٣) «محمود شكري الألوسي وآراؤه اللُّغوية».

(٤) «روح المعاني» لشهاب الدين الألوسي (٢٦/ ١٦٥). وستأتي ترجمته.

(٥) «الآية الكبرى» ص (١٠٤) بتحقيقي.

أوضح البراهين على صحة نسبه، وجلالة حسبه، أنه وآباءَهُ من أحرص النَّاس على الانتصار للدِّين، والذَّبِّ عن أهل الإيمان واليقين.

٢ ـ الحرص كلّ الحرص على نصرة هذا الدين، والانتصار له بالذبِّ عن المدافعين عنه، وأنّ هذا الذبّ من الانتصار لدين الله عزَّ وجلّ.

قال أبو المعالي في معرض ردّه على النبهاني لمَّا تنقَّص شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «... فالانتصار لابن تيميَّة إنَّما كان بتصحيح أقواله المبطلة لآراء الغلاة المبطلين، وهي ما دلَّت عليه الأحاديث النبوية، والآيات القرآنية، فيؤول ذلك إلى الانتصار للرَّسول بل إلى الله سبحانه...».

٣ ـ الشجاعة ومحاولة إظهار العقيدة دون خوف أو وجل[2]، إلى غير ذلك من المزايا مما هيأت البيئة العلمية التي تجسَّدت في هذا الإمام العَلَم فقام بالتدريس، والتَّصنيف، والتَّصدِّي للردّ على بعض المحاولين تشويه جمال هذا الدِّين.

وقد زهد رَحِمَهُ اللهُ في المناصب التي عُرضت عليه إلّا عضويَّة مجلس المعارف في بدء الحكومة العربية في بغداد[3]، يضاف إلى ذلك تعيينه مدرسًا في مدرسة «داود باشا»، ثم أضيف إليه تدريس مدرسة السيد «سلطان علي»، وقبل وفاته بثلاث سنوات، سنة (١٣٤٠هـ) وجهت إليه مدرسة «مرجان» الشهيرة التي كانت مشروطةً لأعلم أهل البلد، ويُنْعَتُ من سلِّمت إليه بـ«رئيس المدرِّسين» فجمع بينها وبين مدرسة «داود باشا».

---

(١) «الآية الكبرى» (١٠٤).

(٢) «محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية» بتصرف.

(٣) «معجم المؤلفين» (٣/ ٨١٠)، و«محمود شكري الألوسي» (ص ٥٩)، و«أعلام العراق» (٩٢)، ومقدمة «إتحاف الأمجاد» (١٤ ـ ١٥)، وانظر مقدمة تحقيق «صبّ العذاب» (٦٢).

أما عن أثره في أهل عصره، فقد تجلَّى ذلك فيما يأتي:

١ ـ انتدابه من قبل الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) مع نسيبه علي الألوسي الذهاب إلى نجد لإقناع أميرها عبد العزيز آل سعود للانضمام إلى الترك في محاربة الإنكليز فأبى أن يكون مع الدولة، فانقلبت الدولة بعد ذلك تقوِّي ابن رشيد منافس ابن سعود في إمارة نجد[١].

٢ ـ تصدُّره للتَّدريس في داره، وفي بعض المساجد[٢].

٣ ـ آتت هذه الدُّروس ثمارها يانعة، فقد تخرَّج من مدرسته عدد كبير من طلبة العلم نذكر منهم[٣]:

أ ـ الأستاذ العلامة الشيخ محمد بهجة بن محمود بن عبد القادر بن أحمد آغا، أصله من عرب ديار بكر، له مؤلفات كثيرة، نال عدّة أوسمة من عدّة دول عربية، وحاز على جائزة الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ العالميَّة في اللُّغة والآداب؛ المعروف بـ«الأثري» ولد سنة (١٣٢٠ ـ ١٤١٧هـ). وقد اعتنى بكتب أستاذة نسخًا وتحقيقًا ونشرًا، وترجم له ترجمة واسعة في كتابين هما: «أعلام العراق»، و«محمود شكري الألوسي وآراؤه اللُّغوية».

ب ـ الشاعر الشهير معروف بن عبد الغني الرصافي البغدادي، شاعر العراق في عصره. ولد سنة (١٢٩٤هـ)، له ديوان مشهور مطبوع، مات سنة (١٣٦٤هـ).

---

(١) «معجم المؤلفين» (٣/ ٨١٠)، و«محمود شكري الألوسي» (ص ٥٩)، و«أعلام العراق» (٩٢)، ومقدمة «إتحاف الأمجاد» (١٤ ـ ١٥)، وانظر: مقدمة تحقيق «صب العذاب» (٦٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذكرهم بتفصيل عبد الله البخاري في مقدمة «صب العذاب».

جـ ـ رشيد بن يحيى بن عبد القادر الهاشمي (ت ١٩٤٣م).

د ـ محمد بن يحيى بن عبد القادر الهاشمي (ت ١٩٧٢م).

هـ ـ سليمان الدخيّل (ت ١٣٦٤هـ) صاحب جريدة الرياض في بغداد، وصاحب مجلّة الحياة، وهو نجدي سكن بغداد[1].

و ـ محمد بن مانع (ت ١٣٨٥هـ) من فقهاء نجد، العالم المعروف، وأول مدير للمعارف في المملكة.

ز ـ الحاج نعمان بن أحمد الأعظمي العبيد (ت ١٣٥٧هـ).

ح ـ علي علاء الدِّين الألوسي (ت ١٣٤٠هـ).

ط ـ عبد العزيز الرَّشيد الكويتي (ت ١٣٥٧هـ).

ي ـ طه الراوي (ت ١٣٦٥هـ).

ك ـ عباس العزَّاوي، مؤرخ العراق (ت ١٣٩١هـ).

ل ـ السيِّد منير القاضي (ت ١٣٩٠هـ).

م ـ إنستاس ماري الكرملي (ت ١٣٦٦هـ) النصراني، أحد علماء اللغة العربية، وصاحب مجلة «لغة العرب».

ن ـ عبد الكريم الشَّيخلي، المعروف بالصَّاعقة (ت ١٣٧٩هـ).

وقد أخذ عنه بعض المستشرقين مثل:

أ ـ الإنجليزي «مرجليوث» (١٢٧٤ ـ ١٣٥٩هـ).

ب ـ الفرنسي «لويس ماسنيون» (١٢٩٩ ـ ١٣٨٢هـ).

٤ ـ ومع هذا كله فلم يسلم الإمام من حسد الحسّاد، وكيد الأعداء، وما ذلك إلا لأجل نصرته هذا الدين بالرد على أهل الأهواء

(١) مقدمة «شرح أبيات الجنة» للألوسي ص (١٢) تحقيق إياد القيسي.

والبدع، وقد ألَّف في ذلك بعض المؤلفات منها:

١ ـ كتاب «غاية الأماني في الرد على النبهاني» مطبوع.

٢ ـ «الآية الكبرى في الرد على ضلالة النبهاني في رائيته الصغرى» طبع بتحقيقي.

٣ ـ «صب العذاب على من سب الأصحاب» مطبوع.

٤ ـ «فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب» مطبوع.

٥ ـ «تاريخ نجد» مطبوع.

٦ ـ «القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع»[١].

٧ ـ كتاب: «فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان» وهو كتابنا هذا.

فقامت قائمة المبتدعة وغيرهم من أهل الأهواء، فعاداه كثيرون، وسعوا به لدى والي بغداد (عبد الوهاب)، فكتب هذا إلى السلطان (عبد الحميد الثاني العثماني) فصدر الأمر بنفيه إلى بلاد الأناضول، فلما وصل إلى الموصل كتب أعيانها إلى السلطان يحتجّون فسمح له بالعودة إلى بغداد[٢].

ومن الجدير بالذِّكر أنّ ثلاثة من تجار البصرة قد أُبعدوا في تلك الأيام أيضًا بتهمة العطف على الحركة الوهابية، وهم الحاج محمد الشعيبي، وعبد الله العويد، ومحمد الشبل، وسيقوا إلى «قونية»، والظاهر أنهم ظلوا مُبعدين مدة طويلة، دون أن يشفع لهم أحد[٣].

(١) سيأتي الكلام عنه.

(٢) «معجم المؤلفين (٣/ ٨١٠)، وانظر: مقدمة كتاب «صب العذاب».

(٣) «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» للدكتور علي الوردي (٣/ ٧٢).

ولا شك أنّ هذه التأثيرات ـ التي صاحبتها وجود ثمرات يانعة من التلاميذ والمصنفات، أو حتى وجود أعداء حسَّاد تتربَّص بهذا الإمام الدوائر ـ هذه التأثيرات لم تأت للألوسي إلا من تبحُّره بالعلم، وأخذه من المعين الصَّافي؛ فلقد نشأ في بيت ورث الفقه، والتَّفسير، واللُّغة، والحديث. . .

فنشأ محمود شكري في كنف هذا الرِّحاب. . . وكان أستاذه الأول.

والده: السيد عبد الله بهاء الدين الذي عني بتربية ولده. . . ثم كفله عمّه السيد نعمان خير الدين الألوسي المتوفى سنة (١٣١٧هـ). . . فأخذ يحضر دروسه في علوم الشَّريعة فقرأ عليه حينًا من الزمن. . . ثم انصرف عنه إلى مشايخ بغداد يختلف إليهم، وقد استبدَّ إعجابه بواحد منهم هو الشَّيخ: إسماعيل بن مصطفى (ت ١٣٠٢هـ) فقرأ عليه أغلب علوم الشَّريعة. . . ثم استقلَّ بنفسه، وأخذ ينهل من عيون المعارف والعلوم ما شاءت له حافظته، وجعل من نفسه خير أستاذ[1].

عقيدته:

ولعل أهم جانب في حياة هذا الإمام هو الجانب العقدي، فقد كان ﵀ صوفيًّا جلدًا في أوَّل حياته، ولكنَّه تحوَّل إلى السّلفيّة. وتنقسم مرحلة تحوُّله من الصّوفية إلى السَّلفيَّة إلى أطوار ثلاثة[2]:

الطور الأول: كان فيه صوفيًّا خالصًا، وهذا الطّور يبدأ من أوَّل حياته إلى أن تجاوز الثلاثين من عمره. . . وتوافق سنة (١٣٠٣هـ)، وهذا التأثُّر تأثُّر بيئي نشأ من داخل البيت فوالده ﵀، وهو شيخه الأول كان غارقًا في التَّصوّف، وكذلك مَن حوله من مدارس وعلماء وولاة، كلُّهم كانوا غارقين في التَّصوف.

---

(١) عبد الله الجبوري في مقدمة تحقيق كتاب «المسك الأذفر» (١٣) بتصرف يسير.

(٢) انظر: مقدمة «صب العذاب» لعبد الله البخاري (١٣٩).

ومن كتبه في هذا الطَّور: «صبُّ العذاب على من سبَّ الأصحاب».

الطور الثاني: كان فيه مازجًا بين الصوفية والسَّلفيَّة، أو طور المجاملة، ويظهر أنّ هذه المرحلة لم تستمر معه طويلًا . . . ولعلَّ أبرز التأثيرات عليه في هذا الطور خزانة كتب عمه وأستاذه نعمان خير الدِّين المملوءة بكتب بعض المصلحين، والمجددين كابن تيمية، وابن القيم، ومع وضوح الرؤية له لم يستطع أن يجاهر بآرائه، بل اضطرَّ إلى المجاملة خشية أن يقع بين من لا يخاف الله ولا يرحمه، مع عدم وجود من ينصره، ويأخذ بيده كما ذكر ذلك هو عن نفسه لتلميذه الأثري، وتبدأ من سنة (١٣٠٣هـ).

ومن كتبه في هذا الطور: «الأسرار الإلهيَّة شرح القصيدة الرِّفاعيَّة».

الطور الثالث: نبذ التّصوُّف جملة وتفصيلًا، وجاهر بدعوته إلى توحيد الله بعبادته وإخلاص العمل له، بعد أن بقي في الطَّور الثاني زهاء ثلاث سنوات، تجلّى له الإسلام الحقيقي، فانخلع مما كان عليه من العقائد الموروثة، وتمسك بالكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأُمّة، وحمل على أهل البدع والخرافات، وعباد القبور حملة شعواء. . .

وكانت بداية هذا الطور سنة (١٣٠٦هـ) عندما أعلن دعوته صراحة، وانحيازه لأهل التوحيد في كتابه «فتح المنان» كتابنا هذا، وكان قبل هذا التاريخ لا يجرؤ أن يبيّن وضوح دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﵀ أو يدافع عنه، لكنَّه في هذا الكتاب يدافع عن الشيخ دفاعًا قويًا، ويوضِّح أنّ دعوته لم تخرج عن الكتاب والسنة.

بل إنَّ الألوسي ﵀ كان له «دور ـ مع عصريِّه الشيخ جمال الدين القاسمي ﵀ (ت ١٣٣٢هـ) ـ فعَّال في نشر عدد ليس بالقليل من كتب شيخ الإسلام، يقول القاسمي في إحدى رسائله مخاطبًا الألوسي: ولا أحد ينسى ما لمولانا حرسه الله من المقام المحمود في هذا المجال ـ يعني نشر كتب ابن

تيمية ـ وسعيه الليل والنهار محتسبًا وجه المتعال، وسيخلد له التاريخ لسان صدق يرتاح له أنصار الفضل ـ رجال الحق.

ويقول أيضًا في إحدى رسائله: لا أقدر أن أعبِّر عن السرور الذي داخلني من اهتمامكم بنشر آثار شيخ الإسلام، فجزاكم الله عن هذا السعي خير الجزاء. . .»[١].

ومن كتبه في هذا الطور: «غاية الأماني في الرد على النبهاني»، و«الآية الكبرى»، و«فتح المنان».

ونجد الألوسي رَحِمَهُ اللهُ قد نذر نفسه وأجهدها لنشر العقيدة السَّلفيَّة الواضحة النقيّة، ونجد هذا جليًّا في كتبه «كالآية الكبرى»، وكتابنا هذا «فتح المنان»، و«غاية الأماني»، و«مسائل الجاهلية» وغيرها، بل إنّه عمل على نشر كتب شيخ الإسلام ابن تيميّة وتلميذه شيخ الإسلام الثاني ابن القيم، فقد قدرها وسعى في طبعها[٢].

وأمّا كلمات الأستاذ الأثري فلها البلاغ عند كلامه عن شيخه، تحت باب عنايته بإحياء آثار السلف، ومن الحقِّ أن أشير إلى أنَّ جهد الألوسي في هذه السِّيرة العجيبة، كان موزَّعًا على جملة هذا التراث، لكن أعظم جهده كان مصروفًا إلى كتب الإصلاح الديني، ولا سيَّما كتب الإمامين ابن تيميّة وابن القيِّم، فإنَّ تقصِّيه لها في خزائن الكتب بالعراق والشَّام ومصر، والحجاز ونجد والهند، واستكتابه إياها أو نسخه لها بيده، وجدَّه في تحقيقها وسعيه في طبعها هو فوق الوصف، وفوق أن يتّسع له صدر هذه المحاضرات، فإليه

---

(١) «الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي» جمع وتحقيق محمد بن ناصر العجمي ص (١١).

(٢) «مجلة المنار» (٢٥/ ٣٧٤).

يرجع الفضل في إحياء كثير منها في صدر هذا العصر[١].

أخلاقه رحمه الله:

لقد كان الألوسي ﷺ حريصًا، على تتبّع أخبار إخوانه من العلماء والأصحاب، بالسّؤال عنهم والاطمئنان على حالهم، كالشَّيخ محمد رشيد رضا، والشَّيخ عبد الرزَّاق البيطار، والشَّيخ علي بن نعمان الألوسي.

بل إنَّ الألوسي كان يتوجَّع لأحوال المسلمين وبلادهم، يقول في إحدى رسائله: هذا والمخلص مضطرب البال، ضيِّق الصدر جدًّا جدًّا مما حلَّ ببلاد المسلمين من البلاء واستيلاء الكفار عليها... فما ندري ماذا نعمل، وقد أحاط الكفر بجميع بلاد المسلمين؟ وأصبحت على خطر عليهم.

إضافة إلى أدبه الجم وتواضعه، مما جعل الناس تحبُّه، فقد حصلت له محنة من قبل أحد ولاة الدولة العثمانية، إذ رفع إلى السلطان عبد الحميد الثاني، مذكرة مليئة بالجور والافتراء على هذا المصلح، لفَّق له فيها التُّهم المليئة بالكيد، فأخذ من داره سنة ١٣٢٣هـ، وقد نجحت المكيدة، فنيل من الألوسي ﷺ وأُخرج إلى الأناضول، فتسامع النَّاس بخروجه، فاستقبله النَّاس استقبالًا حافلًا، واحتجّوا احتجاجًا بالغًا في أن يعامل مثله في علو المنزلة هذه المعاملة المنكرة... فعاد سالمًا إلى بلاده[٢].

أما عزَّة النفس، فيقول أنستاس الكرملي متحدِّثًا عن الألوسي، في عزَّة نفسه وعدم حبّه للإنجليز:

وكان قد وصل إلى حاجة ماسَّة إلى المال، فلما عرف برسي كوكس

(١) «محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية» ص (١٢٨).

(٢) «محمود شكري الألوسي وآراؤه اللُّغوية» ص (٨٧ ـ ٩٠).

المعتمد السَّامي حاجته الماسَّة أهداه ثلاث مئة دينار ذهبًا إنكليزيًا، وكلَّف أنستاس بتقديمها إليه، فرفضها وقال: خير لي أن أموت جوعًا، من أن آخذ مالًا لم أتعب في كسبه[١]...

وممن أثنى عليه في ذلك الأستاذ محبّ الدّين الخطيب[٢]، وعصريُّه الشيخ جمال الدين القاسمي[٣].

مؤلفاته[٤]:

خلَّف لنا أبو المعالي الألوسي جملة من الآثار، منها ماهو مخطوط حتى الآن، ومنها ما طبع إمَّا في حياته، أو بعد مماته، فمن آثاره:

المخطوط:

١ ـ «الأجوبة المرضية على الأسئلة المنطقية» في (٤٣) ورقة وهي رسالة في نقد المنطق، وعدم جدواه، كتبها المؤلف سنة (١٣٤٠هـ)، توجد نسخة في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٧٧٤).

---

(١) «أعلام العراق» ص (١٩٦).
(٢) «محمود شكري الألوسي وآراؤه اللُّغوية» ص (١٢٨).
(٣) «الرسائل المتبادلة».
(٤) انظر: مقدمة «المسك الأذفر» (٢٧ ـ ٤٥)، و«مقدمة صب العذاب» (١٥٠ ـ ١٦١)، و«الرسائل المتبادلة». وللألوسي رحمه الله اعتناء بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام الثاني ابن القيم، فقد اعتنى بها تحقيقًا ونشرًا، قال الشيخ كامل الرافعي عن الألوسي والشيخ علي بن نعمان كما في «مجلة المنار» (٤٦/١١): ولم أر أحدًا يقدر مؤلفات ابن تيمية، وابن القيم قدرها مثلهما ولهما تعشُّقٌ غريب فيها، وقد سعيا في طبع الكثير منها، وهمتهما مصروفة وراء تتبعها والسعي في طبعها، لا طمع لهما في ذلك سوى خدمة العلم والدين، فللَّه درهما، وعلى الله أجرهما.
انظر: «الرسائل المتبادلة» ص (٣٠).

٢ ـ «أخبار الوالد وبنيه الأماجد»، ويقع في (١٠٢) صحيفة، وهو في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٦٢٣).

٣ ـ «أمثال العوام في مدينة دار السلام»، رسالة تتبع فيها الأمثال العامية البغدادية، ونسقها على حروف الهجاء منها نسختان في الآثار العامة برقم (١٧٩٨) و(٨٥١٣) تقع في (٧٦) ورقة بخط المؤلف.

٤ ـ «بدائع الإنشاء» في قسمين: القسم الأول: في رسائل والده عبد الله بهاء الدين، والثاني: جمع فيه ما كتبه له معاصروه مع بعض التراجم لهم، وهي بخط المؤلف.

ورقم القسم الأول في مكتبة الآثار العامة تحت رقم (٨٥٥٠) يقع في(١٠٦) ورقات. ورقم القسم الثاني (٨٥٥١) يقع في (٣٤٠) ورقة.

٥ ـ «تجريد السنان في الذبّ عن أبي حنيفة النعمان»، رسالة وضعها في الدفاع عن أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وهي بخطه في مكتبة الآثار العامة برقم(٨٥٨٩) كتبها سنة (١٣٠٦هـ) في (١٩٤) ورقة.

٦ ـ «الجواب عما استبهم من الأسئلة المتعلقة بحروف المعجم».

وهي أجوبة لغوية، كتبها على أسئلة وجهها جلال الدين السيوطي إلى علماء عصره، ولم يجب عنها أحد في زمانه، وهي أسئلة عن معاني حروف المعجم وأسمائها ومتى وضعت ومن وضعها... وهي سبعة أسئلة تقع في (٤١) صحيفة كتبها في سنة (١٣١٩هـ) برقم (٨/٨٦٠٥) مكتبة الآثار العامة.

٧ ـ «الجوهر الثمين في بيان حقيقة التضمين»، رسالة لغوية بحث فيها التضمين اللُّغوي، وهي بخطه في مكتبة الآثار العامة في (٥٠) صحيفة برقم (٨٥٣٣).

٨ ـ «الدر اليتيم في شمائل ذي الخلق العظيم» في سيرة المصطفى ﷺ، والنسخة بخطه في مكتبة الآثار العامة في (١٢٣) صحيفة برقم (٨٦٩٢). قال د. الجبوري: وذكره الأثري بقوله «. . . لم يتمه».

٩ ـ «الدلائل العقلية على ختم الرسالة المحمدية»، رسالة في دلائل نبوته ﷺ، وأنه الخاتم، وأن شريعته خالدة دائمة بدوام الإنسان، وهي بخطه سنة (١٣١٩هـ)، وعدد الصفحات (٣٦) برقم (٨٥٤٧)، وعنوانها في مكتبة الآثار العامة: «رسالة في إثبات خاتمية نبوة الرسول ﷺ».

١٠ ـ «رسالة في أخبار بغداد» تقع في (١٢) ورقة نسختها بمكتبة الآثار العامة برقم (٨٧٩٨).

١١ ـ «الروضة الغناء شرح دعاء الثناء» في (١٧) ورقة، وهي باكورة مؤلفاته ألفها سنة (١٢٩٤هـ) بخط محمود بن حسين بن قفطان في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٥٨٠/ ١). قال عبد الله البخاري: وعنوانه في الفهرست «شرح دعاء الثناء».

١٢ ـ «رجوم الشياطين» ذكره في كتاب «صبّ العذاب» في معرض كلامه على المتعة، قال عبد الله الجبوري: لم يره الأثري ولم يذكره.

١٣ ـ «رياض الناظرين في مراسلات المعاصرين» النسخة بخطه في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٥٣٤) في (٥٦٠) صفحة، ويحتوي على وثائق ورسائل في أغراض متنوعة، علمية، وأدبية، وشخصية عن أخبار المؤلف ومعاصريه، وسيقوم بطبعه الشيخ محمد بن ناصر العجمي.

١٤ ـ «السُّيوف المشرقة مختصر الصَّواعق المحرقة».

والأصل للشيخ محمد المعروف بخواجة نصر الله الهندي المكي، وهو رد على الشيعة نسخته بخط الألوسي كتبه في سنة (١٣٠٣هـ) في (٣٠٣) صحائف في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٦٢٨).

١٥ ـ «شرح منظومة عمود النَّسب في أنساب العرب».

والمنظومة للشيخ أحمد الشنقيطي البدوي المجلي، والشرح من أهم كتب الأنساب والتاريخ، لما ضمنه من فوائد في التاريخ والأنساب، والمنظومة في قسمين:

القسم الأول: في أنساب عدنان، ونسب المصطفى ﷺ، وأنساب أصحابه العدنانيين.

والقسم الثاني: في نسب قحطان وما تفرع منه، ومنه نسخة المؤلف وبخطه، في مكتبة الآثار العامة كتبها في سنة (١٣٤٠هـ) القسم الثاني في (٦٧١) صحيفة، برقم (٨٧٦٢)، والقسم الثاني كتبه في سنة (١٣٣٦هـ) برقم (٨٧٧٢)، ويقع في (٢٨٧) صحيفة.

ومن القسم الثاني قطعة في (٢٦) صحيفة في مكتبة الدراسات العليا كلية الآداب، جامعة بغداد.

ونسخة أخرى بخط السيد محمد سعيد بن مال الله التكريتي في مكتبة الآثار العامة، وأخرى بخط الأثري في مكتبته الخاصة في ألف صحيفة، وقد وصفها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (م/ ٣ ص: ١٠٥).

١٦ ـ «شرح الدر المنضود» رسالة شرح فيها قصيدة الشاعر أحمد الشاوي التي مدحه فيها، والتي مطلعها:

معاتَبَتي ـ لو أعْتب الدهر ـ للدهر
بما قد جرى لا تَنْقضي آخرَ العمر

ونسختها بخطه في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٧٢١/ ١)، وتقع في ثمانين صحيفة.

١٧ ـ «شرح منظومة العطار» وهي في فنِّ الوضع، تقع في (٢٥) ورقة،

منها نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٣/ ٦٤٠٩) مجاميع[١].

١٨ ـ «مختصر الضرائر السائغة»، وهو مختصر لكتابه: الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر.

بخط المؤلف في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٥٧٩) في سبعين صحيفة.

١٩ ـ «القول الأنفع في الرد على زيارة المدفع»، رسالة لطيفة عالج فيها موضوع (المدفع) الموجود الآن في بغداد في ساحة الميدان قرب وزارة الدفاع العراقية، وهو من بقايا أسلحة السلطان مراد العثماني التي استخدمها في حربه مع الفرس لإخراجهم من بغداد.

وللعامة من أهل بغداد معتقد فاسد فيه حيث كانوا يقدمون إليه النذور، ويطلبون إطلاق ألسنة أطفالهم عنده، وهو يعرف عندهم باسم «طوب أبي خزامة»... كتبها الألوسي ليردع هؤلاء عن زيارته، وقدمها إلى المشير هداية (هدايت) باشا، أحد وزراء بغداد، وترجمت إلى اللغة التركية.

ومن الأصل نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٥/ ١٣٧٩٩ مجاميع)[٢].

٢٠ ـ «اللؤلؤ المنثور من حلي الصدور»، وهو في مراسلات والده وجده أبي الثناء، وهو بخطه في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٦٥٤) في (٢٢٥) صحيفة، وفيها أيضًا نسختان أخريان برقم (٨٨٧٥) (١٠٠ صحيفة) و(٨٧٠٢) في ١٣٤ صحيفة.

---

(١) مقدمة «شرح أبيات الجنة».

(٢) يذكر إياد القيسي حفظه الله أنه جاهز للطبع.

٢١ ـ «ما اشتمل عليه حروف المعجم من الدقائق والحقائق والحِكم»، وهو بخطه في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٥٠٧) في (١١٦) صحيفة كتبها في سنة (١٣١٩هـ).

٢٢ ـ مختصر «مسند الشهاب في الحكم والمواعظ والآداب» للقضاعي، وهو بخطه في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٦١٦) في (١٠٦) صحائف كتبها في سنة (١٣٤٠هـ)، ويذكر الأثري أنه اختصره مع المؤلف، وأشار إلى نسخة منه بخطه أي الأثري في خزانة الألوسي.

٢٣ ـ «المسفر عن الميسر» وهو من الرسائل النادرة؛ حيث لم يؤثر عن تراثنا الخالد ـ على سعته ـ أنه احتفظ برسائل أو آثار في مادتها باستثناء رسالة النجيرمي (نشرها الأستاذ محب الدين الخطيب المتوفى سنة ١٩٦٩م)، وهذه الحيثية ذكرها محقق «المسك الأذفر».

وتوجد نسخة بخطه في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٥٠٥/ ١) في (٤٢) صحيفة كتبها في سنة (١٣١٩هـ)، ومنها نسخة أخرى في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٢٤٢٥٨) في (٢٣) ورقة كتبها إبراهيم ثابت الألوسي سنة (١٣٤٤هـ).

٢٤ ـ «منتهى العرفان والنقل المحض في ربط بعض الآيات ببعض»، مسودته كتبها في سنة (١٣٤١هـ)، ولم يتمها، توجد نسخة منها في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٨١٤).

٢٥ ـ «رسالة في كلمات التسبيح» منها نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٩/ ٢٤٣٠٩ مجاميع) كتبها إبراهيم محمد ثابت الألوسي، وتقع في ست ورقات. . . ولم يذكرها أحد ممن ترجم له.

٢٦ ـ «زبد البيان (بنان البيان)» رسالة صغيرة في علم البيان اختصر بها رسالة «بيان البيان» لأبي بكر الميرستمي التي نشرها عبد المجيد الملا في سنة (١٩٤٢م) ببغداد، منها نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد كتبها إبراهيم محمد ثابت الألوسي سنة (١٣٢٧هـ) برقم (٥/ ٢٤٣٠٩ مجاميع) في ثلاث ورقات.

٢٧ ـ «رسالة في الرد على رسالة إيليا، مطران نصيبين» منها نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٢٤٣١٧) كتبها عبد الرزاق بن ملا محمد الحاج فليح سنة (١٣٤٥هـ) في (٣٦). . . وأخرى في المكتبة القادرية ببغداد برقم (٦٤٣)، كتبها الناسخ المذكور أيضًا في سنة (١٣٤٤هـ) في (١٤) ورقة.

فرغ منها المؤلف في سنة (١٣٢١هـ)، وأصل رسالة إيليا، نشر في مجلة «المشرق» البيروتية (س ٦ع/٣، ١٩٠٣م ص: ١١١ ـ ١١٦) بعنوان: «رسالة في وحدانية الخالق وتثليث أقانيمه» عن نسخة كتبت سنة (٤٢٠هـ).

فرغ منها المؤلف في سنة (١٣٢١هـ).

٢٨ ـ «نشر المحاسن» ذكره خير الدين الزركلي في «الأعلام» (٧/ ١٧٣) وقال: إن نسخة منه مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (٨٢٩)، تاريخ مفقود.

٢٩ ـ «تصريف الأفعال» قال الأثري: فُقد في جملة ما فُقد من مؤلفاته، وكتبه أثناء نفيه.

٣٠ ـ «لعب العرب» رسالة لطيفة اقتطفها من «لسان العرب» لابن منظور في أثناء مطالعته له عام (١٣٢٦ هـ).

٣١ ـ «المفروض من علم العروض» في (٧٨) صحيفة، استخرجه من «لسان العرب».

٣٢ ـ «نقد مقامات اليازجي ناصيف «مجمع البحرين». . . وسمَّاه: «القول الظريف في تزييف دعوى ناصيف».

قال الجبوري: فقدت أصوله، وعند الأثري أوراق من أوائله. وقال: بيَّن فيه سرقات اليازجي وركاكة أسلوبه الذي يفوقه كثير من النصارى على أسلوب الحريري.

٣٣ ـ «شرح خطبة المطول» في البلاغة، قال الأثري: لم أره.

٣٤ ـ «ترجمة رسالة للقوشجي في الهيئة» مفقود، وهي رسالة وضعها باللُّغة الفارسية علي بن محمد القوشجي السمرقندي، من كبار علماء الإسلام في ذلك الوقت في علم الهيئة.

٣٥ ـ شرح «الرسالة السعدية في استخراج العبارات القياسية» رسالة صغيرة كتبها في سنة (١٣٠٠هـ) مفقود).

المطبوعات:

١ ـ «نيل المراد في أخبار بغداد»:

وهذا الكتاب من أجلّ مؤلفات الألوسي بعد كتابه «بلوغ الأرب» وضعه في تاريخ بغداد وما جاورها من القرى والبلاد، حيث أرّخ لطائفة من البلدان العراقية، والتي أسماها قرى في عهده، والبلاد التي كانت تتبع بغداد إداريًّا أو جوارًا. . قال الجبوري: ونيل المراد: يعد معلمة لبغداد المعاصرة حيث درس فيها الألوسي تاريخها، وما آلت إليه من عمران، ثم من خراب، وعرّف بجسورها وقصورها وأنهارها وعشائرها وبيوتاتها ورجالها من العلماء والأدباء والشعراء، ولم ينس دراسة تاريخ مساجدها وجوامعها ودور العلم ومعاهده فيها، وجعله في ثلاثة أقسام مستقلة، هي:

أخبار بغداد وما جاورها من البلاد:

هكذا اسمه[١]، وفي بعض النسخ منه: أخبار بغداد وما جاورها من القرى والبلاد. وهو مخطوط لم ينشر كاملًا بعد، ومنه نسخ في المكتبات التالية:

١ ـ في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، وهي بخط المؤلف.

٢ ـ مكتبة الآثار العامة ببغداد «مكتبة المتحف العراقي».

٣ ـ في المكتبة القادرية ببغداد.

✍ ما طبع من نيل المراد:

١ ـ نشرت مقدمة كتاب «أخبار بغداد وما جاورها من البلاد»، في مجلة «سبل الرشاد» البغدادية في العدد الأول الجزء الأول المجلد الأول في الصحيفة ١٠ ـ ١٤ الصادر في شهر جمادى الثانية ١٣٣٠هـ مع قصيدة للشاعر معروف الرصافي (ت ١٩٤٥م) يقرظ فيها الكتاب.

٢ ـ نشر الأستاذ الدكتور صباح محمود القسم الخاص بمدينة الحلة، وذلك في مجلة «المورد» المجلد ٤، العدد الأول، ١٩٧٥م الصحيفة ١٠٧ ـ ١٢٤ في بغداد.

٢ ـ «تاريخ مساجد بغداد وآثارها»:

نشر في بغداد مهذّبًا بعنوان: «تهذيب تاريخ مساجد بغداد وآثارها» هذّبه ونشره محمد بهجة الأثري ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م، وطبع بمطبعة دار السلام، وأضاف إليه صحائف ضمَّنها أسماء المساجد والجوامع في بغداد، وأطلق

---

(١) ذكر الزركلي (الأعلام ٧/ ١٧٣ ط/ بيروت) أن أخبار بغداد في أربعة مجلدات، وهو خطأ. . . نبه على ذلك الجبوري في مقدمة كتابه «المسك الأذفر».

عليها اسم «الفوائت» وأصبح الكتاب «المهذب والفوائت» في مئة وستين صحيفة، وطبع بنفقة وزير الأوقاف الأسبق أمين عالي العباسي (باشا أعيان).

قال الجبوري: والطبعة المهذّبة منه جاءت ناقصة مشوّهة، وحري بالأصل أن يرى النور كاملًا. ومقابلة الأصل بالتهذيب تقف شاهد صدق لما أذهب إليه.

٣ - «المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر»:

وهو القسم الثاني من «نيل المراد» وهو مطبوع بتحقيق عبد الله الجبوري عن دار العلوم للطباعة والنشر سنة (١٤٠٢هـ).

٤ - «بلوغ الأرب في أحوال العرب»:

وهو من أجل آثاره وأنفع المظان العربية التي درست أخبار العرب في الجاهلية، طبع لأول مرة في بغداد (١٣٤١هـ) بتصحيح الأثري، وطبع للمرة الثالثة في القاهرة ثلاثة أجزاء في مجلد كبير في حدود سنة (١٩٥٩م).

وترجمه إلى اللغة التركية الشاعران: أحمد عزة الفاروقي، ومنه نسخة مخطوطة (مصورة) في المجمع العلمي العراقي ببغداد، والشاعر: عبد الحميد الشاوي المتوفى سنة (١٣١٦هـ) وسمى ترجمته: «منتهى الطلب»... ورأى الأثري مقدمته منشورة في «جريدة الزوراء» البغدادية.

قال الجبوري: وهذا الكتاب يعد درة لامعة في تاج الآثار العربية المعاصرة التي تناولت أحوال العرب مفصلة في الجاهلية، ويعد - بحق - معلمة في بابه.. وضعه الألوسي بتكليف من «لجنة اللغات الشرقية» التي عقدت في عاصمة السويد، وبدعوة ملكها: «أسكار الثاني» جد ملكها الحالي: «الملك جوستاف».

وقد انتزع جائزتها من بين طائفة من الآثار التي وضعت في دراسة مادته.. وفاز بالوسام الذهبي، وهذا الوسام لا يناله إلا عالم فاضل، وقد خصص به ـ الألوسي ـ دون سواه على كثرة الآمل.. كما ذكر قنصل السويد والنروج العام «الكونت كرلودي لندبرج» في رسالته إلى الألوسي...

قال إياد القيسي في مقدمة تحقيق «لشرح أبيات الجنة» ص (١٠): كان عمره يومئذ (٣٠ سنة) وكان الألوسي لا يحتفظ بنيشان الذهب، والذي كان معلَّمًا بالصليب، ويهمله ويسأله عن ذلك تلامذته، فيقول: إنه نجس به صليب. اهـ.

٥ ـ «تاريخ نجد»:

نشره الأثري في القاهرة سنة (١٣٤٣هـ) المطبعة السلفية بنفقة المكتبة العربية ببغداد لصاحبها السيد نعمان الأعظمي رحمه الله في (١٤) صحيفة، ثم أعيد طبعه في القاهرة أيضًا سنة (١٣٤٧هـ)، وفي آخره تعقُّبات واستدراك الشيخ سليمان بن سحمان النجدي رحمه الله المتوفى سنة (١٣٤٩هـ).

والكتاب دراسة تاريخية لبلاد نجد أتى فيه الألوسي على تاريخها وأحوالها وطبيعتها وسكانها وعاداتهم وعادات أهلها وعرّف بقبائلها، وختمه بترجمة جيدة لأمرائها، وذكر نسبهم ومكاتباتهم، وختمه بترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

٦ ـ «رسالة السواك»:

رسالة صغيرة وضعها في السواك وما قيل فيه من آثار، نشرها الأثري في مجلة «الحرية البغدادية» (ج١ س ١، ص ٦٧) كما في مجلة «لغة العرب» (ج١٠، س ٥، ص ٦٢١) في عرض نقدي لعمل الناشر الأثري بمحمود الملاح.

٧ - «الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر»:

نشره الأثري في القاهرة سنة (١٣٤٠هـ)، وأعيد نشره مصورًا في بيروت (١٩٧٣م) وهو من أجلِّ الكتب التي عالجت الضرائر الشعرية.

٨ - «فصل الخطاب في شرح مسائل ابن عبد الوهاب»:

والأصل كتاب للشيخ محمد بن عبد الوهاب عالج فيه المسائل الجاهلية التي نقضها الإسلام، وأحصى منها فيه (١٢٩) مسألة.. وطبع في القاهرة (١٣٤٧هـ و١٣٧٦هـ) ثم صدرت طبعته الرابعة (١٣٩٨هـ) ثم طبع عدة طبعات أجودها التي بتحقيق الدكتور يوسف السعيد.

٩ - «شرح أرجوزة تأكيد الألوان»:

والأرجوزة للشيخ علي بن العز الحنفي المعروف بالشارح الجارح[1].

ونشر هذا الشرح في مجلة «المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الأول، ص (٧٦) (١٩٢١م)، وهو شرح مفيد في بابه تعقب فيه الألوسي حقيقة اللون، وما ورد فيها من كتب اللغة والأدب.

١٠ - «فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان»:

وهو نقد لكتاب «صلح الإخوان» الذي ألفه داود بن سليمان العاني البغدادي المتوفى سنة (١٢٩٩هـ). **وهو كتابنا هذا.**

فرد عليه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بكتاب أسماه «منهاج التأسيس في الرد على داود بن جرجيس»، ولم يتمه حيث وافته المنية، فأكمله الألوسي بكتابه «فتح المنان».

وطبع الكتاب في الهند (١٣٠٩هـ) بنفقة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني رَحِمَهُ اللهُ «مؤسس دولة آل ثاني في قطر المتوفى سنة (١٣٣١هـ)».

---

(١) مقدمة «المسك الأذفر».

١١ ـ «عقوبات العرب في جاهليتها»:

رسالة صغيرة نشرها الأثري في العدد الممتاز من «جريدة العراق» البغدادية العام الخامس.

١٢ ـ «غاية الأماني في الرد على النبهاني»:

وهو رد على كتاب «شواهد الحق في الاستغاثة بسيّد الخلق ﷺ الذي ألفه يوسف بن إسماعيل النبهاني المتوفى سنة (١٣٥٠هـ).

وطبع غاية الأماني في القاهرة (١٣٢٧هـ)، مطبعة كردستان العلمية في مجلدين كبيرين بنفقة الشيخ عبد القادر التلمساني رحمه الله، ثم طبع في القاهرة (١٣٩٢هـ)، بنفقة الشيخ محمد الجميح، وجاء اسم مؤلفه «أبو المعالي السلامي»، ثم طبع في الرياض في مطابع نجد، وأعيد طبعه، ثم طبع باعتناء الداني بن منير آل زهوي عن دار الرشد بالرياض.

١٣ ـ «المنحة الإلٰهية تلخيص ترجمة التحفة الاثني عشرية»:

ويعرف بـ«مختصر التحفة الاثني عشرية»، والأصل «التحفة» للشيخ عبد العزيز الفاروقي الدهلوي ابن شاه ولي الله أحمد وضعه باللُّغة الفارسية، وترجمه إلى العربية الشيخ غلام محمد أسلمي الهندي سنة (١٢٢٧ هـ)، فاختصر الترجمة الألوسي، وطبع في الهند (١٣١٥هـ) (على الحجر)، وفي القاهرة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م) المطبعة السلفية بعناية السيد محب الدين الخطيب رحمه الله، وكان الألوسي قد قدمه إلى السلطان عبد الحميد، وذلك في سنة (١٣٠١هـ).

١٤ ـ ما دلّ عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة «في الفلك»:

طبع[١] في دمشق (١٩٦٠م) نشره المكتب الإسلامي.

---

(١) ذكره الزركلي (الأعلام ٧/ ١٧٣) فقال: هو مخطوط.

١٥ - «الأسرار الإلٰهية شرح القصيدة الرفاعية»:

والقصيدة للشيخ أبي الهدى الصيّادي الرفاعي المتوفى سنة (١٣٢٧م)، وهي في مدح السيد أحمد الرفاعي المتوفى سنة (٥٧٨هـ) شرحها الألوسي وقدمها إلى السلطان عبد الحميد، وأجازه في التدريس بمدرسة «جامع السيد سلطان علي ببغداد»، طبع في القاهرة (١٣٠٥هـ) المطبعة الخيرية، وكتابه هذا ألف قبل انتقاله إلى الطور السلفي، كما سبق وتكلمنا عن أطوار تحول الألوسي رحمه الله من الصوفية إلى العقيدة السلفية.

١٦ - «المستنصريات»:

مجموعة قصائد للشاعر المعتزلي ابن أبي الحديد المتوفى سنة (٦٥٥هـ)، وصاحب «شرح نهج البلاغة»، وهي في مدح الخليفة العباسي المستنصر بالله نشرها في مجلة «اليقين» البغدادية التي كان يصدرها الشاعر محمد الهاشمي (ت ١٩٧٣م) السنة الأولى (١٩٢٣م)، ثم جردت مستقلة في عشرين صفحة، مطبعة دار السلام (١٩٢٣م).

١٧ - «الميسر عند العرب»:

ملخص عن «بلوغ الأرب» نشره الألوسي في مجلة «الهلال» المصرية كانون الثاني (١٨٩٩م)، ولعله هو ذات «المسفر عن الميسر».

١٨ - «بلدان نجد في أول هذا القرن»:

رسالة صغيرة نشرت في مجلة «العرب»، (ج٣ - ج٤) السنة العاشرة (١٣٩٥هـ).

١٩ - «صبُّ العذاب على من سبَّ الأصحاب»:

كتاب في الردّ على الشيعة نقض فيه أرجوزة لمحمد الطباطبائي المتستر

باسم «أحمد الفاطمي» التي رد بها على كتاب «الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية» لجده أبي الثناء المفسر، والكتاب مطبوع بتحقيق عبد الله البخاري عن دار أضواء السلف الرياض سنة (١٤١٧هـ).

٢٠ ـ «إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد»:

تحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري ط سنة (١٤٠٢هـ) بمطبعة الإرشاد بغداد.

٢١ ـ «مزايا لغة العرب»:

بحث نشره في مجلّة «المشرق»، بيروت (م/ ١ ص ١٠٢٤).

٢٢ ـ «رد الألوسي على حصون العاملي الرافضي»:

نشر في مجلة «المنار».

٢٣ ـ عقد الدرر في شرح مختصر نخبة الفكر»:

وقد طبع كرسالة علميّة، بتحقيق إسلام بن محمود دربالة في دار الرشد.

٢٤ ـ «كنز السعادة في شرح كلمتي الشهادة»:

طبع بتحقيق الدكتور علي فريد دحروج، في بيروت دار الكتاب العربي[١].

٢٥ ـ «شرح أبيات الجنة من نونية ابن قيم الجوزية»:

حققه إياد بن عبد اللّطيف القيسي، دار ابن حزم.

---

(١) عن مقدمة «شرح أبيات الجنة» تحقيق إياد القيسي.

٢٦ ـ «الآية الكبرى على ضلالة النبهاني في رائيته الصغرى»:

بتحقيقي. دار المعراج[1].

٢٧ ـ «إزالة الظما بما ورد في الماء»:

رسالة لطيفة في المياه كتبها إجابة لطلب صديق له، أصيب بمرض جعله يتلذذ بذكر الماء ورؤيته، فذكر فيها ما ورد في ذكر الماء، وذكر الأنهار المشهورة والمياه، كماء زمزم، ودجلة، والفرات، والنيل، كتبها سنة (١٣٠٢هـ).

يقول عبد الله الجبوري: منها نسخة بخطي كتبتها سنة (١٣٨٤هـ)، وقد طبعتها الأكاديمية المغربية[2]، وهي في (٢٦) ورقة.

٢٨ ـ «سعادة الدارين في شرح حديث الثقلين»:

رسالة وضعها: عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي (١٢٤٠هـ) بالفارسية، عرَّبها الألوسي، وأضاف إليها فوائد لطيفة منها نسخة بخطه في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٨٧٢) في (٢٦) ورقة كتبها سنة (١٣٣٦هـ) وهي رسالة في الردّ على الشيعة.

نشرت في مجلَّة الحكمة الصادرة في لندن ع (٢٠) س (١٤٢٠هـ).

٢٩ ـ «النحت وبيان حقيقته، ونبذة من قواعده»:

رسالة صغيرة في «النحت»... ونسختها في مكتبة الآثار العامة برقم (٨٥٦٦/ ٢) كتبها في سنة (١٣١٦هـ) في (١٣) صحيفة، طبع بتحقيق الأثري، ونشر في مجلة «المجمع العراقي» (٣٩/ ٣) ص (٥ ـ ٦٣).

وغير ذلك من الكتب والآثار التي تركها الألوسي رحمه الله.

---

(١) وسيعاد طبعه إن شاء الله.

(٢) مقدمة «شرح أبيات الجنة» ص (١٤).

ولعلَّ الله ييسِّر لها من الباحثين من يعيد طباعة ما طبع قديمًا وتحقيق الموجود من مخطوطاته والبحث عمَّا فُقد في المكتبات ومكتبة طلابه وخاصة محمد بهجت الأثري، وجمع ما تشتت من مقالات وغيرها للألوسي في بطون المجلات والجرائد.

مرضه ووفاته رحمه الله[1]:

أصيب الإمام سنة (١٣٣٧هـ) بحصوةٍ في المثانة، فلم يُلق له بالًا ظنًّا منه أنه شيء عارض لا يلبث أن يزول، فكان الأمر كما توقع، ولكن أثره بقي كامنًا فيه، والرمل يتراكم شيئًا فشيئًا حتى سدَّ المجرى، فعاوده المرض بأشد مما كان عليه أولًا؛ عند ذلك راجع الأطباء عساهم أن يكونوا سببًا في تخفيف الأمر، لكنهم لم يفيدوه شيئًا.

فاحتمل الداء بصبر جميل، وكان يذهب عنه الألم ثم يعود إلى أن كانت أواخر سنة (١٣٤١هـ)، فهجم عليه على حين غفلة، فانقطع عن التدريس أيَّامًا كان لا يقدر فيها على شيء، وأشار عليه الأطباء بالراحة الكاملة، فلا يشتغل بالعلم ولا بغيره حتى لا يتعب ذهنه، فلم يلتفت إليهم[2]، فاستحوذت عليه الحمى، وضعف قلبه، ونحل بدنه حتى لم يعد يقوى على تحمُّل المرض، وفي العشر الأواخر من رمضان سنة (١٣٤٢هـ) أصيب (بذات الرئة) فشعر بالموت، وأخبر أنه ربما يرحل عنهم بعد أيام، وطلب إليهم أن يكرموا نزله، ولا يؤذوه بالأطباء وعقاقيرهم، وبقي المرض

---

(١) أعلام العراق (١٠٧) و(١٩٧).
وانظر: مقدمة «صب العذاب» (١٦٩)، ومقدمة عدنان الدوري في تحقيقه «إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد» (ص ٢٨).

(٢) أعلام العراق (١٩٧) في تقريظ لويس ماسنيون لكتاب «الضرائر».

يزداد يومًا فيومًا إلى أن توفاه الله عند أذان الظهر في اليوم الرابع من شوال، وكتب العلم محيطة به من كل جانب! رحم الله الإمام الألوسي رحمة واسعة. ولم يعقب ذرية لكنه ترك لنا مؤلفات جمَّة، لعل الهمم تتجه إلى إخراجها وإفادة المسلمين بها.

ولعلي أشير إشارة سريعة إلى بعض أسرة الألوسي، وإن كنت قد أشرت إليهم في تضاعيف هذه الترجمة.

أبوه: عبد الله بهاء الدين الألوسي، وهو بكر أولاد أبي الثناء، عالم في علوم الشريعة، لكنه ـ مع الأسف ـ كان غارقًا في التصوف يحب أهل الطرق المبتدعة وكان «نقشبنديًا»[(١)]. له مصنفات قليلة في التصوف والنحو والمنطق والبيان[(٢)].

توفي رحمه الله في الثالث من شعبان سنة (١٢٩١هـ)[(٣)].

وأما جدّه: أبو الثناء شهاب الدين السيد أفندي الشهير بالألوسي ابن العلامة السيد عبد الله أفندي.

قال حفيده أبو المعالي: «فهو سلالة الطيبين الطاهرين حتى ينتهي نسبه الشريف إلى سيد العالمين...»[(٤)].

---

(١) «أعلام العراق» (٤٥)، والنقشبندية: طريقة صوفية تنسب إلى مؤسسها محمد ابن محمد بهاء الدين البخاري شاه نقشبند (ت ٧٩١هـ) انظر: الموسوعة العربية الميسرة ص (١٨٤٤).

(٢) «أعلام العراق» (٤٧).

(٣) «أعلام العراق» (٩١)، و«محمود شكري وآراؤه اللُّغوية» (٥٢)، و«شخصيات عراقية» (١/ ٧)، و«معجم المؤلفين» (٣/ ٨١٠).

(٤) «المسك الأذفر» (٦٥ ـ ٦٦)، وانظر: الموسوعة العربية الميسّرة.

وله مصنفات نافعة أعظمها وأشهرها تفسيره للقرآن الكريم المسمى «روح المعاني»[(١)].

وله مؤلفات في اللغة والأدب والنحو، وله في الرد على الروافض رسائل، توفي رحمه الله سنة (١٢٧٠هـ)، ودفن في مقبرة معروف الكرخي[(٢)].

وهو سلفيٌّ في الجملة[(٣)].

عمّه: أبو البركات نعمان خير الدين الألوسي، قال الأثري: هو ثالث أنجال أبي الثناء، وثاني اثنين بنيا مجد الأسرة الألوسية، وأعلم أهل عصره في مصره.. [(٤)] ووصفه الأثري بابن جوزي زمانه في الوعظ، تصدر للتدريس في المدرسة (المرجانية) ببغداد.

له مصنفات كثيرة من أعظمها نفعًا كتاب: «جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين» توفي رحمه الله يوم الأربعاء السابع من محرم سنة (١٣١٧هـ)[(٥)].

وقد تقدَّم أنَّ أبا المعالي تأثَّر بخزانة كتب عمه أبي البركات، في تحوُّله من الصوفيَّة إلى السلفيَّة.

ثناء الفضلاء على أبي المعالي الألوسي:

أثنى عليه غير واحد من أهل الفضل في وقته.

---

(١) مطبوع متداول، والكتاب: «فيه نفس صوفي» هذا الكلام أفاده بعض أهل العلم.

(٢) «أعلام العراق» (٣٠)، وانظر: «المسك الأذفر» (٥)، «محمود شكري» (٣١)، وانظر: الموسوعة العربية الميسّرة.

(٣) انظر: «جهود أبي الثناء الألوسي في الرد على الرافضة» للدكتور عبد الله البخاري ص (٨٨).

(٤) «محمود شكري وآراؤه اللغوية» (٤٠)، وكتابه «جلاء العينين...» دافع فيه عن شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٥) «المسك الأذفر» (١/ ٥١) و«محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية» (٤٠).

فقد قال عنه محمد كرد علي: الألوسي نسخةٌ حلوة، من قدماء العلماء... أحيا سنَّة أجداده في العلم والانقطاع إليه، والشغف به، ولم يتّخذه سُلّمًا إلى الدنيا[1].

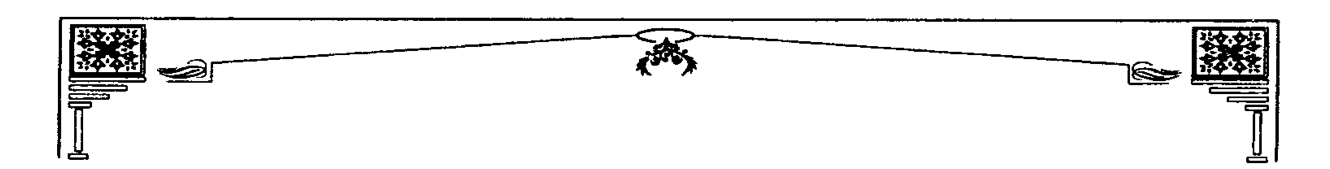
وقال الشيخ محمد رشيد رضا منشئ مجلّة «المنار»: عالم العراق، ورحلة أهل الآفاق، ناصر السنة، قاطع البدعة، محيي هدي السلف، حافظ فنون الخلف، علامة المنقول... ولم نسمع لعلوم العربية والتربية على مذهب أهل السنة صوتًا إلّا من هذا الرجل، لهذا لقَّبناه في مكتوباتنا له بعالم العراق[2].

وتقدَّم كلام تلميذه محمد بهجة الأثري وثناؤه عليه، وكذلك ضمَّ كتاب الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي، جمع وتحقيق محمد ناصر العجمي جميل كلمات الثناء، وسروره بكتابات الألوسي. وغير هؤلاء ممن أثنى على عذا العَلَم وعلى كتبه وآثاره، رحمه الله رحمة واسعة.

✽ ✽ ✽

(١) «المعاصرون» له ص (٤٣٢) عن الرسائل المتبادلة.

(٢) مجلة «المنار» (٢٥/ ٣٧٤).



تنبيهات

قبل الشروع في الكتاب، هذه التنبيهات في قَبول العبادات لا بد منها، وفيها أيضًا أنَّه ما من أمر يرد إلَّا ولا بد أن يكون إمّا مقبولًا أو مردودًا، فإن كان مقبولًا فذاك، وإن كان لا، فلا يخلو حاله إمَّا أن يكون مخالفًا، وإما أن يكون بدعة، فإن كان بدعة، فهذه التنبيهات تفيد في الرد على البدعة وأهلها المتنقِّصين لأهل السنة المخالفين لهم، وهذه بعضها:

أولًا: إنّه لا يمكن أن يُعبد الله عزّ وجلّ إلَّا من طريق واحد، ألا وهو الكتاب والسّنة الصّحيحة، فما ورد في كتاب الله أو سنة رسوله، فإنّه لا يشرع أن يعبد الله عز وجل بغير الكتاب والسنة، لا بهوًى ولا بغيره، فإنَّ الله عز وجل أتمَّ النّعمة وأكمل الدِّين ورضيه لنا، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين! إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: وأيُّ آية؟! قال: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال عمر: والله إنّي لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة[١].

وروى الحاكم[٢] عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من عمل**

(١) متفق عليه أخرجه البخاري برقم (٤٥)، ومسلم برقم (٧٤٦٧).

(٢) في «المستدرك» (٢/ ٤ ـ ط العلمية).

يقرِّب إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار إلا قد نهيتكم عنه»... الحديث.

بل إنا مأمورون عند التنازع والاختلاف، بالرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات التي تأمر بالرجوع إلى الكتاب وصحيح السنّة.

ثانيًا: إذا تُفِقَ على الأمر بالأخذ بالكتاب والسنة، وعند الاختلاف والتنازع بالرد إليهما، فإنه لا بدَّ من فهم هذين بفهم السلَّف الصالح، والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة، فمنها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

قال ابن كثير في تفسيره عند قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: عن أبي العالية: هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو النبي ﷺ ومن معه.

وقال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين»: فكل من كان أعرف للحق وأتبع له، كان أولى بالصِّراط المستقيم، ولا ريب أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، هم أولى بهذه الصفة من الروافض، ولهذا فسَّر السلف الصراط المستقيم وأهله، بأبي بكر وعمر وأصحاب رسول الله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال الطَّبري: ومن يباين الرسول محمدًا ﷺ معاديًا له فيفارقه على العداوة له، من بعد ما تبيَّن له الهدى، يعني من بعد ما تبيَّن له أنه رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويتبع غير

سبيل المؤمنين، يقول: ويتبع طريقًا غير طريق أهل التصديق، ويسلك منهاجًا غير منهاجهم. . . إلخ اهـ[١].

قلت: ولا شك أن أول المؤمنين هم أصحاب الرسول ﷺ، فقد كانوا معه، وشهدوا مواقع التنزيل، وعرفوا أسباب الأحكام؛ بل فسّروها لمن بعدهم من التابعين، فعموم النصوص لا بد من اعتبار فهم الصحابة لها.

قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون على الحق**»[٢].

وقال ﷺ: «**لا تجتمع أمتي على ضلالة**»[٣].

وأيضًا قال عليه الصلاة والسلام في التنبيه على فهم السلف الصالح ما أخرجه مسلم في عن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»[٤].

قال ابن القيم رحمه الله: وجه الاستدلال بالحديث أنه جعل نسبة أصحابه إلى من بعدهم كنسبته إلى أصحابه، وكنسبة النجوم إلى السماء، ومن المعلوم أنَّ هذا التشبيه يعطي من وجوب اهتداء الأمة بهم، ما هو نظير اهتدائهم بنبيهم ﷺ، ونظير اهتداء أهل الأرض بالنجوم، وأيضًا فإنه جعل بقاءهم بين الأمة أمنة لهم، وحرزًا من الشرّ وأسبابه، فلو جاز أن يخطئوا فيما آمنوا به، ويظفر به من بعدهم لكان الظافرون بالحق أمنة الصحابة وحرزًا لهم، وهذا

---

(١) «تفسير الجامع» (٩/ ٢٠٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٧٣١١) من حديث شعبة.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» عن أبي مالك الأشعري، كما في «الدر المنثور»، وضعَّفه النووي في شرحه على مسلم (١٢/ ٥٦ ـ ط دار الفكر).

(٤) في «صحيحه» (٢٥٣١).

من المحال. اهـ[١]. وفي هذا القدر كفاية، والله أعلم.

ثالثًا: إنَّ من جملة ما أمر الله به، ولم يختلف في ذلك الأنبياء، هو الاعتقاد الصَّحيح الذي هو دين الله، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر عن أبيه في قصّة مجيء جبريل وسؤاله الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال ﷺ ـ بعد ذلك ـ: «**هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم أمر دينكم**».

ولا يشترط في العقيدة أن تكون متواترة، بل تثبت العقيدة بالآحاد، فإنَّ الشريعة علَّقت أحكامًا على غلبة الظن ـ كما هو معلوم ـ في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

وكذلك لما أرسل النبي ﷺ ـ في الحديث المشهور ـ معاذًا، قال له: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فأول ما تدعوهم إليه...**»، فهذا معاذ ذهب وحده ولم يرسل معه أحد، ولم يقل المرسل إليهم إنا نحتاج إلى من يشهد لك أو يساند قولك، لم يقولوا ذلك، بل إنَّهم اطمأنوا إليه وقبلوا قوله في ذلك. وقد بيَّن العلماء ذلك في حجية خبر الآحاد.

رابعًا: أقوال العلماء يُحتجُّ لها لا يحتجُّ بها، فالحجَّة في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ كما تقدم، وروي عن النبي ﷺ كما أخرجه الطبراني عن ابن عبَّاس قال: قال النبي ﷺ: «**كلٌّ يؤخذ من قوله ويُدع إلّا رسول الله ﷺ**»[٢]

---

(١) «إعلام الموقعين» (٥/ ٥٧٥ ـ ط دار ابن الجوزي).

(٢) أخرجه الطبراني في «معجمه الكبير» (١١/ ٣٢٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٤٣٠): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله موثقون. وهذا ليس تصحيحاً من الهيثمي، كما أنَّ شيخ الطبراني وهو البزار يخطئ كثيراً في المتن والإسناد، كما ذكر ذلك ابن حجر في «اللسان» فلعلَّ هذا من خطئه، فإن حديثاً بهذا المعنى يفوت على أصحاب الدواوين ولا يذكرونه، ولو معلَّقاً أو موقوفاً على ابن عباس على =

وورد ذلك عن الإمام مالك أنه قال: ما منا إلا وراد ومردود عليه، وقال أيضًا: كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر.

وكذلك ورد عن الشَّافعي أنه قال: إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي، وقال أيضًا: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة النبي ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد كائن من كان، وكذلك ورد عن الإمام أبي حنيفة والإمام أحمد وغيرهم، ومن المعلوم أنه قد فاتت أي عالم من العلماء، وخفيت عليه سننٌ كثيرة، فهذا أبو بكر رضي الله عنه على طول ملازمته وكثرة أسفاره مع النبي ﷺ، فقد خفيت عليه سنن، وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك عند بعض العلماء شذوذ وغرابة في بعض المسائل فإنه لا يتبع في ذلك ولكن تبقى مكانته العلمية محفوظة(١).

خامسًا: إنَّ البدع تختلف في زمن دون زمن، فهناك بدع ظهرت في زمن لم تكن في الزمن الذي قبله، فلذلك إذا ظهرت بدعة، قد لا تجد ردَّها في كتب المتقدِّمين، بينما نجدها عند المتأخرين.

سادسًا: كتاب السبّكي «شفاء الأسقام»، هو الكتاب الذي اتَّكأ عليه غالب من جاء بعده، فالواجب تفويق السِّهام إلى هذا الكتاب والردِّ عليه، حتى لا تقوم لمن اقتبس منه قائمة، وقد تصدَّى له جملة من العلماء وتناولوه بالرَّدِّ، في كتبٍ كبار وأخرى صغار.

سابعًا: الغموض وعدم الوضوح في غالب الفِرق، وخاصة فرقة الصوفيَّة السّريَّة القائمة على قطع العلائق بتاريخ نشأتها وارتباطها بالتَّشيُّع، وليتهم أي الصّوفيَّة بقوا على العبادة والزّهد على انحراف كما يُعرف، ولكنَّهم

= أقلّ تقدير، ففي النفس منه شيء، والعبارة معروفة من كلام مالك رحمه الله، الذي أخذه عن شيخه ربيعة. وقد روي موقوفاً على غير ابن عباس، والله أعلم.

(١) انظر: «إعلام الموقعين».

تعدّوه إلى الأفكار والآراء العقديَّة المنحازة للفلسفة(١).

ثامنًا: الرَّد على المخالف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو من الجهاد في سبيل الله، وقد تقدَّم شيءٌ من ذلك في المقدِّمة. وعدم مجادلة أهل البدع المؤدِّي إلى المكابرة ونشر المذهب.

يقول عبَّاس عزَّاوي في «تاريخ العقيدة»: ولا شك أنَّ القرآن جعل حدودًا للجدال لا يتجاوزها إلى العناء والمماراة، إلا أنه: . . . ما اعتذارك عن قول إذا قيلا. اهـ. وقبل عبَّاس قال الأئمة ـ وكلامهم في هذا كثير ـ ومنهم الإمام أحمد بن حنبل كما في «الإبانة» (٢/ ٥٣٩): عليكم بالسّنَّة والحديث وينفعكم الله به، **وإيَّاكم والخوض والجدال والمراء**، فإنَّه لا يفلح من أحبَّ الكلام.

تاسعًا: ضبط كلمات الفقهاء، ومعرفة اصطلاحاتهم في إطلاق الأحكام، فقول بعض الأئمة هذا مكروه، لا يدل على الجواز، فبعض العلماء يطلقها يريد بها التحريم كما في عُرف الكتاب والسنة وقدماء الأمة.

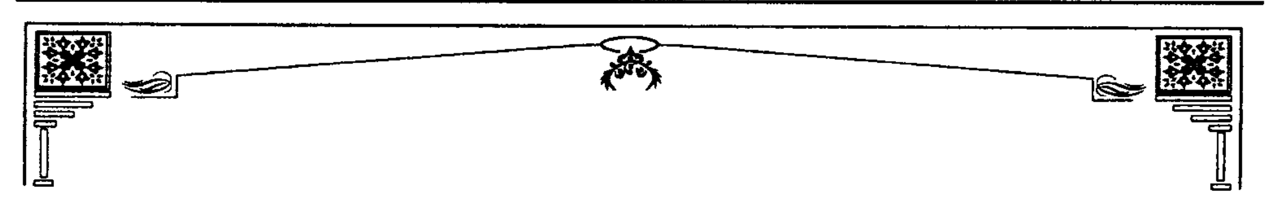
عاشرًا: عدم الاعتماد على المنامات والأحلام والاستناد إليها في أخذ الأحكام الشرعية، فبعض الفرق كالصوفيَّة وغيرهم، يأخذون دينهم من الأحلام والمنامات ويعتمدون عليها، وقد اتفق أهل العلم على أنّ الرؤيا لا تقوم بها حجة؛ بل هي مقصورة على التَّحذير والتَّبشير، والاستئناس إذا وافقت حكمًا شرعيًّا، وهذا هو المذهب الوسط بين الصوفيَّة الذين يغلون في الرؤى والأحلام وبين المعتزلة والقدريَّة في إنكارهم للأحلام(٢).

إلى غير ذلك من التنبيهات التي تفيد في هذا الباب. والله المستعان.

---

(١) انظر: «الصوفيَّة في حضرموت» للأمين السعدي، نشر دار التوحيد.

(٢) انظر: «المقدِّمات الممهِّدات السَّلفيات في تفسير الرؤى والمنامات» لمشهور حسن، وعمر إبراهيم ص (١١)، وانظر ص (٢٤٧).



عملي في هذا الكتاب

بعد أن قمت بنسخ الكتاب، ترامى إلى مسامعي أنَّ هناك نسخة بخط الألوسي، فأوقفت هذا العمل لحين الوصول إلى ذلك المأمول، خاصة وأنّي قد وجدت فروقًا، بين النسخة الهندية والنسخة المصرية التي قام بطبعها الشيخ محمد حامد الفقي، إلى جانب أهمية الاعتماد على النسخة الخطيّة، فقمت بالبحث والسؤال والتِّرحال للحصول على المخطوط، فلم أظفر بجواب يشفي ولا بعذر يغني، وما كان مني إلَّا أن استشرت أهل الفضل: في إخراجه اعتمادًا على النسخة الهندية المطبوعة في حياة مؤلفها؟ فما كان منهم جزاهم الله خيرًا إلّا أن قالوا: الرأي أن تخرجها، فلما رأيت أهمية الكتاب، وخاصة أن أُعيد تصوير طبعة محمد حامد رأيت إخراجها وعسى أن يكون في الأمر خير، وكان عملي في هذا الكتاب كالآتي:

١ ـ اعتمدت على الطبعة الهندية، وجعلتها الأصل.

٢ ـ نسختُ الكتاب مرة أخرى، وقمت بوضع علامات الترقيم.

٣ ـ قابلت المنسوخ على طبعة الشيخ حامد الفقي، مع إثبات بعض تعليقاته بقولي: قال الشيخ الفقي، أو الشيخ حامد، مع إثبات الفوارق بين الطبعتين، وجعلت الزيادة بين معقوفتين دون التنبيه إلى ذلك، أما الزيادة من غير الطبعة المصرية، فإني أشير إلى ذلك.

٤ ـ أغفلت التنبيه على الأخطاء المطبعيّة ـ وهي كثيرة ـ لعدم الحاجة إلى تطويل الكتاب.

٥ - رجعت إلى مصادر المؤلف، وعملت مقارنة لها.

٦ - رجعت إلى كتاب داود بن جرجيس «صلح الإخوان» وقارنت بالمنقول، وما زدته منه وضعته بين معقوفتين ونبّهت إلى ذلك في الحاشية.

٧ - قمت بشرح الغريب.

٨ - عزوت الفوائد لأصحابها.

٩ - عرَّفت بالكتب التي ترد قدر الإمكان.

١٠ - خرَّجت الأحاديث، وذكرت أحكام أهل العلم عليها.

١١ - وضعت عناوين توضيحية بين معقوفتين.

١٢ - ترجمت للألوسي صاحب الكتاب، ونقلتها من كتاب «الآية الكبرى» بتحقيقي اكتفاءً بما ذكرته هناك مع بعض الزيادات لعدد من المحققين في مقدمة تحقيقاتهم لكتب الألوسي.

١٣ - عملت مقدمة ثم ختمته بفهرسةٍ للفوائد.

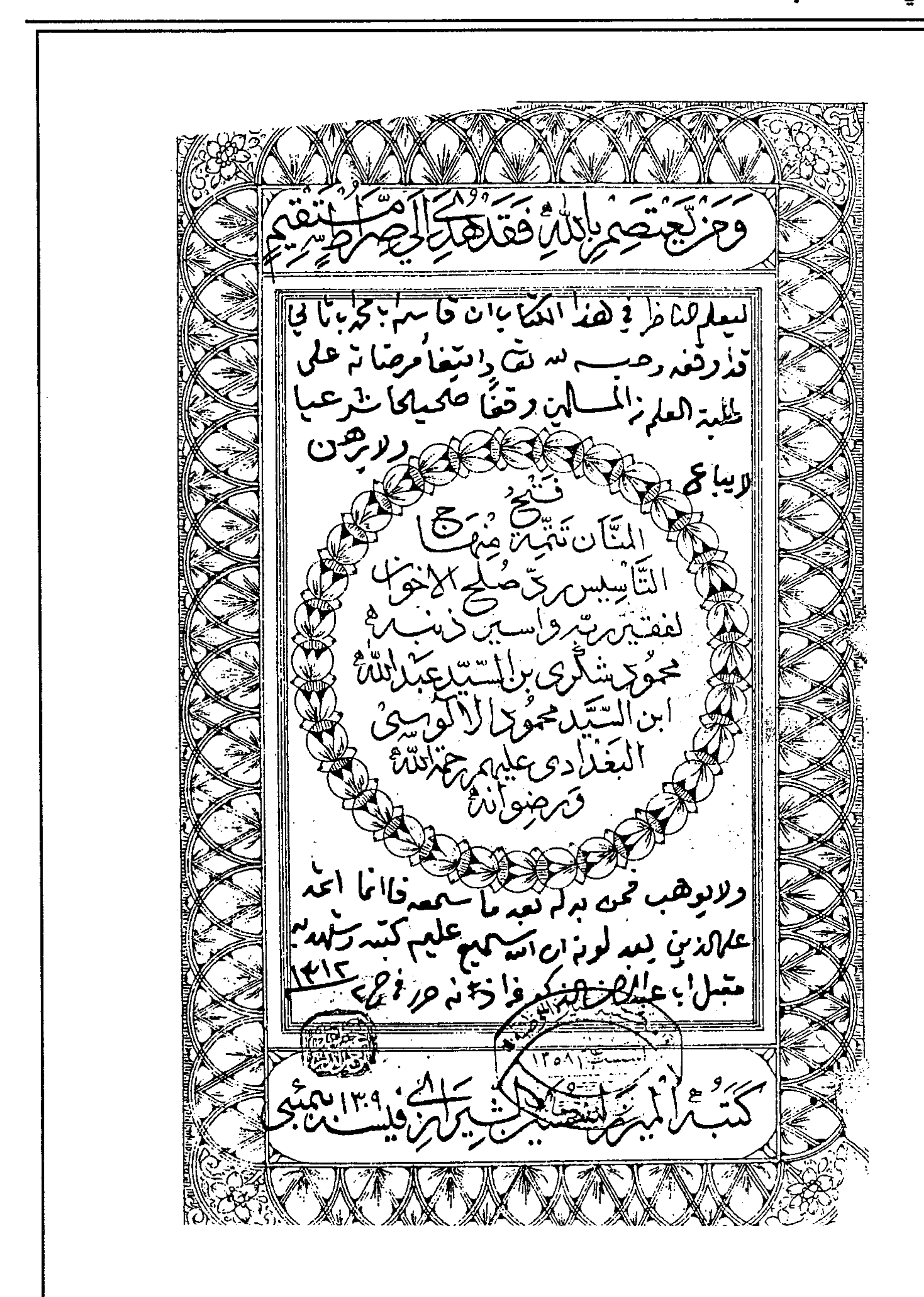
والله المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، إنّه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قاله وكتبه

عمر بن أحمد الأحمد العبّاس

داعية بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف

والدعوة والإرشاد



ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم

ليعلم الناظر في هذا الكتاب أن قاسم بن محمد باشا جي
قد وقفه وحبسه لله تعالى وابتغاء مرضاته على
طلبة العلم من المسلمين وقفاً صحيحاً شرعياً
لا يباع ولا يرهن

فتح
المنان تتمة منهاج
التأسيس رد صلح الإخوان
لفقير ربه وأسير ذنبه
محمود شكري بن السيد عبد الله
ابن السيد محمود الآلوسي
البغدادي عليهم رحمة الله
ورضوانه

ولا يوهب فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه
على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم كتبه وشهد به
[illegible] ١٣١٢

كتبه [illegible] شيرازي [illegible] ١٣٠٩ بمبئي

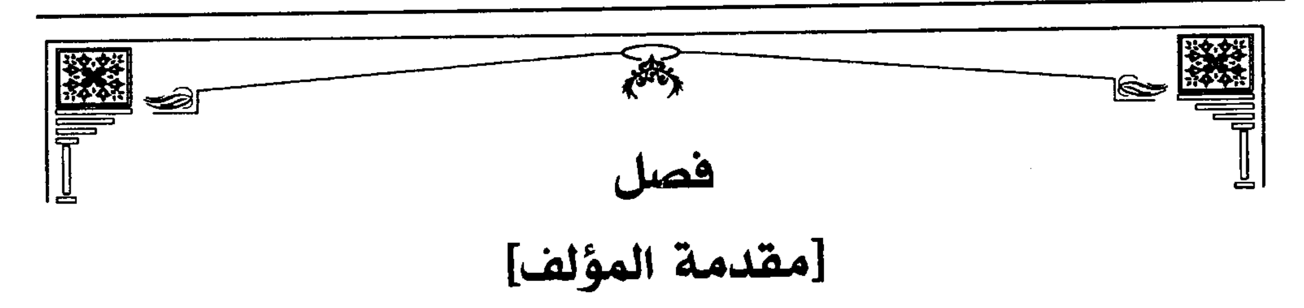
لمسم المداد والعيان اجلى شاهد واقوى دليل ولا يكاد ينازع نيرالا اعمى البصر والبصيرة
وصاحب النظر الكليل وحسبنا الله ونعم الوكيل وهذا آخر ما من الله تعالى به
من الكلام الذي هو في قلوب أعداء الله كالسهام فالحمد لله على نعمه التي لا تحصى و
الآلائه التي لا تستقصى والصلوة والسلام على الحبيب الاعظم والشفيع لعصاة
امته حيث لا ينفع الندم وعلى اله واصحابه وجنده واحزابه هذا ونسئله سبحانه
ان يثبتنا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الاخرة وان يلهمنا رشدنا
ويثبتنا على نهج الاستقامة ويحفظنا من موجبات الندامة
ويسبل علينا ثياب لطفه الساترة ربنا لا تزغ قلوبنا
بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك
انت الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد
واله وصحبه خير ال وخير اصحاب وكان ذلك عصر يوم
الاثنين غرة ذي الحجة الحرام من شهور سنة ١٣٠٦
السادسة بعد الثلاثمائة والالف
من هجرة مصباح الظلام
عليه افضل واكمل
السلام
م

وكان طبع الكتاب على ذمة محيي رفات المكارم المكرم الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني في شهر
شوال سنة ١٣٠٩ من الهجرة النبوية على مهاجرها افضل الصلاة واكمل التحية



النَّصُّ المحَقَّقُ





فصل
[مقدمة المؤلف]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لا مستعان إلا به ولا ملتجأ إلا إليه، ولا يندب في الملمّات غيره ولا يتوكّل في جميع الأمور إلّا عليه، والصّلاة والسّلام على سيِّدنا محمد المبعوث بإخلاص العبادة والعبودية لله، الذي نقض أساس الشِّرك وأبطل شبهه ودعواه، وعلى آله وأصحابه الذين فرّقوا جموع الضّلال، ومزّقوا أديم الكفر بما أطلقوا من سهام الأسنة والألسنّة والنِّبال.

أمّا بعد: فإنَّ كتاب «صلح الإخوان»[1] الذي ألّفه العراقي العاني: داود

---

(١) عنوانه كاملًا: «صلح الإخوان من أهل الإيمان وبيان الدين القيِّم في تبرئة ابن تيمية وابن القيِّم» طبع في الهند سنة (١٣٠٦هـ) في (١٥٢) صفحة، ورتَّبه على مقدمة وبابين وخاتمة المقدِّمة في التحذير من تكفير المسلمين، وأنّه يوقع في الكفر، وأن ذلك من شأن الخوارج والرافضة. وسيأتي في كلام الألوسي رحمه الله من المقصود بذلك والرد عليه في ذلك.

وأمّا الباب الأول: ففي نقل عبارات شيخ الإسلام ابن تيميّة، وتلميذه ابن القيم في تبرئتهما من تكفير أو تشريك أحد من المسلمين، أو تأثيمه بفعل شيء من نداء أهل القبور والاستغاثة بهم! والنذر لهم أو لغيرهم! والحلف بغير الله تعالى وما أشبه ذلك. (كما زعم) وسيأتي الرد عليه.

الباب الثاني: في نقل أدلة المجوّزين لذلك من غير ابن تيميّة وابن القيّم من جمهور علماء المذاهب الأربعة، على أنّ هذه ليست من الشرك، وسرد الأدلة من =

ابن سليمان[١] لمَّا كان مشتملًا على ما يصادم الشَّريعة الغرَّاء، ويناقض حجج المحجَّة البيضاء من الدُّعاء إلى عبادة غير الله، وجواز الالتجاء إلى ما سواه، منطويًا على شُبَهٍ هي أوهن من بيت العنكبوت، ولعمري[٢] إنَّه لمن أوهن البيوت، وقد وقع بأيدي بعض العوام، والجهلة الذين هم كالأنعام، فظنوه أنَّه شراب لم يَشُبه قَذَى، ودواء نافع لكلِّ سقامٍ وأذى، وما دروا أنَّه سمٌّ قاتل، لكل ناقص عقلٍ جاهل.

بادر إلى ردّه العَلَم المفرد والألمعي الأوحد، جامع المعقول والمنقول، حاوي الفروع والأصول، عالم العلوم الربانية، عارف السّنة النبويَّة، صاحب التَّحقيقات التي لم تزل تتجلَّى وتنجلي: **الشَّيخ عبد اللَّطيف النجدي الحنبلي**[٣] ـ طيب الله تعالى ثراه وجعل الجنة مثواه ـ فلم يغادر من الحق شيئًا إلّا وأبانه، ولا من الباطل إلّا ووجَّه نحوه سنانه، فكشف ما موَّه به العراقي من التَّلبيس، وجعل ما أضمره من الزَّيغ والإلحاد أشهر من كفر إبليس.

= الكتاب والسنة، وفعل السلف الصالح. وأما الخاتمة في المناقشة مع المانعين وردِّ شبههم الواهية، من طريق النقل الصحيح والعقل الرجيح. وستعرف أيها القارئ وهاء ما استدلَّ به العراقي، وضعف حججه، كما سيمر معك في هذا الكتاب.

(١) هو: داود بن سليمان البغدادي النقشبندي، توفي في بغداد سنة (١٢٩٩هـ)، درس عند الشيخ أبي بطين لما انتقل إلى نجد. له مواقف وكتب ضد الدَّعوة السَّلفية «الأعلام» (٢/ ٣٣٢).

(٢) لعمري هذا ليس بقسم.

(٣) هو: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، ولد في الدرعية سنة (١٢٢٥هـ) وتعلَّم بها، ثم غادرها إلى مصر أثناء سقوط الدرعية، ودرس هناك في مصر، ثم عاد إلى الرياض، كان له دروس وتلاميذ ومصنفات ورسائل كثيرة، وكان يقرض الشعر. توفي سنة (١٢٩٣هـ)، انظر في ترجمته: «مشاهير علماء نجد» ص (٩٣)، «الأعلام».

بيد أنَّه لم يتيسَّر له الإكمال والإتمام، وإن كان ما كتبه كافيًا في الإفحام والإلزام. فإنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا أتمَّ الكلام على قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩] وقف هناك وناداه داعي الأجل، فقال له: لبيك قد جئناك. فانتقل إلى رحمة الله وعفوه وغفرانه، وأسرع إلى ما أعدَّه الله له في بحبوحة جنانه.

وقد أحببت أن أتطفَّل في إكماله، وإنْ لم أُعد من نظائر ذلك الشَّيخ الجليل وأمثاله، خوفًا أن يظن الغبيُّ الجاهل، أنَّ ترك ذلك للعجز عن الردِّ عليه، أو رضًا بما هذاه العراقي المتطاول، وإن كان ذلك قدحة لا تورث طعنًا إلا لجاهل منقوص، ونفخة لا تؤثر وهنًا في البناء المرصوص، وقد أكَّد ذلك الدَّاعي إلزام من تتحتم طاعته وتتعين عليَّ إجابته[1].

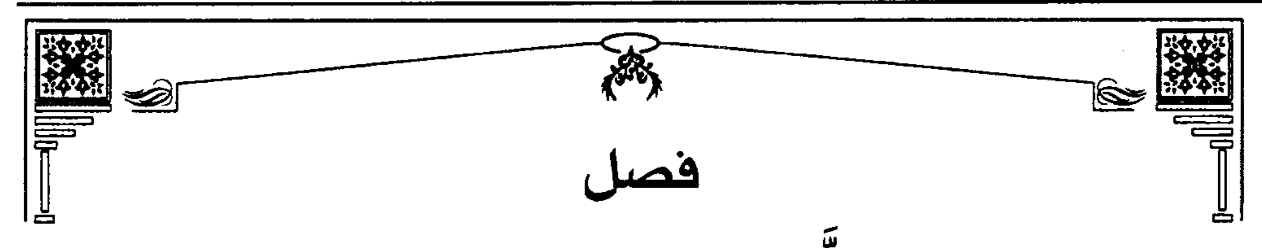
فأقول، سائلًا منه سبحانه أن يصحبني السَّداد والإنصاف، وأن ينجيني من التعصُّب والاعتساف:

* * *

---

(1) وقد ردَّ عليه أكثر من واحد، انظر ص (٢٣) من هذا الكتاب.





فصل

[أدلَّة العراقي على جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ: حديث الأعمى]

قال العراقي(١): . . . وأمَّا الأدلَّة من الأحاديث النبوية، والآثار الصحابية فكثيرة نذكر بعضها.

الدليل الأول:

روى الترمذي والنسائي، والبيهقي وصححه، والحاكم، وقال: على شرط البخاري ومسلم، وأقرَّه الحافظ الذهبي عن عثمان بن حنيف: أنَّ رجلًا ضريرًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يكشف عن بصري، فأمره أن يتوضأ ويصلِّي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «**اللَّهم إنِّي أسألك وأتوجَّه إليك بنبيك محمد** ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إنِّي أتوجَّه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى. اللَّهم شفعه فيَّ». زاد البيهقي: فقام وقد أبصر(٢) . . . إلى آخر ما قال.

---

(١) ص (٤٨) من كتابه «صلح الإخوان».

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في «جامعه» (٣٩٢٧)، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٣١٣)، والنسائي في «اليوم والليلة» ص (٤١٧)، والطبراني في «معجمه الكبير» (٨٣١١)، وفي «الصغير» (٥٠٨)، وفي «الدعاء» (٩٧١)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٣٩٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ١٦٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»، وقال: روى الترمذي وابن ماجه طرفًا من آخره خاليًا عن القصة.

وقد قال الطبراني عقبه: والحديث صحيح بعد ذكر طرقه التي روي بها. =

والجواب:

إنَّ هذا الدليل لا يفيد العراقي شيئًا، بل هو من نمط ما قبله، وببيان معنى الحديث يُعلم ذلك، فقوله: اللَّهم إني أسألك، أي أطلب منك وأتوجه إليك بنبيك محمَّد ﷺ صرَّح باسمه، مع ورود النَّهي عن ذلك تواضعًا منه ﷺ لكون التَّعليم من قبله، وفي ذلك قصر السؤال الذي هو أصل الدعاء على الله تعالى الملك المتعال، ولكنه توسَّل بالنبي أي بدعائه، ولذا قال في آخره: اللَّهم فشفِّعه فيَّ. إذ شفاعته لا تكون إلَّا بالدُّعاء لربِّه قطعًا. ولو كان المراد التوسّل بذاته فقط لم يكن لذلك التَّعقيب معنى، إذ التوسل بقوله: بنبيك، كافٍ في إفادة هذا المعنى، فقوله: يا محمد إنِّي توجَّهت بك إلى ربي.

قال الطيبي(١): الباء في بك للاستعانة، وقوله: إنِّي توجهت بك بعد قوله: أتوجه إليك، فيه معنى قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فيكون خطابًا لحاضر معاين في قلبه، مرتبط بما توجَّه به عند ربه من سؤال نبيه بدعائه الذي هو عين شفاعته، ولذلك أتى بالصِّيغة الماضويَّة بعد الصيّغة المضارعيَّة، المفيد كل ذلك أنَّ هذا الداعي قد توسَّل بشفاعة نبيه في دعائه، فكأنَّه استحضره وقت ندائه.

= قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلّا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر، وهو غير الخطمي، وعثمان بن حنيف، وهو اخو سهل بن حنيف. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.
وقول الترمذي: أبي جعفر وهو غير الخطمي، قال شيخ الإسلام في «الفتاوى (١/ ٢٦٦)»: هكذا وقع في الترمذي، وسائر العلماء قالوا: هو أبو جعفر الخطمي، وهو الصواب.

(١) هو: الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي، من علماء التفسير والحديث. له كتاب «شرح مشكاة المصابيح» مطبوع في (١٢) مجلدًا. «الدرر الكامنة» (٢/ ٦٨)، «الأعلام» (٢/ ٢٥٦).

ومثل ذلك كثير في المقامات الخطابية، والقرائن الاعتبارية. فقوله: في حاجتي هذه لتقضى لي، أي: ليقضيها لي ربي بشفاعته، أي: في دعائه[(١)]، وذلك مشروع مأمور به، فإنَّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ كانوا يطلبون منه الدعاء، وكان يدعو لهم، وكذلك يجوز الآن أن تأتي رجلًا صالحًا فتطلب منه الدعاء لك، بل يجوز للأعلى أن يطلب من الأدنى الدعاء له، كما طلب النبي ﷺ الدعاء من عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عمرته بأن قال له: «**لا تنسنا يا أُخي من دعائك**»، قال عمر: ما يسرني أنَّ لي بها حمر النعم[(٢)].

قال العلَّامة المناوي[(٣)]: سأل الله أولًا أن يأذن لنبيِّه أن يشفع، ثم أقبل على النبي ﷺ ملتمسًا شفاعته له، ثم كرَّ مقبلًا على ربِّه أن يقبل شفاعته، والباء في «بنبيك» للتعدية، وفي «بك» للاستعانة، وقوله: اللَّهم فشفعه فيَّ، أي اقبل شفاعته في حقّي، والعطف على مقدَّر، أي: اجعله شفيعًا لي، فشفِّعه.

وكل هذه المعاني دالَّة على وجود شفاعته بذلك، وهو دعاؤه ﷺ له بكشف عاهته، وليس ذلك بمحظور، غاية الأمر أنَّه توسل من غير دعاء، بل

---

(١) في المطبوعة المصرية: بشفاعتك في دعائك ربك لي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٥٩)، والترمذي في «جامعه» برقم (٣٥٦٢)، وأبو داود برقم (١٤٩٨)، وابن ماجه برقم (٢٨٩٤)، وأبو يعلى (٥/ ٢٠٦) كلهم من طريق عاصم بن عبيد الله عن سالم عن عبد الله بن عمر، أنَّ عمر استأذنه في العمرة. . . فذكره. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وعاصم هذا ضعيف، قال ابن كثير في كتابه «مسند الفاروق» (١/ ٣٢٦): وعاصم ابن عبيد الله، فيه ضعف روى أحاديث مسنده.

(٣) هو عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زيد العابدين، الملقب بزين العابدين، الحدادي المناوي. (ت ١٠٣١هـ). انظر ترجمته في مقدمة «العجالة السنية» بتحقيقي وقوله هذا في «فيض القدير» (٥/ ١٦).

هو نداء لحاضرٍ[١]، والدُّعاء أخصُّ من النِّداء، إذ هو نداء عبادة شاملة للسؤال، بما لا يقدر عليه إلا الله، وإنَّما المحظور السؤال بالذَّوات لا مطلقًا، بل على معنى أنَّهم وسائل لله تعالى بذواتهم، وأمَّا كونهم وسائل بدعائهم فغير محظور، وإذا اعتقد أنَّهم وسائل للَّهِ بذواتهم، يسأل منهم الشفاعة للتقرُّب إليهم، فذلك عين ما كان عليه المشركون الأوَّلون.

فتبيَّن: أنَّه لا دلالة في الحديث على جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ أصلًا.

والعراقي نقل عبارة شيخ الإسلام[٢] محرَّفة، وهذه هي عبارته في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»[٣]، قال: والميّت لا يُطلب منه شيء، لا دعاء ولا غيره وكذلك حديث الأعمى، فإنَّه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له ليردَّ الله عليه بصره، فعلَّمه النبي ﷺ دعاءً أمره فيه أن يسأل الله قبول شفاعة نبيه فيه، فهذا يدلُّ على أنَّ النبي ﷺ شفع فيه، وأمره أن يسأل الله قَبول شفاعته، وأنَّ قوله: أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرَّحمة، أي بدعائه وشفاعته. كما قال عمر: كنا نتوسَّل إليك بنبينا. فلفظ التوسّل والتوجّه في الحديثين بمعنى واحد، ثم قال: يا محمد يا رسول الله: إنِّي أتوجَّه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها، اللَّهم فشفِّعه فيَّ، فطلب من الله أن يشفِّع فيه نبيه، وقوله: يا محمد يا نبي الله. هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب، فيخاطب المشهود بالقلب، كما يقول المصلِّي: السَّلام عليك أيُّها النَّبي ورحمة الله وبركاته.

والإنسان يفعل مثل هذا كثيرًا، يخاطب من يتصوَّره في نفسه وإن لم

---

(١) انظر: «صيانة الإنسان» للسهسواني ص (٣٦٦).

(٢) هو: أبو العباس أحمد بن عبد السلام، محيي السنة وقامع البدعة، أشهر من نار على علم. (ت ٧٢٨هـ).

(٣) (٢/٤٣٨) بتحقيق وتعليق عصام الحرستاني ومحمد الزغلي.

يكن في الخارج من يسمع الخطاب، فلفظ التوسُّل بالشَّخص والتوجُّه به والسؤال به: فيه إجمال واشتراكٌ، غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصَّحابة[١]، يراد به التسبُّب به لكونه داعيًا وشافعًا مثلًا، ولكون الدَّاعي محبًّا له مطيعًا لأمره، مقتديًا به، فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته، ويراد الإقسام به والتوسل بذاته، فلا يكون التوسل لا [بشيء] منه ولا [بشيء] من السائل، بل بذاته أو بمجرد الإقسام به على الله، فهذا الثَّاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه، وكذلك [لفظ] السؤال بشيء قد يراد به المعنى الأول، وهو التَّسبُّب لكونه سببًا في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام.. إلى آخر ما قال. انتهى.

وقول العراقي: إنَّ ما أجاب به الشَّيخ قد ردّوه. كذب! ومن الذي ردّه؟ وما بعد الحق إلَّا الضَّلال، وما ذكره في الردّ هو من هذيانه، وأهل العلم يجلُّون أن يتكلَّموا بمثل ذلك؛ لأنَّ الشَّيخ ممن لم يجوّز الاستغاثة بالذَّات، فضلًا عن الصّورة، على أنَّ ما في الأذهان دلائل على ما في الخارج، فاللفظ يدل على المعاني المخزونة في الذّهن، وهي [تدل] على ما في الخارج، فمن قال: زيد قائم مثلًا، دلَّ على ثبوت معنى القيام لزيد المتعقل في الذِّهن، ومنه يفهم أنَّ القيام ثابت لزيد في الخارج.

وذكر السعد في شرحه على «النَّسَفِيَّة»[٢]: أنَّ للشيء وجودات أربع:

---

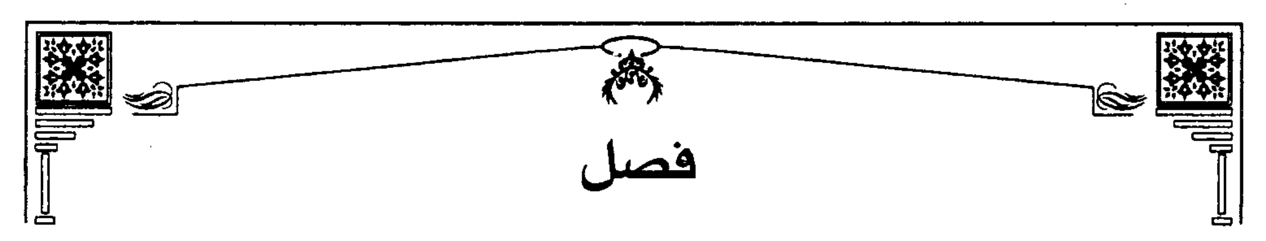
(١) وهذه لفتة مهمة أشار إليها ﷺ، إذ إنَّ أهل البدع لمَّا تركوا فهم الصحابة لنصوص الكتاب والسنة، وقعوا فيما وقعوا فيه من الضلال والانحراف.

(٢) النسفيَّة: هي لنجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي (ت ٥٣٧) في الاعتقاد، وقد اعتنى به غير واحد تحشيةً وشرحًا، فممَّن شرحها سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت ٧٩٢). وشرحه هذا مخطوط. انظر: «جامع الشروح والحواشي» (١١٨٣/٢).

وجود في الكتابة، ووجود في العبارة، ووجود في الأذهان، ووجود في الأعيان.

وكأنَّ العراقي توهَّم أنَّ الوجود محصور في الشق الأخير، وهو من جملة سقطاته وغلطاته، ثم ذكر كلامًا لا حاجة لنا إلى ردّه وإبطاله، بل في ذلك تضييع المداد والقرطاس، فلهذا أعرضنا عنه.

* * *



فصل

[من أدلة العراقي على جواز الاستغاثة:

قصة صاحب الحاجة]

قال العراقي(١): **الدَّليل الثَّاني**:

روى البيهقي والطَّبراني بسند لا بأس به، عن عثمان بن حنيف ـ راوي الحديث الأول ـ أنَّ رجلًا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة، فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر إليه في حاجته، فشكى ذلك لابن حنيف رضي الله عنه فقال له: ائت الميضأة ـ أي محل الوضوء ـ ثم ائت المسجد فصلِّ ركعتين، ثم قل: اللَّهم إنِّي أسألك وأتوجَّه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرَّحمة، يا محمد إنِّي أتوجه بك إلى ربك، فتقضي حاجتي ـ وتذكر حاجتك ـ فانطلق الرَّجل فصنع ذلك ثم أتى باب عثمان، فقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال: ما ذكرت حتى السَّاعة، ومتى كانت لك حاجة فاذكرها، ثم خرج من عنده فلقي ابن حنيف، فقال: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي حتى كلَّمته فيَّ.

فقال ابن حنيف: والله ما كلَّمته، ولكن شهدت رسول الله ﷺ أتاه ضرير، فشكى له ذهاب بصره، فأمره ﷺ أن يأتي الميضأة فيتوضأ، ثم يصلِّي ركعتين، ويدعو بهذه الدَّعوات، قال ابن حنيف: فوالله ما تفرَّقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرَّجل، كأن لم يكن به ضرٌّ قط. انتهى.

ثم ذكر العراقي كلامًا لا طائل تحته.

---

(١) ص (٥٠).

والجواب:

إنَّ في سند هذا الحديث[١] مقالًا كما اعترف به العراقيّ نفسه، بل قال بعضهم: إنَّ أمارات الوضع لائحة عليه، فكيف يعارض به جميع كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ وعمل أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؟ وهل سمعت أحدًا منهم جاء إليه بعد وفاته ﷺ إلى قبره الشَّريف، فطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله، وهم حريصون على مثل هذه المثوبات، لا سيّما والنّفوس مولعة بقضاء حوائجها، تتشبَّث بكل ما تقدر عليه، فلو صحَّ عند أحدهم أدنى شيء من ذلك لرأيت أصحابه يتناوبون قبره الشَّريف في حوائجهم زمرًا زمرًا، ومثل ذلك تتوفر الدّواعي على نقله، ولا وسّع الله طريقًا لم يتّسع للصَّحابة والتَّابعين، وصلحاء علماء الدِّين.

نعم كان ابن عمر يأتي القبر المكرَّم، ويقول: السَّلام عليك يا رسول الله، السَّلام عليك يا أبا بكر، السَّلام عليك يا أبت[٢]، ثم ينصرف. وكذلك أنس وغيره، فإذا أرادوا الدُّعاء استقبلوا القبلة.

واعلم أنَّ ما يظن أنَّه وجد له موافق، ولو معنى من رواية صحابي[٣]، فذلك الموافق هو المتابع[٤]، والمتابعة إن كانت للراوي نفسه فهي التامّة، وإن كانت لشيخه فمن فوقه فهي القاصرة، وكل منهما يفيد التقوية، وإن وجد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٤٥)، وانظر: «جامع الرسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) في الأصل: صحابية.

(٤) في تعريف هذه المصطلحات ينظر: «نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» ص (١٨).

متن يشبهه، ولو في المعنى من رواية صحابي آخر، فهو الشاهد، وتتبع الطريق هو الاعتبار، ولا شيء مما ذكر بين الحديثين اللذين أوردهما العراقي، فيكون مردودًا لا محالة؛ لأنَّ المردود إما أن يكون ردّه لسقط من السند أو طعن في راوٍ، كما نبه عليه الأصوليون.

فقول العراقي[١]: وما ذكره بعضهم من أنَّ هذا الحديث في سنده مقال، يجاب بأنَّ الحديث صحيح لا بأس به.

مردود لما سمعت سابقًا، وادعاؤه صحة الحديث دعوى بلا دليل، ونسبة تصحيحه إلى البيهقي والطبراني لا أصل لها، وتصحيح السبكي[٢] وابن حجر المكي والسمهودي وأضرابهم لا يعتد به؛ لأنَّهم ليسوا من أئمة هذا الشأن، فقد رأيت في كتاب «الصارم المنكي في الرد على السبكي» للحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنبلي[٣] رحمه الله ما نصه:

ورأيت مؤلف هذا الكتاب ـ يعني السبكي ـ رجلًا مماريًا معجبًا برأيه، متبعًا لهواه، ذاهبًا في كثير مما يعتقده إلى الأقوال الشاذة والآراء الساقطة، صائرًا في أشياء مما يعتمده إلى الشبه المخيلة، والحجج الداحضة، وربما خرج عن الإجماع في مواضع لم يسبق إليها، ولم يوافقه أحد من الأئمة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو: علي بن عبد الكافي بن تمام بن يوسف السبكي، وهو والد التاج السبكي صاحب «الطبقات»، له مصنفات توفي سنة (٧٥٦هـ)، «طبقات الشافعية» (١٠/ ١٣٩) وذكر أن اسم كتابه «شفاء السقام» ربّما سمّي بشنّ الغارة على من أنكر السفر للزيارة.

(٣) ولد ابن عبد الهادي سنة (٧٠٥هـ) وأثنى عليه غير واحد من العلماء، وله مصنفات كثيرة جدًا، توفي رحمه الله سنة (٧٤٤هـ). «البداية والنهاية»، و«ذيل طبقات الحنابلة».

عليها، وهي في الجملة لون عجيب وبناء غريب، تارة يسلك فيما ينصره ويقوِّيه مسلك المجتهدين، فيكون مخطئًا في ذلك الاجتهاد، ومرة يزعم فيما يقوله ويدَّعيه أنَّه من جملة المقلِّدين، فيكون من قلَّده مخطئًا في ذلك الاعتقاد، هذا مع أنَّه إن ذكر حديثًا مرفوعًا أو أثرًا موقوفًا ـ وهو غير ثابت ـ قبله إذا كان موافقًا لهواه، وإن كان ثابتًا ردَّه إما بتأويل أو غيره، إذا كان مخالفًا لهواه. انتهى(١).

وأقول: وكذلك ابن حجر المكِّي ـ عامله الله تعالى بعدله ـ فكم له في كتبه مثل ذلك سيَّما كتابه الذي سمَّاه: «الجوهر المنظم»، والسَّمهودي أدهى وأمرّ، وكل هؤلاء كانوا من المغالين في الصَّالحين [الدَّاعين إلى عبادتهم مع الله].

وأما قوله(٢): ولو فرض... إلخ. فقد تبيَّن لك سابقًا بطلانه، والعجب من العراقي كيف يتجاسر أن يتكلم في فنٍّ لم يعرفه ولم يشمَّ رائحته، فإنَّ الحديث الأوَّل في حياة النَّبي ﷺ، والثَّاني بعد وفاته مع مخالفته في المتن والسَّند.

وقوله(٣): ولو كان شركًا لم يجز للمحدِّثين أن ينقلوه... إلخ. يجاب عنه بوجوه منها: أنَّ من يعتدُّ به من المحدثين لم يذكره، ومن ذكره منهم إنَّما ذكره على وجه التنبيه على حاله، كما ذكروا غيره من الأحاديث الموضوعة لذلك.

ومنها: أنَّ من ذكره يوجهه بما وجه به الحديث الأول، فلا يكون مقتضاه شركًا.

---

(١) في مقدمة كتابه المذكور ص (١٣) بتحقيق عقيل المقطري.

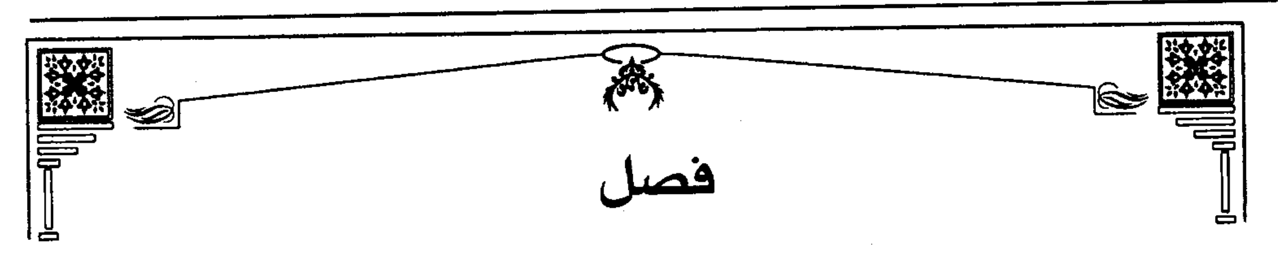
(٢) ص (٥٠) وتمامه: ولو فرض أنّ في سنده مقالًا يكون عاضدًا للأول.

(٣) نفس الصفحة.

وقوله[١]: فكيف يخفى... إلخ. مردود بما ذكرناه، وأنَّه لم يخف على حملة الدين، بل خفي على مثل العراقي من الشياطين الزائغين عن سبيل المؤمنين، فإنَّ أهل التوحيد قد رأوا ظلمات الوضع لائحة عليه، فأعرضوا عنه، ولم يتوجهوا إليه.

* * *

(١) نفس الصفحة، وتمامه: فكيف يخفى هذا على نقلة الدين وأئمة المسلمين، ويظهر لك يا أعمى العين.



فصل

[استدلال بما رُوِيَ عن مالك خازن عمر رضي الله عنه]

قال العراقي[١]:

الدّليل الثالث:

روى البيهقي وابن أبي شيبة بسند صحيح، عن مالك رضي الله عنه وكان خازن عمر رضي الله عنه قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فشكى له، فقال: يا رسول الله استسق لأمتك، فإنَّهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام، وقال: ائت عمر، وأقرئه السَّلام، وأخبره أنّهم مسقون، وقل له: عليك الكيس الكيس. فأتى الرجل عمر فأخبره، فبكى عمر ثم قال: يا رب ما آلو إلّا ما عجزت، وذكر بعضهم أنَّ الذي رأى هذا المنام، بلال بن الحارث أحد الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم. انتهى[٢].

---

(١) ص (٥٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧/ ٦٢ ت محمد عوامة)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٤٧)، والخليلي في «الإرشاد»، ومن طريق البيهقي أخرجه ابن عساكر.

وعزاه ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٤٨٤) لابن أبي خيثمة، إلا أن يكون تصحيفًا.

وصحح إسناده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ٨٧)، وابن حجر في «الفتح» (٢/ ٥٧٥ ط مكتبة العبيكان)، ومالك هذا، ترجم له ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٤٨٤ ط دار الفكر العربي)، فقال: مالك بن عياض مولى عمر، هو الذي يقال له: مالك الدار له إدراك وسمع من أبي بكر الصدِّيق. وكان معروفًا.

وانظر: «الطبقات» لابن سعد (٧/ ١٢) وغيره.

والجواب:

إنَّ هذا أيضًا من جنس سابقه، على أنَّه لو ثبت فلا دليل فيه، لما يقصده من يقول بجواز نداء غير الله والاستغاثة به، كما سيأتي.

وأمَّا قول العراقي: وقد ذكر هذا الحديث شيخ الإسلام... إلخ(١). ففيه تحريف وتلبيس وحذف، وبيان ذلك وبه يتَّضح الجواب: أنَّ شيخ الإسلام ـ قدَّس الله روحه ـ قد ذكر في أثناء جوابه المفصَّل عمَّا ذكر من شبه المجوِّزين [لدعاء الموتى]، في كتابه «اقتضاء الصِّراط المستقيم»(٢) ما نصّه من جملة كلام طويل:

فهذه الآثار إذا ضُمَّت إلى ما قدَّمناه من الآثار، علم كيف كان حال السَّلف في هذا الباب، وأنَّ ما عليه كثير من الخلف في ذلك من المنكرات عندهم، ولا يدخل في هذا الباب(٣) ما يروى أنَّ قومًا سمعوا رد السَّلام من قبر النَّبي ﷺ أو قبور غيره من الصَّالحين، وأنَّ سعيد بن المسيَّب كان يسمع الأذان من القبر ليالي الحرَّة ونحو ذلك، فهذا كله حق ليس مما نحن فيه، والأمر أجل من ذلك وأعظم، وأيضًا ما يروى أنَّ رجلًا جاء إلى قبر النبي ﷺ فشكى إليه الجدب عام الرمادة، فرآه وهو يأمره أن يأتي عمر فيأمره أن يخرج يستسقي بالناس، فإنَّ هذا ليس من هذا الباب، ومثل هذا يقع كثيرًا لمن هو دون النبي ﷺ وأعرف من هذا وقائع، وكذلك سؤال بعضهم للنبي ﷺ أو لغيره من أمَّته حاجة فتقضى له، فإن هذا قد وقع كثيرًا، وليس مما نحن فيه.

وعليك أن تعلم أنَّ إجابة النبي ﷺ أو غيره لهؤلاء السائلين، ليس هو

(١) وتمامه: وأقرَّه ولم ينكره.
(٢) (٢/ ٣٩٥).
(٣) كتب في الحاشية: أي دعاء غير الله ونحو ذلك.

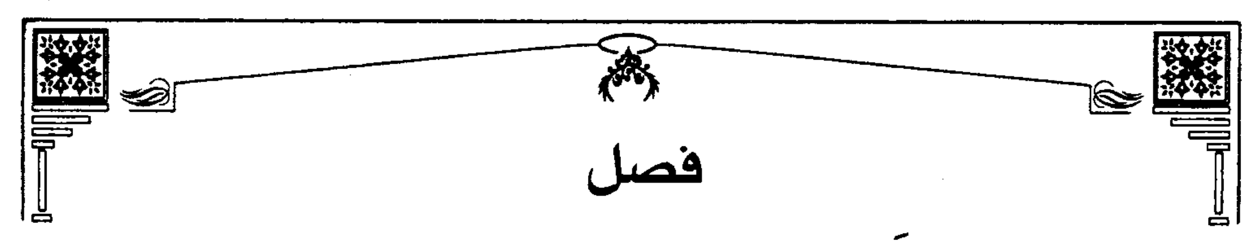
مما يدل على استحباب السؤال، فإنَّه هو القائل ﷺ: «**إنَّ أحدهم ليسألني المسألة فأعطيه إياها، فيخرج يتأبطها نارًا**، فقالوا: يا رسول الله فلم تعطيهم؟ قال: **يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل**»[١]، وأكثر هؤلاء السَّائلين الملحِّين لما هم فيه من الحال لو لم يجابوا لاضطرب إيمانهم، كما أنَّ السائلين له في الحياة كانوا كذلك، وفيهم من أجيب وأمر بالخروج من المدينة، فهذا القدر إذا وقع يكون كرامة لصاحب القبر، أما أنَّه يدل على حسن حال السائل فلا، وفرق بين هذا وهذا. انتهى. المقصود من كلامه.

فانظر كيف حذف العراقي أوَّل هذا الكلام وآخره، ومن الأثناء حذف قوله: فإنّ هذا ليس من هذا الباب. . . إلخ، كل ذلك لترويج بدعته وحب[٢] هواه وضلالته، وما درى أنَّ الله تعالى خلق رجالًا لحفظ الدِّين وإظهار مكايد الشّياطين، وإبطال شبه المبتدعين، فله سبحانه الحمد على كمال نعمته ووافر رحمته.

❃ ❃ ❃

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٤) من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٣٢٦) من طريق الأعمش عن عطية عن أبي سعيد الخدري. وفي الحديث قصة، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٥٤): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) في المطبوع: اتباع.



فصل

[الدَّليل الرّابع من أدلة العراقي: ذكره قصة هاجر والرد عليه]

قال العراقي(١): **الدَّليل الرّابع**:

روى البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ [أنَّه] ذكر في قصَّة هاجر أم إسماعيل عليه السلام: «أنَّها لما أدركها وولدها العطش، فجعلت تسعى، أي تركض في طلب الماء، فسمعتْ صوتًا ولا ترى شخصًا، فقالت: أغث إن كان عندك غواث»(٢). انتهى.

ذكر النَّبي ﷺ هذا لأصحابه، فلو كان طلب الغوث من غير الله شركًا لما جاز لها استعماله، ولما ذكره النَّبي ﷺ لأصحابه ولم ينكره، ولما نقله الصَّحابة من بعده وذكره المحدثون، لا سيَّما البخاري الذي أجمعت الأمة على أنَّ ما بعد كتاب الله أصحّ من كتابه، فإنَّ هذا الغائب الذي طلبت منه الغوث، وإن كان في الحقيقة هو ملك، لكن في حال غيبته محتمل أن يكون شيطانًا، ومحتمل أن يكون جنيًّا، ومحتمل أن يكون ملكًا، ومحتمل أن يكون إنسانًا، والمانعون لا يجوِّزون الاستغاثة بالغائب مطلقًا، لا بنبيٍّ مرسل ولا مَلَك مقرَّب كالميت، كما صرَّحوا به في مواضع، فلو يعلم النَّبي ﷺ أنَّ في ذلك محذورًا لوجب التنبيه عليه، خصوصًا إذا كان شركًا أكبر، مخرجًا عن الملة، والله أعلم، انتهت عبارته السَّخيفة بحروفها.

---

(١) ص (٥١).

(٢) برقم (٣٣٦٤).

والجواب أن يقال للعراقي:

إنَّ كلامنا فيمن يستغاث به عند إلمام ما لا يقدر عليه إلا الله، أو لسؤال ما لا يعطيه ويمنعه إلا الله، وأمَّا فيما عدا ذلك مما يجري فيه التَّعاون والتّعاضد بين النَّاس والاستغاثة بعضهم ببعض، فهذا شيء لا نقول به، [بل] ونعدُّ منعه جنونًا كما نعد إباحة ما قبله شركًا وضلالًا، كما نطقت بذلك الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الشبه بأتم وجه وأوضح بيان.

وهاجر ﵂ لما جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق الزَّمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثم قفّى(١) إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يُضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنيَّة حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدَّعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ . . . حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، فجعلت تنظر إليه يتلوّى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقرب جبل في الأرض

(١) في الحاشية: أي ولّى راجعًا إلى الشام.

يليها فقامت عليه[١]، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود[٢]، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت: هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات[٣].

قال ابن عبَّاس: قال النَّبي ﷺ: «**فلذلك سعي الناس بينهما**»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صه ـ تريد نفسها ـ ثم تسمَّعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوِّضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عبَّاس: قال النَّبي ﷺ: «**يرحم الله أمَّ إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من زمزم، لكانت زمزم عينًا معينًا**».

(١) في المطبوع: إليه.

(٢) في الهامش: أي الذي أصابه الجهد وهو الأمر المشق.

(٣) قال الشَّيخ محمد حامد الفقّي رحمه الله: سبحان الله! ما أشد عمى هذا العراقي وانتكاس قلبه وقلب الوثنيين شيعته، فإنّ قصة هاجر أدل الأدلة وأوضح البراهين، على أن الله لا يرضى إلا أن تنقطع من قلب عبده كل العلائق بغيره، وأن يتجرّد كل التجرد لربه السميع القريب الغني الحميد، فإن الله سبحانه رأى هاجر وولدها وعلم شدة حاجتهما وضرورتهما وسمعها، ورآها وهي تصعد الصفا والمروة وتسعى لاهثة تتطلع إلى من يغيثها من الناس وراءهما، وفي كلِّ مرة ينقطع أملها شيئًا فشيئًا من أهل الأرض، حتى كانت السابعة ولم يبق لها أي رجاء ولا أمل إلا في الله رب الأرض والسماء، فعندئذ صدقت استغاثتها بربها، فأمر الملك أن ينزل ويغيثها، فهل بعد هذا عذر لمعتذر؟ ولكنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. والحمد لله الذي هدانا وعافانا لا نحصي ثناء عليه.

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن هنا بيتًا للَّه يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأنَّ الله لا يضيع أهله.. إلى آخر القصة التي أوردها البخاري في باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] من كتاب أحاديث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يكن في هذه الرواية أغثني، لكن قال الشارح[١] في رواية إبراهيم بن نافع وابن جريج: فقالت: أغثني إن كان عندك خير.

وعلى كل حال، هذه القصة من أقوى الدلائل على أنَّ سيدنا إبراهيم وآل بيته صلى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين قد بلغوا من الوثوق بالله والالتجاء إليه ما لا يمكن بيانه ولا يسعنا شرحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، ودين أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[٢]، فتأمَّل هذه الألفاظ، كيف جعل الفطرة للإسلام، فإنّه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله، والملة لإبراهيم، فإنّه صاحب الملة وهي التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة، والدين للنبي ﷺ، وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله، وسمّاه الله سبحانه: إمامًا، وأمة، وقانتًا، وحنيفًا، وكل ذلك في القرآن العظيم، وقد ترك ولده الذي هو من أعزِّ الناس عليه مع أمه في أرض قفراء غبراء، لا فيها ماء ولا مرعى، ولا أنيس ولا جليس، مع شيء نزر من التمر والماء، ثم انصرف إلى أهله بالشام ثقة بأنَّ الله تعالى

---

(١) يعني به الحافظ ابن حجر في كتابه «الفتح» (٦/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٤١١)، والدارمي في «سننه» (٢/ ٢٩٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» برقم (٢٧٠٧١) من حديث ابن أبزى، وضعَّف محقق المصنف محمد عوامة هذا الحديث.

سيخلفه على أهله، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، ودعا بذلك الدعاء الذي تبهر[(١)] منه أنوار التوحيد والإخلاص لله سبحانه.

وانظر إلى حسن ظن أهل بيته بالله تعالى، فإنَّ هاجر لما رأت منه العزيمة على السفر إلى دياره، قالت له: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، حتى قال لها: إنَّ ذلك بأمر الله، فقالت: إذًا لا يضيعنا، ثم رجعتْ علمًا منها أنَّه سبحانه خيرٌ حافظًا وهو أرحم الرَّاحمين، وبقيت صابرة على ما تكابده من قضاء الله وقدره، مع ما تراه من حال ولدها وشدة ما يقاسيه من الجوع والعطش، وهو يومئذٍ ابن سنتين حتى أشرف على الهلاك، وجعل يشهق ويعلو صوته وينخفض، كالذي ينازع [الموت]، فقامت تسعى سعي الإنسان المجهود، وتنتظر فرج الله لعلمها بأنَّ مع العسر يسرًا، وأنّه إذا ضاق الأمر اتسع، مع ما سبق من قول الخليل عليه السَّلام: إنَّ ذلك بأمر الله والله ليس بظلام للعبيد. فسعت سبع مرات وهي تتشوَّف بريد الفرج، وكانت كل مرة تتفقَّد إسماعيل، وتنظر ما حدث له بعدها فتشاهده في حال الموت، فرجعت في المرَّة الأخيرة، فلما أشرفت على المروة في المرة الأخيرة، سمعت صوتًا وأيقنت بحصول ما كانت ترجوه من الله تعالى، فقالت لنفسها: صه، أي اسكتي عن حديثك الذي تتحدَّثين به، فهذا بريد الفرج قد طرق باب رجائي، الذي كنت أرجوه ممن لا يخيب من سأله، ولا يطرد عن باب رحمته من التجأ إليه، ومن توكَّل على الله كفاه، فلمَّا حققته بمزيد الإصغاء وتيقَّنت أنَّه من رسل رب الأرض والسَّماء، قالت: قد أسمعت، وتحققت الذي قد أزمعت وعرفت أنَّك حاضر وإن لم ترمقك النواظر، فأغثني إن كان عندك خير، فقد لحقنا من

(١) في المطبوع: تشع.

الجوع والعطش، الضر والضير، فإذا هي بالملك[١] عند موضع زمزم، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء بإذن الحكيم الأحكم.

وفي حديث عليٍّ عند الطبريّ بإسناد حسن: «فناداها جبريل، فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم قال: فإلى من وكَّلكما؟ قالت: إلى الله، قال: وكَّلكما إلى كافٍ»[٢].

فقد تبيَّن أن هاجر لم تطلب إلا من حاضر محسوس، ليس ما طلبته مما اختص طلبه بالله سبحانه، فإنّها طلبت من [صاحب] الصَّوت ما يسدُّ جَوعتها ويروي غلّتها، كما يقول المنقطع في الطَّريق، العادم الزَّاد والماء إذا مرَّ عليه أحد وأحسَّ به: أغثني بما عندك من ماء وطعام، وأعطني مما تفضَّل الله به عليك من الإنعام، أفيقال لهذا: إنّه طلب ما لا يقدر عليه إلا الله، والتجأ في شدّته إلى من سواه؟

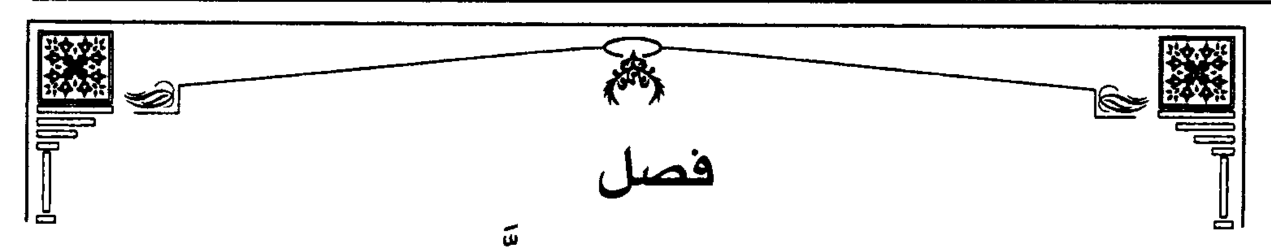
وفي زعم هذا العراقيّ أنَّ هاجر ﵂ طلبت من غائب مخلوق شيئًا منع المانعون طلبه من غيره سبحانه، حتى احتمل عنده أن يكون المستغاث به المطلوب منه شيطانًا والعياذ بالله تعالى، فانظر إلى هذا الجهل الوخيم والتَّجاسر العظيم، حتى نسب ما نسب إلى بيت النبوَّة وأهل الصَّفوة والفتوّة، فقاتل الله أهل الكفر والضَّلال كيف لعب الشيطان بعقولهم، حتى أوردهم المهالك والأهوال، ولا بدع من هذا العراقي أن يصدر منه ما صدر، فقد بلغ به [الكفر و] الجهل والوقاحة إلى حدٍّ لا يمكن أن يذكر، نسأل الله تعالى العفو والعافية، وقلوبًا عن أكدار الجهل صافية.

❊ ❊ ❊

---

(١) في الحاشية: في رواية: فإذا جبريل... إلخ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٩)، وفي «تاريخه» (١/ ١٧٧).
وانظر: «الفتح» (٦/ ٤٦٢ ـ تحقيق عبد القادر شيبة الحمد).



فصل

[استدلاله بحديث الشَّفاعة على جواز الاستغاثة بالأموات والردِّ عليه]

قال العراقي(١):

الدّليل الخامس:

روى البخاري في حديث الشَّفاعة: أنَّ الخلق بينما هم في هول القيامة. استغاثوا بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى، وكلّهم يعتذرون، ويقول عيسى عليه السلام: اذهبوا إلى محمد فيأتون إليه ﷺ فيقول: «**أنا لها**..» الحديث(٢). ذكرناه ملخّصًا، فلو أنَّ الاستغاثة بالمخلوق ممنوعة لما ذكرها النبي ﷺ لأصحابه وأمَّته ولذكرها بغير هذا اللَّفظ.

قال: وأجاب المانعون بأنَّ هذا يكون يوم القيامة، فيكونون قد استغاثوا بمن له قدرة، وردّوا بأنّهم مع حياتهم الدنيويَّة لا قدرة لهم إلا بنوع التسبّب، فكذلك بعد الموت، مع أنَّهم أحياء في قبورهم يتسبّبون بالدّعاء وغيره.. إلى آخر ما قال.

---

(١) ص (٥١).

(٢) حديث الشَّفاعة المشهور، متفق عليه من حديث حماد بن زيد، عن معبد بن هلال، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. أخرجه البخاري برقم (٧٥١٠)، ومسلم برقم (٥٠٠).

والجواب:

إنَّ استغاثة الناس بالنبي ﷺ وقبله بآدم ثم بنوح... إلى آخر حديث الشفاعة، فهذه شفاعة بالدعاء والاستغاثة بما يقدر عليه المستغاث، مستحسنة عقلًا وشرعًا.

ومن ذلك الرفقة يستغيث بعضهم بعضًا، أي في مهماتهم التي يقدرون عليها، وكذلك ما طلب الناس منه، وهي الشفاعة التي هي الدعاء، ولذلك يقول سيِّد الشُّفعاء ﷺ في آخر الحديث: «**فأجيء فأسجد**» وأنَّه يلهمه الله من الثناء والدُّعاء شيئًا لم يفتحه لغيره ﷺ، فعند ذلك يأذن الله له في الشَّفاعة، ويقول له كما ورد في الحديث: «**يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع، واشفع تشفع**»، وهذا ظاهر جدًّا.

وما أورد على الجواب من أنَّ للمستغاث بهم قدرة كسبيِّة وتسببيِّة، فتنسب الإغاثة إليهم بهذا المعنى سواء كانوا أحياءً أم أمواتًا، وسواء كانت الاستغاثة بما يقدر عليه المستغاث [به] أم لا، مدفوع بأنَّ كون العبد له قدرة كسبيَّة لا يخرج بها عن مشيئة ربّ البريَّة، لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يستعان به ولا يتوكَّل عليه، ولا يُلتجأ في ذلك إليه، فلا يقال لأحد حيّ أو ميت، قريب أو بعيد: ارزقني أو أمتني او أحي ميتي أو اشف مريضي، إلى غير ذلك مما هو من الأفعال الخاصة بالواحد الأحد الفرد الصَّمد، بل يقال لمن له قدرة كسبية قد جرت العادة بحصولها ممن أهَّله الله لها: أعنّي في حمل متاعي أو غير ذلك، والقرآن ناطق بحظر الدعاء عن كل أحد لا من الأحياء ولا من الأموات، سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو غيرهم، وسواء كان الدُّعاء بلفظ الاستغاثة أو بغيرها، فإنَّ الأمور غير[1]

(١) في الأصل: إلى الغير.

المقدورة للعباد لا تطلب إلَّا من خالق القدر[1]، ومنشئ البشر، كيف والدُّعاء عبادة وهي مختصَّة به سبحانه.

بقي علينا ما أدلى به العراقي وأضرابه علينا من حياة الأنبياء، ليتوصلوا به إلى ترويج مدّعاهم من استحسان دعائهم، وطلب إغاثتهم، وأوَّلوه بأنَّ مرادهم من ذلك الاستشفاع: طلب أن يدعو لهم.

فنقول: هذا حقٌّ ثابت، فنعتقد حياتهم صلَّى الله عليهم وسلم حياة برزخيَّة، فوق حياة الشُّهداء، وأنَّ نبينا ﷺ قد جُعل عند قبره الشريف ملك يبلِّغه سلام المسلِّمين، [سواء في ذلك] الذين عند ضريحه المكرَّم والنائين، وأنَّ الأنبياء جميعهم طريُّون لا تأكل الأرض أجسادهم الشَّريفة، ولكنَّا نمنع ان يُطلب منهم شيء، فلا يُسألوا شيئًا بعد وفاتهم، سواء كان بلفظ الاستغاثة أو توجه أو استشفاع أو غير ذلك، فجميع ذلك من وظائف[2] الألوهيَّة، فلا يليق جعلها لمن يتّصف بالعبوديَّة من البريَّة، فإن ادَّعى أحد أنَّ حياتهم صلى الله عليهم وسلم إذا ثبتت الرواية بها حقيقية، كما هو الأصل في حمل الألفاظ على حقائقها، ولم تثبت قرينة على التجوُّز بها فتبقى على حقيقتها.

أجبناه قائلين: لا شكَّ أنَّه لا يراد بهذه الحياة الحقيقية[3]، ولو أريدت لاقتضت جميع لوازمها من أعمال وتكليف وعبادة ونطق، وغير ذلك من وظائف الحياة الدنيا، وحيث انتفت حقيقة هذه الحياة الدنيويَّة بانتفاء لوازمها، وبحصول الانتقال بالموت الحالّ به ﷺ وأرواحنا له الفداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا

---

(١) هذه العبارة فيها نظر؛ لأنَّ القدر يدخل فيه فعل الرب، ووجود المقدر والمقدور كذلك، منه ما هو مخلوق ومنه ما هو غير مخلوق.

(٢) في المطبوع: خصائص.

(٣) في المطبوع: الدنيوية.

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وحلول الموت به ﷺ أمر لا يمكن أحدًا إنكاره، ولهذا قال عمر بن الخطاب لما دهش بموته ﷺ وأرواحنا له الفداء: من قال: مات محمد ضربت عنقه، فلمَّا جاء الصدِّيق رضي الله عنه وكشف عن وجهه الشَّريف المكرَّم قال له: روحي لك الفداء، طبت حيًّا وميتًا، فصعد المنبر، فقال في خطبته: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت، وتلا هذه الآية، فتراجع الناس إلى عقولهم[1].

وقد بُسطت الروايات في أحوال موته الذي يُدهش العقول، ويُذهل المرء عن الفروع والأصول، نفديه ﷺ بأنفسنا وأولادنا.

ثبتت الحياة الأخرى البرزخيّة وهي متفاوتة، فحياة الشّهداء فوق حياة [كل] المؤمنين، وحياة الأنبياء أعلى من حياة الشّهداء، فنقتصر على ما يثبت لها في النُّصوص القطعيَّة من الأحوال المستحسنة المرضيَّة، وقد شرَّف الله سبحانه هؤلاء الأحياء بالتشريفات العنديَّة، فقال سبحانه في حق الشُّهداء، الذين تتقاصر مرتبتهم عن الأنبياء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

واعلم أنَّ الأصوليين قالوا: يحل لعارف نقل حديث معناه ظاهر، ولم يتعبَّد بلفظه بالمعنى. وهذا العراقي لم يكن بهذه المثابة، فقد كان قليل البضاعة من العلم، فلم يكن أهلًا لنقل الحديث بالمعنى، فلذا حرَّف كلام الرسول في عدَّة مواضع، وربما حذف شرطًا أو قيدًا لا بد له منه، مع أنَّ المنقول والمنقول عنه يلزم أن يكونا بمعنى واحد لا مغايرة بينهما إلا باللفظ،

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٦٦٨)، و(٤٤٥٤)، وفي غير موضع، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وحديث الشفاعة قد رواه البخاري في عدَّة مواضع من صحيحه، فقال في باب صفة الجنة والنار: حدثنا مسدّد، حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا على ربنا، حتى يريحنا من مكاننا، فيأتون آدم، فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا عند ربنا، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ويقول: ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ويقول: ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا، فيأتونه، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ويقول: ائتوا موسى الذي كلَّمه الله، فيأتونه فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته، ويقول: ائتوا عيسى فيأتونه، فيقول: لست هناكم ائتوا محمدًا ﷺ، فقد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر فيأتوني، فأستأذن على ربي فإذا رأيته وقعت له ساجدًا، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع، واشفع تشفَّع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يُعلِّمني، ثم أشفع فيحدُّ لي حدًّا، ثم أخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدًا مثله في الثالثة، أو الرابعة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن». انتهى.

وبه يتبيَّن ما تصرَّف به العراقي في الحديث، ونسأله سبحانه الهداية والتَّوفيق.

وأمَّا قوله: إنَّ المانعين يستدلُّون... إلخ، فهذا من جملة دلائلهم الكثيرة وبراهينهم الوفيرة.

وفي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنَّه واحد[1]

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٥١٠) قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال: سمعت أبا الحسين عبد الواحد بن أبي عبد الرحمن نافلة أبي القاسم المذكور، يقول: حكى جدِّي في كتبه عن شيوخه، أنَّ أبا العتاهية =

وما أورد عليه يعلم جوابه مما تقدَّم، فلا نتعب القلم، والله تعالى أعلم.

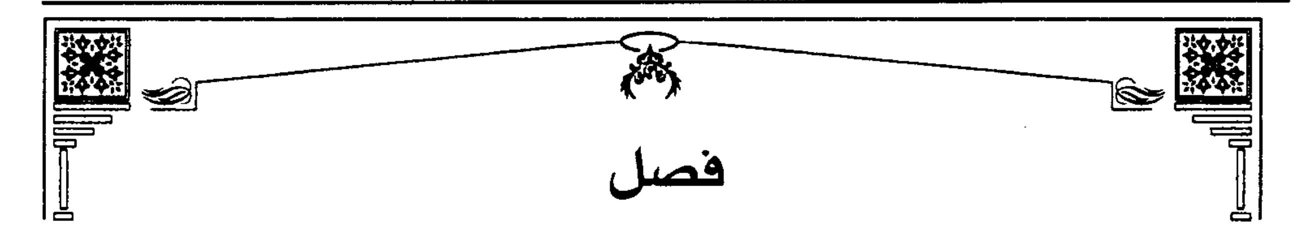
* * *

= إسماعيل بن القاسم جاء إلى دكان سقيفة الورَّاق فجلس وتحدَّث، ثم ضرب بيده إلى دفتر فكتب في ظهره:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدًا شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

ثم ألقاه ونهض، فلما كان الغد أو بعد ذلك، جاء أبو نواس، فجلس وتحدَّث وضرب بيده إلى ذلك الدفتر، فقال: أحسن قاتله الله، والله لوددته لي بجميع ما قلته، لمن هي؟ قلنا: لأبي العتاهية.

فقال: هو أحق به. . . القصة.



فصل

[استدلاله بحديث المناداة على جواز مدَّعاه، والردِّ عليه]

قال العراقي[(١)]:

الدليل السادس:

روى الحاكم في «صحيحه»، وأبو[(٢)] عوانة والبزَّار، بسند صحيح عن النّبي ﷺ أنَّه قال: «**إذا انفلتت دابة احدكم بأرض فلاة، فليناد: يا عباد الله احبسوا، فإن الله حاضر سيحبسه**»، وقد ذكر هذا الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية.. إلى آخر كلامه. ومثله الدَّليل السَّابع[(٣)].

والجواب عن هذا:

هو الجواب عن سابقه، فإنَّه على نمطه، فإنَّ ما يفيده الحديث[(٤)] نداء

---

(١) ص (٥٢). (٢) في الأصل: ابن.

(٣) وعبارته: الدليل السابع: روى الطبراني: وإن أراد عونًا فليناد يا عباد الله أعينوا... إلخ.

(٤) أي حديث: «إذا انفلتت دابة أحدكم...»، أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٩/ ١٧٧)، قال: ثنا الحسن بن عمر بن شقيق، ثنا معروف بن حسان عن سعيد عن قتادة عن ابن بريدة عن ابن مسعود به. ومن طريقه اخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» ص (٤٥٥) وعنده عن أبي بريدة عن أبيه!! وهو خطأ. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٧ برقم ١٠٥١٨) قال: ثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني به. وفي الإسناد معروف بن حسان. قال ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» =

حاضر، كنداء زيد عمرًا مثلًا ليمسك دابته، أو ليرجعها، أو ليناوله ماءً أو طعامًا أو نحو ذلك، وهذا مما لا نزاع فيه، غاية ما في الباب أنَّ عمرًا مثلًا محسوس وهؤلاء لا يرون؛ لأنَّهم إما مسلمو الجن أو ملائكة موكَّلون، لا نداء على شيء لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وأين هذا من الاستغاثة بأصحاب القبور من الأولياء والمشايخ؟

وكون المراد بعباد الله غير من ذكر، كما زعم بعض المتصوّفة: أنَّهم رجال الغيب، وأنَّهم كذا وكذا مردود، بل هو من الخرافات والعياذ بالله تعالى، ومثله: زعم وجود الأوتاد والأقطاب والأربعين، وما أشبه ذلك من الهذيان، والأسماء التي لا حقائق لها في العيان، بل هي أشبه شيء بالعنقاء، وثور السماء، ضحك الشيطان بها على عقولهم السخيفة، وآرائهم الضعيفة، والحكايات التي أوردها العراقي لا تفيد شيئًا أيضًا لما قدمناه.

وأمَّا قوله في الدليل السابع[1]: بل كيف يعلم النبي ﷺ أمته.. إلخ.

= (٨/ ٣٠ ـ علمية): منكر الحديث. ثم قال: ومعروف هذا قد روى عن عمر بن ذر نسخة طويلة، وكلها غير محفوظة.

وسعيد هو ابن أبي عروبة، وذكر الذهبي في «الميزان» (٢/ ١٥١): .... اختلط وتغيَّر بأخرة. وقال ابن حجر في «التقريب»: ثقة حافظ... لكنه كثير التدليس، واختلط، وكان من أثبت الناس في قتادة.

انظر: «الفتوحات الربانية» لابن حجر رحمه الله (٥/ ١٠٥). وأشار إلى ضعف الحديث الهيثمي رحمه الله في «المجمع» (١٠/ ١٣٢)، وانظر: «الدرر السنيّة في الفتاوى النجدية»، و«النبذة الشريفة في الرد على القبوريين» لحمد بن معمر رحمه الله ص (٧٩)، و«السلسلة الضعيفة» برقم (٦٥٥) للألباني رحمه الله، و«هذه مفاهيمنا» للشيخ صالح آل الشيخ ص (٥٢)، و«فصل المقال وإرشاد الضال في توسل الجهّال» ص (١٠١) لمحمد خوقير رحمه الله وغيرها.

(١) ص (٥٣).

فهذا من أوضح الدلائل على جهله، إذ قد ذكرنا أنَّ من له قدرة كسبيَّة قد جرت العادة بحصولها ممن أهَّله الله لها، يجوز أن يقال له: أعنِّي في حمل متاعي أو غير ذلك(١).

وأمَّا ما سواه فقد نهى الله عنه ورسوله ﷺ كما سبق.

وأمَّا قوله: إنَّ المانع لا يجوز نداء الغائب.. إلخ. مردود أيضًا بما سبق، بأنَّ هؤلاء العباد ليسوا بغائبين، وعدم رؤيتهم لا يستلزم غيبتهم، فإنَّا لا نرى الحفظة، ومع ذلك فهم حاضرون، ولا نرى الجن، ومع ذلك فهم حاضرون، وكذلك الشياطين والهواء ونحو ذلك، فإنَّ علَّة الرؤية ليس هي الوجود فقط كما حُقِّق [ذلك] في موضعه.

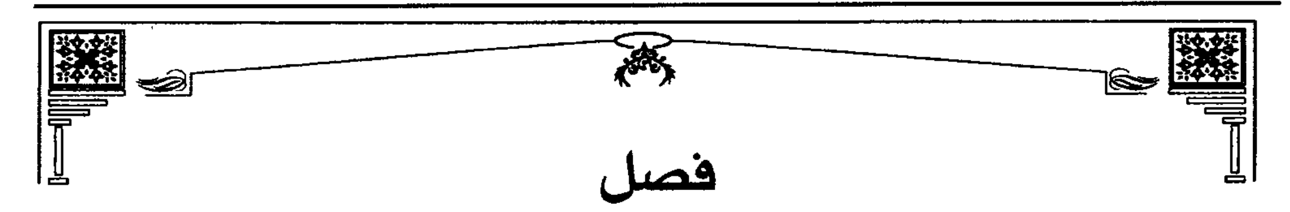
وقوله: إنَّ هذا تحكم.. إلخ. يعلم جوابه أيضًا من الكلام السابق، وقوله: ثم ما يدريك أنَّ هذا الغائب شيطان.. إلخ. فيه من الجهل والخبط ما يعجز القلم [عن] ذكره، كيف يكون شيطانًا، وقد خُلق الشيطان للإفساد لا للإصلاح، وللتفرقة لا للاجتماع، ثم إنَّ في الحديث إضافة العباد إلى الله وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا الطيّب، ولا يضاف إليه إلا الطيّب، يقال للكعبة: بيت الله لما فيه من الهدى والبركة ما لا يمكن بسطه، وكذلك المساجد، ولا يضاف إليه البيوت المستقذرة، مع أنَّ لله ما في السموات وما في

(١) قال السهسواني في «صيانة الإنسان» ص (٣٦٦): المانعون لنداء الميت والجماد وكذا الغائب، إنَّما يمنعونه بشرطين:
١ ـ أن يكون النداء حقيقيًا لا مجازيًا.
٢ ـ أن يقصد ويطلب به من المنادي ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب النفع وكشف الضرّ.

الأرض، فلا يقال للشياطين: عباد الله بهذا المعنى، وفي مثل هذا المقام[١].

❁ ❁ ❁

(١) علّق الشيخ حامد ﷺ هنا، فقال: وهذا كله على فرض تسليم صحة الحديث، ولكن الحديث معلول لا تقوم به حجة، وشأن حزب الشيطان أن يقبلوا كل ما يزخرف لهم به إمامهم من تحريف نص صحيح، أو الاعتماد على الواهيات وخيوط العناكب، والموضوع أصل الإسلام الذي هو إخلاص الدين لله، فلا يثبت إلا بالصحيح القوي الصريح عند من يحرص على نجاة نفسه من غضب الله ولعنته في الدنيا والآخرة.



فصل

[استدلال العراقي بقصة العتبي والرد عليها]

قال العراقي[1]:

الدليل الثامن:

روى ابن عساكر في «تاريخه» وابن الجوزي في «مثير[2] الغرام الساكن»، والإمام هبة الله في «توثيق عرى الإيمان» عن العتبي: أنَّ أعرابيًّا جاء إلى قبر النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وقد جئتك مستغفرًا من ذنبي، متشفعًا بك إلى ربِّي، ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ منْ دُفنتْ في القاعِ أعظمُهُ فطابَ منْ طيبهنَّ القاعُ والأكمُ
رُوحي الفداءُ لقبرٍ أنتَ ساكنهُ فيهِ العفافُ وفيهِ الجودُ والكرمُ

قال العتبي: فحملتني عيناي، فرأيت رسول الله ﷺ في النَّوم، فقال: «يا عتبيُّ الحق الأعرابي، فبشّره بأنَّ الله تعالى قد غفر له»، فتلقى هذه الحكاية العلماء بالقَبول.. إلى آخر ما قال.

والجواب:

إنَّ هذه الحكاية التي ذكرها بعضهم يرويها عن العتبي[3] بلا إسناد،

---

(١) ص (٥٣).

(٢) في الأصل: سير.

(٣) هو: أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن =

وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالي، وبعضهم يرويها عن محمد ابن حرب عن أبي الحسن الزعفراني عن الأعرابي.

وقد ذكرها البيهقي في «شعب الإيمان»[١] ـ بإسناد مظلم ـ عن محمد بن روح بن يزيد البصري، حدَّثني أبو حرب الهلالي قال: حجَّ أعرابي فلمَّا جاء إلى مسجد رسول الله ﷺ أناخ راحلته فعقلها، ثم دخل المسجد حتى أتى القبر، ثم ذكر نحو ما تقدم. وقد وضع لها بعض الكذَّابين إسنادًا إلى علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه.

وفي الجملة ليست هذه الحكاية المذكورة مما تقوم بها حجة، وإسنادها مظلم مختلق، ولفظها مختلق أيضًا، ولو كانت ثابتة لم يكن فيها حجّة على المطلوب، ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية، ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم. قاله ابن قدامة رحمه الله تعالى في «الصارم المنكي»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «اقتضاء الصِّراط المستقيم»: لم يذكر أحد من أهل العلم أنَّه استحبّ أن يُسأل، يعني النبي ﷺ بعد الموت لا استغفارًا ولا غيره، وكلامه المنصوص عنه وعن أمثاله ينافي هذا، وإنَّما يعرف مثل هذا في حكاية ذكرها طائفة من متأخري الفقهاء عن أعرابي أتى قبر النبي ﷺ وتلا هذه الآية، وأنشد بيتين[٣]، ثم قال بعد ذكرهما[٤]: ولهذا استحبّ طائفة من متأخري الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد مثل ذلك،

= عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب، كان من أفصح الناس، صاحب أخبار ورواية للآداب، وحدَّث عن أبيه وسفيان بن عيينة. توفي سنة ثمان وعشرين ومئتين.

(١) برقم (٣٨٨٠).

(٢) ص (٢٦٣).

(٣) انظر: «المغني» لابن قدامة (٥/ ٤٦٥ ـ ط هجر).

(٤) أي: شيخ الإسلام.

واحتجوا بهذه الحكاية التي لا يثبت بها حكم شرعي، لا سيَّما في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعًا مندوبًا، لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأعمل به، [وأسرع إليه] من غيرهم، بل قضاء الله حاجة مثل هذا الأعرابي وأمثاله، لها أسباب قد بسطت في غير هذا الموضع.

وليس كل من قضيت حاجته، بسبب يقتضي أن يكون السبب مشروعًا مأمورًا به، فقد كان النبي ﷺ يُسأل في حياته المسألة فيعطيها لا يرد سائلًا، وتكون المسألة محرمة في حق السائل، حتى قال: «**إني لأعطي أحدهم العطية فيخرج بها يتأبطها نارًا**»: قالوا: يا رسول الله، فلم تعطيهم؟ قال: «**يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل**» انتهى(١).

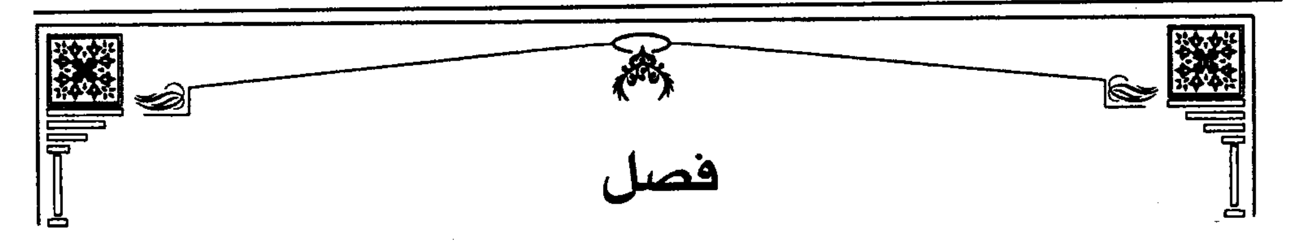
وقول العراقي(٢): وذكرها أئمة المذاهب الأربع.. إلخ. كذب لا أصل له، ولم يذكرها إلا بعض المتأخرين(٣)، ومثلهم لا يعتدّ بهم في هذه المقامات فلا تغترّ به.

***

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٨٨) بتحقيق ناصر العقل، والحديث تقدَّم.

(٢) ص (٥٤).

(٣) كابن قدامة في «المغني» (٥/ ٤٦٥)، وقال: ويروى، والنووي في «المجموع» (٨/ ١٥٧) وغيرهما.



فصل

[استدلاله بقدوم الأعرابي الذي جاء إلى القبر مستغفرًا بعد دفن الرسول ﷺ والرد عليه]

قال العراقي[(١)]:

الدليل التاسع:

ذكر القسطلاني في «المواهب اللدنيَّة»، والسَّمهودي في «الوفا وخلاصة الوفا»، قال[(٢)]: روى أبو سعيد السَّمعاني عن عليٍّ كرَّم الله وجهه، أنَّ أعرابيًّا قدم علينا بعد ما دفن رسول الله ﷺ بثلاثة أيَّام، فرمى بنفسه على قبره، وحثى من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أُنزل إليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ الآية، قد ظلمت نفسي، وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر: قد غفر لك[(٣)].

الجواب:

كما قال الحافظ ابن قدامة في كتابه «الصَّارم المنكي في الردِّ على السّبكي»[(٤)]: إنَّ هذا خبر منكر موضوع، وأثر مختلق مصنوع، لا يصلح الاعتماد عليه، ولا يحسن المصير إليه، وإسناده ظلمات بعضها فوق بعضها.

---

(١) ص (٥٤). (٢) في «صلح الإخوان»: قالا.

(٣) انظر: «صيانة الإنسان عن وسوسة زيني دحلان» للسهسواني ص (٢٤٨).

(٤) ص (٣٢١) بتحقيق عقيل المقطري وللكتاب عدة طبعات، ويُعمل الآن على إخراجه في رسالة علمية مقدمة لجامعة الإمام.

ومن ذكره رواه عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الكرخي، عن علي بن محمد بن علي، حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائي، قال: حدثني أبي عن أبيه، عن سلمة بن كهيل عن أبي صادق عن علي بن أبي طالب.. إلخ.

قال ابن قدامة[١]: والهيثم جدُّ أحمد بن محمد بن الهيثم، أظنه ابن عدي الطائي[٢]، فإن يكنه فهو متروك كذاب، وإلا فهو مجهول، وقد ولد الهيثم بن عدي بالكوفة ونشأ بها وأدرك زمان سلمة بن كهيل فيما قيل، ثم انتقل إلى بغداد فسكنها، قال عباس الدوري: سمعت يحيى بن معين يقول: الهيثم بن عدي كوفي، ليس بثقة، كان يكذب، وقال العجلي وأبو داود: كذاب، وقال أبو حاتم الرازي والنسائي والدولابي والأزدي: متروك الحديث، وقال السعدي: ساقط، قد كشف قناعه، وقال أبو زرعة: ليس بشيء، وقال البخاري: سكتوا عنه، أي تركوه، وقال ابن عدي: ما أقل ما له من المسند، وإنما هو صاحب أخبار وأسماء ونسب وأشعار، وقال ابن حبان: كان من علماء[٣] الناس بالسير وأيام الناس، وأخبار العرب، إلا أنَّه روى عن الثقات أشياء كأنَّها موضوعات، يسبق إلى القلب أنَّه كان يدلِّسها.

وقال الحاكم أبو أحمد: ذاهب الحديث، وقال الحاكم أبو عبد الله: الهيثم بن عدي[٤] الطائي في علمه ومحلِّه، حدَّث عن جماعة من الثقات أحاديث منكرة، وقال العبَّاس بن محمد: سمعت بعض أصحابنا يقول: قالت جارية الهيثم: كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي، فإذا أصبح جلس يكذب.

***

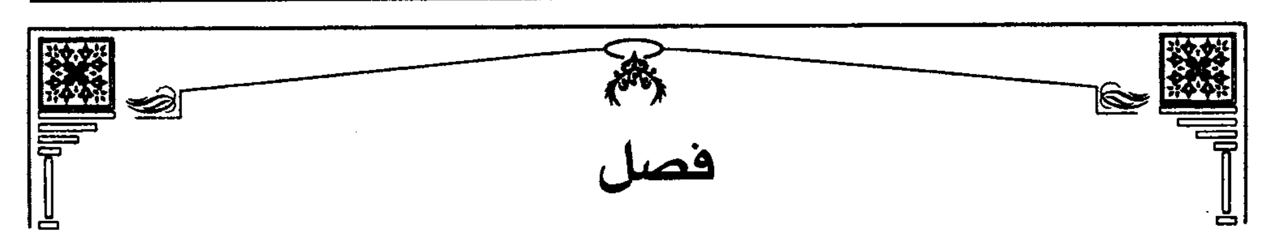
---

(١) ص (٣٢١).

(٢) انظر: «الصيانة» ص (٢٥٠).

(٣) في ط: أعلم.

(٤) وقع في الأصل: علي.



فصل

[الكلام على قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ...﴾ في مقامين]

ثم إن بعض المتصلِّفين[١] الذين ليس لهم حظّ من العلم، عمَّم المجيء في الآية وجعله شاملًا للمجيء إلى القبر، واستدل بها على مدَّعاه الباطل، ونحن نتكلم على الآية في مقامين:

أحدهما: عدم دلالتها على المطلوب.

الثاني: بيان دلالتها على نقيضه، وإنما يتبين الأمران بفهم الآية، وما أريد بها وسيقت له، وما فهمه منها أعلم الأمة بالقرآن ومعانيه، وهم سلف الأمة ومن سلك سبيلهم، ولم يفهم منها أحد من السلف والخلف إلا المجيء إليه ﷺ في حياته ليستغفر لهم، وقد ذمَّ الله تعالى من تخلَّف عن هذا المجيء إذ ظلم نفسه، وأخبر أنَّه من المنافقين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

وكذلك هذه الآية إنَّما هي في المنافق، الذي رضي بحكم كعب بن الأشرف أو غيره من الطواغيت، دون حكم رسول الله ﷺ، فظلم نفسه بهذا أعظم ظلم، ثم لم يجىء إلى رسول الله ﷺ ليستغفر له، فإن المجيء إليه

(١) في «القاموس» مادة (صلف): . . . والتكلُّم بما يكرهه صاحبك، والتمدُّح بما ليس عندك.

ليستغفر له توبة، وتنصل من الذنب، وهذه كانت عادة الصحابة معه ﷺ، أنَّ أحدهم متى صدر منه ما يقتضي التوبة جاء إليه، فقال: يا رسول الله فعلت كذا وكذا، فاستغفر لي، وكان هذا فرق بينهم وبين المنافقين(١).

فلما استأثر الله عز وجل بنبيِّه ﷺ ونقله من بين أظهرهم إلى دار كرامته، لم يكن أحد منهم قط يأتي إلى قبره ويقول: يا رسول الله فعلت كذا وكذا، فاستغفر لي، ومن نقل هذا عن أحد منهم فقد جاهر بالكذب والبُهت،

(١) قال المصحّح للطبعة الثانية: سياق الآيات من قوله تعالى: (٤: ٦٠ ـ ٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

يدل على أنّ هؤلاء المنافقين أجرموا في حق الرسول ﷺ، كما أجرموا في حق الله، فإنّه لن يُعرض أحد عن التحاكم إلى رسول الله إلا وهو كاره له من قلبه محتقر له ولرسالته، معتقد أنه الإجحاف والظلم والفساد، وهذه أشد إهانة وأعظم أذى لرسول الله ﷺ، فتعلق بهم لذلك حق شخصي للرسول ﷺ لا تصح توبتهم إلى الله ولا تقبل إلا إذا أصلحوا ما كانوا قد أفسدوا بهذا الأذى والإهانة لرسول الله وهديه، وذلك بأن يرجعوا عن التحاكم إلى الطاغوت إلى التحاكم إليه ﷺ وإلى سنته ورسالته، وأن يقبلوا حكمه ويسلموا له وينفذوه، وأن تنشرح صدورهم بذلك أتم الانشراح ويسلموا له أعظم التسليم.

ولذلك أقسم سبحانه على نفي الإيمان عنهم مهما قالوا كلمتي الشهادتين وصلّوا وصاموا وحجوا وقرأوا القرآن، ما دام في قلوبهم حرج وضيق من التحاكم إلى رسول الله ﷺ وإلى سنته وهديه في كل شؤونهم، وهذا هو المجيء إلى رسول الله ﷺ وإلى سنته وحكمه والخروج به من ظلم أنفسهم، واستغفارهم مما أجرموا في حقه ﷺ.

والله يرزقنا من فضله هذا الإيمان، ويمنُّ على المسلمين بإخراجهم من هذا الظلم الذي هم فيه بكراهيتهم لحكم الرسول ورضاهم بالتحاكم إلى الطاغوت، ليدفع الله عنهم ما حل بهم من المصائب.

وافترى على كل الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهم خير القرون على الإطلاق، حيث تركوا هذا الواجب الذي ذمَّ الله سبحانه من تخلّف عنه، وجعل التخلّف عنه من أمارات النفاق، [ووفق له لمن لا توبة له من الناس، ولا يعد في أهل العلم][١].

وكيف أغفل هذا الأمر أئمة الإسلام! وهداة الأنام من أهل الحديث والفقه والتفسير، ومن لهم لسان صدق في الأمة، فلم يدعوا إليه ولم يحضُّوا عليه ولم يرشدوا إليه، ولم يفعله أحد منهم البتة، بل المنقول الثابت عنهم ما قد عرف مما يسوء الغلاة فيما يكرهه وينهى عنه، من الغلو والشرك والحثِّ على ما يحبه ويأمر به من التوحيد والعبودية، ولما كان هذا المنقول شجًى في حلوق الغلاة، وقذًى في عيونهم، وريبة في قلوبهم، قابلوه بالتكذيب، والطعن في الناقل، ومن استحيى منهم من أهل العلم بالآثار قابله بالتَّحريف والتَّبديل، ويأبى الله إلا أن يُعلي منار الحق، ويُظهر أدلَّته ليهتدي المسترشد وتقوم الحجة على المعاند، فيعلي الله بالحق من يشاء، ويطفئ نور بصر من يشاء.

ويا لله تعالى العجب!! أكان ظلم الأمة لأنفسها ونبيُّها حيٌّ بين أظهرها موجود؟! وقد دعيت فيه إلى المجيء إليه ليستغفر لها، وذمَّ من تخلَّف عن هذا المجيء إليه ليستغفر لهم، وبهذا تبيَّن أنَّ هذا التأويل الذي تأوّل عليه المعترض هذه الآية تأويل باطل قطعًا، ولو كان حقًّا لسبقونا إليه، علمًا وعملًا وإرشادًا ونصيحةً، ولا يجوز إحداث تأويل في آية أو سنة لم يكن على عهد السلف ولا عرفوه، ولا بينوه للأمة، فإنَّ هذا يتضمَّن أنَّهم جهلوا الحق في هذا وضلوا عنه، واهتدى إليه هذا المعترض وأضرابه، فكيف إذا كان التأويل يخالف تأويلهم ويناقضه، وبطلان هذا التأويل أظهر من أن يطنب في ردّه، وإنما ننبه عليه بعض التنبيه.

---

(١) زيادة من «الصارم المنكي».

ومما يدلّ على بطلان تأويله قطعًا: أنَّه لا يشك مسلم أنَّ من دُعي إلى رسول الله ﷺ في حياته ـ قد ظلم نفسه ليستغفر له ـ فأعرض عن المجيء وأباه مع قدرته عليه، كان مذمومًا غاية الذم، مغموصًا[1] بالنفاق، ولا كذلك من دُعي إلى قبره ليستغفر له، ومن سوَّى بين الأمرين وبين المدعوين وبين الدعوتين، فقد جاهر بالباطل، وقال على الله وكلامه ورسوله وأمناء دينه غير الحق.

وأما دلالة الآية على خلاف تأويله، فهو أنَّه سبحانه وتعالى صدرها بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤]، وهذا يدل على أنَّ مجيئهم إليه ليستغفر لهم إذ ظلموا أنفسهم طاعة له، ولهذا ذم من تخلَّف عن هذه الطاعة، ولم يقل مسلم قطُّ: إنَّ على من ظلم نفسه بعد موته ﷺ أن يذهب إلى قبره ويسأله أن يستغفر له، ولو كان هذا طاعة لكان خير القرون قد عصوا هذه الطاعة وعطَّلوها، ووفق لها هؤلاء الغلاة العصاة [الضالون]؛ وهذا بخلاف قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، فإنَّه نفى الإيمان عمن لم يحكمه، وتحكيمه هو تحكيم ما جاء به حيًّا وميتًا، ففي حياته كان هو الحاكم بينهم بالوحي، وبعد وفاته نوَّابه وخلفاؤه.

يوضِّح ذلك أنَّه قال: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»[2]، ولو كان شرع لكل

---

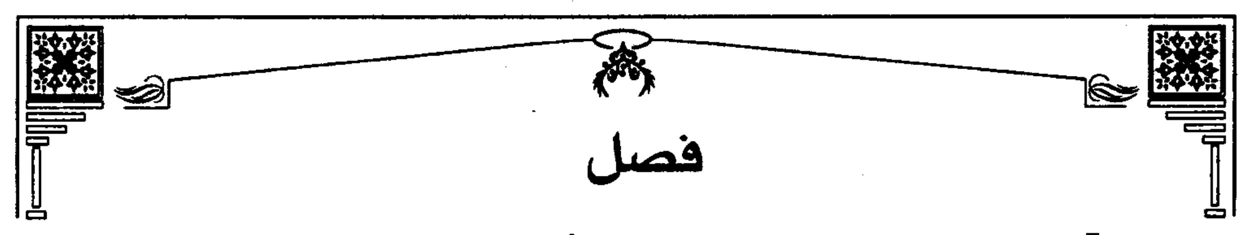
(١) في الأصل: مغموضاً.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود برقم (٢٠٢٤) والبيهقي في «حياة الأنبياء» كلهم من طريق عبد الله بن نافع عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا، وصلُّوا عليّ حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني». وحسَّن إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٤١).

مذنب أن يأتي إلى قبره ليستغفر له، لكان القبر أعظم أعياد المذنبين، وهذا مصادرة صريحة لدينه وما جاء به، وتمام الكلام في كتاب «الصارم المنكي في الردّ على السبكي»[1]. وما ذكرناه كفاية والله الهادي.

* * *

(١) الألوسي نقله بتمامه. وهذا الفصل عنده ص (٣١٧ ـ ٣١٩)، والألوسي يسمي الكتاب بالصارم المبكي.



فصل

[استدلاله بقصة مالك مع أبي جعفر المنصور في التأدُّب مع الرسول ﷺ]

قال العراقي(١):

الدليل العاشر:

ذكر التقيُّ السبكيُّ في «شفاء الأسقام»، والقسطلاني(٢) في «المواهب» والسمهودي(٣) في «الخلاصة»، وابن حجر المكي(٤) في «الجوهر المنظم» وغيرهم [في] عبارة «الشفاء» للقاضي عياض بسنده الحسن، إلى الإمام مالك بن أنس، أنَّه تناظر مع أبي جعفر المنصور، فقال له الإمام: يا أمير المؤمنين! إن الله أدَّب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢]، ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾. الآية [الحجرات: ٣]، وإنَّ حرمته ميتًا كحرمته حيًّا، فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم يوم

---

(١) في كتابه «صلح الإخوان» ص (٥٤).

(٢) هو: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني، أبو العباس. له مصنفات. توفي في القاهرة سنة (٩٢٣هـ). «الأعلام» (١/ ٢٣٢).

(٣) هو: علي بن عبد الله بن أحمد الحسني أبو الحسن. له تصانيف. توفي سنة (٩١١هـ). «الأعلام» (٤/ ٣٠٧).

(٤) هو: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي الأنصاري، أبو العباس. له تصانيف. توفي سنة (٩٧٤هـ). «الأعلام» (١/ ٢٣٤).

القيامة، بل استقبله واستشفع به، فيشفعه الله فيك، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ . .﴾ الآية. انتهى.

والجواب:

إنَّ هذه الحكاية ليست بصحيحة، كما نبَّه عليها جمع من الحفاظ، منهم الحافظ أبو عبد الله الشهير بابن قدامة، وقد أطال في الطعن على إسنادها وسوء حال رجالها. . إلى أن قال: فانظر هذه الحكاية وضعفها وانقطاعها ونكارتها وجهالة بعض رواتها، ومخالفتها لما ثبت عن مالك وغيره من العلماء، ومنهم الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ فقد قال في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم»[(١)]: ولم يكن أحد من السلف يأتي إلى قبر نبي أو غير نبي لأجل الدعاء عنده، ولا كان الصحابة يقصدون الدعاء عند قبر النبي ﷺ ولا عند قبر غيره من الأنبياء، وإنَّما كانوا يصلّون ويسلِّمون على النبي ﷺ وعلى صاحبيه، واتفق الأئمة على أنَّه إذا دعا بمسجد النبي ﷺ لا يستقبل قبره، وتنازعوا عند السلام عليه.

فقال مالك وأحمد وغيرهما: يستقبل قبره ويسلّم عليه، وهو الذي ذكره أصحاب الشافعي، وأظنُّه منصوصًا عنه، وقال أبو حنيفة: بل يستقبل القبلة ويسلّم عليه، هكذا في كتب أصحابه، وقال مالك، فيما ذكره إسماعيل بن إسحاق في «المبسوط»[(٢)]، والقاضي عياض وغيرهم: لا أرى أن يقف عند

---

(١) (٢/ ٤١٥) وكذلك ردَّها في «الفتاوى» (١/ ٢٢٨)، وكتابه «تلخيص كتاب الاستغاثة أو الردّ على البكري» (١/ ٨٥)، وانظر: «قاعدة في التوسل والوسيلة» له أيضًا ص (١٤٧).

(٢) كتاب «المبسوط» في الفقه، ومؤلفه هو إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي فقيه على مذهب مالك. جليل التصانيف (ت ٢٨٢هـ). «الأعلام» (١/ ٣١٠).

قبر النبي ﷺ ويدعو، ولكن يسلّم ويمضي[١].

وقال أيضًا في «المبسوط»: لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج أن يقف على قبر النبي ﷺ ويدعو له، ولأبي بكر وعمر، قيل له: فإنَّ ناسًا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر وربما وقفوا في الجمعة، أو في اليوم المرَّة أو المرَّتين، أو أكثر عند القبر، فيسلِّمون ويدعون ساعة، فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلّا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أوَّل هذه الأمّة وصدرها أنَّهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده، وقد تقدَّم في ذلك من الآثار عن السَّلف والأئمة ما يوافق هذا ويؤيِّده، من أنَّهم كانوا إنما يستحبُّون عند قبره ما هو من جنس الدّعاء له والتَّحيَّة كالصَّلاة والسَّلام، ويكرهون قصده للدّعاء والوقوف عنده للدّعاء، ومن يرخِّص منهم في شيء من ذلك فإنَّه إنَّما يرخص فيما إذا سلَّم عليه، ثم أراد الدُّعاء أن يدعو مستقبل القبلة، إما مستدبر القبر وإمّا منحرفًا عنه، وهو أن يستقبل القبلة ويدعو، ولا يدعو مستقبل القبر، وهكذا المنقول عن سائر الأئمَّة، ليس في أئمة المسلمين من استحب للمرء أن يستقبل قبر النبي ﷺ، ويدعو عنده، وهذا الذي ذكرناه عن مالك يبيِّن حقيقة الحكاية المأثورة عنه.

وهي الحكاية التي ذكرها القاضي عياض[٢]، عن محمد بن حميد قال:

---

(١) «الشفاء» (٢/ ٨٤).

(٢) «الشفاء» للقاضي عياض (٢/ ٥٩٥)، وقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيميّة في «تخليص كتاب الاستغاثة المعروف بالردّ على البكري» (١/ ٥٨ تحقيق محمد عجال) في كلام له: . . . ومثل القاضي عياض بن موسى البستي مع علمه وفضله ودينه.
أنكر العلماء عليه كثيرًا مما ذكره في «شفائه» من الأحاديث والتفاسير التي يعلمون أنها من الموضوعات والمناكير، مع أنّه قد أحسن فيه، وأجاد بما فيه من تعريف حقوق خير العباد. . .» اهـ.

ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ، قال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدّب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية.. وذكر باقي الحكاية، ثم قال: فهذه الحكاية على هذا الوجه إمَّا أن تكون ضعيفة أو مغيَّرة، وإمَّا أن تفسَّر بما يوافق مذهبه، إذ قد يُفهم منها ما هو خلاف مذهبه المعروف، بنقل الثقات من أصحابه، فإنَّه لا يختلف مذهبه أنَّه لا يستقبل القبر عند الدعاء، وقد نصَّ على أنَّه لا يقف عند الدعاء مطلقًا.

وذكر طائفة من أصحابه: أنَّه يدنو من القبر ويسلِّم على النبي ﷺ، ثم يدعو مستقبل القبلة، ويولِّيه ظهره، وقيل: [لا يوليه ظهره][(١)] فاتفقوا في استقبال القبلة وتنازعوا في تولية القبر ظهره وقت الدعاء، ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون مالك رحمه الله سُئل عن استقبال القبر عند السلام عليه، وهو يسمّي ذلك دعاء، فإنَّه قد كان من فقهاء العراق من يرى أنَّه عند السلام عليه يستقبل القبلة أيضًا، ومالك يرى استقبال القبر في هذا الحال كما تقدّم.

وكما قال في رواية ابن وهب عنه: إذا سلَّم على النبي ﷺ يقف، ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة، ويدنو، ويسلم ويدعو، ولا يمسّ القبر بيده، و[قد] تقدم قوله: أنَّه يصلي عليه، ويدعو له، ومعلوم أنَّ الصلاة عليه والدعاء له توجب شفاعته للعبد يوم القيامة، كما قال الحديث الصحيح: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنَّه من صلَّى عليَّ مرّة صلَّى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنَّها درجة في الجنة لا تنبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت عليه شفاعتي يوم القيامة**».

(١) الزيادة من «الاقتضاء».

فقول مالك في هذه الحكاية ـ إن كان ثابتًا عنه ـ معناه أنَّك إذا استقبلته وصليت عليه وسلَّمت عليه؛ وسألت الله له الوسيلة يشفع فيك يوم القيامة، فإنَّ الأمم يوم القيامة يتوسَّلون بشفاعته، واستشفاع العبد به في الدنيا هو فعل ما يشفع به له يوم القيامة، كسؤال الله تعالى له الوسيلة، ونحو ذلك. وكذلك ما نقل عنه من رواية ابن وهب: إذا سلَّم على النبي ﷺ ودعا، يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة، ويدعو ويسلِّم، يعني دعاء للنبي ﷺ ولصاحبيه، فهذا هو الدعاء المشروع هناك، كالدعاء عند زيارة قبور سائر المؤمنين، وهو الدعاء لهم، فإنه أحقُّ النَّاس أن يصلَّى عليه ويسلَّم عليه، ويدعى له ـ بأبي هو وأمي ﷺ، وبهذا تتفق أقوال مالك، ويفرق بين الدعاء الذي أحبه والدعاء الذي كرهه، وذكر أنَّه بدعة.

وأمَّا الحكاية في تلاوة مالك هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، فهو والله تعالى أعلم باطل، فإنَّ هذا لم يذكره أحد من الأئمة فيما أعلم، ولم يذكر احد منهم أنَّه استحب أن يسأل بعد الموت لا استغفارًا ولا غيره، وكلامه المنصوص عنه وأمثاله ينافي هذا، وإنما يعرف مثل هذا في حكاية ذكرها طائفة من متأخري الفقهاء عن أعرابي، أنَّه أتى قبره وتلا هذه الآية وأنشد بيتين:

يا خير مَنْ دُفِنتْ في القاع أعظمُه ... فطاب من طيبهنَّ القاعُ والأكمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنه ... فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

ولهذا استحب طائفة من متأخري الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد مثل ذلك، واحتجوا بهذه الحكاية التي لا يثبت بها حكم شرعي، لا سيما في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعًا مندوبًا، لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأعمل به من غيرهم، بل قضاء الله حاجة مثل هذا الأعرابي وأمثاله، لها أسباب قد بُسطت في غير هذا الموضع، وليس كل من قضيت حاجته بسبب

يقتضي أن يكون السبب مشروعًا مأمورًا به، فقد كان رسول الله ﷺ يسأل في حياته المسألة فيعطيها لا يردّ سائلًا، وتكون المسألة محرمة في حق السائل، حتى قال: «**إني لأعطي أحدهم العطية فيخرج بها يتأبطها نارًا**، قالوا: يا رسول الله، فلم تعطيهم؟ قال: **يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل**»[١]، وقد يفعل الرَّجل العمل الذي يعتقده صالحًا، ولا يكون عالمًا أنَّه منهيّ عنه، فيثاب على حسن قصده، فيعفى عنه لعدم علمه.

وهذا باب واسع، وعامة العبادات المبتدعة المنهي عنها قد يفعلها بعض الناس، ويحصل له بها نوع من الفائدة، وذلك لا يدل على أنَّها مشروعة، ولو لم تكن مفسدتها أغلب من مصلحتها لما نُهي عنها، ثم الفاعل قد يكون متأولًا أو مخطئًا، مجتهدًا أو مقلدًا، فيغفر له خطأه، ويثاب على ما يفعله من الخير المشروع المقرون بغير المشروع، كالمجتهد المخطئ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أنَّه قد عُلم أنَّ مالكًا من أعلم الناس بمثل هذه الأمور، فإنه مقيم بالمدينة يرى ما يفعله التابعون وتابعوهم، ويسمع ما يفعلونه عن الصحابة وأكابر التابعين، وهو ينهى عن الوقوف عند القبر للدعاء، ويذكر أنَّه لم يفعله السلف، وقد أجدب الناس على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستسقى بالعبَّاس وقال: اللَّهمَّ إنَّا كنَّا إذا أجدبنا نتوسَّل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسَّل إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون[٢]. فاستسقوا به كما كانوا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٠١٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

فائدة: ذكرها ابن حجر في «الفتح» (٢/ ٥٧٧) في صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة عن الزبير بن بكار بإسناد له، قال ـ أي العباس ـ: اللهمَّ إنه لم ينزل بلاء إلّا بذنب، ولم يكشف إلّا بتوبة، وقد توجَّه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، =

يستسقون بالنبي ﷺ في حياته، وهم إنما كانوا يتوسَّلون بدعائه وشفاعته لهم فيدعو لهم، ويدعون معه، كالإمام والمأمومين من غير أن يكونوا يقسمون على الله بمخلوق به.

ولهذا قال الفقهاء: يستحب الاستسقاء بأهل الخير والدِّين، والأفضل أن يكونوا من أهل بيت النَّبي ﷺ، وقد استسقى معاوية بيزيد بن الأسود الجرشي، وقال: اللَّهم إنا نستسقي بيزيد بن الأسود، يا يزيد ارفع يديك، فرفع يديه ودعا الناس حتى أُمطروا[1]، ولم يذهب أحد من الصَّحابة إلى قبر نبي ولا غيره، يستسقي عنده ولا به.

والعلماء استحبُّوا السَّلام على النبي ﷺ للحديث الذي في «سنن» أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: **«ما من رجل يسلم عليَّ إلا ردّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام»**[2]، هذا مع ما في النسائي وغيره

= وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث...
وقد ذكر أيضًا ابن حجر في تقديم عمر للعباس ومتى كان ذلك؟ فقال: وأخرجه أيضًا من طريق داود عن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، قال: استسقى عمر ابن الخطاب عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب، فذكر الحديث، وفيه: فخطب الناس عمر فقال: إنَّ رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله.

(١) قال ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٦٧٣) في ترجمة يزيد بن الأسود العنسي، بعد أن ذكر القصة: وأخرجه أبو زرعة الدمشقي ويعقوب بن سفيان في «تاريخهما» بسندٍ عن سليم بن عامر.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود برقم (٢٠٤١)، والبيهقي في كتابيه «السنن الكبرى» (٥/ ٢٤٥)، و«شعب الإيمان» (٤/ ٢١١) كلهم من طريق أبي عبد الرحمن المقرئ، عن حيوة بن شريح، عن أبي صخر عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عنه به. وحسَّن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٥/ ٣٣٨).

عنه ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله وكل بقبري ملائكة يبلِّغوني عن أمتي السلام**»[١].

وفي «سنن» أبي داود وغيره عنه ﷺ أنَّه قال: «**أكثروا عليَّ من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة، فإنَّ صلاتكم معروضة عليّ**»، فقالوا: يا رسول الله، كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ أي: بليت، فقال: «**إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء**»[٢]، فالصَّلاة عليه بأبي هو وأمي، والسلام عليه كما أمر الله به ورسوله ﷺ.

وقد ثبت في الصَّحيح أنَّه قال: «**من صلَّى عليَّ مرّة صلَّى الله عليه عشرًا**»[٣]، والمشروع لنا عند زيارة الأنبياء والصالحين وسائر المؤمنين هو من جنس المشروع عند جنائزهم، فكما أنَّ المقصود بالصلاة على الميت الدعاء له، فالمقصود بزيارة قبره الدعاء له، كما ثبت عن النبي ﷺ في «الصحيح» و«السنن» و«المسند»: أنَّه كان يعلِّم الصحابة إذ زاروا[٤] القبور أن يقول

---

(١) أخرجه النسائي (٣/ ٤٣) بنحوه، وأحمد في «المسند» (١/ ٣٨٧)، والدارمي وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي برقم (٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٥٦)، وغيرهم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ بلفظ: «إنَّ لله ملائكة سيَّاحين...»، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٨)، وأبو داود برقم (١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ٩١)، وابن ماجه برقم (١٠٨٥)، وابن حبَّان في «صحيحه» برقم (٥٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٧٨) كلهم من طريق حسين الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس فذكره...
وصحّحه ابن القيم في «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام» ص (١٥٠)، والنووي في «الأذكار» (٩٧).

(٣) أخرجه ابن حبان برقم (٩٠٥)، والطبراني في «الأوسط» برقم (٢٧٦٧)، (٤٩٤٨)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٦٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٦١)، وأبو يعلى في «مسنده» برقم (٤٠٠٢)، (٦٥٢٧).

(٤) في الأصل: زكروا، والصواب ما أثبت.

قائلهم: **«السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، اللّهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنّا بعدهم واغفر لنا ولهم»**(١).

فهذا دعاء خاصٌّ للميِّت كما في دعاء الصَّلاة على الجنازة الدّعاء العام والخاص.

قال الشيخ(٢): وقد قال الله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٨٤]، فلما نهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأجل كفرهم، دلَّ ذلك بطريق التعليل والمفهوم على أنَّ المؤمن يُصلَّى عليه، ويقام على قبره، [كما ثبت عن النبي ﷺ أنَّه كان بعد أن يدفن أحد أصحابه يقوم على قبره]، ثم يقول: **«سلوا له التثبيت فإنَّه الآن يُسْأَلُ»**(٣).

فأمَّا أن يقصد بالزيارة: سؤال الميت أو الإقسام به على الله تعالى، أو استجابة الدعاء عند تلك البقعة، فهذا لم يكن من فعل أحد من سلف الأمة، لا الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، وإنما حدث ذلك بعد ذلك، بل قد كره مالك وغيره من العلماء أن يقول القائل: زرنا قبر النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٠٢)، وابن ماجه برقم (١٦١٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١٧٣) من حديث أبي بريدة رضي الله عنه.

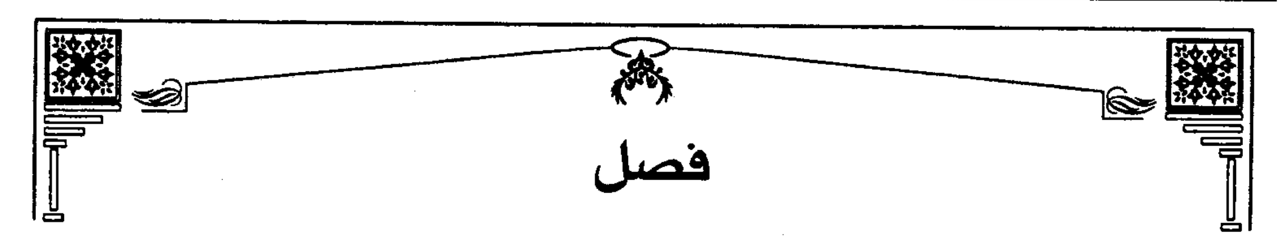
(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٩٤)، ونقل ابن عبد الهادي في «الصارم المنكي» كلام شيخ الإسلام بتمامه.

(٣) الحديث بتمامه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ، إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت، فإنّه الآن يُسأل» اخرجه أبو داود برقم (٣٢٢١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ثم حكى ما ذكره القاضي عياض في تأويل قول مالك، فراجعه[١].
والله تعالى أعلم.

* * *

(١) «الشفاء» للقاضي عياض (٢/ ٨٣).



فصل

[استدلاله بقصة الذين جاعوا حتى جاءهم العلوي بالطعام]

قال العراقي[(١)]:

الدليل الحادي عشر:

ذكر ابن الجوزي[(٢)] في كتابه «الوفا بفضائل المصطفى ﷺ» بسنده إلى الدارمي، قال: حدثنا معمر بن عبد الواحد الأصفهاني بالروضة بالمدينة، شرَّفها الله تعالى، قال: أنبأنا عمر بن عبد الله أخبرنا محمد بن عبد الواحد، أنَّه سمع أبا بكر محمد بن الخطاب، قال: سمعت عبد الله بن صالح، قال: سمعت أبا بكر المقري يقول: كنت أنا وأبو الشيخ في حرم رسول الله ﷺ وكنّا على حالة، وأثّر فينا الجوع فواصلنا ذلك اليوم، فلمَّا كان وقت العشاء حضرت [عند] قبر النبي ﷺ وقلت: يا رسول الله الجوع الجوع، وانصرفت، فقال لي أبو القاسم: فإمّا أن يكون الرِّزق أو الموت، قال أبو بكر: فنمت [أنا] وأبو الشَّيخ، والطَّبراني جالس ينظر في شيء، فحضر بالباب علوي، فدقّ الباب ففتحنا، فإذا معه غلامان مع كلِّ غلام زنبيل فيه شيء كثير، فجلسنا فأكلنا فولَّى وترك الباقي عندنا، فلمَّا فرغنا من الطعام. قال العلوي:

---

(١) ص (٥٤).

(٢) هو: عبد الرحمن بن علي بن محمود بن علي القرشي التيمي البكري أبو الفرج ابن الجوزي، الفقيه الحنبلي الواعظ، له مصنفات كثيرة. توفي في بغداد سنة (٥٩٧هـ). «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٣٥).

يا قوم أشكوتم إلى رسول الله ﷺ؟ فإنّي رأيته في المنام فأمرني بحمل شيء إليكم. انتهى.

وذكر هذا الأثر جماعة من المحدِّثين منهم: السُّبكي، والسَّمهودي، والقسطلاني وغيرهم، وأقرَّ مثله شيخ الإسلام في بعض فتاواه... إلى آخر ما قال.

ومثله الدَّليل الثَّاني عشر[1] والجواب عن أحدهما جواب عن الآخر.

والجواب:

على فرض تسليم مثل هذه الحكاية أن يقال: إن سؤال بعضهم للنَّبيِّ ﷺ أو لغيره من أمَّته حاجة فتقضى له، ليس مما نحن فيه، وقد أسلفنا أنَّ إجابة النَّبي ﷺ وغيره لهؤلاء السَّائلين ليس هو مما يدل على استحباب السّؤال، فإنَّه ﷺ هو القائل: «**إنَّ أحدهم ليسألني المسألة فأعطيه إياها فيخرج يتأبطها نارًا**، فقالوا: يا رسول الله فلم تعطيهم؟ قال: **يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل**»[2]، وقد ذكرنا سابقًا في الكلام على الدَّليل الثَّالث زيادة، نقلًا عن شيخ الإسلام.

وقول العراقي[3]: وأقرَّ مثله شيخ الإسلام... إلخ، لا يفيده شيئًا؛ لأنَّ

---

(١) ص (٥٥) قال: ذكر ابن الجوزي في «صفة الصفوة»: قال أخبرنا ابن ناصر، قال: أنبأنا خلف، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت منصور بن عبد الله يقول: قال أبو الخير التبناني دخلت مدينة رسول الله ﷺ، وأنا بفاقة فاقت خمسة أيام ما ذقت ذواقًا، فتقدَّمت إلى القبر فسلَّمت على النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقلت: أنا ضيفك الليلة يا رسول الله، وتنحَّيت فنمت خلف المنبر، فرأيت في المنام النبي ﷺ.

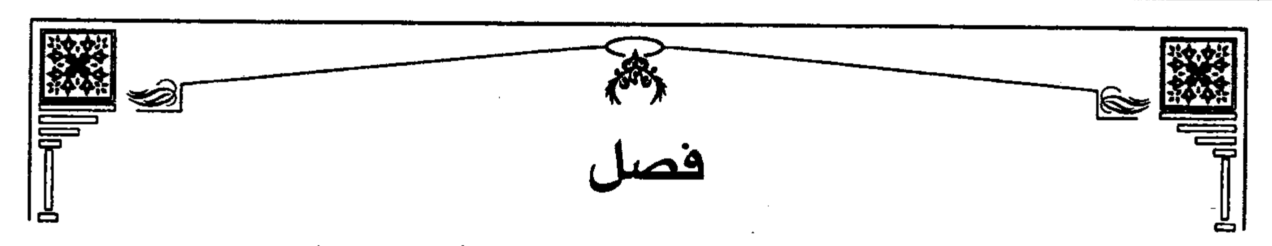
قلت: في إسناده أبو عبد الرحمن السلمي، وهو ممن يضع الأحاديث للصوفية.

(٢) تقدم.

(٣) ص (٥٥).

شيخ الإسلام لم يذكر ذلك ليستدلَّ به على مثل ما استدلَّ عليه العراقي، إنَّما ذكره لإزالة شبهة من يتعلق به، حيث قال: إن هذا ليس من هذا الباب، يعني باب نداء الصالحين فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

❊ ❊ ❊



فصل

[استدلاله بحديث عائشة بالاستسقاء بقبره عليه الصلاة والسلام]

قال العراقي[(١)]:

الدَّليل الثَّالث عشر:

قال ابن الجوزي في كتابه المتقدّم: الباب التَّاسع والثَّلاثون في الاستسقاء بقبره ﷺ قال: أخبرنا عبد الأوَّل بن عيسى، وساق سنده إلى أبي الجوزاء أوس بن عبد الله، قال: قحط أهل المدينة قحطًا شديدًا، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالت: «انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كُوَّة إلى السماء، لا يكون بينه وبين السَّماء سقف»، قال: ففعلوا، فمطروا مطرًا حتى نبت العشب وسمنت الإبل، حتى تفتَّقت من الشَّحم. انتهى.

ولم تكن أمّ المؤمنين تفعل هذا من قبل نفسها؛ إذ ليس للرأي في مثل هذا مجال، فلا بدّ أنَّها سمعت ذلك من رسول الله ﷺ.

والجواب أن يقال:

لا دليل في هذه الحكاية على ما قصده العراقي من جواز نداء غير الله تعالى؛ لأنَّه لا نداء فيها، بل فيها: أنَّ الله تعالى رحم أهل الأرض، لما كُشف عن مرقده ﷺ بحيث يصله القطر من المطر، كما أنَّ من خواص أجسام الأنبياء جميعًا إذا كشفت نزول المطر عليها، ولا يقتضي مثل ذلك نداءهم

---

(١) ص (٥٥).

ودعاءهم في الشدائد، وكذلك من خواصِّها: عدم أكل الأرض إياها، ولا يقتضي أيضًا دعاءها، ولو جاز استسقاؤه ﷺ في هذه الحالة لما عدل عمر إلى العبَّاس كما سبق قريبًا، هذا كلّه لو سلَّمنا صحّة مثل هذه الحكاية[١]، وإذا لم تصح فالمنع أظهر والجواب أحق.

وأما قوله[٢]: ولم تكن أم المؤمنين... إلخ. ففيه: أنَّه لا يلزم أن يكون ما قالته الصديقة مسموعًا من رسول الله ﷺ. ولعلَّ ما قالته ـ على فرض الوقوع ـ قد صدر عن اجتهاد، فإنه لا ينازع أحد في اجتهادها رضي الله عنها.

وأمَّا قوله[٣]: إذ ليس للرأي في مثل هذا... إلخ. فما أدري ما قصد

---

(١) هذه الحكاية، أخرجها الدارمي في «السنن» (١/ ٤٣)، وفي سنده محمد بن الفضل السدوسي، أبو النعمان البصري. قال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: لقبه عارم، ثقة ثبت، تغيَّر في آخر عمره. وردَّه الألباني في «التوسل وأنواعه وأحكامه» ص (١٢٦) بعدم معرفة متى سمع الدارمي؟ وفي سنده: سعيد بن زيد الراوي، قال الذهبي في «الكاشف»: ليس بالقوي.
وقال الحافظ في «التقريب»: صدوق له أوهام.
وفي سنده: عمرو بن مالك النكري، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق له أوهام.
وفي سنده: أبو الجوزاء أوس بن عبد الله، قال في «التقريب»: أوس بن عبد الله الربعي يرسل كثيرًا، وضعّفه ابن تيمية في كتابه «الاستغاثة، أو الردّ على البكري» (١/ ٨٩، ٩٣) ثم قال: وأيضًا فحجرة عائشة كان منها ما هو مكشوف لا سقف له، كما روي عنها أنَّ النبي ﷺ كان يصلِّي العصر والشمس في حجرتها، لم يظهر الفيء بعد، ولم تزل كذلك مدَّة حياة عائشة، فكيف يحتاج أن يفتح في سقفها كوة إلى السماء.
فإن قيل: فتحت الكوَّة في قبل الحجرة محاذية للقبر، فهذا كذب ظاهر... اهـ.
وقال السهسواني في كتابه «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» ص (٢٤٦): والسابع: أنَّ الحديث موقوف فلا يصلح حجة عند المحققين.

(٢) ص (٥٦).

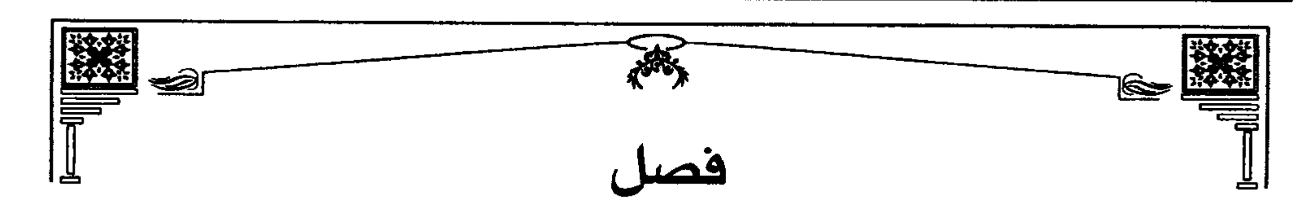
(٣) ص (٥٦).

به[١]، وأظنه زعم أنَّ هذه مسألة من مسائل العقائد التي يجب القطع فيها، والرأي الصادر عن الاجتهاد يفيد الظن، وهو لا ينفع فيها، وقد علمت أنَّ الحكاية غير مظنونة الصحة، ولو سلمت الصحة فلا دلالة فيها على شيء مما يذكره العراقي، والله تعالى أعلم.

* * *

(١) لعله أراد أنَّ فعل عائشة رضي الله عنها، من المسائل التي لا تؤخذ عن طريق الاجتهاد، وإنما عن طريق الرسول ﷺ، فله حكم الرفع.

والأثر غير صحيح عن عائشة رضي الله عنها كما سبق بيانه.



فصل

[استدلاله بقصَّة فتح تستر وقبر دانيال]

قال العراقي(١):

الدَّليل الرَّابع عشر:

ذكر ابن القيِّم(٢) في كتابه «إغاثة اللَّهفان» عن ابن إسحاق في «المغازي» عن أبي العالية، قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب، فدعا كعبًا فنسخه بالعربيَّة، فأنا أوَّل رجل قرأته من العرب، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم، ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد، قلت: فما صنعتم بالرَّجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرِّقة، فلما كان اللَّيل دفنَّاه وسوَّينا القبور كلّها، لنعمِّيه على الناس لا ينبشونه، فقلت: وما [كانوا] يرجون منه؟ قال: كانت السَّماء إذا حبست عنهم أبرزوا السَّرير فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنُّون الرَّجل؟ قال: رجل يقال له دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاث مئة سنة، قلت: ما كان تغيَّر منه شيء؟ قال: لا إلّا شعيرات من قفاه، إنَّ لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع. انتهى.

---

(١) ص (٥٦).

(٢) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشق، أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، شيخ الإسلام الثاني. له العديد من المؤلفات النافعة. توفي بدمشق سنة (٧٥١هـ). «الدرر الكامنة» (٣/ ٤٠٠).

والظَّاهر أنَّ تعميتهم لقبره، حذرًا أن ينبشه أهل تستر، وهم كفار، والدَّفن للميِّت واجب، وهم لا يدفنونه لأجل الاستسقاء بجسده، واحترام أجساد الأنبياء، بل سائر المؤمنين بدفنها وعدم هتكها من أعظم الواجبات في شريعتنا.. إلى آخر عباراته السَّخيفة.

والجواب:

إنَّ هذه القصَّة(١) من أوضح الدلائل، وأجلى البراهين على نقيض ما يدَّعيه العراقي ويزعمه، فإنَّ ابن القيِّم رحمه الله إنما أوردها للاستدلال بها على وجوب سدِّ الذَّرائع، وبطلان ما عليه القبوريّون والغلاة، والعراقي من مزيد جهله واتّباعه لهواه استدلَّ بها على ما يهواه، ولا زالت الصَّحابة رضي الله عنهم تسد ذرائع التوسّل الذي ادّعاه المجوِّزون، كما فعل عمر رضي الله عنه منْ قطْعِ الشجرة التي بويع تحتها رسول الله ﷺ، فلو كان الدّعاء عند القبور [وآثار الصّالحين] سنّة أو فضيلة، لنصبوا على قبر دانيال ـ في القصة السابقة ـ عَلَمًا، ودعوا عنده، ولكن كانوا أعلم بالله وبرسوله ودينه من الخلوف التي خلفت بعدهم، وكذلك التَّابعون لهم بإحسان درجوا على سبيلهم، فقد كان عندهم من قبور الصَّحابة عدد كثير في الأمصار، فما منهم من استغاث بها، ولا دعا عندها، ولا استسقى بها، ولا استنصر، ولو كان لتوفَّرت الدَّواعي على نقله.

والعجب من العراقي حيث جعل سبب الأمر بالدَّفن: الخوف من نبش

---

(١) أسندها ابن إسحاق في «مغازيه» ص (٤٣): حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال: نا يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار، قال أبو العالية: فذكره...
وذكر هذه القصة ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٧)، وقال: إسناده صحيح إلى أبي العالية، وعزاها ابن تيمية في «الرد على البكري» (١/ ٩٢) للبيهقي في «شعب الإيمان».
وأخرجها البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٨١) وانظر: «كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس» ص (١١٨).

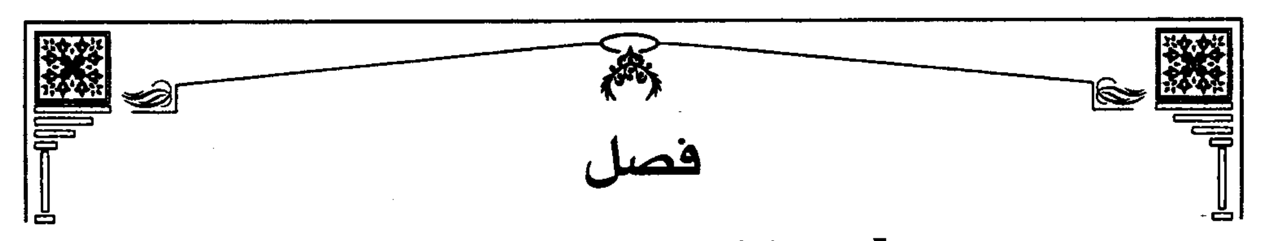
أهل تستر له!! ومن لم يكن له وقوف على مقاصد الشَّرع وحملة[1] الدِّين، فلا بدع أن تكلّم بمثل هذا الكلام، فإنَّه على زعمه إنَّما دفن وأخفى قبره لمخافة النَّبش؛ ولو لم تكن لنصبوا على قبره علمًا ودعوا النّاس للإلمام به، إن رأوا مصيبة وهمًّا، فيقال لهذا الغافل والغبيِّ الجاهل: كيف يُفَوَّت أمر مقطوع به ومصلحة متيقَّن بها لمفسدة متوهمة، يمكن إزالتها ودرؤها بأدنى سعي، بأن يدفن في محلٍّ لا يمكن وصول أهل تستر إليه. إمَّا للحرَّاس وإمَّا لمنعة المكان، بل قد كان يمكنهم أن ينقلوه إلى محل آخر يأمنون فيه ذلك المحذور، ولم يحتاجوا إلى تعمية قبره، وتفويت تلك الفائدة العظيمة.

نسأل الله تعالى العفو والعافية من مثل هذه الأفهام السَّقيمة، والأفكار العقيمة، وما ذكره [العراقي] بعد من الكلام يعلم جوابه مما أسلفنا. والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

---

(١) في ط: حقيقة.



فصل

[استدلاله بحكاية رواها عن مروان وقد رأى أبا أيوب عند القبر]

قال العراقي[١]:

الدَّليل الخامس عشر:

روى الإمام أحمد في «مسنده» والحاكم في «مستدركه على الصَّحيحين» قال: أقبل مروان يومًا، فوجد رجلًا واضعًا جبهته على القبر، فقال: أتدري ما تصنع؟ فأقبل عليه، فإذا أبو أيُّوب الأنصاري ﷺ فقال: جئت رسول الله ﷺ ولم آت الحجر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تبكوا على الدِّين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدِّين إذا وليه غير أهله**»[٢] انتهى.

---

(١) ص (٥٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥١٥) كلاهما من طريق كثير بن زيد عن داود بن أبي صالح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه!! وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/ ١٥٨)، و«الأوسط» برقم (٢٨٦) من طريق حاتم بن إسماعيل عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: قال أبو أيوب، فذكره دون القصة. قال في «المجمع» (٥/ ٢٤٥): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه كثير بن زيد وثقه أحمد وغيره، وضعفه النسائي وغيره.

قلت: وفي إسناده أحمد والحاكم: داود بن أبي صالح لا يعرف. انظر: «الميزان» (٢/ ٩).

وفي إسناد الطبراني: شيخه أحمد بن رشدين المصري، ضعيف، والمطلب بن عبد الله: صدوق كثير التدليس والإرسال.

ولم يصرح بالتحديث. انظر: «الميزان» (٤/ ١٢٩)، و«التقريب». =

ومثله الدليل السادس عشر[١].

والجواب:

إنَّ هذا لا يدلُّ على مدَّعى العراقي من جواز الاستعانة[٢] بغير الله، حتى في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، وإنِّي لم أقف على ما ذكره المحدِّثون في حال هذا الحديث، ولكني رأيته مخالفًا لما ورد من الأحاديث الصحيحة، وأحوال الصحابة ﷺ، وقد ذكرنا سابقًا ما ورد من الحديث الصحيح الذي رواه الحسن بن الحسن بن علي: أنَّه رأى قومًا عند القبر؛ فنهاهم، وقال النبي ﷺ قال[٣]: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإنَّ صلاتكم تبلغني**»[٤]، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة، وهي كلها تعارض ما أورده العراقي لو سلَّمنا صحَّته وروده.

* * *

= قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١/ ٥٥٢): ضعيف، ثم قال: وقد يشاع عند المتأخرين الاستدلال بهذا الحديث على جواز التمسح بالقبر لوضع أبي أيوب وجهه على القبر، وهذا مع أنه ليس صريحًا في الدلالة على أن تمسحه كان للتبرك... كما يفعل الجهال.

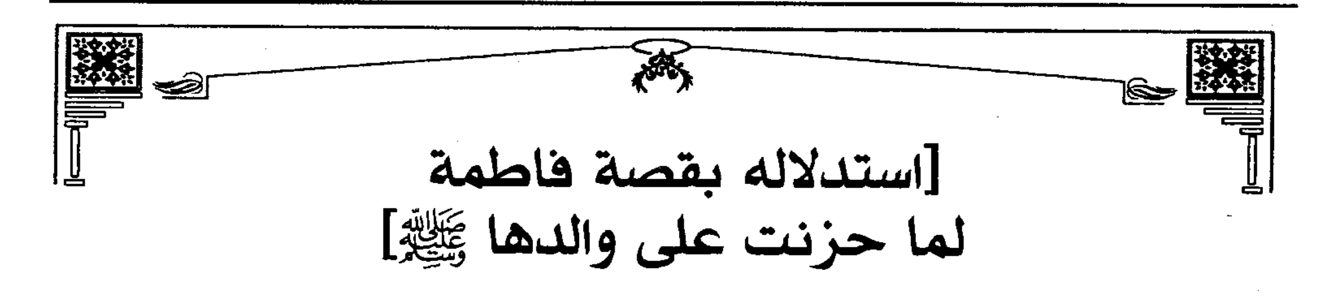
فالسند إليه بذلك ضعيف كما علمت فلا حجة فيه، وقد أنكر المحققون من العلماء كالنووي وغيره التمسح بالقبور، وقالوا: إنه من عمل النصارى، وقد ذكرت بعض النقول في ذلك في تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، وهي الرسالة الخامسة من رسائل كتابنا: تسديد الإصابة إلى من زعم نصرة الخلفاء الراشدين والصحابة وهي مطبوعة والحمد لله. فانظره ص (١٠٨) منه. اهـ.

(١) قال ابن جرجيس في كتابه ص (٧٥): الدليل السادس عشر: قال ابن الجوزي في «الوفا» بسنده إلى علي بن أبي طالب ﷺ، قال: لما مات رسول الله ﷺ ودفن، جاءت فاطمة ﷺ، فأخذت قبضة من تراب القبر، فوضعته على عينها وبكت...

(٢) في ط: الاستغاثة.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) تقدم.



[استدلاله بقصة فاطمة لما حزنت على والدها ﷺ]

وكذلك قصَّة فاطمة رضي الله عنها الَّتي أوردها في الدَّليل السَّادس عشر، فإنَّها لا دلالة فيها على مقصوده، غاية ما فيها أنَّها رضي الله عنها حزنت حزنًا شديدًا عند فقد خير الخلق ﷺ، ولا يخفاك أنَّ ما يصدر في تلك الحالة لا يجعل دليلًا على شيء، وقد حصلت دهشة عظيمة عند وفاته ﷺ، حتى قال عمر رضي الله عنه ما قال، وحلَّ بأناس آخرين ما حلَّ، مما هو مذكور في قصة وفاته، حتى جاء أبو بكرالصديق رضي الله عنه فتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فسكن روعهم، وهدأ جأشهم، هذا مع كون هؤلاء رجالاً لهم تمكُّن على الصَّبر، فكيف بالنِّساء، ولا سيَّما ابنته التي كانت من أحبِّ نساء الدّنيا إليه صلى الله تعالى عليها وعلى أبيها، فأنَّى يسوغ الاستدلال بما يصدر عنها في تلك الحالة، ويجعل دليلًا شرعيًّا؟ مع كونه لا دلالة فيها على ما يزعمه العراقي بوجه من الوجوه.

على أنَّ هذه القصَّة لم يروها أحد من رواة الصحيح، بل روى البخاري في «صحيحه» عن سليمان بن حرب، قال حدثنا حماد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشّاه، فقالت فاطمة: واكرب أباه! فقال: «**ليس على أبيك كرب بعد هذا اليوم**»، فلما مات، قالت: يا أبتاه! أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه! من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه، فلمَّا دفن

قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[١]؟

قال الشارح العسقلاني رحمه الله: أشارت عليها السلام بذلك إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك؛ لأنَّه يدلُّ على خلاف ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليه، لشدّة محبتهم له، وسكت أنس عن جوابها رعاية لها، ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك، إلا أنَّا قهرناها على فعله، امتثالًا لأمره[٢]، انتهى.

فالمقصود: أنَّ القصَّة التي رواها العراقي ناقلًا لها عن ابن الجوزي، لا ثبوت لها إلا في كتب القصص والمواعظ، وهي لا معتمد عليها، وعلى تقدير صحتها لا دلالة لها على جواز نداء غير الله تعالى، كما سبق، فلا يُغترّ بها في مثل هذا المقام.

وأمَّا قوله[٣]: ففي هذا وما قبله دليل.. إلخ. فمردود بأنَّ العقل مناط التكليف، فإذا وجد لا يعذر صاحبه في فعل المنهيَّات؛ وإذا لم يوجد فقد ورد أنَّ المجنون ممن رفع عنه القلم[٤]، وفي الصورتين: العقل لم يَزُل، ولو فتحنا مثل هذا الباب لما ساغ الإنكار على كل فعل يفعله عبّاد القبور، فكيف يستدلّ بالقصّتين على ذلك؟ مع أن كلًّا من القصَّتين قد عرفت ما فيه.

* * *

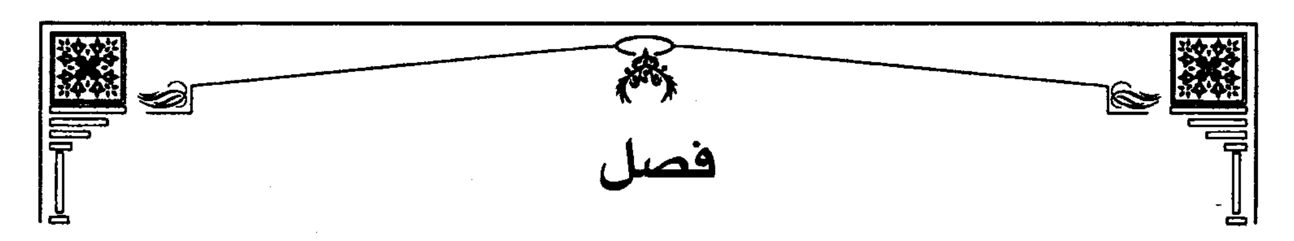
---

(١) البخاري برقم (٤٣٤٩).

(٢) «فتح الباري» المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٣) ص (٥٧).

(٤) إشارة لما ورد في حديث: «رفع القلم عن ثلاثة».



فصل

[استدلال العراقي بقصة بلال ومجيئه لقبر النبي ﷺ بعد معاتبة النبي ﷺ له]

قال العراقي[(١)]:

الدَّليل السَّابع عشر:

روى ابن عساكر بسند جيِّد، عن أبي الدَّرداء، قصَّة نزول بلال بداريا[(٢)] بعد فتح بيت المقدس، قال: ثم إنَّ بلالًا رأى النبي ﷺ وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورنا؟ فانتبه حزينًا خائفًا. فركب راحلته وقصد المدينة، فأتى قبر النَّبي ﷺ فجعل يبكي ويمرغ وجهه على القبر.. إلى آخر القصة، وكان ذلك بحضور الصَّحابة فلم ينكر أحد عليه. انتهى.

ذكره السّبكي في «شفاء السقام»، والقسطلاني وابن حجر وغيرهم.

والجواب:

ما ذكره ابن قدامة في «الصَّارم المنكي»: من أنَّ هذا الأثر المذكور عن بلال ليس بصحيح عنه، ولو كان صحيحًا عنه لم يكن فيه دليل على محل النِّزاع.

وقول العراقي: إنَّ إسناده جيد خطأ منه.

---

(١) ص (٥٧).

(٢) في الأصل: بدارنا.

ففي «الصّارم»: وقد ذكر هذا الأثر الحاكم، أبو أحمد محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق النَّيسابوري الحافظ، في الجزء الخامس من «فوائده»، ومن طريقه ذكره ابن عساكر في ترجمة بلال وهو أثر غريب منكر، وإسناده مجهول، وفيه انقطاع، وقد تفرد به محمد بن الفيض الغسَّاني، عن إبراهيم بن محمد بن سليمان بن بلال، عن أبيه عن جده، وإبراهيم بن محمد هذا شيخ لم يعرف بثقة ولا أمانة، ولا ضبط ولا عدالة، بل هو مجهول غير معروف بالنقل ولا مشهور بالرواية، ولم يرو عنه غير محمد بن الفيض، روى عنه هذا الأثر المنكر(١).

وبقي يطعن في إسناد هذا الحديث ويوهنه ـ إلى أن قال بعد ورقة ـ: والحاصل أنَّ نقل هذا الإسناد لا يصلح الاعتماد عليه، ولا يرجع عند التنازع إليه عند أحد من أئمة هذا الشأن. انتهى(٢).

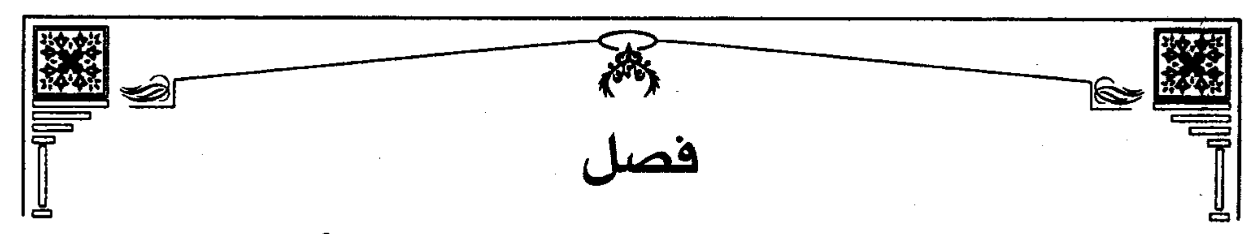
* * *

---

(١) «الصارم المنكي».

(٢) وممن ذكر هذه القصة، واستنكرها: الذَّهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٥٧)، وابن حجر في «لسان الميزان»، والعلَّامة الشَّوكاني في «الفوائد المجموعة» ص (٤٠)، والعلَّامة القاري في «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» وغيرهم.

قال يوسف العتيق في «قصص لا تثبت» ص (٣٩) من إعداده: وقال عن هذه القصة فضيلة شيخنا، الشيخ عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي: وهذه القصة، وصلت إلينا بهذا السَّند الضَّعيف مع أنّ الدواعي متوافرة على نقلها، عن جماعة شاهدوا ما حدث بعد أذانه في المدينة من ارتجاج. اهـ.



فصل

[استدلاله بفعل الروم بقبر أبي أيوب الأنصاري والمدفون في القسطنطينية واستسقائهم به]

قال العراقي(١):

الدَّليل الثَّامن عشر:

روى الحاكم في «المستدرك على الصَّحيحين»: أنَّ أبا أيّوب الأنصاري رضي الله عنه غزا القسطنطينيّة في خلافة معاوية مع ولده يزيد، فقتل هناك ودفنه المسلمون في أصل سور البلد، قال الرَّاوي: فالروم يزورون قبره ويستسقون به، إذا قحطوا(٢). انتهى.

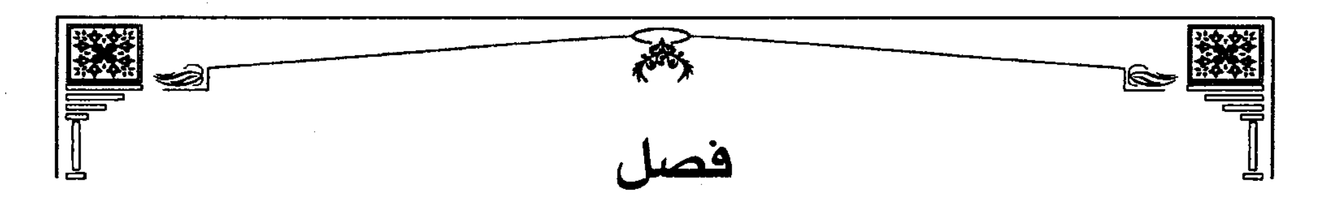
والجواب أن يقال:

بعد تسليم صحة الأثر، لا دليل فيه لما يقصده العراقي، فإنَّ استسقاء الرُّوم بقبره لا يكون دليلًا على المسلمين في جواز ذلك، فإنَّ شريعة من قبلنا ليست حجة علينا إلّا إذا قصَّها الله تعالى علينا من غير إنكار، فكيف بفعل من تاه في بيداء الضَّلال، ولم يميِّز بين الحرام والحلال، وذكر الرَّاوي ذلك لبيان فضيلة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه فإنه بلغ في السّيرة المحمودة إلى حيث كان تعظِّمه الروم على كفرهم؛ وليس مقصوده من بيان استسقائهم تشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام، والله أعلم.

---

(١) ص (٥٧).

(٢) «المستدرك» رقم (٥٩٦٥) باب ذكر مناقب أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.



فصل

[استدلاله بحكاية مقطوع اللسان ومفقوء العين]

قال العراقي[(١)]:

الدَّليل التَّاسع عشر:

ما تقدَّم من نقل ابن القيِّم في كتابه «الكبائر»، و«كتاب السّنّة والبدعة»: عن الرّجلين اللذين استغاثا برسول الله ﷺ، وكان بعض الرَّافضة قطع لسان أحدهما وبعضهم فقأ عين الآخر، فلمَّا أتيا قبره الشَّريف واستغاثا به، ردّ الله تعالى عليهما ما فقدا من اللسان والعين، وقد تقدَّم النَّقل عنه فيما سبق، فارجع إليه.

والجواب أن يقال:

ليس فيمن طلب شيئًا من النَّبي ﷺ أو غيره فأُعطيه دليل على مشروعية ذلك، وإجابة النبي ﷺ أو غيره لهؤلاء السَّائلين ليست هو ممّا يدلّ على استحباب السّؤال، فإنَّه هو القائل ﷺ: «**إنَّ أحدهم ليسألني المسألة فأعطيه إياها، فيخرج يتأبطها نارًا**، فقالوا: يا رسول الله فلم تعطيهم؟ فقال: **يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل**»، وقد قدَّمنا هذا فيما سبق.

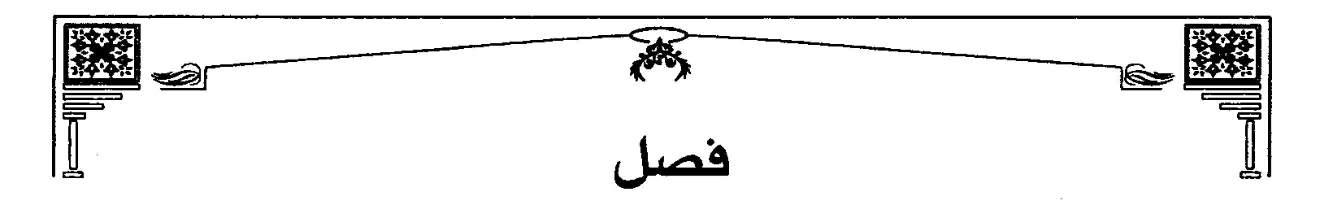
وعبّاد الأصنام كان يحصل لهم مثل ذلك كما سيأتي، أفيقال: إنَّ ذلك دليل على جواز ما يفعلونه؟ والأدلة القطعيَّة من الكتاب والسنّة ناصَّة على

---

(١) ص (٥٧).

تحريمه، ما أرى من يقول بهذا إلَّا عديم العقل أو من استولى عليه الهوى ومزيد الجهل.

* * *



فصل

[استدلاله بقصة المرأة العابدة]

قال العراقي(١):

الدَّليل العشرون:

ذكر ابن الجوزي في كتابه «صفوة الصفوة» في طبقة التَّابعين، عن أبي أيُّوب ـ رجل من قريش ـ أنَّ امرأة من أهله كانت تجتهد في العبادة وتديم الصِّيام، وتطيل القيام فأتاها الملعون، وقال: إلى كم تعذِّبين هذا الجسد؟ وهذه الروح؟ لو أفطرت وقصرت عن القيام كان أدوم لك وأقوى.

قالت: فلم يزل يوسوس لي حتَّى هممت بالتَّقصير، قالت: ثم دخلت مسجد رسول الله ﷺ معتصمة بقبره. وذلك بين المغرب والعشاء، فذكرت الله تعالى وصلَّيت على رسوله ﷺ ثم ذكرت ما نزل بي من وسوسة الشَّيطان واستغفرت، وجعلت أدعو الله أن يصرف عنِّي كيده ووساوسه، [قالت:](٢) فسمعت صوتًا من ناحية القبر يقول: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قالت: فرجعت مذعورة وجلة القلب، فوالله ما عاودتني تلك الوسوسة بعد تلك الليلة(٣). انتهى.

---

(١) ص (٥٧).
(٢) زيادة من كتاب «صلح الإخوان».
(٣) أخرجه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» عند ذكر المصطفيات من عابدات المدينة، قال: وعابدة أخرى. وساق القصة.

فدلَّ هذا أنَّ الاعتصام بقبر رسول الله ﷺ، كان أمرًا معلومًا للسلف الصَّالحين[١]، وأنَّها لما اعتصمت حصل لها الفرج بسببه، وأكرمها الله بسماع الصوت من القبر بالموعظة والزجر عن مطاوعة الشيطان، فحصل لها زوال الوسوسة ببركة هذا الاعتصام. والله أعلم.

والجواب:

إنَّ هذه الحكاية لو سلمت صحتها لا دلالة لها على المقصود، من جواز نداء غير الله تعالى فيما هو من الخصائص الإلهية، ولو دلَّت فلا يسوغ الاحتجاج [بها]، كيف وهي لم تكن ممن يقتدى به؟ ولو سلم أنَّها كانت من أهل الاجتهاد فخطؤها بيِّن للنصوص[٢] الدالة على بطلان ذلك، والفقهاء[٣] كلهم صرحوا بكراهة مسّ القبر وتقبيله والصلاة عنده والجلوس حوله، ولم ينقل عن أحد من أصحاب النبي ﷺ لا من الخلفاء الراشدين، ولا من غيرهم مثل هذا الذي روي عن هذه المرأة، ولا مثل الذي روي عن بلال فيما سبق.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقد ثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّه كان إذا قدم من سفر أتى قبر النَّبي ﷺ فقال: السَّلام عليك يا رسول الله، السَّلام عليك يا أبا بكر، السَّلام عليك يا أبتاه، ومع هذا فقد قال ابن ابن ابن أخيه، الإمام الحافظ الفقيه أحد الأعلام، أبو عثمان عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب العمري المدني: ما نعلم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر، فإذا كان هذا قول عبيد الله بن عمر فيما روي عن ابن عمر في ذلك، مع أنَّه أقرب بكثير

---

(١) في «صلح الإخوان»: الصالح.

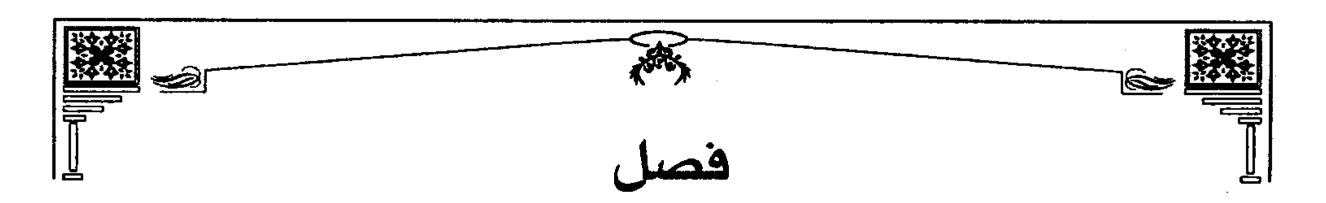
(٢) في المطبوع: واضح من النصوص.

(٣) في المطبوع: فإنَّ.

مما روي عن بلال وهذه المرأة، فكيف يقال فيما روي عنهما من الفعل المتضمّن[١] لما لم ينقل [بالتواتر] عن أحد من الصَّحابة ﷺ والتَّابعين لهم بإحسان. والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) في المطبوع: المناقض.



فصل

[استدلاله بقبر معروف الكرخي والرد عليه]

قال العراقي(١):

الدَّليل الحادي والعشرون:

في «صفوة الصَّفوة» لابن الجوزي بسنده إلى أحمد بن الفتح: أنَّه رأى بشر بن الحارث ـ يعني المشهور بالحافي ـ وهو من أجلّ التّابعين، حتى إنَّ الإمام أحمد ﷺ كان يقول لمن سأله عن الورع؟ سل بشر بن الحارث لا تسألني، فإنِّي آكل من غلَّة بغداد، وكان علي بن المديني إمام المحدِّثين ينادي في جنازة بشر: هذا شرف الدُّنيا والآخرة.

قال أحمد بن الفتح: سألت بشرًا عن معروف [الكرخي](٢)؟ فقال: هيهات، حالت بيننا وبينه الحجب، إنَّ معروفًا لم يعبد الله شوقًا إلى جنَّته ولا خوفًا من ناره، وإنَّما عبده شوقًا إليه، فرفعه الله إلى الرَّفيع(٣) الأعلى، فمن كانت له إلى الله حاجة، فليأت قبره وليدع فإنَّه يستجاب له ـ إن شاء الله تعالى ـ.

قال الحافظ ابن الجوزي: وقبره ظاهر يُتبرَّك(٤) به في بغداد، وكان

---

(١) ص (٥٨).

(٢) زيادة من «صلح الإخوان».

(٣) في المطبوع: الرفيق.

(٤) في الأصل: التبرك به، والمثبت من «صلح الإخوان».

إبراهيم الحربي ـ يعني صاحب الإمام أحمد بن حنبل ـ يقول: قبر معروف الترياق المجرب[١]. انتهى.

ومثله في رسالة القشيري وغيرها، وأثبته وأقرَّه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرح «الرسالة» وغيره، ويكفي إثبات الحافظ ابن الجوزي له بالسَّند الصَّحيح والنَّقل الصريح.

فإنَّه معلوم عند المحدِّثين وأهل العلم كيف تشديده في التضعيف، ووضع الصحيح فضلًا عن الموضوع والضعيف.

والجواب أن يقال، لهذا العراقي البليد:

كيف يثبت دين الله تعالى بمثل هذه الأقوال [المظلمة] الكاسدة، والشبه المعتلة الفاسدة؟! أيظن أنَّ كلَّ أحدٍ يروج عليه الباطل ويشتبه عليه العاطل؟ كلا، فإنَّ لله تعالى رجالًا ينفون عن دينه زيغ المبطلين وتحريف الملحدين، ثم إنَّ الذي ذكرنا كراهته لا ينقل في استحبابه فيما علمناه شيء ثابت عن القرون الثلاثة، التي أثنى عليها النبي ﷺ حيث قال: «**خير أمتي القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم**»، مع شدة المقتضي فيهم لذلك، ولو كان فيه فضيلة فعدم أمرهم وفعلهم لذلك مع قوة المقتضي لو كان فيه فضل، [فهو] يوجب القطع بأن لا فضل فيه، وأما من بعد هؤلاء فأكثر ما يفرض أنَّ الأمة اختلفت، فصار كثير من العلماء والصِّديقين [وظاهري الصَّلاح] إلى فعل ذلك، وصار بعضهم إلى النهي عن ذلك، فإنَّه لا يمكن أن يقال: قد اجتمعت الأمة على استحسان ذلك لوجهين:

أحدهما: أنَّ كثيرًا من الأمة كره ذلك وأنكره قديمًا وحديثًا.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «صفة الصفوة»، وابن عساكر في «تاريخه»، والقزويني في «آثار البلاد وأخبار العباد».

الثاني: أنَّه من الممتنع أن تتفق الأمة على استحسان فعل، لو كان حسنًا لفعله المتقدمون ولم يفعلوه، فإنَّ هذا من باب تناقض الإجماعات، وهي لا تتناقض، وإذا اختلف فيه المتأخرون فالفاصل بينهم هو الكتاب والسنة وإجماع المتقدمين نصًا واستنباطًا، فكيف والحمد لله لا ينقل هذا عن إمام معروف ولا عالم متبع، بل المنقول في ذلك إما أن يكون كذبًا على صاحبه، مثل ما حكى بعضهم عن الشافعي أنَّه قال: إذا نزلت بي شدة أجيء فأدعو عند قبر أبي حنيفة فأُجاب، أو كلامًا هذا معناه، وهذا كذب معلوم كذبه بالاضطرار عند من له معرفة بالنقل، فإنَّ الشافعي لما قدم بغداد لم يكن ببغداد قبر ينتاب للدعاء عنده البتة، بل ولم يكن هذا على عهد الشافعي معروفًا، وقد رأى الشافعي بالحجاز واليمن والشام والعراق ومصر من قبور الأنبياء والصحابة والتابعين من كان أصحابها عنده وعند المسلمين، أفضل من أبي حنيفة وأمثاله من العلماء، فما باله لم يتوخَّ الدُّعاء إلَّا عنده؟! ثم أصحاب أبي حنيفة الذين أدركوه مثل أبي يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد وطبقتهم، لم يكونوا يتحرَّون الدعاء لا عند قبر أبي حنيفة ولا [عند قبر] غيره، ثمَّ إنَّ الشافعي قد صرَّح في بعض كتبه بكراهة تعظيم قبور المخلوقين خشية الفتنة بها. وإنَّما يضع مثل هذه الحكايات من يقلُّ علمه ودينه.

وإمَّا أن يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لا يعرف، ونحن لو روي لنا مثل هذه الحكايات المسيَّبة أحاديث عمن لا ينطق عن الهوى، لما جاز التمسك بها حتى تثبت [بطرق أهل الحديث]، فكيف بالمنقول عن غيره.

ومنها: ما قد يكون صاحبه قاله أو فعله باجتهاد يخطئ ويصيب، أو قاله بقيود وشروط كثيرة على وجه لا محذور فيه، فحرَّف النقل عنه، كما أنَّ النبي ﷺ لما أذن في زيارة القبور بعد النهي، فَهِمَ المبطلون أنَّ ذلك هو الزيارة التي يفعلونها من حجها للصلاة عندها والاستغاثة بها، ثم سائر هذه الحجج دائرة بين نقل لا يجوز إثبات الشرع به، أو قياس لا يجوز استحباب

العبادات بمثله، مع العلم بأنَّ الرسول لم يشرعها، وتركه مع قيام المقتضي للفعل بمنزلة فعله، وإنَّما يثبت العبادات بمثل هذه الحكايات والمقاييس من غير نقل عن الأنبياء: النصارى وأمثالهم، وإنَّما المتَّبع في إثبات أحكام الله كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وسبيل السابقين الأولين، لا يجوز إثبات حكم شرعي بدون هذه الأصول الثلاثة نصًّا واستنباطًا بحال.

وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ أجاب في كتابه «اقتضاء الصِّراط المستقيم» عن مثل شبهة العراقي، بوجهين مجمل ومفصَّل، وقد أجاد فيهما وأفاد، وحيث إنَّ ذلك ممَّا لا يمكننا نقل جميعه، فلا بأس أن نذكر المجمل فقط.

قال ـ رحمه الله تعالى ـ[1]: أما المجمل: فالنقض، فإنَّ اليهود والنصارى عندهم من [هذه] الحكايات والقياسات من هذا النمط كثير، بل المشركون الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كانوا يدعون عند أوثانهم فيستجاب لهم أحيانًا، كما قد يستجاب لهؤلاء أحيانًا، وفي وقتنا هذا عند النصارى من هذا طائفة، فإن كان هذا وحده دليلًا على أنَّ الله تعالى يرضى ذلك ويحبه، فليطرد الدليل، وذلك كفر متناقض.

ثم إنَّك تجد كثيرًا من هؤلاء الذين يستغيثون عند قبر أو غيره، كل منهم قد اتخذ وثنًا أحسن به الظن وأساء الظن بآخر، وكل منهم يزعم أنَّ قرينه يستجاب عنده ولا يستجاب عند غيره، فمن المحال إصابتهم جميعًا، وموافقة بعضهم دون بعض تحكُّمٌ وترجيح بلا مرجّح، والتديُّن بدينهم جميعًا جمع بين الأضداد.

فإنَّ أكثر هؤلاء إنَّما يكون تأثيرهم ـ فيما يزعمون ـ بقدر إقبالهم على

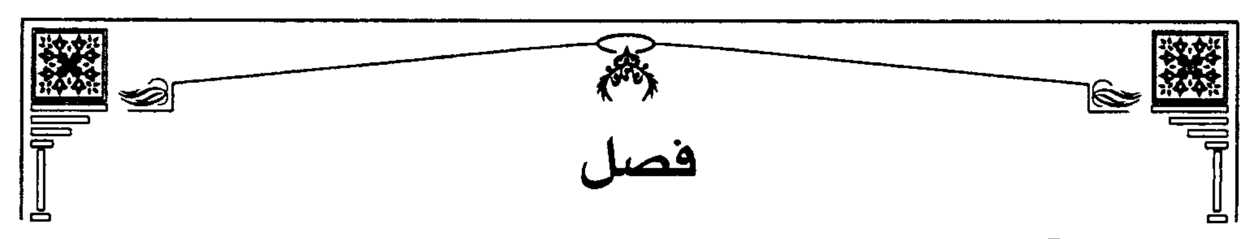
(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٢٠٨).

وثنهم وانصرافهم عن غيره وموافقتهم جميعًا فيما يثبتونه ـ دون ما ينفونه ـ يضعف التأثير على زعمهم، فإنَّ الواحد إذا حسَّن الظن بالإجابة عند هذا وهذا وهذا، لم يكن تأثره مثل تأثر الحسن الظن بواحد دون آخر، وهذه كلها من خصائص الأوثان، ثم قد استجيب لبلعام بن باعورا[1] في قوم موسى المؤمنين، وسلبه الله تعالى الإيمان، والمشركون قد يستسقون، فيسقون ويستنصرون فينصرون. انتهى.

وفيه كفاية لمن كشف الله عن بصيرته حجب الغفلة. والله الهادي إلى سواء السَّبيل.

* * *

(١) في الأصل: لبلع بن باعور.
انظر قصته في كتب التفاسير عند قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥].



فصل

[استدلاله بما ذكره ابن الجوزي عن حاله في زيارته للقبور والتوسل بأعماله الصالحة]

قال العراقي(١):

الدَّليل الثَّاني والعشرون:

قال ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: كنت في بداية أمري قد أُلهمت سلوك طريق الزهاد، بإدامة الصوم والصلاة وحُبِّب إليَّ الخلوة، فكنت أجد قلبًا طيِّبًا، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة تتأسف على لحظة تمضي من غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس وحلاوة ومناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه فمال الطبع، ففقدت تلك الحلاوة، ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه لخوف الشبهات، وكانت حالتي قريبة، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح، فعُدم ما كنت أجد بالكلية، وصارت المخالطة توجب ظلمة القلب، إلى أن عدم النور كله، فكان حنيني إلى ما ضاع منِّي يوجب انزعاج أهل المجالس، فيتوبون ويصلحون وأخرج مفلسًا فيما بيني وبين حالي، وكثر ضجيجي ومرضي، وعجزت عن طب نفسي، فلجأت إلى قبور الصالحين وتوسلت في صلاحي(٢)، فاجتذبني لطف مولاي إلى الخلوة على كراهة مني، وردَّ قلبي عليَّ بعد نفوره عني، وأراني عيب ما كنت أؤثره، فأفقت من مرض غفلتي.. إلى آخر كلامه. انتهى.

---

(١) ص (٥٨).

(٢) في المطبوع: صلاتي.

فانظر إلى قوله: فلجأت إلى قبور الصالحين، وتوسَّلت. فرد الله عليه ما كان فقده ببركة التوسل بهم واللجأ إليهم.. إلى آخر ما قال.

والجواب أن يقال:

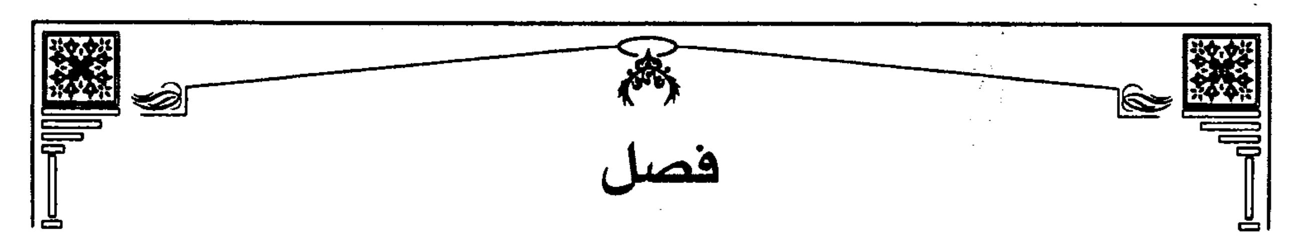
إنَّ هذا الدليل أيضًا من نمط ما قبله، إذ لا دليل فيه للعراقي على مدَّعاه، غاية ما فيه: زيارة القبور والتوسل بالأعمال الصالحة، ولا كلام لنا فيهما، بل إنَّما الكلام في جواز الاستغاثة بمخلوق حيٍّ أو ميت، فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وأمَّا زيارة القبور فسيأتي في الخاتمة بسط الكلام عليها إن شاء الله، وأنَّها جائزة إذا كانت على الوجه المشروع.

فقد روى بريدة[١] عن رسول الله ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»[٢]، وقد علَّم النبي ﷺ كيفية الزيارة تارة بفعله، وتارة بقوله، وذلك في الأحاديث الكثيرة، بعضها في الإذن، وبعضها في التَّعليم، وفي ضمنها بيان الفائدة التي في الإذن، وسيأتي كل ذلك، وأمَّا التوسُّل بالأعمال الصَّالحة، فقد ورد في حديث الثَّلاثة الذين انطبقت عليهم الصَّخرة وغيره.

* * *

(١) في الأصل: بريرة.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٧٧).



فصل

[استدلاله بجواز الاستغاثة فيما يفعله من خدرت رجله]

قال العراقي(١):

الدليل الثالث والعشرون:

ذكر الشَّيخ تقي الدين في كتابه «الكلم الطيِّب»، وابن القيِّم في «الوابل الصيِّب»(٢) له، وابن أبي جمرة في «شرح مختصر البخاري»: عن ابن عمر وابن عباس: أنَّ الإنسان إذا خدرت رجله، فليناد: يا محمد! فإنَّ الخدر يذهب عنه. انتهى.

وهذا ذكروه في مقام تعليم الإسلام الأذكار، فلو كان نداء الغائب شركًا، لكان الشيخان وغيرهما، بل وأصحابه ﷺ يعلِّمان الناس الشرك، والعياذ بالله، [نعم] وفي الحديث: أنَّ ابن عمر لما قيل له، ونادى، ذهب الخدر عنه.

والجواب أن يقال:

هذا أيضًا ليس مما نحن فيه، فإنَّه ليس نداء بما لا يقدر عليه إلا الله؛ غاية ما فيه ذكر المحبوب لا طلب شيء منه، ولا استغاثته، وإلا لزم أنَّ كل

---

(١) ص (٥٩).

(٢) في الأصل و«صلح الإخوان»: «الكلم الطيب».

من ذكر محبوبه فقد استغاث به؛ وبطلانه ظاهر؛ ولفظ «الشفا»[(١)]: أنَّ ابن عمر خدرت رجله، فقيل له: اذكر أحب النَّاس إليك، فصاح يا محمداه، فانتشرت رجله.

وهذا يقتضي صحَّة ما جرَّبه النَّاس، فإنَّ من أصابه الخدر منهم إذا ذكر محبوبه زال بسهولة؛ لأنَّه بمسرَّته تنتفش الحرارة الغريزية، فيندفع الخدر، وقد روي أنَّه وقع مثله لابن عباس ﵄[(٢)]، وفيه يقول أبو العتاهية[(٣)]:

وتـخـدر فـي بـعـض الأحـايـين رجـلـه

فإن لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر[(٤)]

وهذا ممَّا تعاهده أهل المدينة، كما ذكره الشهاب الخفاجي[(٥)] في شرح هذا الأثر.

وأقول: إنَّ هذا كان من مذاهب العرب في الجاهليَّة، فكان الرجل

---

(١) (٢/ ٥٦٩)، وهذا الأثر أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (١٦٨)، وفي الإسناد أبو إسحاق السبيعي، وهو مدلّس، وقد عنعنه.

(٢) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (١٦٩)، وفي الإسناد غياث ابن إبراهيم وهو متروك، ورمي بالوضع. انظر: «الميزان» (٣/ ٣٣٧).

(٣) هو: إسماعيل بن قاسم بن سويد، أبو العتاهية العنزي، رأس الشعر الأديب الصالح، لقب بأبي العتاهية لاضطراب فيه. توفي سنة (٢١١هـ). «سير» (١٠/ ١٩٦).

(٤) قال الإمام النووي في «الأذكار» ص (٣٠٥ ط دار الفكر): وروِّينا فيه عن إبراهيم بن المنذر الحزامي، احد شيوخ البخاري، الذين روى عنهم في «صحيحه» قال: كان أهل المدينة يعجبون من حسن بيت أبي العتاهية، وذكره.

(٥) هو: أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري. صاحب التصانيف في الأدب واللغة. توفي سنة (١٠٦٩هـ). «الأعلام»، ولعلَّ قوله هذا في «نسيم الرياض».

منهم إذا خدرت رجله، ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها، قال الشاعر:

على أنَّ رجلي لا يزال اندلالها مقيمًا بها حتى أجيلك في فكري

وقال كثيِّر[١]:

إذا مذلت رجلي ذكرتك أشتفي بدعواك من مذل بها فيهون

وقال جميل[٢]:

وأنت لعيني قرة حين نلتقي وذكرك يشفيني إذا خدرت رجلي

وقالت امرأة:

إذا خدرت رجلي دعوت ابن مصعب فإن قلت: عبد الله! أجلى فتورها[٣]

---

(١) جاء في «محاضرات الأدباء» أنَّه لعمر بن أبي ربيعة، وفي «عيار الشعر» للعلوي:
وقال كثير:
إذا خدرت رجلي ذكرتك أشتفي بذكرك من خدر بها فيهون
وكثيِّر: هو صخر بن عبد الرحمن بن الأسوط الخزاعي المدني المتيَّم بعزَّة.
قال الزبير بن بكار: كان شيعيًا يقول بتناسخ الأرواح، وكان خشبيًا يؤمن بالرجعة.
توفي سنة (١٠٧هـ). «سير» (٥/ ٦٠٣).

(٢) هو: جميل بن عبد الله بن معمر، أبو عمرو العذري، الشاعر البليغ صاحب بثنية.
يقال: مات سنة (٨٢هـ). «سير» (٤/ ١٨١).
وهذا البيت في ديوانه من قصيدة مطلها:
خليليّ عوجا بالمحلَّة من جمل وأترابها بين الأجيفر فالخيل
انظر: «سمط اللآلي» للميمني.

(٣) ذكر هذا البيت القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (١/ ٤٦٣ ط دار الفكر) بتحقيق د. يوسف علي طويل، فقال: . . . ومنها ذهاب الخدر من الرجل، كانوا يقولون: إنّ الرَّجل إذا خدرت رجله، فذكر أحب الناس إليه، ذهب عنه الخدر، قالت امرأة كلاب: . . . ثم ذكره. وذكره في «سمط اللآلي» وفيه قصة.
وانظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» وغيرها.

وقال آخر[(١)]:

صب محب إذا ما رجله خدرت   نادى كبيشة حتى يذهب الخدر

وقال الموصلي:

والله ما خدرت رجلي وما عثرت   إلا ذكرتك حتى يذهب الخدر

وقال الوليد بن يزيد[(٢)]:

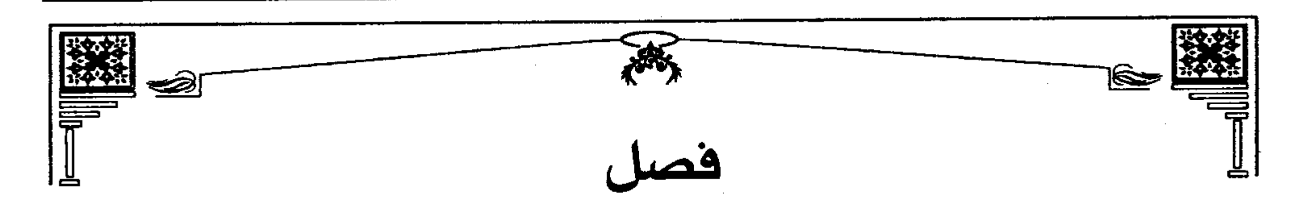
أثيبي هائمًا كلفًا معنًّى   إذا خدرت له رجل دعاك

أفيقال: إنَّ هؤلاء الشعراء لما خدرت أرجلهم، استغاثوا بمن يحبونه من امرأة أو غلام؟! لا أرى من يقول بذلك إلا من خدر عقله، وتركَّب جهله.

* * *

(١) في «عيار الشعر» لابن طباطبا العلوي في باب سنن العرب وتقاليدها أنَّ هذا البيت لامرأة من بني بكر بن كلاب. وفيه: نادى كنيسة بدل نادى كبيشة.

(٢) هو: الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أمير المؤمنين، قتل سنة (١٢٦هـ)، وله أربعون سنة «فوات الوفيات» (٢/ ٥٩٠ ط ـ دار الكتب العلمية).
هذا البيت أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (١٧١) عن إسحاق بن إبراهيم قال: قال الوليد بن يزيد بن عبد الملك في صبابة، ثم ذكره.



فصل

[استدلاله بشعار الصحابة في الحروب بعد موته ﷺ]

قال العراقي[(١)]:

الدليل الرابع والعشرون:

ذكر ابن الأثير[(٢)] في «تاريخه»، وذكر أنَّه اختصره من تاريخ ابن جرير الطبري[(٣)]: أنَّ الصحابة بعد موت رسول الله ﷺ كان شعارهم في الحروب: يا محمد. وذكره الواقدي في «فتوح الشام»، وهو أنقى تآليف الواقدي[(٤)].

والجواب أن يقال:

هذا أيضًا من نمط ما قبله، إذ لا كلام لنا في جواز إدخال حرف النداء على غيره سبحانه، وإنَّما الكلام في جواز الاستغاثة بغيره عز اسمه، وندائه فيما لا يقدر عليه إلا هو، ولم يكن مقصود الصحابة ﷺ بهذا الشعار

---

(١) ص (٦٠).

(٢) هو: الإمام الحافظ عز الدين، أبو الحسن علي بن الأثير أبي الكرم بن محمد الشيباني الجزري، صاحب التاريخ وغيرها من الكتب. توفي سنة (٦٣٠هـ). «طبقات الحفاظ» (١/ ٤٩٥).

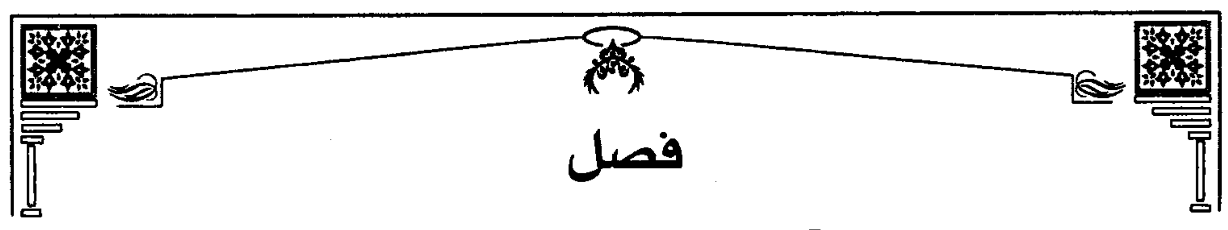
(٣) هو: الحبر البحر، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، صاحب التفسير، والتاريخ والمصنفات الكثيرة. توفي سنة (٣١٠هـ). «العبر في أخبار من عبر» (١/ ٤٥٩ ـ ط دار الكتب العلمية).

(٤) هو: محمد بن عمر بن واقد، أبو عبد الله الواقدي المدني، كان إمامًا عالمًا له التصانيف في المغازي وغيرها. توفي سنة (٢٠٧هـ). أجمع الحفاظ على تركه. «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٩٥)، و«سير» (٨/ ٣٦٢).

الاستغاثة بالرسول ﷺ، فإنَّه لم يقل هذا أحد، بل كانوا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أخلص الأمم لله في توحيده، ولم يخصص المسلمون شعارًا؛ أفيقال إذا أشعروا بغير ذلك كلفظ زيد وعمرو أنَّهم استغاثوا به؟ وهذا ظاهر الفساد، ومن وقف على كتب المغازي والسير تبين له أن الشعار كان مختلفًا، لا كما زعم العراقي [الجهول][1].

❁ ❁ ❁

(١) قال الشيخ العلامة عبد الله أبا بطين رحمه الله في كتابه «تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس» تحقيق عبد السلام آل عبد الكريم رحمه الله ص (١٤٩): فهذه وأشباهها حجة هذا المبطل وشيعته وهذه التواريخ وأشباهها فيها الصدق والكذب، وأكثرها يُحكى بغير إسناده ولو كان ما ذكر في هذه التواريخ ونحوها، حديثًا عن النبي ﷺ بغير سند متصل صحيح لم يحتج به في فِلْس، والحكاية الأولى أنَّ هذا كان شعارهم في الحرب، لم يقل إنهم كانوا يستغيثون به في الحرب، ولا أنهم يدعونه، بل قال: هذا شعارهم في الحرب فلا شبهة لك فيه؛ لأنّهم كانوا يستعملون الشعار في الحرب باسم أو كلمة ليعرف بعضهم بعضًا، كما روي أنّ شعارهم في بعض غزواتهم: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، وفي بعضها: امت أمت. اهـ.
وبنحوه أجاب الشيخ زيد بن محمد آل سليمان رحمه الله في كتابه: «فتح المنان في نقض شبه الضال دحلان» تحقيق عبد الله المسلم ص (١١٥ ـ ١١٦).
وانظر: «صيانة الإنسان» للسهسواني رحمه الله ص (٣٨٣).



فصل

[استدلاله بما حصل لبعض التابعين واستغاثتهم بالنبي ﷺ]

قال العراقي:

[الدليل][(١)] الخامس والعشرون:

ذكر ابن الجوزي في كتابه «عيون الحكايات»، بسنده إلى بعض التابعين: أنَّهم لما أسرهم الكفَّار وراودوهم على الكفر وامتنعوا، فأغلوا لهم زيتًا في قِدر فألقوهم فيه. فنادوا: يا محمد. ذكر ذلك السيوطي في «شرح الصدور»[(٢)]:

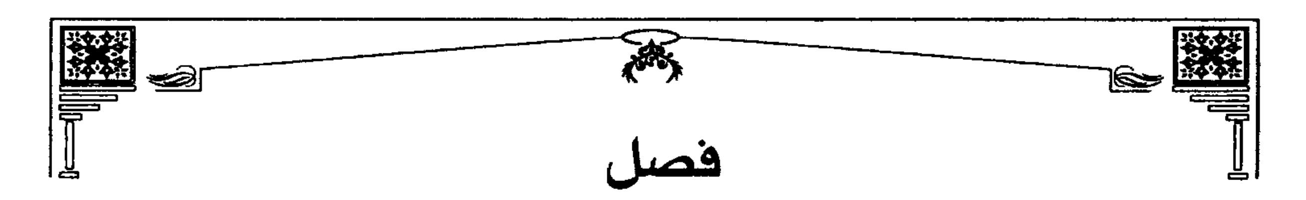
والجواب:

أنَّ هذه حكاية مكذوبة، فإنَّ التابعين ﷺ من خير القرون التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية، فيستحيل أن يخالفوا أمره ويسلكوا خلاف مراده، هذا إذا سلم للعراقي، أنَّ الحكاية كما نقلها من غير تحريف ولا حذف شيء، كما هي عادته في منقولاته، عامله الله تعالى بعدله.

❃ ❃ ❃

(١) ص (٦٠) والزيادة منه.

(٢) ص (٢٨٧ ـ ط دار ابن كثير) بسنده عن أبي علي الضرير... ثم ذكرها.



فصل

[تخليط العراقي واستدلاله بالكثرة على مدَّعاه]

قال العراقي[١]:

فإذا رأيت هذه الأدلة، التي ذكرها العلماء من كافَّة المذاهب، وأثبتوها في تصانيفهم، ورواها الخلف عن السلف، واتصلت بأسانيد المحدِّثين والمصنِّفين، جزمت بأنَّ هؤلاء كلهم[٢] لم يكونوا متواطئين على ما هو شرك وحرام، ولم يبيِّنوه ولم يحذروا الأمَّة عن مثله، ولم ينبهوا الإسلام على المنع منه، تبيَّن لك أنَّ هذه الأشياء جائزة لا محالة، إذ كل حديث من هذه الأدلة [المتقدمة][٣] أقل ما يكون رواه ألوفٌ عن ألوف.. إلى آخر ما هذى به من العبارة الركيكة، التي يتحاشى عن التلفظ بها أقل الطلبة.

والجواب أن يقال:

قد رأينا ما ساقه من الأدلة التي هي أوهن من بيت العنكبوت، ويا ليته قد كسا فمه لثام السكوت، فإنَّ ما ذكره ما بين حكاية مصنوعة، أو أخبار موضوعة، أو أحاديث ضعيفة لا مساس لها بالمقام، أو آيات قرآنية، قد أوَّلها[٤] بفهمه الفاسد بما هو بعيد عن مراد الملك العلام، وقد أبرزنا ذلك للعيان، وأثبتنا ما هنالك بالبرهان، وقد افترى على العلماء في نسبة ذكرها

---

(١) ص (٦٠).

(٢) ليست في «صلح الإخوان».

(٣) زيادة من «صلح الإخوان».

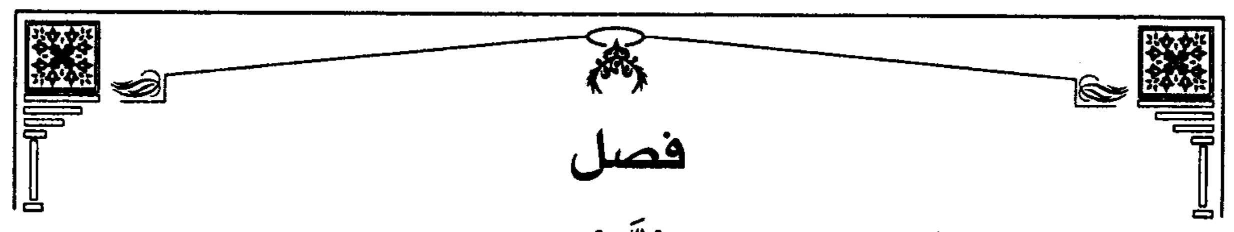
(٤) في المطبوع: حرَّفها.

إليهم، إذ لم يذكرها إلا بعض من لا خلاق له من الغلاة وعبَّاد القبور، بل إنَّ الكثير منها لم يسبق العراقي أحد في الاستدلال بها، وقد أدَّاه إلى ذلك فهمه الفاسد، واعتقاده الكاسد[1]، والسَّلف الصَّالح كانوا مبرَّئين عن مثل هذه الاعتقادات الزائفة.

ويا ويل هذا العراقي! كيف يرمي سادة الأمَّة بمثل عقيدته [الوثنية الضالة]؟! ولا بدع فإنَّ من يفتري على الشَّيخين ابن تيميَّة وابن القيّم، ويجعلهما على عقيدته مع شهرة حالهما ومزيد تعصبهما فيما يخالف أهواء القبوريِّين، وإخوان هذا العراقي من الملحدين [معلومة]، لا يصعب عليه الافتراء على غيرهما ممن لم يشتهر حاله.

* * *

(١) في المطبوع: الوثني.



فصل

[العراقي يرى أنَّ أهل الكرامات في الممات كحالهم في الحياة]

قال العراقي[١]:

وقد ورد عن النبي ﷺ وأصحابه من معاملة الأموات معاملة الأحياء، وطلب الاستخبار منهم والاستفهام، ونداؤهم المسمَّى بالدعاء في اللغة لا الدعاء الذي هو العبادة.

أقول: يريد العراقي بهذا الكلام، إثبات المساواة بين الأموات والأحياء؛ ليُغري النَّاس على ندائهم في الملمّات والدّعاء، وهذا[٢] يبطله ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، وشبَّه بهم من لم ينتفع بسماع الهدى، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١]، وليست هذه الآية في الأصنام كما يزعمه من لم يتدبَّر، لأنَّ الأصنام من الأخشاب والأحجار لا يحلُّها الموت، ولا شعور لها، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الآية، [فهذه الآية][٣]، فيمن يموت ويبعث من أهل الكرامات والمعجزات وغيرهم كما لا يخفى على من تدبَّرها.

---

(١) ص (٦٠).

(٢) من هنا نقل الألوسي عبارة الشيخ عبد الرحمن من كتابه: «كشف ما ألقاه إبليس» ص (٨٠ ـ ٨١).

(٣) زيادة من كتاب: «كشف ما ألقاه إبليس» للشيخ عبد الرحمن.

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، وهذا إنَّما يستعمل فيمن يعقل، كما لا يخفى على من له معرفة باللُّغة العربية، فالحمد لله على ظهور الحجة، وبيان المحجة ـ وما أحسن ما قال العلامة الشيخ عبد الرحمن(١) عليه الرحمة والغفران بعد ذلك الكلام ـ: وحقيقة حال هذا العراقي: مصادمة ما في القرآن من النهي عن دعوة غير الله تعالى، والقرآن ينهى عن دعوة كل ما سوى الله، وهذا يقول: يجوز أو يستحب أن يدعى أو يستغاث مع الله غيره، وليس عنده إلّا تشكيك وتخميش، وتغيّر على التَّوحيد، ونصرة الشّرك والتَّنديد، ولا يخفى أن جل شرك المشركين في حق من عبدوه مع الله تعالى، إنَّما هو بدعائه وسؤاله قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، فإن أردت أيها الموحّد ـ وفّقك الله تعالى للتمسّك بدين الإسلام ـ معرفة حقيقة ما اشتملت عليه أوراق هذا العراقي [وإن] طوَّل ما طوَّل وبهرج ما بهرج، فحقيقة ما فيها: الخروج عن الصِّراط المستقيم إلى سبيل الشَّيطان الرَّجيم، واتّباع غير سبيل [المرسلين](٢) المؤمنين، وسَبَّة أهل التوحيد، وتحريف الكلام عن مواضعه ومصادمة أدلَّة الكتاب والسنة، وتقليب الحقائق بجعله الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا، وتكثير الكذب على العلماء، ونسبتهم إلى ما هم بريئون منه منكرون له(٣)، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

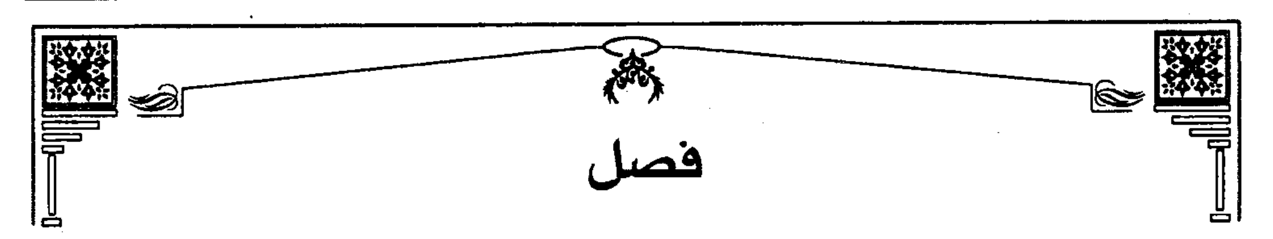
❊ ❊ ❊

---

(١) هو: الإمام العلّامة والبحر الفهَّامة العالم الرباني والمجدِّد الثاني عبد الرحمن ابن حسن بن محمد بن عبد الوهاب. له العديد من المصنفات (ت ١٢٨٥هـ). «عنوان المجد» (١/ ٢٢).

(٢) زيادة من «كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتدليس على لسان داود بن جرجيس» ص (٨٢).

(٣) إلى عنا انتهت عبارة الشيخ عبد الرحمن.



فصل

[استدلال العراقي بثلاثة عشر دليلًا لإثبات سماع الموتى]

قال العراقي[١]: وأدلَّة ذلك كثيرة. ثم ساق ثلاثة عشر دليلًا لإثبات سماع الموتى، منها: أحاديث لا دلالة لها على مقصوده.

ومنها: حكايات الله أعلم بصحَّتها. وعلى تقدير الصّحة لا يثبت بها مثل هذه المطالب، ومنها ما هو كأضغاث أحلام.

والجواب أن يقال:

إنَّا قد أسلفنا غير مرة، أنَّ الأموات لا يساوون[٢] الأحياء في وجه من الوجوه، إذ الموت غير الحياة، وما ثبت لهم من الحياة، فهي برزخية غير الحياة المعهودة في الدّنيا، فمن أراد بها الحياة المعهودة في الدّنيا التي تقوم فيها الرّوح بالبدن وتدبّره وتصرفه، ويحتاج معها إلى الطّعام والشَّراب واللباس، فهذا خطأ[٣] ظاهر، والحسُّ والعقل يكذِّبه كما يكذِّبه النصّ، ومن أراد [أنها] حياة أخرى غير هذه الحياة، بل تعاد الرُّوح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدّنيا ليسأل ويمتحن في قبره، فهذا حق ونفيه خطأ، وقد دلَّ عليه النصّ الصَّحيح الصَّريح، وهذه الحياة متفاوتة كما سبق، فحياة الأنبياء غير

(١) ص (٦٠).

(٢) في المطبوع: لا يسألون سؤال.

(٣) في المطبوع: انتكاس.

حياة الشّهداء، وحياة الشُّهداء فوق حياة غيرهم، وهكذا، وبسط هذا له موضع آخر.

والعلَّامة ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألَّف في ذلك كتابًا حافلًا. فلما اختلفت الحياتان اختلفت لوازمهما أيضًا من شعور وسمع وبصر وغير ذلك، فمن قال إنَّهم يسمعون، لم يرد بهذا السَّماع المعهود، فإنَّ هذا منتفٍ بالضرورة، ومن نازع في ذلك فقد كابر، وكذا المراد بغير السَّماع.

والعجب من العراقي هذا! كيف تعرَّض لهذه المسألة، مع أنَّه لا تعلُّق لها في المقصود، إذ لا يلزم من ثبوت السَّمع وغيره لهم الاستغاثة بهم، وطلب ما لا يقدر عليه إلّا الله تعالى منهم، فإنَّ ذلك لا يطلب من الأحياء حياة حقيقية فكيف بغيرهم؟ وقد أخطأ[1] العراقي في هذه المسألة خطأ[1] بيِّنًا، إذ لا يشك أحد من أهل العلم أنَّ في مسألة السَّماع قولين:

أحدهما: أنَّ الأموات يسمعون، ومع ذلك لا يستمدّ منهم ولا يستغاث بهم في قضاء الحوائج، ولا يلجأ إليهم، لعدم ورود ذلك في الشَّريعة.

والآخر: أنَّهم لا يسمعون.

ولـ[2] كلٍّ [قول] من هذين القولين، ذهب جم غفير من أهل العلم، وكل منهما أورد أدلة دالة على مدَّعاه لا يمكن إنكارها، وليس هذا الاختلاف في متأخري الأمَّة، بل إنَّ السَّلف أيضًا كانوا مختلفين في ذلك، فإنكار السَّماع رأسًا أو إثباته مطلقًا لا شك في أنه مكابرة محضة، فالرَّاجح قصر السَّماع على ما ورد؛ وبهذا الوجه يجمع بين الروايات المختلفة، وإليه ذهب

(١) في المطبوع: ضل... ضلالًا.

(٢) في المطبوع: وإلى.

السّادة الحنفيَّة إلا من لا يعبأ به، وكثير من أهل العلم، كما حقّقه بعض المعاصرين من أهل بلدنا بغداد أصلحه الله تعالى[1] في رسالةٍ لطيفة ألَّفها في هذه المسألة، سمَّاها: «الآيات البينات»[2]، وهي شهيرة، وقد أجاد فيها وأفاد، متَّع الله تعالى المسلمين بحياته.

ومن جملة ما قال فيها ـ ما حاصله ـ: أنَّ السَّادة الحنفيَّة كلّهم متَّفقون على عدم السَّماع. وقد صرَّحوا به في كتبهم المعتبرة، «كتنوير الأبصار»[3] وشرحه «الدر المختار»[4] وحواشيه[5] و«الفتح القدير»[6] و«الهداية»[7]،

---

(١) هو الشيخ نعمان الألوسي رحمه الله.

(٢) الكتاب مطبوع بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني ﷺ طبع المكتب الإسلامي، سنة (١٣٩٨هـ).

(٣) اسمه: «تنوير الأبصار وجامع البحار» في الفروع للشيخ محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب التمرتاشي الغزي الحنفي توفي سنة (١٠٠٤هـ) «خلاصة الأثر» (٤/ ١٨)، و«هدية العارفين» (٢/ ٢٦٢).

(٤) واسمه: «الدر المختار مختصر خزائن الأسرار شرح تنوير الأبصار» لحسين ابن إسكندر الرومي الحنفي توفي (١٠٨٤هـ). «هدية العارفين» (١/ ٣٢٣).

(٥) حواشي الدر المختار، كحاشية محمد أمين بن عمر المشهور بابن عابدين (ت ١٢٥٢هـ) واسمها: «رد المحتار على الدر المختار» مطبوعة في مجلدات.

وحاشية أحمد بن محمد التوقادي. (ت ١٢٣١هـ)، وحاشية الطهطاوي (ت ١٢٣١هـ) وغيرها. انظر: «جامع الشروح والحواشي» لعبد الله الحبشي (١/ ٦٧٨).

(٦) لمحمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسي المعروف بابن الهمام توفي سنة (٨٦١هـ) من مصنفاته «فتح القدير للعاجز الفقير» مطبوع، و«الفتح شرح للهداية الآتي».

(٧) لبرهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني توفي سنة (٥٩٣هـ). «الأعلام» (٤/ ٢٦٦). وكتابه «الهداية» ـ كما في كشف الظنون ـ: هو شرح على متن له يسمَّى «بداية المبتدي»، ألفه في مدة قدرها ثلاث عشرة سنة.

و«مراقي الفلاح»[١]، وشرح «الكنز»[٢] وغير ذلك، وما أوردوه عليهم مخالفوهم: من أنَّه ﷺ قال لأهل القليب، قليب بدر: «**هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا**»؟ فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلِّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»[٣]. أجابوا عنه بأنه غير ثابت، يعني من جهة المعنى، وإلا فهو في الصَّحيح، وذلك أنَّ عائشة ﵂ ردَّته بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، و﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠].

وأجيب أيضًا: بأنَّه إنَّما قاله عليه الصلاة والسلام على وجه الموعظة للأحياء لا لإفهام الموتى، كما روي عن علي ﵁ أنَّه قال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أما نساؤكم فنكحت، وأما دوركم فقد سكنت، فهذا خبركم عندنا، فما خبرنا عندكم[٤]؟ وما يقال إنَّ بعض الأموات ردَّ عليه بقوله: الجلود تمزّقت، والأحداق قد سالت، ما قدَّمنا لقينا، وما أكلنا ربحنا، وما

---

(١) «مراقي الفلاح بإمداد الفتاح في شرح نور الإيضاح ونجاة الأرواح» لحسن بن عمار بن علي الشرنبلالي الحنفي، والشرنبلالي (نسبة إلى شبر أبلولة، بلدة تجاه منوف العليا بإقليم المنوفية بمصر). توفي سنة (١٠٦٩هـ). «خلاصة الأثر» (٢/ ٣٨). والكتاب مطبوع، والأصل «نور الإيضاح» له أيضًا.

(٢) واسمه «كنز الدقائق» لأبي البركات عبد الله بن محمد النسفي توفي سنة (٧١٠هـ). والكتاب مطبوع، ومن شروحه: «كشف الحقائق شرح كنز الدقائق» للخطاب بن أبي القاسم القرة حصاري توفي نحو سنة (٧١٧هـ)، و«تبيين الحقائق في شرح كنز الدقائق» لأبي محمد الزيلعي المتوفى سنة (٧٤٣هـ)، و«الغمز على الكنز» لمحمد بن عبد الرحمن الصائغ، المتوفى سنة (٧٧٦هـ). انظر: «جامع الشروح والحواشي» (٣/ ١٤٨٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٨٣٥) من حديث أنس ﵁.

(٤) قال الألباني في تعليقه على الكتاب: لم أقف على إسناده، وما أراه يصح.

خلفنا خسرنا[١]، أو كلامًا نحو هذا، فغير ثابت، إذ يحتمل أنَّ الذي ردَّ هاتف من الملائكة أو من صلحاء الجن، على قياس ما صرَّح به الحافظ العسقلاني في شرحه على البخاري، عند الكلام على ما روي أنَّه لما مات الحسن بن الحسن بن علي ﷺ ضربت امرأته القُبَّة على قبره سنة ثم رفعت، فسمعوا صائحًا يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه آخر: بل يئسوا فانقلبوا، قال: جاءتهم الموعظة على لسان الهاتفين بتقبيح ما صنعوا، وكأنَّهما من الملائكة أو من مؤمني الجن[٢]. وفي «النهر»[٣]، أحسن ما أجيب به[٤]: أنَّه كان معجزة له ﷺ، أو أنَّه مخصوص بأولئك تضعيفًا للحسرة.

ومما أوردوه أيضًا: ما رواه مسلم في «صحيحه» عنه عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ الميِّت ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا**»[٥]، وقد أجيب عنه أيضًا: بأنَّه مخصوص في أول الوضع في القبر، مقدمة للسؤال، جمعًا بينه وبين الآيتين، فإنَّه شبه فيهما الكفار بالموتى الذين لا فائدة[٦] بعد سماعهم، وهو فرع عدم سماع الموتى. انتهى.

❁ ❁ ❁

(١) قال الألباني: هو معضل.

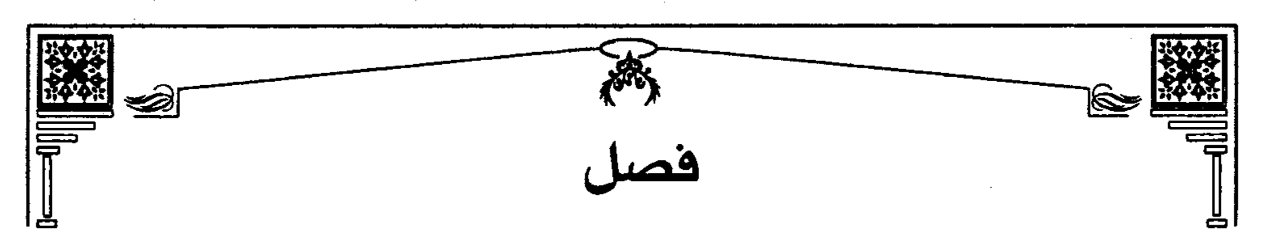
(٢) «فتح الباري» (٣/ ٢٣٨) باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور.
وأخرجه ابن الدنيا في «هواتف الجنان» ص (٩٢) ضمن مجموع رسائل ابن أبي الدنيا عن مؤسسة الكتب الثقافية. وفي «القبور» كما في «الفتح».

(٣) هو «النهر الفائق في شرح كنز الدقائق» لعمر بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المتوفى سنة (١٠٠٥هـ). «كشف الظنون» «هدية العارفين» باب العين.

(٤) في الأصل: ما أجيبه.

(٥) أخرجه البخاري برقم (١٣٣٨)، ومسلم برقم (٢٧٨٠) من حديث أنس بن مالك.

(٦) في الأصل: لا فادة.



فصل

[من يقول بعدم سماع الموتى لا ينكرون سماعهم في الجملة]

وبهذا التَّحقيق البديع يتبيَّن أنَّ من يقول بعدم السَّماع، كالسَّادة الحنفية لا ينكرون سماعهم في الجملة الذي هو مراد المثبتين، وهذا ـ أعني السماع في الجملة ـ على أحد وجهين، كما حقَّقه العلامة الألوسي(١) هو صاحب «روح المعاني»، **أوَّلهما**: أن يخلق الله تعالى في بعض أجزاء الميت قوَّة يسمع بها متى شاء الله عزَّ وجلَّ السَّلام، ونحوه مما يشاء الله سبحانه سماعه إياه، ولا يمنع من ذلك كونه تحت أطباق الثَّرى، وقد انحلَّت منه هاتيك البنية وانفصمت العرى، ولا يكاد يتوقف في ذلك من يجوِّز أن يرى أعمى الصين بقَّة الأندلس.

وثانيهما: أن يكون ذلك السَّماع للرّوح بلا واسطة قوَّة في البدن، ولا يمتنع أن تسمع بل أن تحس وتدرك مطلقًا بعد مفارقتها البدن، بدون وساطة قوى فيه، وحيث كان لها على الصَّحيح تعلُّق لا يعلم حقيقته وكيفيَّته إلا الله عزَّ وجل بالبدن كلّه أو بعضه بعد الموت، وهو غير التعلُّق بالبدن الذي كان لها قبله، أجرى الله تعالى عادته بتمكينها من السَّمع وخلقه لها عند زيارة القبر، وكذا عند حمل البدن إليه، وعند الغسل مثلًا، ولا يلزم [من] وجود ذلك التعلّق والقول بوجود قوَّة السَّمع ونحوه فيها، نفسها أن تسمع كل مسموع لما أنَّ السماع مطلقًا، وكذا سائر الإحساسات ليس إلّا تابعًا للمشيئة،

---

(١) تقدمت ترجمته في المقدمة.

فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فيقتصر على القول بسماع ما ورد السمع بسماعه من السلام ونحوه.

قال[١]: وهذا الوجه [الذي] يترجح عندي ولا يلزم عليه التزام القول بأنَّ أرواح الموتى مطلقًا في أفنية القبور، لما أنَّ مدار السماع على[٢] مشيئة الله تعالى، والتعلق الذي لا يعلم كيفيته وحقيقته إلا هو عز وجل، فلتكن الروح حيث شاءت أو لا تكن في مكان، كما هو رأي من يقول بتجردها[٣].

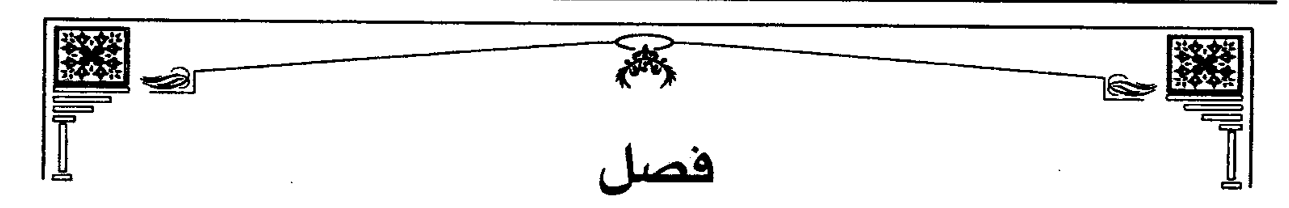
❊ ❊ ❊

---

(١) أي: الألوسي صاحب التفسير.

(٢) في التفسير: عليه.

(٣) «روح المعاني» (٢١/٥٧ ـ ٥٨ ـ ط دار إحياء التراث العربي) وما بين المعقوفتين منه.



فصل

[تبليغ صلاة من صلَّى على النبي ﷺ]

من يقول بسماع الأموات لا يقول بأنَّهم يسمعون كلَّ كلام، ومن أيِّ محلّ كان قريب أو بعيد، كما يزعم هذا العراقي وأضرابه، فإنَّ هذا باطل بإجماع المسلمين.

قال العلَّامة ابن قدامة في ردِّه على السُّبكي عند الكلام على تبليغ صلاة الأُمَّة على النبي له ﷺ وهو، ولو كان صحيحًا فإنَّما فيه أنَّه يبلِّغ صلاة من صلَّى عليه نائيًا ليس فيه أنَّه يسمع ذلك، كما وجدته منقولًا عن هذا المعترض، فإنَّ هذا لم يقله أحد من أهل العلم ولا يعرف في شيء من الحديث، إنَّما يقوله بعض الجهَّال، يقولون إنَّه يوم الجمعة وليلة الجمعة يسمع بأذنيه صلاة من يصلِّي عليه، فالقول بأنَّه يسمع ذلك من نفس المصلِّي باطل، وإنَّما في الأحاديث المعروفة: أنَّه يبلَّغ ذلك وتعرض عليه، وكذلك السلام تبلِّغه إياه الملائكة، وقول القائل: إنَّه يسمع صوت الصَّلاة[1] من بعيد ممتنع، فإنَّه إن أراد وصول صوت المصلِّي إليه فهذه مكابرة وإن أراد أنَّه هو يكون بحيث يسمع أصوات الخلائق من البعد، فليس هذا إلا الله رب العالمين الذي يسمع أصوات الخلائق كلِّهم، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن

(١) في المطبوع: المصلي.

ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وليس أحد من البشر بل ولا من الخلق يسمع أصوات العباد كلهم، ومن قال هذا في بشر، فقوله من جنس قول النصارى الذين يقولون: إنَّ المسيح هو الله، وإنَّه يعلم ما تفعله العباد، ويسمع أصواتهم، ويجيب دعاءهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٦].

فلا المسيح ولا غيره من البشر ولا أحد من الخلق يملك لأحد من الخلق ضرًا ولا نفعًا، بل ولا لنفسه، وإن كان أفضل الخلق، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فيه قولان: قيل: هو استثناء متصل وإنه يملك من ذلك ما ملّكه الله [إياه]. وقيل هو: منقطع، والمخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا بحال، فقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي لكن يكون من ذلك ما شاء الله، كقول الخليل: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠]، أي لا أخاف أن

تفعلوا شيئًا لكن إن شاء ربي شيئًا كان، وإلا لم يكن، وإلا فهم لا يفعلون شيئًا، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وفيه قولان، أصحهما: أنَّه استثناء منقطع، أي لكن من شهد بالحق تنفعه الشهادة، وتنفعه شهادته، كقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ﴾ [الزمر: ٤٤]، وبسط هذا له موضع آخر. انتهى.

ومن العجيب: أنَّ كثيرًا من الغلاة في أهل القبور الذين يندبون الصَّالحين ويستغيثون بهم، ويستمدُّون منهم في السرَّاء والضرَّاء، والشدَّة والرخاء، يعتقدون أنهم[1] يسمعون الأصوات، سواء في ذلك من قرب ومن كان في أبعد الجهات، وإذا توجهت إلى أحدهم سهام الطعن، يقول: ألم تسمع قوله ﷺ: «**وما زال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. .**» الحديث[2].

وقد حمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه من أنَّ العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات أنَّه يصير في معنى الحق؛ تعالى الله عن ذلك، وأنَّه يفنى عن نفسه جملة، حتى يشهد أن الله تعالى هو الذاكر لنفسه، الموحد لنفسه المحب لنفسه، وأنَّ هذه الأسباب والرسوم تصير عدمًا صرفًا في شهوده، وإن لم تعدم في الخارج، وقد تكلَّمت مع بعضهم يومًا حيث استمد بأحد الشيوخ الذين أماتهم الله تعالى منذ مئين من السنين، فزعم أنَّه يحضر روحه، فينال الاستفاضة منه، فقلت له: بينك وبين مدعوِّك هذا عدة فراسخ وأميال، وربما كان مثلك في مئة بلد أو أكثر وكلهم استمدوا من

---

(١) في المطبوع: أن مدعويهم.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا الشيخ في آن واحد، فهل يسمعهم ويحضر عند جميعهم؟ قال: نعم قلت: قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧]، قال: هذا ليس من الغلو وذكر الحديث السابق، قال: فإذا كان الله سمع المقربين بالنوافل لا يستغرب مثل ذلك، فإنَّ الله تعالى لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، قلت: فإذًا [قد] تعدَّدت الآلهة تعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، حيث لم يبق فرق عند هؤلاء الزنادقة بين الله سبحانه وبين من يدَّعون أنّه كان يتقرب بالنوافل، وقد زلَّت أقدام أقوام في معنى هذا الحديث.

واستشكل كيف يكون الباري جل وعلا سمْع العبد وبصره. . . إلخ؟

والجواب: من أوجه، ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» **أحدها**: أنَّه ورد على سبيل التَّمثيل، والمعنى: كنت سمعه وبصره في إيثاره أمري، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي، كما يحب هذه الجوارح.

ثانيها: أنَّ المعنى: كلَّيته مشغولةٌ بي، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

ثالثها: المعنى: أجعل[1] له مقاصده كأنَّه ينالها بسمعه وبصره. . . إلخ.

رابعها: كنت له في النّصرة، كسمعه وبصره ويده ورجله، في المعاونة على عدوّه.

خامسها: قال الفاكهاني، وسبقه إلى معناه ابن هبيرة: هو فيما يظهر لي أنَّه على حذف مضاف، والتَّقدير: كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحلُّ استماعه، وحافظ بصره كذلك. . إلخ.

---

(١) في «الفتح»: أُحصِّلُ.

سادسها: قال الفاكهاني: يحتمل معنًى آخر، أدقُّ من الذي قبله، وهو أن يكون معنى سمعه مسموعه؛ لأنَّ المصدر قد جاء بمعنى المفعول، مثل فلانٌ أملي، بمعنى مأمولي والمعنى: أنَّه لا يسمع إلا ذكري، ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي، ولا يأنس إلا بمناجاتي ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يمدُّ يده إلَّا فيما فيه رضاي ورجله كذلك، وبمعناه قال ابن هبيرة أيضًا.

وقال الطُّوفي: اتَّفق العلماء ممَّن يعتدُّ بقوله: أنَّ هذا مجاز، وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنَّه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها، ولهذا وقع في رواية: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي».

قال: والاتِّحاديَّة زعموا أنَّه على حقيقته، وأنَّ الحق عين العبد، واحتجُّوا بمجيء جبريل في صورة دحية، قالوا: فهو روحاني خلع صورته، وظهر بمظهر البشر، قالوا: فالله أقدر على أن يظهر في صورة الوجود الكليِّ أو بعضه؛ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وقال الخطَّابي: هذه أمثال، والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيْسير المحبة له فيها، بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه من[1] مُواقَعَة ما يكره الله، من الإصغاء إلى اللَّهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحلّ له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله، وإلى هذا نحا الداودي، ومثله الكلاباذي، وعبَّر بقوله: أحفظه فلا يتصرف إلا في محابِّي؛ لأنَّه إذا أحبَّه كره له أن يتصرف فيما يكرهه منه.

سابعها: قال الخطابي أيضًا: وقد يكون عبَّر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء والنُّجح في الطلب، وذلك أنَّ مساعي الإنسان كلها إنَّما تكون بهذه

---

(١) في «الفتح»: عن.

الجوارح المذكورة، وقال بعضهم: وهو منتزع مما تقدم لا يتحرك له جارحة إلَّا في الله ولله، فهي كلُّها تعمل بالحقِّ للحقِّ.

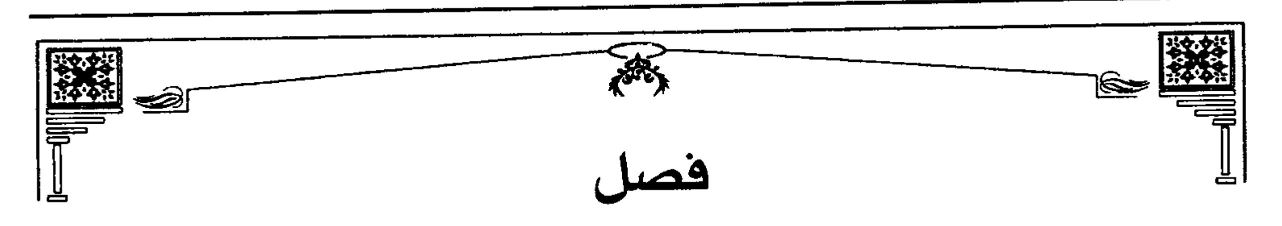
وأسند البيهقي في «الزهد»[(١)] عن أبي عثمان الجيزي أحد أئمة الطريق قال: معناه: كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع، وعينه في النظر، ويده في اللَّمس، ورجله في المشي. انتهى[(٢)].

وعلى الأوجه كلِّها فلا متمّسك فيه للاتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة لقوله في بقية الحديث: «ولئن سألني، ولئن استعاذ بي»، فإنَّه كالصَّريح في الردِّ عليهم. وكذا لا متمسك للعراقي [به] في قوله في الشبهة الأولى من خاتمته: إنَّ الحديث القدسي الوارد في أولياء الله تعالى، وهو «لا يزال عبدي» الحديث: مما يدلُّ على أنَّ الطلب من أولياء الله تعالى طلب منه تعالى؛ لأنَّ الله هو المتولِّي له.. إلخ، فكما أنَّ آخر الحديث يردُّ عليه وما قدمناه من المعنى الصحيح [يردُّ على الاتحادية كذلك يردُّ عليه، و] كذلك النّصوص القطعيَّة الدَّالَّة على أن لا يدعى غير الله تعالى فيما هو من خصائصه سبحانه.

* * *

(١) برقم (٧٠٧).

(٢) ذكره الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٥٢) من قوله: واستشكل كيف يكون... إلى قوله: في المشي، من كلامه في «الفتح» بتمامه.



فصل

[تفصيل الجواب في مسألة سماع الأموات]

قد تبيَّن لك فيما أسلفناه من الفصول: الجواب عمَّا زعمه العراقي، في مسألة السماع إجمالًا.

وأمَّا الجواب مفصَّلًا، فنقول:

إنَّ حديث القليب[١] الذي أورده في الدليل الأول، قد ذكرنا أنَّه كان معجزة أو مخصوصًا بأولئك.

وأمَّا حديث أمِّ محجن[٢] الذي في الدَّليل الثَّاني، فقد اعترف أنَّه مرسل، ولو فرض أنَّه جمع شروط الاحتجاج به فلا دليل فيه، إذ يحتمل أن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٠٢٦)، ومسلم برقم (٧٤٠٢) قال: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم الله ورسوله حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني الله حقًّا. قال عمر: يا رسول الله كيف تكلِّم أجسادًا لا أرواح فيها؟!
قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئًا».
وهذا لفظ مسلم.

(٢) أصل قصة أم محجن، وصلاة النبي على قبرها، عند البخاري حديث رقم (٤٥٨).
قال ابن رجب في «فتح الباري» له (٣/ ٣٥١): روى الشيخ الأصبهاني في كتاب «ثواب الأعمال»، بإسناد له عن عبيد بن مرزوق. . . .
فقال: يا رسول الله! أتسمع؟ قال: «ما أنتم بأسمع منها». فذكر أنها أجابته: قمّ المسجد قال ابن رجب: هذا مرسل غريب.
وأم محجن، فقد ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٤٠٦) فقال: محجنة، وقيل: أم محجن امرأة سوداء، كانت تقمُّ المسجد.

يكون مثل الأول. وسلام عبد الله بن عمر على عبد الله بن الزبير؛ والكلام معه وهو مصلوب، المذكور في الدليل الثالث[(١)]: لا يدلُّ على السماع؛ لأنَّ السلام دعاء، والكلام ربما كان على وجه التحزن والتوجع عليه.

وأما ما ذكره في الدَّليل الرَّابع[(٢)]، فغير معلوم الصّحّة، وعلى فرضها فلا دليل فيه، لأنَّ الجواب وإن سمع من القبر يحتمل أن يكون ذلك صوت هاتف، بل هو المتعيّن؛ لأنَّه لا قائل: إنَّ الأموات يتكلَّمون بكلام يسمعه الأحياء [بعدما عطل الموت جوارحهم] على ما لا يخفى.

وأمَّا ما ذكره في الدَّليل الخامس، من سلام عمر على القبور في البقيع، وإجابة الهاتف، فعلى تقدير الثّبوت لا دليل فيها أيضًا؛ لأنَّ السَّلام لا يستلزم السَّماع، فإنَّه دعاء كما سبق، ومثل هذا ورد عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، ولعلَّه اختلاف رواية، وقد ذكرناه مع جوابه، والعراقي جعله الدَّليل السَّادس.

وأمَّا ما ذكره في الدَّليل السَّابع، من تعليم النبي ﷺ أصحابه السلام على أهل القبور وأن يقولوا لهم: «**أنتم لنا سلف ونحن لكم خلف...**» إلخ. فقد أجاب عنه بعض المعاصرين البلديين ـ أصلحه الله تعالى[(٣)] ـ في كتابه «الآيات البيّنات»[(٤)]، بقوله: إنَّا نسلّم سرًّا في آخر صلاتنا إذا كنَّا مقتدين وننوي بسلامنا الحفظة والإمام، وسائر المقتدين، مع أنَّ هؤلاء القوم لا

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٦٦٦٠) من حديث أبي نوفل.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٦)، وتمامه: كان شاب على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلازم المسجد والعبادة، فعشقته جارية فاتنة في خلوة، فكلَّمته، فحدَّث نفسه بذلك، فشهق فغشي عليه.. القصة.

(٣) العلَّامة السَّيد نعمان أفندي الألوسي.

(٤) وقع في الأصل: آيات في بينات، وقوله هذا في ص (٩٥).

موطأ الإمام مالك»[١] في فصل جامع للوضوء، في الكلام على حديث أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون**»[٢] **ما لفظه.**

قال الباجي وعياض: يحتمل أنَّهم أحيوا له، حتى سمعوا كلامه، كأهل القليب، ويحتمل أن يسلم عليهم، مع كونهم أمواتًا لامتثال أمته ذلك بعده، قال الباجي: وهو الأظهر انتهى[٣].

قال: ورأيت أيضًا في «حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح»[٤] في باب الصَّلاة على الجنائز ما نصّه: قوله: وينوي بالتَّسليمتين الميّت مع القوم[٥].

وجزم في «الظَّهيريَّة»: بأنَّه لا ينوي الميِّت، ومثله لقاضي خان[٦].

وفي «الجوهرة»: قال في «البحر»: وهو الظاهر؛ لأنَّ الميت لا يخاطب

---

(١) (١/ ٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩/ ٢٤٩).

(٣) قول الباجي في «المنتقى» (١/ ٦٩).
وقال الألباني: قلت: كل من الاحتمالين غير قوي عندي، أما الأول: فلأن النبي ﷺ كان يخاكب الموتى بالسلام المذكور، كلما زار القبور، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين. . .» الحديث رواه مسلم وغيره.
فهل كانوا يجيبونه كلّما سلّم عليهم؟ وأمّا الآخر فهو أضعف منه؛ لأنّه يعود السؤال السابق: لماذا خاطبهم النبي ﷺ بذلك؟ اللهم إلا أن يكون مراده أن الأمر تعبدي محض. الله اعلم. . .» إلخ.

(٤) ص (٣٤١).

(٥) انظر: «فتح القدير» فصل في الصلاة على الميت.

(٦) «درر الحكام شرح غرر الأحكام» في صلاة الجنازة.

يسمعونه لعدم الجهر به، فكذا ما نحن فيه، على أن السَّلام[1] هو الدُّعاء بالسلامة لهم من الآفات، وننزلهم منزلة المخاطبين السامعين، وذلك شائع في العربية كما لا يخفى [على العارفين][2]، وهذه العرب تسلم على الديار وتخاطبها على بعد المزار[3].

قال: وبعد أنْ حررت هذه الكلمات رأيت في «شرح الزَّرقاني على

---

(١) في «البينات» هو الرحمة للموتى.

(٢) زيادة من «البينات».

(٣) علَّق الألباني رحمه الله في تحقيقه «للبينات» ص (٩٥)، قال: قلت: ومن ذلك مخاطبة النبي ﷺ الهلال حين يراه بقوله: «.. ربُّنا وربُّك الله» ونحوه، ممَّا جاء في عدَّة أحاديث...

ومثله ما روي عن ابن عمر مرفوعًا: كان إذا سافر، فأقبل الليل قال: يا أرض! ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرِّك وشرِّ ما فيك..» الحديث، وقد صحّحه بعضهم، لكن في إسناده جهالة كما بيَّنته في «الكلم الطيب»، و«المشكاة».

وفي ذلك كله، ردٌّ قويٌّ على قول ابن القيم في «الروح»، وقد ذكر السلام على الأموات: فإنّ السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال! وقال: وهذا السلام والخطاب والنداء لموجودٍ يسمع ويخاطب ويرد!.

وكأنه رحمه الله لم يستحضر خطاب الصَّحابة للنَّبي ﷺ في التشهد: السَّلام عليكم أيُّها النَّبي ورحمة الله وبركاته، خلّفه في المدينة وبعيدًا عنه في سائر البلاد، بحيث لو خاطبوه بذلك جهرًا لم يسمعهم ﷺ، فضلًا عن جمهور المسلمين اليوم، وقبل اليوم الذين يخاطبونه بذلك، أفيقال: إنه يسمعهم؟!! أو أنه من المحال السلام عليه وهو لا يشعر بهم ولا يعلم؟!! وكذلك لم يستحضر رحمه الله قول شيخ الإسلام ابن تيمية في توجيه هذا السلام ونحوه. فقال في «الاقتضاء» وقد ذكر حديث الأعمى المشار إليه آنفًا: وقوله: يا محمد، هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادي في القَلْب، فيخاطب لشهوده بالقلب، كما يقول المصلِّي: السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والإنسان يفعل هذا كثيرًا؛ يخاطب من يتصوَّره في نفسه، وإن لم يكن في الخارج من سمع الخطاب.

بالسلام؛ لأنَّه ليس أهلًا للخطاب، قال بعض الفضلاء: وفيه نظر؛ لأنَّه ورد أنَّه ﷺ كان يسلم على [أهل][1] القبور. انتهى.

على أنَّ المقصود منه الدُّعاء لا الخطاب. انتهى.

وأمّا ما ذكره في الدَّليل الثَّامن من مشروعية تلقين الميت[2]، فقد أجاب عنها أيضًا العلَّامة المشار إليه في الكتاب المذكور، بقوله[3]: اعلم أنَّ مسألة التلقين قبل الموت لم نعلم فيها خلافًا، وأما بعد الموت ـ وهي التي تقدم ذكرها في الهداية وغيرها ـ فاختلف الأئمَّة والعلماء فيه، فالحنفية لهم فيها ثلاثة أقوال:

الأول: أنَّه يلقَّن بعد الموت، لعود الرُّوح للسؤال.

والثاني: لا يلقَّن.

والثالث: لا يؤمر به ولا ينهى عنه.

وعند الشافعية يلقن، كما قال ابن حجر في «التحفة»[4]: ويستحب تلقين بالغ عاقل أو مجنون، سبق له تكليف ولو شهيدًا، كما اقتضاه إطلاقهم بعد تمام الدفن، لخبر فيه، وضعفه اعتضد بشواهد[5]. على أنَّه من الفضائل، فاندفع قول ابن عبد السلام إنه بدعة[6]. انتهى.

---

(١) زيادة من «البينات».

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري (١/ ٩١٦).

(٣) ص (٦٢).

(٤) «تحفة المحتاج في شرح المنهاج» (٣/ ٢٠٧). وانظر: «الإيضاح والتبيين بمسألة التلقين» للسخاوي ص (١٦١ ـ طبعة دار البشائر الإسلامية).

(٥) علَّق الألباني هنا فقال: كلا... ولذلك جزم ابن القيم أنه لا يصح، والنووي وغيره بأنه ضعيف.

(٦) فتاوى العز بن عبد السلام ص (٩٦).

وأما عند الإمام مالك نفسه، فمكروه، قال الشيخ علي المالكي في كتابه «كفاية الطالب الرباني لختم رسالة ابن أبي زيد القيرواني»[(١)]، ما لفظه: وأرخص [بمعنى استحب][(٢)] بعض العلماء ـ هو ابن حبيب ـ في القراءة عند رأسه أو رجليه أو غيرهما ذلك بسورة يس، لما روي أنَّه ﷺ قال: «ما من ميِّت يقرأ عند رأسه يس إلَّا هوَّن الله تعالى ـ عليه»[(٣)]، ولم يكن ذلك أي ما ذكر في القراءة عند المحتَضَر عند مالك رحمه الله[(٤)] أمرًا معمولًا، وإنَّما هو مكروه عنده، وكذا يكره عنده تلقينه بعد وضعه في قبره. انتهى.

وأمَّا عند الحنابلة فعند الأكثر يستحب[(٥)].. إلى آخر ما قال.

وعلى كلِّ حال فإنَّ المانعين لا ينكرون سماع الميت عند الوضع كما سبق، فالتلقين لو سلم بعد الموت لا يعكر عليهم.

وأمَّا ما ذكره في الدَّليل [التَّاسع][(٦)]: من قول المصلِّي: السَّلام عليك أيها النَّبي... إلخ. فهو دليل عليه لا له، إذ من البديهي أنَّ النبي ﷺ لا يسمع هذا السلام [كسمع الأحياء]، بل المقصود الدعاء بالسلامة له من الآفات، كما قرره ابن حجر المكي في «التحفة».

---

(١) هذا الكتاب هو شرح لـ الرسالة لابن أبي زيد القيرواني وهو مطبوع، ومؤلفه هو علي بن ناصر الدين بن محمد المصري المنوفي، أبو الحسن المالكي الشاذلي (ت ٩٣٩هـ). «الأعلام» (٥/ ١١).

(٢) زيادة من «البينات».

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «فضائل القرآن» عن أبي ذر، كما في «التخليص» (٢/ ١٠١). وأخرجه أبو نعيم عن أبي الدرداء وأبي ذر معًا، كما في «كنز العمال» (٤٢١٨٦).

(٤) انظر: «الثمر الداني شرح رسالة أبي زيد القيرواني» ص (٢٧٧)، وغيره.

(٥) انظر: «المبدع شرح المقنع» (٢/ ٢١٣).
وانظر: «المغني» لابن قدامة (٢/ ١٩١).

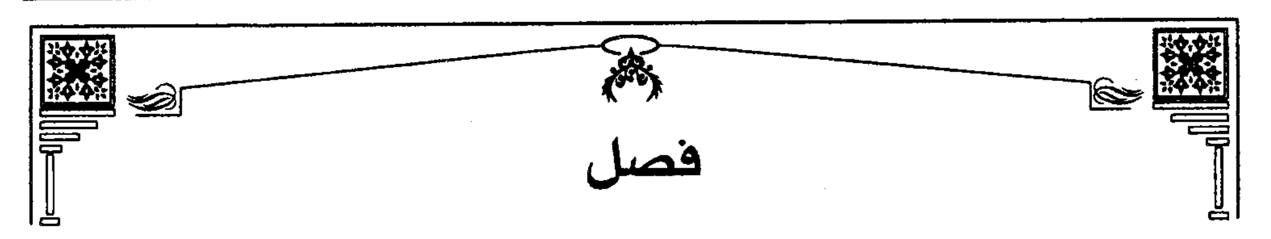
(٦) ص (٦٤).

وأمَّا ما ذكره في باقي الأدلَّة، فبعضه مجاب عنه بمثل ما سبق، وبعضه لا دليل فيه، أو لا صحة له، وقد بلغني أنَّ الملا عبد الوهاب أفندي [الحجازي][١] نزيل البصرة حالًا، ألَّف رسالة في الرد على من يقول إنَّ الأموات لا يسمعون على الوجه الذي ذكرناه، وقد استغربت من ذلك، لعلمي أنَّ الرجل أجهل القوم، وأنَّه قليل البضاعة من كل فن ولا بدع، فإنَّا في زمان ـ والعياذ بالله تعالى ـ بُغاثه يستنسر، وحميره تتصاهل، وعُرُجه تتسابق، وتوسَّد فيه الأمر إلى غير أهله، غير أنَّ الذي سمعته عن هذيان تلك الرسالة يأبى أن يكون صادرًا إلا عن مثله، فإذا يسَّر الله تعالى لنا فسحة من الزمان، أعلمناه قدره، وبينا ما زاغ فيه عن المحجة البيضاء، والله المستعان.

❋ ❋ ❋

---

(١) هو: عبد الوهاب بن عبد الفتاح، الشهير بالحجازي، المفتي بالبصرة، له كتاب «توضيح البينات في سماع الأموات عند كافة الأئمة السادات». مخطوط في (٤٢) ورقة. انتهى منه في اليوم الخامس من شهر محرَّم الحرام، لسنة ست وثلاثمئة وألف.



فصل

[استدلاله على جواز دعاء الأموات وندائهم لعلمهم بأعمال أقاربهم والرد عليه]

قال العراقي بعد أن ساق ما يتعلَّق بسماع الموتى[1]:

فإن كان عقلك لا يسع ذلك[2] مع أنَّ قدرة الله تعالى صالحة، فقد ورد أنَّ أعمال الأحياء تُعرض على الأموات كل يوم، فيمكن أن يكون علمهم بأحوال الأحياء من العرض، ثم ساق آثارًا تروى.

منها: حديث عن أبي هريرة[3]، في عرض أعمال الأحياء على أقاربهم وعشائرهم من الموتى.

وحديث [عن] أنس[4]، وحديث [عن] جابر بن عبد الله[5]، وحديث

---

(١) ص (٧٤).

(٢) في ط: لا يتسع لذلك.

(٣) أخرج ابن أبي الدنيا في «المنامات»، والأصبهاني في «الترغيب»، كما في «شرح الصدور» ص (٣٤٣) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم، فإنّها تعرض على أوليائكم من أهل القبور»، وعزاه في «الكنز» برقم (٢٧٣٩) (١٥/ ٦٨٥) للديلمي.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٦٤٣)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن منده، كما في «شرح الصدور» ص (٣٤٢).

(٥) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» برقم (١٧٩٥).

[عن] النعمان(١)، و[عن] غير هؤلاء(٢)، والمعنى متقارب، ومقصود العراقي: الاستدلال بذلك على جواز دعاء الأموات وندائهم في المهمّات، من أيّ محل كان لعلمهم بأعمال أقاربهم(٣).

والجواب أن يقال:

إنَّ الله تعالى قد بيَّن هذه المسألة في كتابه، بيانًا كافيًا شافيًا بنصوص صريحة لا تحتمل التَّأويل، ولا تقبل التَّحريف والتَّبديل، كلّها تدلُّ على نفي علم الغيب عن غير الله تعالى، والآثار التي وردت في عرض بعض أعمال الأحياء على أقاربهم وعشائرهم من الموتى لا تدلُّ على الدعوى بوجه من الوجوه، لأنَّه من جنس اطلاع الحي على بعض الجزئيَّات، والكلام والبحث إنَّما هو في الكلِّ والجميع لا في بعض الجزئيَّات، وليس هذا الجزئي ثابتًا لكل أحد من الأموات، فإنَّ الأحاديث لا عموم فيها ولا تدلُّ عليه؛ بل هي خاصَّة باطِّلاع البعض على بعض الأعمال لا كلِّها.

وأمَّا فقر العبد وحاجته ومصلحته ومفسدته وغير ذلك، وظاهر أمره وباطنه وشاهده وغائبه، فلا يعلمه إلَّا الله الذي يعلم السِّرَّ وأخفى.

ومن العجب استدلال العراقي وأضرابه بما هو حُجَّة عليهم لا لهم، فإنَّ هذه الأحاديث فيها أنَّه يعرض على الميت عمل قريبه وولده، وإذا كان يعرض

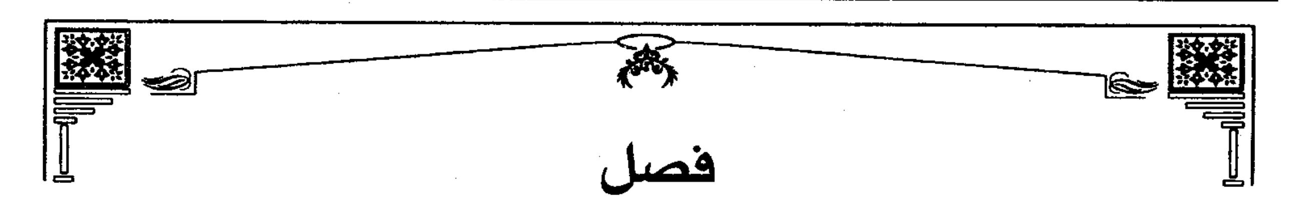
(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات»، والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (١٠٢٤٢)، والحكيم الترمذي كما في «شرح الصدور».

(٢) عن أبي أيوب وأبي الدرداء. انظر: «شرح الصدور» ص (٣٤٢).

(٣) علّق الشيخ الفقي هنا في تحقيقه لهذا الكتاب بما حاصله: أنّ هؤلاء القوم استدلوا بأحاديث واهية لا تقوم بها حجة، فإن الأعمال إنما يجازي الله وحده عليها، فالله قادر على الإحاطة بجميع مخلوقاته، أما البشر فإنهم محتاجون لمعين ووزير لعدم القدرة البشرية، وضيق الوقت تعالى الله عن ذلك.

عليهم فعلمه قاصر على نفس المعروض لا يتعدّاه إلى غيره، وإذا اختص بالقريب ففيه التنبيه على أنَّه لا يعلم عمل غير قريبه، وإذا اختص بالعمل دلَّ على أنَّه لا يعلم غيره من عموم الأحوال، فالأحاديث والقرآن حجة عليهم لا لهم، والحمد لله تعالى.





فصل

[في مسألة مقر الأرواح]

قال العراقي[(١)]: قال العلماء المجوِّزون: وقد ورد من هذا جملة صالحة، مع أنَّ الله تعالى قادر على ذلك، فالمانع كأنَّه استعجز القدرة الإلهية، قال حافظ الإسلام السّيوطي في «شرح الصُّدور» نقلًا عن الحافظ ابن حجر شارح البخاري في «فتاويه» ما نصه: أرواح المؤمنين في عليِّين، وأرواح الكفار في سجِّين، ولكلِّ روح بجسدها اتصال معنوي، فهي مأذون لها في التصرُّف وتأوي إلى محلِّها[(٢)]، انتهى باختصار.

قال السّيوطي[(٣)]: قلت: ويؤيّد ما ذكره من الإذن في التّصرّف، مع كون المقرِّ في عليّين، ما أخرجه ابن عساكر من طريق ابن إسحاق، قال: حدَّثني الحسين بن عبد الله بن عبَّاس، أنَّ رسول الله ﷺ قال بعد قتل جعفر بن أبي طالب: «لقد مرَّ بي جعفر الليلة يقتفي نفرًا من الملائكة، له جناحان متخضِّبان بالدَّم، يريدون بيشة بلدًا باليمن»[(٤)].

---

(١) ص (٦٥).

(٢) «شرح الصدور» ص (٣٢٠ ـ ط دار ابن كثير).

(٣) هو: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري جلال الدين، مؤرخ أديب له العديد من المؤلفات (ت ٩١١هـ). «الأعلام» (٣/ ٣٠١).

(٤) قوله هذا في كتاب «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور» ص (٣٢٠). وهذا الحديث أخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣٢٢) من طريق ابن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعنه، وهو مرسل أيضًا. والطريق التي ذكرها وعزاها لابن عساكر مرسلة أيضًا. وبيشة قرية غناء في وادٍ كثير الأهل، من بلاد اليمن، وتقع اليوم ضمن أراضي الدولة =

ثم ساق العراقي من هذا القبيل كلامًا طويلًا، كله يدلُّ على أنَّ الأرواح متصرفة غير مقيَّدة، وذكر حكايات وآثارًا الله أعلم بصحتها، لإثبات عرض أعمال الأحياء على الأموات، كل ذلك حرصًا على ما انطوى عليه قلبه من تألُّه ما سوى الله تعالى والالتجاء إلى المخلوق، وهذا خلاصة ما أطال به مما يملُّ القلم عن نقله.

والجواب أن يقال:

أولًا: إنَّ الروايات قد اختلفت في تعيين مقر أرواح الشهداء، ففي بعضها: «**في حواصل طير خضر تسرح في الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل تحت العرش**»[١].

وفي بعضها: «**على بارق بباب الجنة، يخرج إليهم رزقهم من الجنة**»[٢]، وفي بعضها: «**في قباب في رياض بفناء الجنة**»[٣]، وفي بعضها:

= السعودية في جنوب المملكة، وهي ذات أشجار ونخيل.

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٦٦)، وهناد في «الزهد» برقم (١٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٧٤)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» (١٩٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (١٩٦٦٧) من حديث ابن عباس، وقال ابن كثير: وهو إسناد جيد، وذكره السيوطي في «شرح الصدور» ص (٣٠٥)، وعزاه لعبد والطبراني والبيهقي بسند حسن.
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٦٤): وكأنَّ الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (١٩٦٩٦)، وهناد بن السري في كتاب «الزهد» كما في «شرح الصدور» ص (٣٠٦) عن أبي بن كعب. وقال محمد عوَّامة محقق «المصنف»: هذا موقوف له حكم الرفع وإسناده حسن.

تعلُق من ثمر الجنة»[١]، أي تأكل العلقة وهي ما يتبلَّغ به من العيش، وفي بعضها عن أرواح المؤمنين: «**إنَّها في حواصل طير خضر**»، أيضًا: «**وأنَّها تعلق**»[٢] أيضًا، وفي بعضها عن أرواح الشهداء: «**في حواصل طير بيض**»[٣]، وعن أرواح المؤمنين في عليين[٤]، وورد أيضًا: «**في السماء السابعة**»[٥]، وفي برزخ من الأرض بين السماء والأرض[٦]، وورد بأريحا[٧] وبزمزم[٨].

قال ابن القيِّم: مسألة الأرواح بعد الموت عظيمة لا تُتلَّقى إلَّا من

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٢٨٦)، والترمذي في «جامعه» برقم (١٦٤١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» برقم (٢٥٦١) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» عن عكرمة.

(٤) جزء من حديث أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٩٢)، وعزاه السيوطي في «الشرح» لابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير بهما.

(٥) قال السيوطي في «شرح الصدور» ص (٣١١): وأخرج أبو نعيم بسندٍ ضعيف عن أبي هريرة: **قلت**: وعزاه الهندي في «كنز العمال» (١٥/ ٨٧٦) للديلمي في «الفردوس» من حديث أبي هريرة.

(٦) عزاه السيوطي في «شرح الصدور» ص (٣١١) لابن المبارك في «الزهد»، وللحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، ولابن أبي الدنيا وابن منده عن سلمان قال.. فذكره.

قال ابن القيم: البرزخ، هو الحاجز بين الشيئين، فكأنه أراد في أرض بين الدنيا والآخرة.

(٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٢٨)، وقال الذهبي: الأخنس تابعي كبير أودعه البخاري في الضعفاء، وقوَّاه أبو حاتم وغيره، قال ابن القيم في كتابه «الروح» ص (٢٤٨): وأمَّا قول من قال: إنَّ أرواح المؤمنين تجتمع ببئر زمزم، فلا دليل على هذا القول من كتاب ولا سنة يجب التسليم لها، ولا قول صاحب يوثق به، وليس بصحيح...

(٨) عزاه السيوطي لابن أبي الدنيا عن علي.

السمع، وقد قيل: إنَّ أرواح المؤمنين كلهم في الجنة الشهداء وغيرهم، إذا لم تحبسهم كبيرة لظاهر الأحاديث، ولقوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩]، قسم الأرواح عقب خروجها من البدن إلى ثلاثة:

مقرَّبين وأخبر أنَّها في جنة نعيم، وأصحاب يمين وحكم لها بالسلام، وهو يتضمَّن سلامتها من العذاب، ومكذِّبة ضالة وأخبر أنَّ لها نزلاً وتصلية جحيم، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، قال جماعة من الصَّحابة والتَّابعين: إنَّه يقال لها عند خروجها من الدّنيا على لسان الملك بشارة[١].

وقال ابن حزم[٢]: في طائفة مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها، أي عن يمين آدم وشماله، وهذا ما دلَّ عليه الكتاب والسّنّة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، فصحَّ أنَّ الله تعالى خلق الأرواح جملة، وأخبر ﷺ: «**أنَّ الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[٣]، وأخذ الله عهدها وشهادتها بالربوبية،

---

(١) «الروح» لابن القيم ص (٢١٣).

(٢) هو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ابن حزم القرطبي الظاهري، الإمام الأوحد، البحر ذو الفنون والمعارف صاحب المصنفات العظيمة (ت ٤٥٦هـ). «سير» (١٨/ ١٨٤)، وقول ابن حزم في «الفصل في الأهواء والملل والنحل» (٤/ ٥٨).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» من حديث سلمان الفارسي، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» عن ابن عباس موقوفًا عليه. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٧١) وقال: رواه البزار، وروى أحمد بعضه، وفي إسناد البزّار شهر بن حوشب.
=

وهي مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن تؤمر الملائكة بالسجود لآدم، وقبل أن يدخلها في الأجساد، والأجساد يومئذ تراب وماء، ثم أقرها حيث شاء، وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت... ثم قال[١]: فصحَّ أنَّ الأرواح أجسام حاملة لأعراضها من التّعارف والتّناكر، وأنّها عارفة مميزة، فيبلوهم الله في الدنيا بما يشاء، ثم يتوفاها، فترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى السَّماء الدّنيا، أرواح أهل السعادة عن يمين آدم، وأرواح أهل الشّقاوة عن يساره... ثم قال: هؤلاء يمينه في العلو والسعة وهؤلاء يساره في السّفل والسجن، وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة. وقيل: هي على أفنية قبورها[٢].

وقال ابن القيِّم أيضًا: وهذا القول إن أُريد به أنَّها ملازمة للقبور لا تفارقها، فهو خطأ يرده الكتاب والسنة، وعرض المقعد لا يدلُّ على أنَّ الرّوح في القبر، ولا على فنائه، بل على أنَّ لها اتصال به يصحُّ أن يعرض عليها مقعدها، فإنَّ للروح شأنًا آخر. فتكون في الرفيق الأعلى، وهي متصلة في البدن، بحيث إذا سلَّم المسلِّم على صاحبها ردَّ عليه السَّلام، وهي في مكانها هناك، وهذا جبريل عليه السلام رآه النبي ﷺ وله ستُّ مئة جناح، منها جناحان سدَّا الأفق، وكان يدنو من النبي ﷺ حتى يضع ركبتيه إلى ركبتيه وكفَّيه على فخذيه، وقلوب المخلصين تتَّسع للإيمان بالله، ومن الممكن أنَّه يدنيه منه، وهو في مستقرِّه من السَّموات.. ثم قال: وإنَّما يأتي الغلط من قياس الغائب على الشَّاهد، فيعتقد أنَّ الروح من جنس ما يعهد من الأجسام، التي إذا شَغلت مكانًا لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض[٣].

= وفيه كلام، وقد وثَّقه غير واحد، وروى الطبراني في «الكبير» طرفًا منه.

(١) الظاهر أنّ هذا قول ابن حزم.

(٢) «الرّوح» ص (٢١٤).

(٣) «الروح» ص (٢٣٤).

وقد رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء موسى قائمًا يصلِّي في قبره، ورآه في السَّماء السَّادسة، فالروح كانت هناك في مثال البدن، ولها اتِّصال في البدن، بحيث يصلِّي في قبره ويردُّ على من يسلِّم عليه وهو في الرفيق الأعلى، ولا تنافي بين الأمرين، فإنَّ شأن الأرواح غير شأن الأبدان.

وقد مثَّل ذلك بعضهم بالشمس في السماء وشعاعها في الأرض، وإن كان [تمثيلًا] غير تام المطابقة، من حيث إنَّ الشعاع إنَّما هو عرض للشمس، وأمَّا الرُّوح فهي تنزل، وأما رؤية النبي ﷺ الأنبياء ليلة الإسراء في السموات، الصحيح أنَّه رأى الأرواح في مثال الأجساد، مع ورود أنَّهم أحياء في قبورهم يصلّون... ثم قال: وهذا مع القطع بأنَّ روحه في أعلى عليِّين، أو الجنة أو السماء، وأنَّ لها بالبدن اتِّصالًا، بحيث تدرك وتسمع وتصلِّي، وتقرأ، وإنَّما يستغرب هذا [من في هذا] لكون المشاهد الدنيوي [الذي] ليس فيه ما يشابه هذا، وأمور البرزخ والآخرة على نمط غير هذا المألوف في الدنيا. انتهى.

وقال في موضع آخر: للرُّوح بالبدن، خمسة أنواع من التعلُّق متغايرة:

الأوَّل: في بطن الأم.

الثَّاني: بعد الولادة.

الثَّالث: في حال النَّوم، فلها به تعلُّق من وجه ومفارقة من وجه.

الرَّابع: في البرزخ، فإنَّها وإن كانت فارقته بالموت، فإنَّها لم تفارقه فراقًا كليًّا بحيث لم يبق [لها] إليه التفات.

الخامس: تعلُّقها [به] يوم البعث، وهو أكمل أنواع التعلُّقات، ولا نسبة لما قبله إليه، إذ لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا[١]... ثم سرد

---

(١) «الروح» ص (١٠٩).

الأقوال، فقال: ولا يحكم على قول من هذه الأقوال بعينه بالصِّحة ولا بالبطلان، بل الصِّحة أنَّ الأرواح متفاوتة في مستقرِّها في البرزخ أعظم تفاوت، ولا تعارض بين الأدلَّة، فإنَّ كلًّا منها وارد على فريق من النَّاس، بحسب درجاتهم في السَّعادة والشَّقاوة.

فمنها: أرواح في أعلى علِّيين في الملأ الأعلى، وهم الأنبياء وهم متفاوتون في منازلهم، كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء.

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشُّهداء لا جميعهم، فإنَّ منهم من يحبس عن دخول الجنّة لدَين، كما في حديث البارق(١).

ومنهم: من يكون على باب الجنَّة، كما في حديث ابن عبَّاس(٢).

ومنهم: من يكون محبوسًا في الأرض، لم تصل روحه إلى الملأ الأعلى، فإنَّها كانت روحًا سفليَّة أرضيَّة، فإنَّ الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السمائية، كما أنَّها لا تجامعها في الدنيا... فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأصحاب عملها.

ومنها: أرواح تكون في تنّور الزناة، وأرواح في نهر الدَّم، إلى غير ذلك.

فليس للأرواح سعيدها وشقيُّها مستقرٌّ واحد، وكلّها على اختلاف

---

(١) الذي في «الروح» ص (٢٦٢): كما في «المسند» عن محمد بن عبد الله بن جحش، أنَّ رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: «الجنة». فلما ولَّى قال: «إلّا الذي سارَّني به جبريل آنفًا».

(٢) وهو كما أخرج أحمد (٤/ ٢٢٠) «الشهداء على بارق، نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية» وصحَّح إسناده ابن حجر في «الإمتاع» وغيره.

محالها، وتباين مقارِّها، لها الاتصال بأجسادها في قبورها، ليحصل له من النعيم أو العذاب ما كتب له. انتهى[١].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ بعد كلام على نحو ما تقدَّم ـ: ومع ذلك فإذا نقل الميت من قبر إلى قبر، فالاتصال المذكور مستقر، وكذا لو تفرَّقت الأجزاء[٢]. انتهى.

إذا عرفت ذلك، فاعلم أنَّ ما نقله العراقي من الآثار والحكايات والمنامات، لا تدلُّ على مدَّعاه، بعد أن عرفت حال الروح ولوازمها، ومن نقل عنهم العراقي من الأفاضل، كابن القيّم وابن رجب وغيرهما هم من أشهر المانعين للاستغاثة بغير الله تعالى، فإن زعم أنَّ أرواح الصَّالحين تتصرَّف في العالم، وتدبِّر الأمر ويستعان بها ويستغاث بها، لهذه النقول التي نقلها، فذلك من جملة الأدلة على جهله، وقد حادَّ الله ورسوله وأهل العلم، وكذب على حملة الدين، فإنَّ الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، وفي موضع آخر: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدلُّ على أنَّ المتصرف في الكون هو الله الواحد الذي لا شريك له[٣].

---

(١) «الروح» ص (٢٦٢).

(٢) في فتاويه.

(٣) كتب في الحاشية: وفي «دلائل الرَّسوخ في الرد على المنفوخ» يعني هذا العراقي: ومن العجب أنَّ هذا العراقي زعم أنّ للأرواح تدبيرًا وتأثيرًا في العالم، مستدلًا بعبارة رآها في كتاب «الروح»، وهذا غلط فاحش وخطأ واضح، فإنَّ ما ذكره =

قال العلَّامة ابن القيِّم ـ عليه الرحمة [والرِّضوان] ـ وهو الذي نقل عنه العراقي، وجعل كلامه بزعمه مداد حجَّته: ومن أنواع الشرك: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجّه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإنَّ الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلًا لمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشَّافع والمشفوع.

= العلّامة ابن القيِّم، ليس فيه أنها تدبِّر وتتصرَّف وتجيب من دعاها، وليس فيها إلّا مجرَّد الحكاية أنّ روح النبي ﷺ وبعض أصحابه، قد رآها بعض الناس عند القتال، وأنها هزمت أهل الشرك، وليس فيها أنها تدبر وتتصرف، وهذه الرؤيا والقضية الجزئية لا دلالة فيها على ما زعمه العراقي بوجه من الوجوه، وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩ ـ ١٠].

فانظر هذه الآية الكريمة وما فيها من قطع المتعلّق والالتفات إلى غير الله تعالى، مع أنَّ المدد بالملائكة وقتالهم مشهود، محسوس متواتر، ولو قال إنسان بجواز دعاء الملائكة وطلب ذلك منهم والاستغاثة بهم عند الشدائد والحرب، لكان ذلك كفرًا ورجوعًا إلى عبادة الملائكة، والأنفس المفارقة، ومن نظر في كلام هذا الرَّجل، عرف أنَّه أجنبيٌّ عن العلم، لم يعرف ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وكيف كان الشرك في الأمم، وإلّا فأيُّ تلازم بين ما ذكره وما أخبر الله به عن مدده بالملائكة، وبين دعائهم والاستغاثة بهم والاستعانة والإنابة في كشف الشدائد والمهمَّات؟ والرجل وجد مادة وكتبًا شتّت فهمه وحيَّرت عقله، أراد الاستغناء بها، فلم تزده إلّا عمى وجهلًا، فأضاف إلى ذلك الجراءة في الكذب على الله وعلى رسله، وعلى أولي العلم من خلقه، كما كذب على الشَّيخ ابن تيميّة وتلميذه ابن قيِّم الجوزيّة رحمهما الله، وزعم أنهما قالا: إنّ الأرواح تدبر وتتصرف بعد الموت، والشيخ رحمه الله نصّ على أنّ القول بمثل هذا من أقوال الفلاسفة والصابئة. انتهى.

قلت: وكتاب «دلائل الرسوخ» للشيخ عبد اللطيف رحمه الله مطبوع وهو «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» كما نبَّهت في المقدمة ص (٢٣).

قلت: وهذا الجهل قد عمَّت به البلوى في زمن العلَّامة ابن القيِّم رحمه الله وقبله وبعده، كما قال في «الكافية الشَّافية»[(١)].

ولقد رأينا من فريقٍ يدَّعي الـ إسلام شركًا ظاهر التِّبيانِ
جعلوا له شركاء وَالَوْهُمُ وساووهم به في الحبِّ والسّلطان[(٢)]

إلى آخر الآبيات

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي الحنبلي في ردّه على السبكي في قوله: إنَّ المبالغة في تعظيمه ـ أي الرسول ﷺ ـ واجبة إن أريد بها المبالغة بحسب ما يراه كلّ أحد تعظيمًا حتى الحجّ إلى قبره، والسُّجود له، والطَّواف به، واعتقاد أنَّه يعلم الغيب، وأنَّه يعطي، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضّرَّ والنَّفع، وأنَّه يقضي حوائج السائلين، ويفرّج كربات المكروبين، وأنَّه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، فدعوى المبالغة في هذا التَّعظيم، مبالغة في الشِّرك وانسلاخ من جملة الدِّين. قال في الفتاوى «البزازية»من كتب الحنفية: من قال إنَّ أرواح المشايخ حاضرة تعلم، يكفر.

وقال الشَّيخ صنع الله الحلبي الحنفي[(٣)] في كتاب الرد على من ادعى أنَّ للأولياء تصرُّفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنَّه ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات، يدَّعون أنَّ للأولياء تصرُّفات في حياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشَّدائد والبليَّات، وبهم تكشف

---

(١) «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» برقم (٣٥١٣)، وهو مطبوع في ثلاث مجلدات عن دار عالم الفوائد.

(٢) في «الكافية»: في الحب لا السلطان.

(٣) صنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي، واعظ فقيه، محدِّث (ت ١١٢٠هـ)، وكتابه هو «سيف الله على من كذب على أولياء الله» مطبوع بتحقيق علي رضا، عن دار الوطن، والنقل المذكور من ص (١٥ ـ ٦٥) بتصرّف من الألوسي رحمه الله.

المهمَّات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلِّين على أنَّ ذلك منهم كرامات، وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس وعليه المدار بلا التباس[١]، وجوَّزوا لهم الذبائح و[نذروا] النُّذور. وأثبتوا لهم فيهما الأجور. قال: وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السَّرمدي، لما فيه من روائح الشِّرك المحقَّق، ومصادرة الكتاب العزيز المصدَّق، ومخالف لعقائد الأئمَّة، وما اجتمعت عليه الأمَّة، وفي التَّنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. ثم قال: فأمَّا قولهم: إنَّ للأولياء تصرُّفات في حياتهم وبعد مماتهم، فيردّه قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [النور: ٤٢]، ونحوه من الآيات الدالَّات، على أنَّه المنفرد بالخلق والتدبير، والتصرُّف والتقدير، ولا شيء [ما][٢] لغيره في شيء بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وقهره تصرفًا وملكًا وإحياءً وإماتة وخلقًا، وقد تمدَّح الرَّبُّ تعالى [بانفراده][٢] بملكه في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وذكر آيات في هذا المعنى، ثم قال: فقوله في الآيات كلها: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من غيره، فإنَّه عام يدخل فيه من اعتقده من ولي وشيطان يستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمدّ غيره؟!.. إلى أن قال: إنَّ هذا القول [قول] وخيم، وشرك عظيم.. إلى أن قال: وأمَّا القول

(١) هذه مصطلحات صوفية، وعليها مدار اعتقادهم في الأولياء والصالحين.

(٢) هذه الزيادة من «فتح المنان» لآل سليمان.

بالتصرُّف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ . . .﴾ الآية [الزمر: ٤٢]، قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**»[1] **الحديث**.

وجميع ذلك وما هو نحوه، دالٌ على انقطاع الحسِّ والحركة من الميت، وأنَّ أرواحهم ممسكة، وأنَّ أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدلَّ على أنَّه ليس للميِّت تصرّف في ذاته، فضلًا عن غيره، فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرف في غيره؟ فإنَّه سبحانه يخبر أنَّ الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إنَّ الأرواح مطلقة متصرِّفة ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]. قال: وأمَّا اعتقادهم أنَّ هذه التصرفات من الكرامات، فهو من أعظم المغالطة؛ لأنَّ الكرامات شيء من الله تعالى يكرم بها أولياءه وأهل طاعته، لا قصد لهم فيه ولا تحدّي ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران وأسيد بن حضير وأبي مسلم الخولاني. وقال: وأمّا قولهم: فيستغاث بهم في الشَّدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع؛ لمصادرة[2] قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وذكر الآيات في هذا المعنى... ثم قال: فإنَّه جلَّ ذكره كرر أنَّه

---

(١) وتمامه: «صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» أخرجه البخاري برقم (٦٥١٤)، ومسلم برقم (٢٩٦٠).

(٢) في ط: لمصادمته.

الكاشف للضر وحده لا غيره، وأنَّه المنفرد بإجابة المضطر، وأنَّه المستغاث به لذلك كله، وأنَّه القادر على دفع الضرِّ، القادر على إيصال الخير، فهو المتفرِّد بذلك فإذا تعيَّن هو جلَّ ذكره، خرج غيره من ملَكَ ونبيٍّ ووليّ.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظَّاهرة العادية من الأمور الحسِّيَّة، في قتال أو إدراك عدوٍّ أو سبع ونحوه، كقولهم: يا لزيد[1]، يا للمسلمين، بحسب الأفعال الظّاهرة بالفعل. وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنويَّة من الشَّدائد، كالمرض وخوف الغرق والضِّيق والفقر، وطلب الرّزق ونحوه، فمن خصائص الله لا يُطلب فيها غيره، قال: وأما كونهم معتقدين [لهم] التأثير في قضاء حاجاتهم اليوم، كما [كانت] تفعله جاهليَّة العرب والصّوفيّة الجهّال وينادونهم، ويستنجدون بهم، فهذا من [أنكر] المنكرات.

فمن اعتقد أنَّ لغير الله من نبيٍّ ووليٍّ أو روحٍ أو غير ذلك، في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرًا، فقد وقع في وادي جهل خطر، فهو على شفا جرف من السَّعير، وأمَّا كونهم مستدلِّين على أنَّ ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياء الله تعالى بهذه المثابة، فهذا ظنّ أهل الأوثان كما أخبر الرَّحمن عنهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، فإنَّ ذِكْرَ ما ليس من شأنه النَّفع ولا دفع الضرّ من نبيٍّ أو وليٍّ وغيره، على وجه الإمداد منهم: شرك مع الله تعالى، إذ لا قادر على الدَّفع غيره، ولا خير إلَّا خيره، قال: وأمَّا ما قالوه: إنَّ منهم أبدالًا ونقباء وأوتادًا ونجباء وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة.

والقطب: هو الغوث للنَّاس، فهذا من موضوعات إفكهم، كما ذكره

---

(١) في الأصل: يا آل زيد.

القاضي المحدِّث [أبو بكر] ابن العربي[١] في «سراج المريدين»، وابن الجوزي وابن تيمية. انتهى باختصار[٢].

فرحم الله علماء السنة، فلقد كفونا مؤنة كشف ما أورده المشركون من شبهات المبطلين، فللَّه الحمد والمنَّة على عظيم النّعمة، فتبيَّن [بذلك] لمن له عقل بطلان ما بهرج به هذا العراقي، مما هو ملحق بالكرامات، مستدلًّا بذلك على جواز جعل الصَّالحين أندادًا لله، تعالى الله عمَّا يقول الظَّالمون علوًّا كبيرًا.

والعجب ممن يقول: لا إله إلا الله، ويتدبَّر معناها، وهو أنَّه لا مستحق للعبودية غير الله الفرد الصمد، الواحد الأحد، الذي خلق العالم وأحيا الرمم، جلَّ شأنه وعظم سلطانه، كيف يسند التصرف إلى غيره سبحانه؟! ويطلب منه الضر والنفع، ويدع المستغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه؟ إذ لا يستحق أن يعبد إلا من كان مستغنيًا عن كل ما سواه، ومفتقرًا إليه ما عداه، وبهذا يظهر اندراج جميع عقائد الإيمان تحت هذه الكلمة الشريفة، وقد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع.

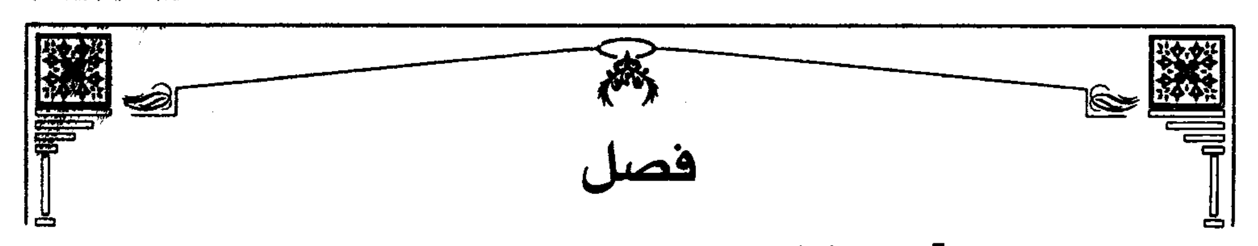
ولعلها لاختصارها مع اشتمالها على ما يجب على المكلف معرفته، جعلها الشَّارع ترجمة على ما في القلب من الإيمان، ولم يقبل من أحد الإيمان إلا بها، فتفطن [لهذا] جيدًا[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) هو: محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري، أبو بكر بن العربي القاضي المالكي، الحافظ المشهور، له المصنفات العديدة. توفي سنة (٤٥٣هـ). «وفيات الأعيان».

(٢) «الصارم المنكي». (٣) في الأصل: جدًّا.



فصل

[استدلاله بجواز دعاء الصالحين وجعلهم وسائط ووسائل والرد عليه]

قال العراقي(١): ثمَّ إنَّ المجوِّزين لذلك، ذكروا أنَّ المراد التَّوسل بهم إلى الله تعالى، فقالوا: قد ورد التّوسّل بالأعمال الفاضلة، لحديث أهل الغار الثَّلاثة، كما في البخاري، فالتوسّل بالذّوات الفاضلة أولى، وقال المانعون: إنَّ الذَّوات لا يجوز التَّوسّل بها.

قال: فالجواب أنَّ التّوسّل بالذَّوات، بل والجمادات، وقع كثيرًا من الصَّحابة بحضرة النبي ﷺ وبعد وفاته، ومن الصَّحابة والتابعين(٢).

قال: فلنذكر منها ما اطلعنا عليه وهي قطرة من بحر.

منها: قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فإنَّ المراد عام بالذَّوات والأعمال(٣).

أوَّلًا: إنَّه إذا أريد بالوسيلة الأعمال، لزم التَّكرار والتَّأكيد، وذلك لأنَّ الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، فإنَّ الخطاب للذين آمنوا، فقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، افعلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، كما هو [في] «تفسير البغوي»، فيكون ابتغاء الوسيلةأمرًا آخر غير فعل

---

(١) ص (٧٧).

(٢) هذا مما ابتلي به العراقي، وأضرابه للاستدلال به، وهو كذب وافتراء.

(٣) هذا استدلال عام، وهذا شأن أهل البدع يستدلون بالعمومات، ثم الوسيلة في هذه الآية هي عبادته، كما سيذكره المؤلف بعد أسطر.

الأوامر، فلم يبق إلا التّوسّل بالذّوات. . . انتهى. ما هو المقصود من عبارته الركيكة!! التي تشبه عبارات الأعجام الذين لا يحسنون العربية، ولا يفقهون الكلام!!

ومراده: أنَّ الآية أصل في دعاء الصَّالحين والتوجّه بهم إلى الله، وجعلهم وسائط بين العباد وبين الله، ووسائل إليه في قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم.

والجواب:

إنَّ هذا القول صدر عن جهل بمسمَّى الوسيلة شرعًا، فإنَّ الوسيلة في شرع الله الذي شرعه على ألسن جميع رسله، هي عبادته وحده لا شريك له، والإيمان به وبرسله والأعمال الصَّالحة التي يحبُّها ويرضاها، كما في البخاري وغيره من حديث الثَّلاثة الذين انطبقت عليهم الصَّخرة في غار، فتوسَّلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصَّالحة من البرِّ والعفَّة والأمانة.

وكذلك ما شرع من واجب أو مستحب، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وابتغاؤها بالقيام بما أمر به وأحبَّه ورضيه من الأعمال الصَّالحة.

وأما دعاء غير الله تعالى فليس وسيلة شرعيَّة، بل هو وسيلة أهل الشِّرك والجاهلية من أعداء الرّسل في كل زمان ومكان، والله لا يأمر بالشِّرك ولا يرضاه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فكيف يتوسّل إليه بالشِّرك به الذي هو أظلم الظّلم وضد القسط؟! والذي يمنع من إقامة الوجوه له عند المساجد، وهو ـ أي الشّرك ـ حقيقة التّوسّل الذي قصده المشركون، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾

[الزمر: ٣]، فهذا قد يُسمَّى [عند المشركين] توسلًا، فإنَّ لفظ التَّوسُّل صار مشتركًا، فيطلق شرعًا على ما يقرِّب إلى الله، من الأعمال الصالحة التي يحبُّها الربُّ ويرضاها، ويطلق على التَّوسُّل بذوات الصَّالحين ودعائهم واستغفارهم، ويطلق في عرف عُبَّاد القبور على التوجه إلى الصَّالحين، ودعائهم مع الله في الحاجات والملمَّات، والمراد بالآية هو الأوَّل عند أهل العلم، وأمَّا التَّوسُّل بذوات الأنبياء والصالحين بدون طاعتهم، وبدون استغفارهم، فهذا لم يشرع، ولا أصل له، فإنَّ التوسُّل بالأنبياء مع معصيتهم ومخالفتهم في الدِّين والملَّة، قد دلّت آية سورة التَّحريم على المنع منه، وعدم الانتفاع بالتَّعلّق والقرابة والنَّسب، والتَّوسل بذلك لمن لم يؤمن بما جاءوا به من الهدى ودين الحقّ.

وكذلك في الحديث لما أنزل عليه قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئًا**»(١)، وأكبر من هذا من يدعوهم ويستغيث بهم، ويتقرَّب إليهم بعبادتهم على أنها وسيلة له وشفعاء، فإنَّ هذا هو عين الشّرك الذي ذمَّه القرآن وعابه، وإن سُمِّي(٢) توسُّلًا.

وقول العراقي: إنَّ التَّوسُّل بالذَّوات، بل والجمادات وقع كثيرًا من الصحابة... إلخ، فيه افتراء وكذب وتزوير على خلَّص عباد الله، وخير أمة أخرجت للناس. وما استند إليه كلَّه دليلٌ على سوء فهمه كما سبق، ويأتي إن شاء الله تعالى.

وأمَّا قوله: إن أريد بالوسيلة الأعمال: لزم التكرار. إلخ.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٠٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) في المطبوع: وإن سمَّاه القبوريون.

فهو ممَّا يوجب العجب، ويدلُّ على أنَّ قائله لم يعرف لسان العرب، فإنَّ «اتقوا» أمر من الوقاية، وهي لغة فرط الصيانة.

والمتَّقي في عرف الشَّرع: اسم لمن يقي نفسه عمَّا يضرّه في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التَّوقِّي عن العذاب المخلَّد، بالتبرِّي عن الشرك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦].

والثَّانية: التَّجنّب عن كلِّ ما يؤثم من فعل أو ترك، حتى الصَّغائر عند قوم، وهو المتعارف باسم التَّقوى في الشّرع، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦].

والثالثة: أن يتنزَّه عمَّا يشغل سرّه عن الحقِّ، ويتبتَّل إليه بشراشره[(١)]، وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ذكر ذلك القاضي البيضاوي رحمه الله[(٢)] وأنت تعلم أنَّ التَّقوى بأيِّ معنى كان من هذه الثَّلاثة غير مساوٍ لابتغاء الوسيلة، حتى يلزم من حملها على الأعمال التَّكرار سيَّما المعنى الثَّاني؛ إذ يكون معنى الآية حينئذٍ: يا أيها الذين آمنوا تجنَّبوا عن كل ما يؤثم، من فعل أو ترك، وابتغوا إليه الوسيلة.. إلخ، قال البيضاوي: أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى

---

(١) الشراشر: هي النفس، والأثقال والمحبة، وجميع الجسد. «القاموس» مادة (الشر).

(٢) هو: عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد أو أبو الخير البيضاوي. له العديد من التصانيف منها: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، و«طوالع الأنوار»، و«لب اللباب في علم الإعراب» وغيرها. توفي سنة (٦٨٥هـ). «الأعلام».

وقد ذكر هذا القول البيضاوي في تفسيره عند تفسير قوله: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (١/ ٩٥).

منه، من فعل الطَّاعات وترك المعاصي، مِنْ وسل إلى كذا، إذا تقرب إليه. انتهى[١].

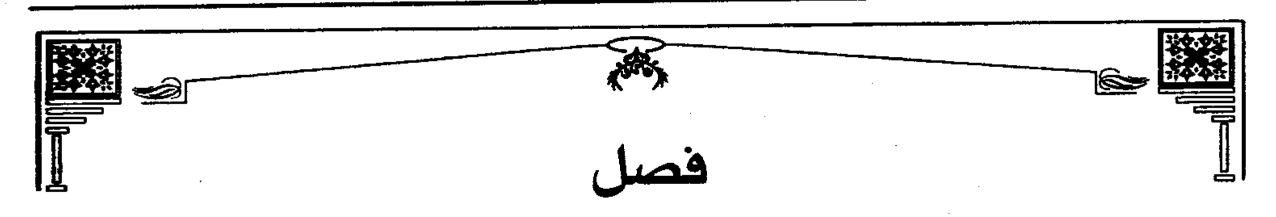
والأمر بالتَّقوى يراد به التَّخلية، والأمر بابتغاء الوسيلة يراد به التَّحلية، كما أريد ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧ ـ ٨]، ولم أر أحدًا من المفسِّرين خالف البيضاوي في تفسير الوسيلة، نعم ذكروا وجوهًا أُخر، غير أنَّه لم يذكر أحدٌ أنَّ من جملة الوجوه كون المراد بالوسيلة الذَّوات.

ويقال للعراقي: ما تقول[٢] في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨] هل في الآية تكرار، بناء على أنَّ معنى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ افعلوا أوامره واجتنبوا نواهيه؟ أو ليس فيه ذلك؟ فما هو جوابك فهو جوابنا، ومثل ذلك في القرآن كثير، ولكنَّ العراقي قد ختم الله على قلبه والعياذ بالله تعالى، فلذلك تراه يتكلَّم بكلام لا معنى له، وقد أطنب العلَّامة الألوسي رحمه الله كما هي عادته في تفسير هذه الآية. فعليك بتفسيره طيَّب الله تعالى ثراه.

* * *

(١) تفسير البيضاوي (٢/ ٣٢١ ـ ط دار الفكر).

(٢) في الأصل: تقوله.



فصل

[استدلاله بآثار النَّبي إن صحَّت للتبرّك]

قال العراقي[(١)]:

ويدلُّ على هذا التفسير أحاديث صحيحة لا جواب للخصم عنها.

الحديث الأوَّل: عن أسماء بنت أبي بكر ﵄ وفي بعض حديثها فقالت: هذه جبَّة رسول الله ﷺ، فأخرجت لي جبَّة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج، وفرجاها مكفوفتان بالدِّيباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة ﵂ فلما قبضت قبضتها، فنحن نغسلها للمرضى نستشفي بها[(٢)]. ثم ذكر العراقي عدَّة أحاديث وآثارٍ كلها تدل إن صحت على التبرك بآثاره ﷺ.

والجواب أن يقال:

ليس في ذلك ما يدلُّ على المقصود وهو أنَّ المراد بالوسيلة الذوات، غاية ما فيه التبرك بآثار النبي ﷺ الشريفة في حياته ﷺ، أي آثار نفسه من أجزائه المقدَّسة ومما مسَّ أعضاءه الشريفة من ملابسه، فذلك حقٌّ واجب علينا أيُّها المسلمون، نفديه بأنفسنا، وذلك من تعظيمه وبالغ تعزيزه وتوقيره ﷺ وشرَّف وكرَّم، وما عدا ذلك لا نقول به، ولا نعمل إلّا بما ورد، فنعبد الله تعالى بهذه الطَّاعة والتَّعظيم لنبيِّه المصطفى ﷺ بالاتباع لا بالابتداع، وهل سمعت أحدًا من السَّلف الصَّالح نادى شيئًا من ذلك لجلب نفع أو دفع ضرّ؟

---

(١) ص (٧٧).

(٢) الحديث أخرجه مسلم برقم (٥٣٦٤).

وقد تقدَّم الجواب عن كل ما ساقه هنا، وهذا كله حشو وتكرير، ليس بتجديد الدَّليل، بل هو مجرَّد تكرير الدَّعوى، وما ذكره في الحديث الحادي والعشرين[١]: من أنَّه ﷺ كان يشير إلى الحجر الأسود بمحجنه، ويقبِّل المحجن[٢]، فلا دليل فيه على المقصود أيضًا، إذ تقبيل الحجر أمر تعبُّدي، وليس تقبيله لكونه وسيلة بين الله والعباد. وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان لمَّا يقبِّله يقول: إنِّي أعلم أنَّك [حجر] لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيت رسول الله يقبّلك ما قبلتك[٣]. مع كون الحجر يمين الله في أرضه، وأنَّه يشهد لأهل الإيمان يوم الحساب.

ومما يقضي منه العجب ما ذكره في الدليل الرابع والعشرين: من التوسل بالحيوانات في الاستسقاء، فانظر إلى هذا التجرِّي على الشَّريعة، والخبط وسوء الفهم، فإنَّ إخراج البهائم والحيوانات في الاستسقاء ليس للتوسُّل بها إلى الله تعالى، بل إنَّها تخرج ليكثر الضجيج والعويل، فيكون أقرب إلى الرقَّة والخشوع، لا لتكون وسيلة إلى الله تعالى، وهذا مما لا يرتضيه أهل الجاهلية الذين لم يكن لهم علم ولا كتاب من الله تعالى؛ قال قائلهم ردًّا على غيره:

لا درّ درّ أناس خاب سعيهم   يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت بقورًا مسلّعة[٤]   وسيلة لك بين الله والمطر[٥]

---

(١) ص (٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٣١٣٦) من حديث أبي الطفيل، وأخرجه البخاري بهذا المعنى من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الخطيب وابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/ ١٦١) من حديث جابر، وأصله في مسلم برقم (٢٢٢٨) عن سالم.

(٤) في المطبوع: مسومة.

(٥) هذا من شعر الودك الطائي، كما في «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» =

ولقد أحسن من قال:

ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر ولا نبيٌّ ولم يذكره صدِّيق
ولم يقل ذاك إلَّا كل مبتدع على الرَّسول وعند اللَّهِ زنديق[1]

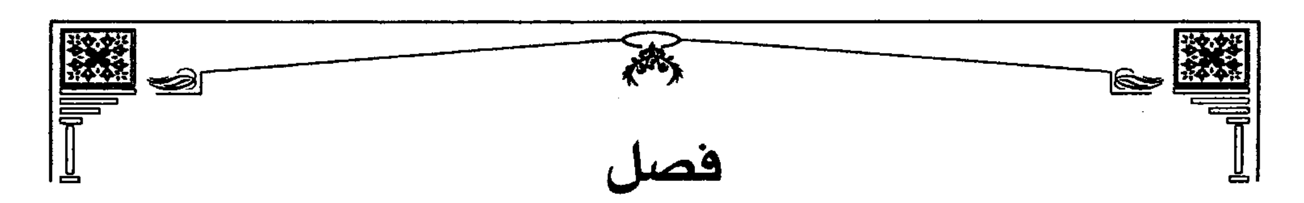
* * *

= للثعالبي، في نار الاستمطار:
كانت العرب في الجاهلية الجهلاء، إذا تتابعت عليهم الأزمات، وركد فيهم البلاء، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطار استجمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، وعقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر، ثم صعدوا بها في جبل وعر، وأشعلوا فيها النار، وكانوا يرون ذلك من أسباب السقيا، وفيهم يقول الوديك الطائي... ثم ذكره. وفي بعض المصادر: الورل الطائي.

(١) ذكرهما ابن كثير في «البداية والنهاية» (١١/ ٧١)، فقال: ولما ابتدع المأمون ما ابتدع من التشيع والاعتزال، وفرح بذلك بشر المريسي، وكان بشر هذا شيخ المأمون، فأنشأ يقول:

قد قال مأموننا وسيدنا قولًا له في الكتب تصديقُ
إنَّ عليًّا أعني أبا حسن أفضل من قد أقلَّت النوقُ
بعد نبي الهدى وأن لنا أعمالنا والقرآن مخلوقُ

فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة... فذكرهما، وقد سأل بشر المأمون أن يطلب قائل هذا فيؤدبه على ذلك، فقال: ويحك! لو كان فقيهًا لأدبته، ولكنه شاعر، فلست أعرض له.



فصل

[التوسُّل بلفظ الذات أو بلفظ حق أو بلفظ جاه]

قال العراقي[(١)]: (فصل):

والتَّوسُّل بالنَّبي ﷺ أو بغيره من الأنبياء الصَّالحين، سواء كان بلفظ الذَّات أو بلفظ حقّ أو بلفظ جاه: جائز، والوارد من ذلك آيات وأحاديث كثيرة، ثم ساق بعض الآيات التي سبق الجواب عن الاستدلال بها، وعدَّة أحاديث، منها ما لم تصحُّ ومنها ما لا دلالة فيه، ونقلها يطول.

والجواب أن يقال:

إنَّ[(٢)] لفظ التَّوسل بالشَّخص والتَّوجه به والسؤال به، فيه إجمال واشتراك، غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصَّحابة، يراد به التسبُّب به؛ لكونه داعيًا وشافعًا مثلًا، أو لكون الدَّاعي محبًّا له مطيعًا لأمره، مقتديًا به، فيكون التسبُّب: إمَّا بمحبَّة السائل له واتباعه له، وإمَّا بدعاء الوسيلة وشفاعته.

ويراد به: الإقسام به [على الله] والتَّوسل بذاته، فلا يكون التَّوسل لا بشيء منه؛ ولا بشيء من السَّائل، بل بذاته، أو بمجرَّد الإقسام به على الله.

فهذا الثَّاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه، وكذلك لفظ السؤال بشيء قد يراد به المعنى الأوَّل، وهو التَّسبب به، لكونه سببًا في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام.

---

(١) ص (٨٥).

(٢) من هنا يبدأ كلام شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (٢/ ٣١٩).

ومن الأوَّل: حديث الثَّلاثة الذين أووا إلى الغار، وهو حديث مشهور في «الصحيحين»[(١)] وغيرهما، فإنَّ الصَّخرة انطبقت عليهم فقالوا: «ليدع كل رجل منكم بأفضل عمله، فقال أحدهم: اللهمَّ إنَّه كانت لي ابنة عم فأحببتها كأشد ما يحب الرِّجال النِّساء، وإنَّها طلبت منِّي مئة دينار، فلمَّا أتيتها بها، قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلَّا بحقِّه، فتركتُ الذهب وانصرفت، فإن كنت إنَّما فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فانفرجت لهم فرجة رأوا منها السماء.

وقال الآخر: اللهمَّ [إنه][(٢)] كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي طلب الشَّجر يومًا؛ فلم أرح[(٣)] عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما[(٤)]، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهمَّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت الصخرة غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهمَّ إنِّي استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد، ترك الذي له وذهب، فثمَّرت أجرته حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري، فقلت له: كلُّ ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إنِّي لا أستهزئ بك، فأخذه كلَّه فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا، اللهمَّ فإن كنت

---

(١) في البخاري برقم (٣٤٦٥)، ومسلم برقم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر.

(٢) زيادة من «الاقتضاء».

(٣) أي: فلم أرجع بالعشي «مختار الصحاح» مادة (روح).

(٤) الغبوق: هو الشرب بالعشي.

فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

فهؤلاء دعوا الله سبحانه بصالح الأعمال؛ لأنَّ الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسَّل به العبد إلى الله تعالى، ويتوجَّه به إليه ويسأله به؛ لأنَّه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وهؤلاء دعوه بعبادته، وفعل ما أمر به، من العمل الصالح، وسؤاله والتضرع إليه.

ومن هذا ما يذكر عن الفضيل بن عياض[١] أنَّه أصابه عسر البول. فقال: بحبِّي إياك إلا فرَّجت عني[٢]!!.

وكذلك دعاء المرأة المهاجرة التي أحيا الله ابنها، لما قالت: اللهم إنِّي آمنت بك وبرسولك، وهاجرت في سبيلك، وسألت الله أن يحيي ولدها[٣] وأمثال ذلك.

وهذا كما قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . .﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٤]، فسؤال الله والتَّوسّل إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه، وفعل ما يحبُّه من العبودية والطَّاعة، هو من جنس فعل ذلك، رجاء لرحمة الله، وخوفًا من عذابه، وسؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته، كقوله: «أسألك بأنَّ لك الحمد أنت الله المنَّان بديع السَّموات والأرض»[٤]، و«بأنَّك أنت الله

---

(١) هو: الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، الإمام القدوة، أبو علي وثقه غير واحد. (ت ١٨٧ هـ). «سير» (٨/ ٤٢٢).

(٢) ذكره بسنده أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٩).

(٣) ذكره القاضي عياض في «الشفا» (١/ ١٦٨) عن أنس.

(٤) أخرجه أبو داود برقم (١٤٩٥)، والنسائي باب الدعاء بعد الذكر برقم (١٣٠١)، =

الأحد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[١]، ونحو ذلك يكون من باب التَّسبّب، فإنَّ كونه المحمود المنَّان يقتضي منَّه على عباده وإحسانه الذي يحمد عليه.

وكونه الأحد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد، يقتضي توحده في صمديَّته، فيكون هو السيِّد المقصود، الذي يصمد النَّاس [كلهم] إليه في حوائجهم، المستغني عمَّا سواه، وكلّ ما سواه مفتقر إليه، لا غنى بهم عنه، وهذا سبب لقضاء المطلوبات، وقد يتضمَّن معنى ذلك الإقسام عليه بأسمائه وصفاته.

وأمَّا قوله في حديث أبي سعيد: «أسألك بحقِّ السَّائلين عليك، وبحقِّ ممشاي هذا»[٢]، فهذا الحديث رواه عطية العوفي، وفيه ضعف

= وابن ماجه باب اسم الله الأعظم برقم (٣٨٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(١) أخرجه أحمد في «المسند»، وابن ماجه برقم (٣٨٥٧)، والحكم في «المستدرك» من حديث بريدة رضي الله عنه.

وقال: الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢١)، وابن ماجه برقم (٧٧٨)، وابن السني في «اليوم والليلة» برقم (٨٥٨٤).

قال البوصيري في «زوائد ابن ماجه» هذا إسناد مسلسل بالضعفاء، وعطيَّة هو العوفي، وفضيل بن مرزوق، والفضل بن الموفق كلهم ضعفاء، لكن رواه ابن خزيمة في «صحيحه» من طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده.

قال الشيخ ربيع في تعليقه على كتاب شيخ الإسلام «قاعدة جليلة. . .» ص (٢١٤) حاشية (٢): ثم ماذا، فإذا اعتقد ابن خزيمة صحته، وهو ضعيف فماذا يغني عنه لا سيّما وأنت تعلم أنّ إسناده مسلسل بالضعفاء، ثم إني بحثت عنه في صحيح ابن خزيمة، فلم أجده. . . =

[شديد]، لكن بتقدير ثبوته: هو من هذا الباب، فإنَّ حق السائلين عليه سبحانه أن يجيبهم، وحق المطيعين له أن يثيبهم، فالسّؤال له والطَّاعة سبب لحصول إجابته وإثابته، فهو من التَّوسل به والتَّوجُّه به والتَّسبب به، ولو قُدِّر أنَّه قَسَم لكان قسمًا بما هو من صفاته؛ لأنَّ إجابته وإثابته من أفعاله وأقواله [سبحانه].

فصار هذا كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(١)، والاستعاذة لا تصحّ بمخلوق، كما نصَّ عليه الإمام أحمد وغيره من الأئمَّة، وذلك ممَّا استدلُّوا به على أنَّ كلام الله غير مخلوق، ولأنَّه قد ثبت في الصَّحيح وغيره عن النبي ﷺ أنَّه كان يقول: «**أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خلق**»(٢)، قالوا: والاستعاذة لا تكون بمخلوق، فأورد بعض النَّاس لفظ المعافاة، فقال جمهور أهل السّنَّة: المعافاة من الأفعال، وجمهور المسلمين من أهل السّنَّة وغيرهم، يقولون: إنَّ أفعال الله تعالى قائمة به، وأمَّا(٣) الخلق ليس هو المخلوق، وهذا قول جمهور أصحاب الشَّافعي وأحمد ومالك، وهو قول أصحاب أبي حنيفة، وقول عامة أهل الحديث والصُّوفية وطوائف من أهل الكلام والفلسفة.

وبهذا يحصل الجواب عما أوردته المعتزلة(٤) ونحوهم من الجهمية

= وقال شيخ الإسلام في «قاعدة في التوسل والوسيلة» ص (٢١٥): وهذا الحديث من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد، وهو ضعيف بإجماع أهل العلم.

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية.

(٣) في المطبوع: أنَّ، وفي «الاقتضاء» وأن الخالق ليس هو المخلوق.

(٤) فرقة من فرق المبتدعة ويسمّون أصحاب العدل والتوحيد، نفوا صفات =

نقضًا. فإنَّ أهل الإثبات من أهل الحديث وعامة المتكلِّمة الصفاتية: من الكلَّابيّة[(١)] والأشعريَّة[(٢)] والكرَّاميَّة[(٣)] وغيرهم، استدلُّوا [بهذا] على أنَّ كلام الله غير مخلوق، فإنَّ الصِّفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحلّ لا على غيره، واتَّصف به ذلك المحلّ لا غيره، فإذا خلق الله لمحلّ علمًا أو قدرة أو حركة أو نحو ذلك، كان هو العالم به القادر به المتحرِّك به، ولم يجز أن يقال: إنَّ الرَّب المتحرِّك بتلك الحركة، ولا هو العالم القادر بالعلم والقدرة المخلوقين، بل بما قام به من العلم والقدرة، قالوا: فلو كان قد خلق كلامًا في غيره، كالشَّجرة التي نادى منها موسى، لكانت الشَّجرة هي المتّصفة بذلك الكلام، فتكون الشَّجرة هي القائلة لموسى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، ولكان ما يخلقه الله من إنطاق الجلود والأيدي، وتسبيح الحصى وتأويب الجبال وغير ذلك، كلامًا له كالقرآن والتَّوراة والإنجيل، بل كان كلُّ كلامٍ في الوجود كلامه؛ لأنَّه خالق كل شيء، وهذا قد التزمه مثل صاحب

= الله عز وجل ويرون السيف وأنكروا أمورًا مما أثبته أهل السنة والجماعة. رئيسهم واصل بن عطاء، وكان عند الحسن البصري فاعتزله فسمُّوا المعتزلة، «الملل والنحل» للشهرستاني.

(١) الكلَّابية: فرقة تكلَّمت في الأسماء والصفات على طريقة المتكلِّمين، وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلَّاب، الذي صنَّف مصنفات ردّ فيها على الجهمية والمعتزلة، وهم أقرب إلى أهل السنة من الأشاعرة، وكان الإمام أحمد يحذر منهم.

(٢) هم أصحاب الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المنتسب إلى أبي موسى الأشعري، وهم يثبتون بعض الصفات ويؤولون الباقي. وقد رجع الحسن الأشعري إلى عقيدة الإمام أحمد إلا أنه لم يزل أتباعه يتبعون أقواله قبل رجوعه. «الملل والنحل» (١/ ١٣٨).

(٣) هم أتباع محمد بن كرَّام كان بعد ابن كلَّاب، في عصر مسلم بن الحجَّاج، والكراميَّة لهم كلام في الإيمان، ويعتقدون أن الله جسم، وأنه محل للحوادث وغير ذلك. «الفتاوى» (٣/ ١٦٨).

«الفصوص»[١]، وأمثاله من هؤلاء الجهمية الحلولية والاتِّحادية[٢].

فأوردت المعتزلة صفات الأفعال: كالعدل والإحسان، فإنَّه يقال: إنَّه عادل محسن بعدل خلقه في غيره، وإحسان خلقه في غيره، فأشكل ذلك على من يقول: ليس لله فعل قام به[٣]، بل فعله هو المفعول المنفصل عنه، وليس خلقه إلّا مخلوقه، وأمَّا من طرد القاعدة، وقال أيضًا: إنَّ الأفعال قائمة به، ولكن المفعولات المخلوقة هي المنفصلة عنه، وفرَّق بين الخالق والمخلوق فاطَّرد دليله واستقام.

والمقصود: أنَّ استعاذة النَّبي ﷺ بعفوه ومعافاته من عقوبته، مع أنَّه لا يستعاذ بمخلوق، كسؤال الله بإجابته وإثابته، وإن كان لا يسأل بمخلوق. ومن قال من العلماء: لا يسأل إلّا به لا ينافي السؤال بصفاته، كما أنَّ الحلف لا يشرع إلّا بالله تعالى، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنَّه قال: «... **من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[٤]، وفي لفظ التِّرمذي: «**من حلف بغير الله، فقد أشرك**»، قال التِّرمذي: حديث حسن[٥].

---

(١) اسم الكتاب «فصوص الحكم»، وقد سئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٢/ ٣٦٤) بعد سؤال له عنه: الحمد لله رب العالمين، ما تضمنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله من الكلام، فإنه كفر باطنًا وظاهرًا، وباطنه أقبح من ظاهره... إلخ.

قلت: ومؤلفه هو ابن عربي، وهو محيي الدين بن عربي صوفي. (ت ٦٣٨هـ).

(٢) انظر: «الفتاوى» (٢/ ١١١ ـ ٤٨٠).

(٣) في «الاقتضاء»: قائم.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٦٤٦)، ومسلم برقم (١٦٤٦) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٥) برقم (١٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ومع هذا فالحلف بعزّة الله ولعمر الله ونحو ذلك، مما ثبت عن النبي ﷺ الحلف به لم يدخل في الحلف بغير الله؛ لأنَّ لفظ الغير قد يراد به المباين المنفصل، ولهذا لم يطلق السَّلف وسائر الأئمَّة على القرآن وسائر صفات الله تعالى [أنها غيره، ولم يطلقوا عليه](١)، أنَّها ليست غيره؛ لأنَّ لفظ الغير فيه إجمال، قد يراد به: المباين المنفصل، فلا يكون صفة الموصوف أو بعضه داخلًا في لفظ الغير. وقد يراد به: ما يمكن تصوّره دون تصوّر ما هو غير له، فيكون غيرًا بهذا الاصطلاح، ولهذا تنازع أهل النَّظر في مسمَّى الغير، والنِّزاع في ذلك لفظي، ولكن بسبب ذلك حصلت في مسائل الصِّفات من الشُّبهات، ما لا ينجلي إلّا بمعرفة ما وقع في الألفاظ من الاشتراك والإبهامات، كما قد بُسط في غير هذا الموضع.

ولهذا يفرق بين قول القائل: الصِّفات غير الذَّات، وبين قوله: صفات الله غير الله، فإنَّ الثاني باطل، لأنَّ مُسمَّى اسم الله يدخل فيه صفاته، بخلاف مُسَمَّى الذات، فإنَّه لا يدخل فيه الصِّفات، ولهذا لا يقال: صفات الله زائدة عليه، وإن قيل: الصّفات زائدة على الذّات؛ لأنَّ المراد هي زائدة على ما أثبته المثبتون من الذات، والله تعالى هو الذّات الموصوفة بصفاته اللازمة، فليس اسم الله متناولًا لذات مجردة عن الصفات أصلًا، ولا يمكن وجود ذلك، ولهذا قال أحمد في مناظرته للجهمية: لا نقول الله وعلمه، والله وقدرته، والله ونوره. ولكن نقول الله بعلمه وقدرته ونوره هو إله واحد(٢). وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وأمَّا قول الناس: أسألك بالله، وبالرحم، وقراءة من قرأ: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ

---

(١) زيادة من «الاقتضاء».

(٢) «الرد على الجهمية والزنادقة» ص (٤٩).

﴿وَٱلْأَرْحَامِۚ﴾[1] [النساء: ١] [بجر الأرحام] فهو من باب التسبب بها، فإنَّ الرّحم توجب الصّلة وتقتضي أن يصل الإنسان قرابته، فسؤال السائل بالرّحم لغيره توسّل إليه بما يوجب صلته من القرابة التي بينهما، ليس هو من باب الإقسام ولا من باب التوسّل بما لا يقتضي المطلوب، بل هو توسّل بما يقتضي المطلوب، كالتوسّل بدعاء الأنبياء وبطاعتهم والصَّلاة عليهم.

ومن هذا الباب: ما يروى عن عبد الله بن جعفر أنَّه قال: كنت إذا سألت عليًا شيئًا فلم يعطنيه، قلت له: بحق جعفر إلّا ما أعطيتنيه، فيعطينيه، أو كما قال. فإنَّ بعض الناس ظن أنَّ هذا من باب الإقسام عليه بجعفر، أو من قولهم: أسألك بحق أنبيائك؛ ونحو ذلك وليس كذلك، بل جعفر هو أخو علي وعبد الله هو ابنه، وله عليه حق الصلة، فصلة عبد الله صلة لأبيه جعفر، كما قال في الحديث: «**إنَّ من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي**»[2]، وقوله: «**إنَّ من برهما بعد موتهما، الدعاء لهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما**»[3].

ولو كان هذا من الباب الذي ظنُّوه، لكان سؤاله لعلي بحقِّ النبي وإبراهيم الخليل ونحوهما أولى من سؤاله بحق جعفر، ولكان عليٌّ إلى تعظيم رسول الله ﷺ ومحبته وإجابة السائل به أسرع منه إلى إجابة السائل بغيره، لكن بين المعنيين فرق، فإنَّ السائل بالنبي طالب به متسبب به، فإن يكن في

---

(١) على قراءة حمزة وغيره بجر الأرحام.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/٤٩٧)، وأبو داود في «سننه» برقم (٥١٤٢)، وابن ماجه في «سننه» (٣٦٦٤) وغيرهم من حديث أبي أسيد مالك ابن ربيعة الساعدي.

ذلك السّبب ما يقتضي حصول مطلوبه، ولا كان مما يقسم به لكان باطلًا.

وإقسام الإنسان على غيره بشيء يكون من باب تعظيم القسم بالمقسَم به، وهذا هو الذي جاء به الحديث من الأمر بإبرار المقسم، وفي مثل هذا قيل: «**إنَّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه**»[1]، وقد يكون من باب تعظيم المسؤول به.

فالأوَّل: يشبه ما ذكره الفقهاء في الحلف الذي يقصد به الحظر والمنع.

والثَّاني: سؤال للمسؤول بما عنده من محبة المسؤول به، وتعظيمه ودعائه[2] حقه. فإن كان ذلك مما يقتضي حصول مقصود السائل حَسُنَ السؤال، كسؤال الإنسان بالرحم، ومن هذا سؤال الله بالأعمال الصالحة، وبدعاء أنبيائه وشفاعتهم.

وأما مجرد [ذات] الأنبياء والصالحين ومحبة الله لهم وتعظيمه لهم، ورعايته لحقوقهم التي أنعم بها عليهم، فليس فيها ما يوجب حصول مقصود السّائل، إلَّا بسبب بين السّائل وبينهم: إما محبتهم وطاعتهم، فيثاب على ذلك، وإما دعاؤهم له فيستجيب الله شفاعتهم فيه.

والتوسُّل بالأنبياء والصالحين يكون بأمرين: إما طاعتهم واتباعهم، وإما دعاؤهم وشفاعتهم، فمجرد دعائه بهم من غير طاعة منه لهم ولا شفاعة منهم له فلا ينفعه، وإن عظم جاه أحدهم عند الله تعالى.

وقد بسطت هذه المسائل في غير هذا الموضع[3].

والمقصود هنا: [أنَّه] إذا كان السَّلف والأئمة قالوا في سؤاله بالمخلوق

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٠٣) ومسلم برقم (١٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) في المطبوع: رعاية.

(٣) انظر: «التوسّل والوسيلة» ص (١٩٩)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ١٤٣).

ما ذكر، فكيف بسؤال المخلوق الميت؟ سواء سئل أن يسأل الله، أو سئل قضاء الحاجة، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس، إمَّا عند قبر الميت وإما مع غيبته وصاحب الشَّريعة ﷺ حسم المادة وسدَّ الذريعة، بلعنه من يتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، و[نهيه] أن لا يصلِّي عندها لله تعالى، ولا يسأل إلا الله، وحذَّر أمَّته ذلك.

هذا كلُّه ذكره الحافظ ابن تيميَّة ـ قدَّس الله روحه ـ في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»(١). وبه اندفعت شبه العراقي وبطل ما موَّه به.

وفي كتاب «العقد الثَّمين» للعلامة المحدِّث المتقن، الشَّيخ علي السَّويدي(٢) ـ عليه الرَّحمة ـ: . . نقل الفقهاء الحنفيّة عن بشر بن الوليد، أنَّه قال: سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به. وفي جميع متونهم، أنَّ قول الداعي المتوسل: بحقِّ الأنبياء والرسل، وبحق البيت والمشعر الحرام: مكروه كراهة تحريم.

وقال القدوري(٣): المسألة بخلقه تعالى لا تجوز؛ لأنَّه لا حقَّ للمخلوق على الخالق، وأمَّا حديث: «**أسألك بحقِّ السَّائلين عليك وبحقِّ ممشاي هذا وبحقِّ نبيِّك والأنبياء من قبلي**» ففيها وهن، وعلى تسليمها،

---

(١) (٢/٣١٩ ـ ٣٣٠).

(٢) هو: أبو المعالي الشيخ علي بن أبي السعود الشيخ محمد سعيد بن أبي البركات العبَّاسي عالم فاضل محدِّث متقن. توفي ليلة الخميس السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٣٧هـ وكتابه: «العقد الثمين في بيان مسائل الدين» قد ألفه الشيخ رحمه الله مبينًا فيه مسائل التوحيد، وقد نجز منه سنة ١٢١٤هـ.
وطبع في المطبعة الميمنية سنة ١٣٢٥هـ، ويحقَّق الآن في رسالة علمية.

(٣) هو: أحمد بن محمد حمدان، أبو الحسن القدوري (ت ٤٢٨هـ). «تذكرة الحفاظ» (٣/١٠٨٦)، وقوله هذا في شرح كتاب الكرخي كما في «العقد الثمين».

فالمراد بهذا الحق ما أوجبه الله على نفسه، وذلك من أفعاله؛ لأنَّ حقّ السّائلين الإجابة، وحقّ المطيعين الإثابة، وحق الأنبياء التّقريب والتّفضُّل بما يخص أولئك العصابة صلّى الله تعالى عليهم وسلّم، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١] وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله ﷺ: «**حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقُّ العباد على الله أن لا يعذِّبهم**»[١].

أو السّؤال بالأعمال؛ لأنَّ الممشى إلى الطاعة امتثالًا لأمره عمل طاعة؛ وذلك من أعظم الوسائل المأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، ومن نظر إلى الأدعية الواردة في الكتاب والسّنّة، لم يجدها خارجة عمّا ذكرناه، قال الله تعالى في دعاء المؤمنين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، [وقال عن الحواريّين]: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: اللهم إنَّك أمرتني فأطعتك، ودعوتني فأجبتك فاغفر لي.

ودعاء النبي ﷺ الذي جمعه العلماء لا يخرج عن هذا النَّمط، فاتبع أيها الناظر[٢] نبيك المصطفى تسلم من اللغط والغلط. انتهى[٣].

بقي أنَّ الدَّاعي إذا قال: بجاه فلان عندك، أو بحرمته ونحو ذلك، قال

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٥٦)، ومسلم برقم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل.

(٢) في مطبوعة محمد حامد: المسلم.

(٣) من كتاب «العقد الثمين» ص (١١٢ ـ ١١٣).

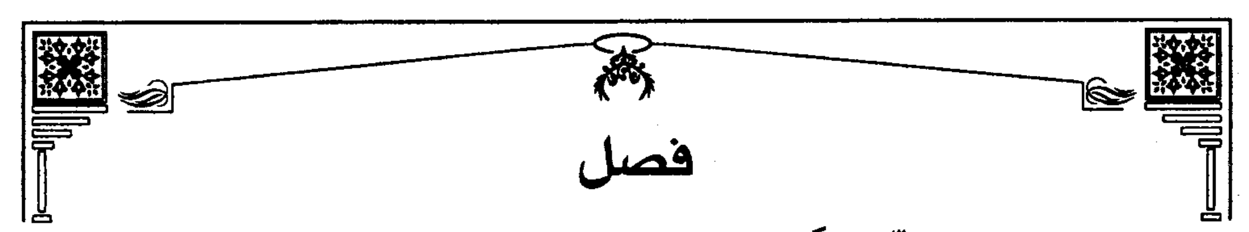
شيخ الإسلام: إنَّ أبا محمد بن عبد السلام أفتى بأنَّه لا يجوز في غير النبي ﷺ، وأفتى أبو حنيفة وأبو يوسف: أنَّه لا يجوز في حق أحد من الأنبياء، فكيف بغيرهم. . . إلى آخر ما قال[1].

فلا تغترّ أيها الطَّالب للحق بما هذى به هذا العراقي، فإنَّه رجل وقح له جسارة على الدِّين، وميل عظيم لما تهواه نفسه الخبيثة من أفعال المارقين.

نسأل الله تعالى العافية من مثل هذا البلاء المبين.

* * *

(١) «زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور»، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٣٥٦) و(٧/ ٨٣).



فصل

[ظنّه أنَّ ثبوت الكرامة يبيح له الاستغاثة بالصَّالحين والردّ عليه]

[ثم] إنَّ العراقي قد ذكر في أثناء دلائله، التي ساقها لإثبات التوسُّل بالذَّوات التي أسلفنا لك إبطالها مرارًا، كلامًا يتعلَّق بجواز قول أمثاله من المتمشيخين: فلان شيء لله(١).

ثم ساق كلامًا طويلًا يتعلَّق بإثبات كرامات الأولياء، ظنًّا منه أنَّ ثبوت الكرامة يبيح له ولأمثاله دعاء الصَّالحين ونداءهم في الملمَّات، والاستغاثة بهم في الشَّدائد.

فسبحان الله العظيم! ما أشغف هذا الرجل بكلِّ ما يخالف الشَّريعة الغرَّاء، ويألفه العوام والجهلاء، فلذلك أفتى بكل نكير، ولم يعترف بوجود منكر في العالم بتقرير ولا بتحرير(٢)، وأثقل ما يكون عليه الأمر بالمعروف وما وردت به السنة، وإذا ذكر الله وحده اشمأزَّ قلبه واكفهرَّ وجهه، وصار في أعظم محنة.

وخلاصة الكلام: أنَّه أحد الإباحيَّة الطَّغام.

أمَّا الجواب عن مسألة شيء لله:

فاعلم أنَّ طائفة الملحدين الذين لا خلاق لهم، المعرضين عما جاء به الشَّرع المبين، يجتمعون أحيانًا: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧]، فيصفِّقون ويرقصون

---

(١) ص (٩٤).

(٢) في المطبوع: بتحريم.

ويضربون بالطّبول والدّفوف، ويغنُّون، ويزعمون أنَّ ذلك ذكر الله الذي تطمئنُّ به القلوب، وما قصدهم إلا اجتماع المحب بالمحبوب، وما أشبه عبادتهم هذه بما قصَّ الله تعالى عن إخوانهم في الجاهلية: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] ومن جملة ذكرهم بزعمهم الفاسد واعتقادهم الكاسد: لا إله إلا الله، فلان شيء لله، ويذكرون أحد معبوديهم الذين يعتقدون أنهم المتصرِّفون في العالم؛ والعياذ بالله، كعبد القادر وأحمد الرفاعي والبدوي وغيرهم من الصالحين الذين هم بريئون، ممن ينتسب إليهم من هؤلاء الفجرة، ولا يخفاك ما في هذا الكلام من البشاعة والمخالفة لما جاء به الدِّين المبين، فإنَّ اقتران اسم النبي ﷺ مع اسمه عز وجل في كلمة الشهادة، مما يدل على رفعة قدره ﷺ، روي عن مجاهد وقتادة ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وغيرهم، أنَّهم قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]: لا أذكر إلا ذكرت معي[1].

وفيه حديث مرفوع أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل»: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني جبريل عليه السلام، وقال: إنَّ ربك يقول: أتدري كيف رفعت لك ذكرك؟ قلت: الله أعلم. قال: إذا ذكرتُ ذُكرتَ معي**»[2]، وكأنَّ ذلك من الاقتصار على ما هو أعظم قدرًا من إفراد رفع

---

(١) «تفسير الطبري» تفسير سورة الشرح، وعبد الرزاق في «تفسيره»، وانظر تفسيري ابن كثير وابن أبي حاتم، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه للشافعي في «الرسالة»، وعبد الرزاق والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٢٣٥)، وأبو يعلى في «المسند» (٢/ ١٣١)، وابن حبان برقم (١٧٧٢)، وذكره في «الدر المنثور» عند تفسير سورة الانشراح، =

الذّكر، ويشير إلى عظم قدره قول حسَّان رضي الله عنه[١]:

أغرَّ عليه للنبوَّة خاتم من اللَّه مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النَّبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذّن: أشهد[٢]

فكيف يترك اسم النبي ﷺ، ويضم اسم غيره؟! فهل هذا والعياذ بالله إلا زيغ وإلحاد، وخروج عن جادَّة الرَّشاد؟ وقد اعترض أهل السّنّة على الرَّوافض بما هو أهون من ذلك، وهو زيادة: عليٌّ وليُّ الله، بعد محمد رسول الله. وبدَّعوهم فيه وضلَّلوهم، مع أنَّه فرق عظيم بين العبارتين؛ لأنَّه مع ما في الاقتران من المحذور العظيم، قد نهى عن قول: شيء لله، جمع من الفقهاء، قال عبد البر[٣] في شرح «الوهبانية»[٤]:

= وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في «الدلائل» ولأبي يعلى، وفي إسناده ابن لهيعة عن درَّاج، وهذا إسناد ضعيف لاختلاط ابن لهيعة.

(١) هو: الصحابي الجليل وشاعر الرسول ﷺ فضائله كثيرة، ومناقبه عديدة.

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص (٥٤ ط دار الكتب العلمية).

(٣) في مطبوعة الشيخ حامد رحمه الله: ابن عبد البر، وهو خطأ وعبد البر هو ابن محمد بن محمد، أبو البركات، سري الدين، المعروف بابن الشحنة الحلبي، قاضٍ فقيه حنفي، له نظم ونثر. (ت ٩٢١هـ). «الأعلام» (٣/ ٢٧٣)، و«كشف الظنون (٢/ ١٨٦٥).

(٤) الوهبانية في الأصل. نظم في فروع الحنفية، للشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان (ت ٧٦٨هـ)، وهي قصيدة رائية، ضمنها غرائب المسائل في (٤٠٠) بيت سمَّاها: «قيد الشرائد ونظم الفرائد»، وممن شرحها عبد البر ـ تقدمت ترجمته ـ وهو شرحٍ مقبول سمَّاه: «تفصيل عقد الفوائد بتكميل قيد الشرائد». «كشف الظنون» (٢/ ١٨٦٥).

قلت: توجد منه نسخة كتبها الشارح سنة (٨٩٥هـ)، في المكتبة الأزهرية بالقاهرة تحت رقم (١٢٧٤)، (١٧٦٠٤) في (٤٠٩) ورقات، وهناك نسخ أخرى للكتاب مذكورة بتفصيل في «الفهرس الشامل» لآل البيت في الفقه وأصوله (٢/ ٦٦٠ ـ ٦٦٦).

كـذا قـول شـيء لله قـيـل: بـكـفـره ويخشى عليه الكفر بعض يقرِّر(١)

ما نصّه: لعلَّ وجهه أنَّه طلب شيءٌ لله تعالى، والله غنيٌّ عن كلِّ شيء، والكلُّ مفتقر ومحتاج إليه، ثم قال: وينبغي أن يرجِّح عدم التَّكفير، فإنَّه يمكن أن يقول أردت أطلب شيئًا إكرامًا لله تعالى. ثم ذكر ابن عابدين عليه الرحمة في «حاشيته»(٢) في باب الردّة بعدما ساق كلام شارح «الوهبانية»، قلت: فينبغي أو يجب التَّباعد عن هذه العبارة، وأنَّ ما فيه خلاف يؤمر فاعله بالتوبة [منه] والاستغفار، وتجديد النكاح. ثم قال: لكن هذا إن كان لا يدري ما يقول، أما إن قصد المعنى الصّحيح فالظّاهر أنَّه لا بأس به. انتهى.

وأنت تعلم أن غالب من اتّخذ ذلك القول ورداً، لا يميِّز بين المعنى الصّحيح وغيره(٣).

---

(١) عجز البيت كما في «الحاشية»: ويا حاضر ويا ناظر ليس يكفر.

(٢) (٢٥٩/٤ ط ـ دار الفكر).

(٣) قال الشيخ حامد الفقي رحمه الله: بل ينبغي القطع بتكفير هؤلاء ومروقهم عن كل دين سماوي؛ لأنّهم يسألون الميت العطاء معتقدين آكد الاعتقاد أنه غني كريم، سميع بصير قريب مجيب كالله سبحانه وتعالى، بل إن أولياءهم عندهم وفي اعتقادهم أقرب وأسمع وأكرم وأقدر وأسرع إجابة من الله، واعتقادهم هذا الخبيث النجس ناشئ عن اعتقاد أنجس وأخبث: إن ربهم كلي نوراني انفصل عنه أنوار جزئية كانت هي هؤلاء الذين يتخذونهم أولياء، وأن لهم من الصفات مثل ما لربهم، وأنهم بذلك يتصرَّفون في ملك ربهم تصرف الولد المدلل في ملك أبيه، لا يخاف مسؤولية ولا يخشى حسابًا، فتبًّا لهؤلاء ولمن جهل كفرهم الخبيث، فأخذ بجهله يعتذر لهم ويرجح عدم مروقهم من الإسلام، فما يرجح ذلك إلا من كان مثلهم واقعًا فريسة للتقليد الأعمى، فهو كالأنعام أو أضل سبيلًا، لا يرى حقًا ولا يميز دينًا من طين، فيرى الصوفية صالحين، وهم أفسد المفسدين وأخبث المجرمين، وما هدمت شرائع الله من القلوب من أول الدنيا إلى آخرها إلا بمعاول الصوفية الذين دخلوا دخول الحية الرقطاء، فاغتر الناس بلينها واستكانوا لها، حتى قتلتهم بسمومها الفتاكة.

وأما الجواب عن مسألة الكرامات:

فيقال: إنَّ كرامات الأولياء حقٌّ لا شبهة فيها، وهي ثابتة بالكتاب والسّنة، ولشيخ الإسلام ـ قدَّس الله روحه ـ كتاب جليل في ذلك، سمَّاه: «الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن»(١)، لكنَّ الكرامة فعل الله تعالى لا فعل للولي فيها، ولا قدرة له عليها ولا تأثير، وكل من يذكر تعريف الكرامة وحدَّها، يقول: هي خرق الله العادة لوليِّه، لحكمة ومصلحة تعود عليه أو على غيره.

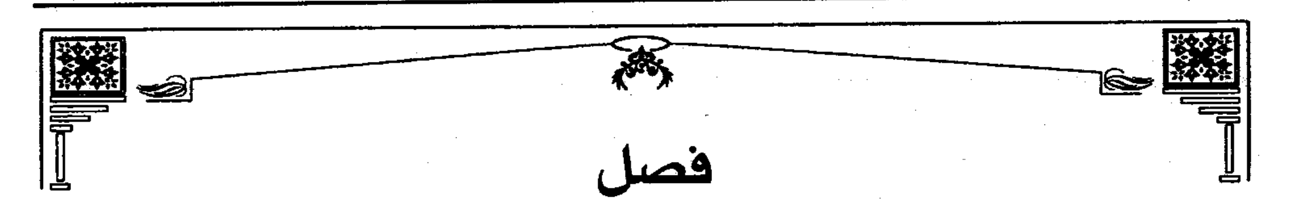
وعلى هذا التَّعريف لا فعل للوليِّ فيها ولا إرادة، فلا تكون سببًا يقتضي دعاء من قامت به أو فعلت له، ومن أيِّ وجه دلَّت الكرَّامة على هذا؟ وأفضل النَّاس الرّسل، والملائكة من أفضل خلق الله، ولهم من المعجزات والكرامات والمقامات، ما ليس لغيرهم، قد جاء عيسى ابن مريم بما هو من أفضل(٢) المعجزات والكرامات، يخلق من الطّين كهيئة الطّير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وينبئهم من الغيب ما يأكلون وما يدَّخرون، وقد أنكر [الله] تعالى على من قصده ودعاه في حاجاته وملمَّاته، وأخبر أنَّ فاعل ذلك كافر بربه، ضال بعبادة غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ . . .﴾ [آل عمران: ٨٠]، والأرباب هم المعبودون المدعوّون، وقال تعالى ـ فيمن عبدوا المسيح ـ: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

وسيأتيك أنَّ الدعاء والنداء بما لا يقدر عليه إلا الله داخل في مسمى

(١) الكتاب مطبوع متداول.
(٢) في المطبوع: أعجب.

العبادة فتنبَّه، فأخبر تعالى عن المسيح أنَّه لا يملك لمن دعاه نفعًا ولا ضرًا وإن قل، كما يفيده التنكير وأبطل عبادتهم له، وأنكرها أشد الإنكار، ومعجزاته أوضح من الشَّمس [في] وسط النَّهار.

* * *



فصل

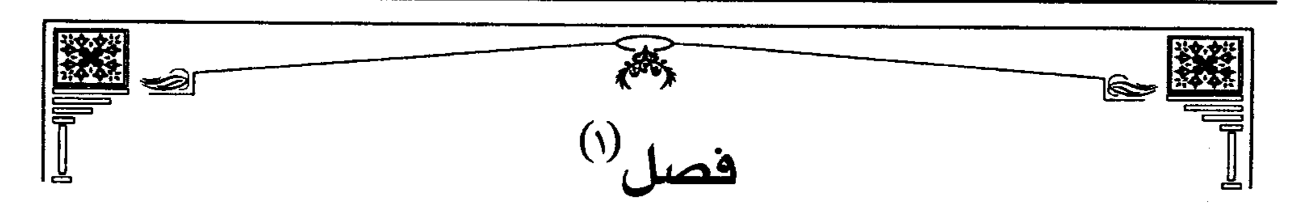
قال العراقي بعد أن نقل عمَّن لا يعتد بقوله، أو لم يصح عن مثله، **فيما** يتعلَّق بالتوسّل[١].

وقد ذكرنا ما يغني عن إبطاله فلا حاجة إلى إعادة الكلام[٢]:

❋ ❋ ❋

(١) ص (١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) أي أنَّ العراقي قال، ثم ذكره الألوسي بعد هذه الصفحة.



فصل[1]

[مسألة النذور لأهل القبور]

وأمَّا مسألة النذر لأهل القبور، فالمراد منه عند عامة الناس: أنَّه لله، وحصول ثواب المنذور لصاحب القبر، هذا هو الذي نسمعهم يقولونه، فهو كقول القائل: ضحَّيت لفلان، وذبحت لفلان، بمعنى تصدّقت له، فهذه العبارة اختلف الأئمة فيها. أمَّا الحنابلة فقالوا: نذر معصية لا يجوز الوفاء به.

قال في شرح «الدليل» نقلًا عن تقي الدِّين ابن تيميَّة:

فائدة: قال الشيخ: النذر للقبور أو لأهل القبور، كالنذر لإبراهيم الخليل ﷺ، أو الشيخ فلان نذر معصية لا يجوز الوفاء به، وإن تصدَّق بما نذره من ذلك على من يستحقُّه من الفقراء والصالحين، كان خيرًا له عند الله وأنفع.

وقال: من نذر إسراج مقبرة أو بئر، أو جبل أو شجرة، أو نذر له أو لمكانه، أو لمضافين إلى ذلك المكان، لم يجز ولا يجوز الوفاء به إجماعًا، ويصرف في المصالح، ما لم يعرف ربه، ومن الحسن صرفه في نظيره من المشروع، وفي لزوم الكفارة خلاف[2]. انتهى.

قال: وكذلك نقله الشيخ منصور البهوتي في حاشية «الإقناع»[3].

---

(١) ص (١٠٢).

(٢) «منار السبيل شرح الدليل» باب النذر.

(٣) «كشَّاف القناع عن متن الإقناع» (٦/ ٢٧٦).

=

ثم نقل العراقي عبارات أخرى، كلها دالة على خلاف مقصوده، من جواز النَّذر لغير الله تعالى الذي عقد الفصل له، وذكره في غير موضع من هذياناته.

والجواب أن يقال:

إنَّ النَّذر لغة: الوعد بخير، والإيجاب.

وشرعًا: إلزام مكلَّف مختار عبادة غير لازمة له بأصل الشَّرع.

وهو أقسام: نذر معصية، فيحرم الوفاء به قطعًا، ولا يصح وفاقًا بين الشافعي، وأصح الروايتين عن أحمد؛ لخبر مسلم: «**لا نذر في معصية الله ولا فيما لا يملكه ابن آدم**»[١].

وعند[٢] أبي حنيفة، وهو الرواية الأخرى عن أحمد: ينعقد وحرمة الوفاء به لا تمنع انعقاده، ويكفر كفارة يمين.

وأمَّا في غير هذه الصورة من المعصية، فهو قسمان: **أحدهما: نذر لجاج:** وهو ما علَّق على شيء لقصد المنع منه، أو الحثِّ عليه.

والغالب فيه: أن يكون ناشئًا من[٣] الغضب، كإن كلَّمته فللَّه عليَّ عتق أو صوم، وفيه عند الإمام الشافعي ثلاثة أقوال:

= منصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن البهوتي الحنبلي، شيخ الحنابلة بمصر في عصره، له كتب منها: «الروض المربع شرح زاد المستنقع»، و«كشاف القناع عن متن الإقناع» وغيرهما، توفي سنة (١٠٥١هـ). «الأعلام» (٧/ ٢٠٧).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (١٦٤١)، وفيه قصة عن عمران بن حصين.

(٢) في المطبوع: عن.

(٣) في المطبوع: عن.

أصحُّها: أنَّه مخيَّر قبل فعله بين ان يفعل ما التزم به أو يكفِّر كفارة يمين؛ وهذا هو الرِّواية الصَّحيحة عن أحمد بن حنبل.

وثانيهما: نذر تبرُّر، وسُمِّي به لأنَّه لطلب البر أو التَّقرُّب إلى الله، كما ينذر لله بلا تعليق من الطَّاعات، كصلاة وصوم وحج وغير ذلك، فيلزم الوفاء به، وكذا المعلّق إذا حصل المعلّق عليه عند أكثر العلماء، لخبر البخاري: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه...**»[(١)]، وقد جعل الشَّافعية من اللَّجاج: ما هو تبرّر، وفرَّقوا بينه وبين اللجاج، أنَّ الأوَّل تعليق بمرغوب فيه، والثَّاني بمرغوب عنه، ومثَّل له القفَّال حيث قال: لو قالت لزوجها: إن جامعتني فعليَّ عتق عبد، فإن قالته على سبيل المنع فلجاج، أو الشّكر لله حيث يرزقها الاستمتاع بزوجها لزمها الوفاء به. انتهى بنقل ابن حجر[(٢)].

وعلى كل حال: فنذر اللجاج مكروه عند الإمام الشَّافعي، ونذر التبرّر مباح ويثاب بفعل ما علَّقه عليه من الطَّاعة. وعند الإمام أحمد كلاهما مكروه، وإن أثيب على ما يفعله في صورة التبرر؛ لقوله ﷺ فيما يرويه عن الله عزّ وجل: «**لا يأتي ابن آدم النَّذر بشيء لم أكن قدرته، ولكن يلقيه النَّذر إلى القدر**»[(٣)]، يعني لا يأتي النَّذر بشيء غير مقدَّر؛ فإن وجد شيء فالقدر هو الذي يلقي ذلك المطلوب، لا النذر، «**وقد قدرته له أستخرج به من البخيل، فيؤتيني عليه ما لم يكن يؤتيني عليه من قبل**»[(٤)].

قال النووي: معناه: أنَّ النَّاذر لا يأتي مبتدئًا بهذه القربة تطوعًا، بل في

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٥٩).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو تتمة الذي قبله.

مقابله، بنحو شفاء مريض مما علَّق النذر به[١].

وقال الخطَّابي[٢]: فيه إشارة إلى ذمّ ذلك، وفي قوله: «أستخرج»، إشارة لوجوب الوفاء به، وأما مدح الوافين به، فقال بعضهم: فلا يدلُّ على استحسانه ومشروعيته، بل على جوازه والوفاء به، ولذلك لم يفعله النَّبي ﷺ ولا أمر به، بل نهى عنه، وأخبر أنَّه لا يردُّ قضاء، ولا يأتي بخير.

بقي عندنا صورة أخرى عليها مدار النَّاس في هذا الزَّمان، وهو النَّذر لغير الله، كالنَّذر لإبراهيم الخليل والنَّبي ﷺ، أو النَّذر للأموات والصَّالحين، فقد جرت هذه العادة الخبيثة في هذا الوقت، من نذرهم الطَّعام والزَّيت والشُّموع والقرابين لأهل القبور من الأموات، وقد اضطربت أقوال العلماء في ذلك، فقال ابن حجر المكّي في «التحفة»[٣]: يقع لبعض العوام: جعلت هذا لقبر النبي ﷺ فيصح؛ كما بحث لأنَّه اشتهر النذر في عرفهم، ويصرفه لمصالح الحجرة النبوية، بخلاف متى حصل لي كذا، أجيء له بكذا، فإنَّه لغو. وقال في مكان آخر منها: ومنها التَّصدُّق على ميت أو قبره إن لم يرد تمليكه، واطَّرد العرف بأنَّ ما يحصل له يقسم على نحو فقراء هناك، فإن لم يكن عرف بطل.

قال السبكي: والأقرب عندي في الكعبة، والحجرة الشريفة والمساجد الثلاثة، أنَّ من خرج من ماله عن شيء لها، واقتضى العرف صرفه في جهة من جهاتها صرف إليها، واختصت به. انتهى[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١١/ ٩٩ ـ ط دار إحياء التراث العربي).

(٢) هو: الإمام العلاّمة الحافظ اللغوي، حمد بن محمد بن إبراهيم البستي أبو سليمان الخطابي، صاحب المؤلفات. توفي سنة (٣٨٨هـ). «سير» (١٣/ ٣ ـ ط دار الفكر).

(٣) «تحفة المحتاج في شرح المنهاج». نذر التَّبرُّر.

(٤) المصدر السابق.

ثم قال: ومنها إسراج نحو شمع أو زيت في مسجد أو غيره، كمقبرة إن كان ثم من ينتفع به، ولو على نذر فيجب الوفاء، وإلا فلا. انتهى[١].

وسئل في «فتاويه» عن أحكام النذر لقبور الأولياء، والمساجد وللنبي ﷺ بعد وفاته؟ فأجاب بقوله: النذر للولي إنَّما يقصد به غالبًا التصدق عنه لخدام قبره وأقاربه وفقرائه، فإن قصد الناذر شيئًا من ذلك، أو أطلق صحَّ، وإن قصد التقرُّب لذات الميت، كما يفعله أكثر الجهلة لم يصحّ[٢].

وعلى هذا الأخير: يحمل إطلاق أبي الحسن الأزرق عدم صحة النذر للغير مطلقًا[٣].

ثم قال فيها: وحيث قالوا في باب الوقف: إنَّه يعمل فيه بالعادة الموجودة فيها هذه الشروط، وإنَّها بمنزلة شرط الواقف، فكذلك نقول هنا: العادة المذكورة بمنزلة شرط الناذر، فيعمل بجميع ما حكمت به[٤].

وقال علاء الدين الحنفي[٥] في شرح «الملتقى»: واعلم أنَّ النذر الذي يقع للأموات من أكثر العوام تقربًا إليهم، فهو بالإجماع باطل حرام، ما لم يقصدوا صرفها إلى فقراء الأنام. وقد ابتلي النَّاس بذلك، ولا سيما في هذه الأيام. انتهى.

وسئل خير الدين الرملي الحنفي[٦] في «فتاويه»، عن النُّذور المتعلِّقة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الألوسي يسوق الأقوال من غير إقرار لها.

(٣) «فتاوى» ابن حجر الهيثمي (٤/ ٢٨٤ ـ ط دار الفكر).

(٤) المصدر السابق (٤/ ٢٨٥).

(٥) هو: محمد بن علي بن محمد، المعروف بعلاء الدين الحصكفي له العديد من المؤلفات.

(٦) هو: خير الدين بن أحمد بن نور الدين الفاروقي الرملي، الفقيه الحنفي. =

بالأنبياء والأولياء، يقبضها قوم ويزعمون أن ما يتناولونه حقًا من حقوقهم. . .؟ إلى آخر السؤال.

فأجاب: هذه المسألة جعل فيها شيخ الإسلام الشيخ محمد الغزي[١] رسالة، حاصلها أنَّ النذر لا يصح إلّا إذا كان من جنسه واجب مقصود، إذ ليس للعبد أن ينصب الأسباب ويشرِّع الأحكام، ثم قال: وفي شرح «الدرر» للعلامة قاسم: وأما النذر الذي ينذره أكثر العوام كأن يقول: يا سيدي فلان ـ يعني به وليًا من الأولياء أو نبيًا من الأنبياء ـ إن رُدّ غائبي أو عوفي مريضي، أو قضيت حاجتي، فلك من الذَّهب أو الفضَّة أو الطَّعام أو الشَّراب أو الزَّيت كذا. . .

فهذا باطل بالإجماع؛ لأنَّه نذر لمخلوق وهو لا يجوز؛ لأنَّه ـ أي النذر ـ عبادة لا تكون لمخلوق، والمنذور له ميت والميت لا يملك، وأنَّه إن ظن أنَّ الميّت يتصرَّف في الأمور كفر[٢].

ثم قال: فإذا عملت هذا فما يؤخذ من الدَّراهم والشَّمع والزَّيت وغيرها، فتنقل إلى ضرائح الأولياء تقربًا إليهم لا إلى الله تعالى، فحرام بإجماع المسلمين، ما لم يقصدوا الفقراء الأحياء قولًا واحدًا[٣]، وقد علم بما نقلناه أنَّ ما ينذره العوام للشيخ مروان وعلي بن عليل[٤] وروبيل[٥]، لا

= له الفتاوى المشهورة جمع فيها ما أشكل وعز نقله واختلف فيه التصحيح، وغيرها من المؤلفات. توفي سنة (١٠٨١هـ). «خلاصة الأثر» (٢/ ١٣٤).

(١) هو: محمد بن أحمد بن يحيى بن محمد بن إسماعيل، المعروف بابن غصين الغزي. توفي سنة (١٠٦٢هـ). «خلاصة الأثر» (٣/ ٣٨٣).

(٢) انظر: «البحر الرائق شرح كنز الحقائق» لابن نجيم (٢/ ٣١٩ ـ ط دار المعرفة).

(٣) «الدر المختار شرح تنوير الأبصار» (٢/ ٤٨٢).

(٤) علي بن عليل مات في ١٤ رمضان ١٠٠٢.

(٥) لعلَّه يقصد روبيل بن يعقوب.

يصح ولا يلزم، وليس للخادم أخذه على أنَّه نذر صحيح، إلّا إذا أخذه على وجه الصدقة المبتدأة وكان فقيرًا. هذا بعضٌ من كلام شارح الدرر.

ثم قال المستفتي: أقول قد استباح هذا المحرم المجمع على حرمته، جماعة يزعمون أنَّهم متصوِّفة... إلى آخر ما قال في الرد، وأطال في الذم.

قال بعضهم: لو نذر للأنبياء أو للأولياء أو للملائكة، فلا خلاف بين من يعلم ذلك ويتبيَّنه أنَّه من شرك الاعتقاد؛ لأنَّ الناذر لم ينذر هذا النذر إلا لاعتقاده في المنذور له أنَّه يضر وينفع ويعطي ويمنع، إما بطبعه وإما بقوَّة السببيَّة فيه، والدَّليل على اعتقادهم هذا الاعتقاد: قولهم: وقعنا في شدَّة فنذرنا لفلان فانكشفت شدتنا! ويقول بعضهم: هاجت عليه الأمواج فندبت الشيخ فلان! فسلمت سفينتنا.

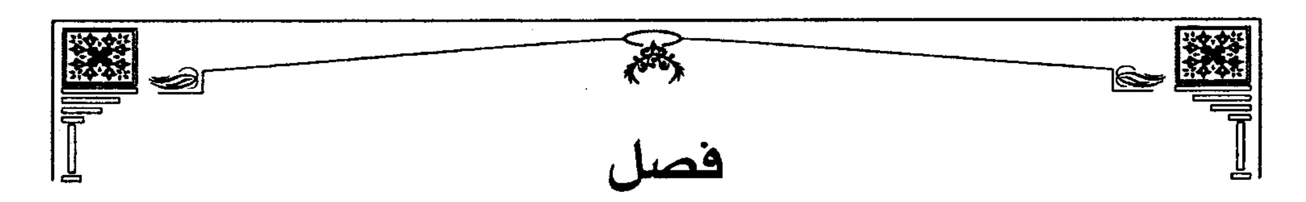
وبعضهم يقول: خرجت علينا الأعداء وكدنا نستأسر، فندبت فلانًا ونذرت له الشيء الفلاني فسلمنا! وتراهم إذا لم يفوا وحصلت لهم بعض الآلام قيل للناذر: أوفِ بنذرك، وإلا يفعل بك [الشَّيخ] كذا وكذا، فيسارع بالوفاء، ولو أنَّه يستدين على ذمَّته، ولو كان مديونًا أو مضطرًا، وربما لا يعبأ بوفائه، وربما يموت وهو مديون، كل ذلك خوفًا من المنذور له، وطلبًا لرضاه وهل هذا إلا من سوء اعتقاده، وقلة دينه وفساده؟!

وغاية جوابه إذا عذلته أن يقول لك: مقصودي يشفعون لي!! ووالله لا تخطر الشفاعة على قلبه، ولا يعرف إلا أنَّ ذلك منذور له هو القاضي لحاجته، والمهيِّئ لبغيته، وبعضهم يقول: نذرت لفلان، فرأيت أشخاصًا جاءوا وأنا بين النَّوم واليقظة، فدفعوا السَّفينة أو العدو مثلًا، فانتبهت وقد حصل المطلوب وتمَّ المرغوب، وبعد هذا لا يعرف غيره، ويعتقد أن لا خير إلا خيره، ولا ضير إلا ضيره، عافانا الله في الدِّين إلى يوم الدِّين.

هذا كلام العلماء في النذور، به يتبيَّن ما في كلام العراقي من البهتان والزور، فلا تشتبه [عليك ترَّهاته] وإياك أن تغتر به[١].

❋ ❋ ❋

(١) في المطبوع: بها.



فصل

[العراقي يرى جواز الذبح لغير الله!!]

قال العراقي(١):

(فصل) في الذَّبح للأنبياء أو الأولياء، بمعنى أنَّ الثَّواب لهم والمذبوح منذور لوجه الله، كقول النَّاس: ذبحت لميِّتي، بمعنى تصدَّقت عنه، وكقول القائل: ذبحت للضَّيف بمعنى أنّه كان السَّبب في حصول الذَّبح، لا أنَّ الذَّبح لذاته تقرّبًا إليه، فإنَّ هذا لا يجوز، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، قال ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله تعالى**».

وقد عدَّه ابن القيِّم في كتابه «الكبائر»(٢) من المحرَّمات، ولم يعدَّه من المكفِّرات... إلى أن قال العراقي: فتحقَّق مما نقلناه أنَّ الذَّبح لغير الله عبارة عن ذبح حيوان وتركه لا يؤكل منه، وهو الذي كان يفعله المشركون لأصنامهم، ولا أظن أنَّ مسلمًا يقصد ذلك ويفعله، بل يقصدون به أنَّ الذَّبح لفلان، بمعنى وصول ثوابه إليه واللَّحم يفرِّقونه للمستحقِّين من الفقراء والمساكين، كما هو ظاهر معلوم لدى المسلمين إلى آخر ما هذى به من الكلام الذي حاصله: أنَّ الذَّبح لغير الله جائز؛ لأنَّه يقال: ذبحت لفلان ذبيحة أو للسّلطان أو للأمير.

---

(١) ص (١٠٥).

(٢) ذكره غير واحد لابن القيم، وقد سألت شيخنا الفاضل مشهور بن حسن سلمان عن هذا الكتاب؟ فقال: ما معناه: إنه مفقود وأنه تجمعت عنده مادة الكتاب، يسَّر الله إخراجه.

والجواب أن يقال:

إنَّ كلام العراقي هذا فيه خطأ وصواب، ولا يظهر ذلك إلا ببيان ما ذكره العلماء في هذه المسألة، فنقول:

قال ابن قاسم العبادي: عبارة الروض: ولا تحل ذبيحة كتابي للمسيح، ومسلم لمحمد أو للكعبة، فإن ذبح للكعبة أو للرسل تعظيمًا لكونها بيت الله، أو لكونهم رسل الله جاز. انتهى.

وبه يعلم أنَّ تسميته محمدًا على الذبح عند الانفراد، أو عطفه على اسم الله يحرم إن أطلق، ولا يحرم إن أراد التبرك، وتحل الذَّبيحة في الحالين(١).

---

(١) قال الشيخ حامد: وهل يذبح الوثنيون قديمًا وحديثًا للأنبياء والأولياء إلا على سبيل تعظيمهم ومساواتهم لله واعتقاد بركتهم؟ فيا سبحان الله!! ما هذه الغفلة التي أغرقهم طاغوت التقليد فيها وكلما صاح بهم الحق فرفعوا رؤوسهم ليروا نوره فيتبعوه ضغط عليه الشيطان بهذا التقليد فعادوا غارقين. فلقد زين شيطان التقليد والغرور لأولئك العمي القلوب: أن كل من تسمَّى باسم إسلامي ونطق بالشهادتين من غير تعقل ولا فهم ولا وقوف عند مقتضاها: بعيد منه الشرك والكفر كل البعد، بل محال عليه في زعمهم أن يكفر، ومهما فعل من شرك ووثنية فلا بد أن يتمحل ويتأول له.

وأن الشرك والكفر لا يكون إلا في اليهودي والنصراني وقدماء المشركين ممن انقرضوا وبادوا، وهذا هو الجهل العميق بكتاب الله وسننه في إنظار الشيطان للابتلاء والفتنة وحفظ القرآن للهدى، وإقامة الحجة وأن الناس كلهم أمة واحدة في الطبائع، والكفر والإيمان والتوحيد، وأن الشيطان عدو للإنسان في كل وقت وزمان، وأن خدعه وتغريره للأولين بالأحبار والرهبان هي بعينها خدعه وتغريره بالمشايخ ومن يسميهم مؤلفين وعلماء.

فليتنبّه المؤمن أشد التنبيه وليحذر أشد الحذر، فالحجة بالغة والآيات واضحة، وليعلم أنه لا هدى ولا إيمان إلا بكسر طاغوت التقليد أولًا، وجعله جذاذًا ووطئه تحت الأقدام بكل عنف وقوة، والبراءة من كل المقلدين مهما كانوا، والبراءة =

وأمَّا إذا قصد الذبح له، فإن أطلق حرم، وحرمت الذبيحة، وإن قصد التعظيم والعبادة كفر وحرمت الذبيحة.

قال علاء الدين الحنفي في «شرح التنوير»: ذبح لقدوم الأمير ونحوه، كواحد من العظماء[(١)]، يحرم، لأنَّه أُهلَّ به لغير الله تعالى، ولو ذكر اسم الله تعالى، ولو ذبح للضَّيف لا يحرم؛ لأنَّه سنة الخليل، وإكرام الضَّيف إكرام الله تعالى. والفارق: أنَّه إن قدَّمها ليأكل منها كان الذَّبح لله والمنفعة للضيف، أو للوليمة أو للربح، وإن لم يقدمها ليأكل منها، بل يدفعها لغيره كان لتعظيم غير الله، فتحرم، وهل يكفر؟ قولان: بزازية، وشرح وهبانية.

قلت: وفي «صيد المنية»: أنه يكره ولا يكفر؛ لأنّا لا نسيء الظن لمسلم أنّه يتقرَّب إلى الآدمي بهذا النحو. ونحوه في «شرح الوهبانية» عن «الذخيرة». انتهى[(٢)].

وقد روى الإمام مسلم في «صحيحه»[(٣)]: عن رسول الله ﷺ قال: «**لعن**

= من قولهم مهما كان، فإنه ملطخ برجس الشيطان، وليس أحد من المؤمنين الأقوياء الإيمان بحاجة إلى الاستناد إلى أحد منهم، ولا بحاجة إلى الاستدلال بكلمة من قولهم، وقد أغنانا الله كل الغنى بكتابه وهدي رسوله ﷺ، وهدي الصحابة المطهرين صفوة الصفوة: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، فواجب المؤمن الموحد أن يضرب رؤوس الشرك في كل وقت بمعول كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بكل قوته وبكل صراحة، وأن لا يلين ولا يدور وأن لا يمد يده لالتقاط أي ثمرة خبيثة من ثمرات المقلِّدين، مهما زها لونها وبرق منظرها، فإنَّها في الواقع السم الزعاف، والحمد لله الذي عافانا لا نحصي ثناء عليه ونسأله أن يثبتنا وإخواننا الموحِّدين بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

(١) في الأصل: العظمة.

(٢) «الدر المختار شرح تنوير الأبصار» (٦/ ٦٢١ ـ ط دار الكتب العلمية).

(٣) برقم (٥٠٨١) من حديث علي رضي الله عنه.

الله من لعن والديه، ولعن الله من ذبح لغير الله»، وفي رواية: «**من أهلَّ**»[١] وهو بمعناه، ومعنى صدر الحديث: النهي عن لعن أبوي غيره، فيلعن أبويه، فبتسببه كان كأنَّه لعن أبوي نفسه.

وأما آخره فقال المناوي: بأن يذبح باسم غير الله كصنم، أو صليب أو لموسى أو عيسى أو الكعبة، فكله حرام، ولا يحل ذبيحته، بل إن قصد به تعظيم المذبوح له كفر[٢]. انتهى.

وقال ابن حجر المكي في «زواجره»[٣]: الكبيرة السابعة والستون بعد المئة: الذبح باسم غير الله على وجه لا يكفر به، بأن لم يقصد تعظيم المذبوح له، كنحو التعظيم بالعبادة والسجود، كذا عده الجلال[٤] البلقيني وغيره، ويستدلُّ له بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي والحال أنَّه كذلك، بأن ذبح لغير الله، إذ هذا هو الفسق هنا، كما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وبهذا بان أنَّ متروك التَّسمية حلال، ويؤيِّد ذلك أنَّ ابن عباس قال في تفسير الآية يريد ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، قال الكلبي: يعني ما لم يُذكَّ، أو ذبح لغير الله تعالى، وقال عطاء: نهى عن ذبائح[٥] كانت تذبحها قريش والعرب على الأوثان، قيل: ومعنى ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي أكل ما لم يذكر اسم الله عليه من الميتة فسق، أي خروج عن الدِّين. . إلى آخر ما قال في الدليل.

(١) رواها ابن حبان في «صحيحه» برقم (٥٧٩٨).

(٢) «فيض القدير» (٥/ ٢٧٦ ـ ط دار الكتب العلمية).

(٣) «الزواجر عن اقتراف الكبائر».

(٤) في المطبوع: السراج.

(٥) في الأصل: ذبيح.

ثم قال: وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، والشّرك في استحلال الميتة، لا في استحلال الذَّبيحة التي لم يسم عليها. ذكر ذلك الواحدي وغيره، ثم قال: وجعل أصحابنا: مما يحرم الذبيحة، أن يقول: باسم الله واسم محمد، أو محمد رسول الله بجر الثاني، أو محمد، إن عرف النحو، فيما يظهر، أو أن يذبح كتابي لكنيسة أو لصليب أو لموسى أو لعيسى، ومسلم للكعبة أو لمحمد ﷺ، أو تقربًا لشيطان أو لغيره أو للجن، فهذا كله يحرِّم المذبوح وهو كبيرة على ما مرَّ. انتهى.

فقد تبيَّن لك من هذه النّقول كلِّها: أن من يقرِّب لغير الله تقربًا إلى ذلك الغير ليدفع عنه ضيرًا، أو يجلب له خيرًا تعظيمًا له، من الكفر الاعتقادي والشرك الذي كان عليه الأولون، وسبب مشروعية التسمية[١]: تخصيص مثل هذه الأمور العظام بالإله الحق المعبود العلَّام، فإذا قصد بالذبح غيره كان أولى بالمنع، وصحَّ نهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عمَّن استأذنه في الذَّبح ببوانة، وأنَّه قد نذر ذلك، فقال له ﷺ: «**أكان فيها صنم**»؟ قال: لا. قال: «**فهل كان فيها عيد من أعياد المشركين**»؟ قال: لا، قال له: «**فأوفِ بنذرك**».

أخرج ذلك أبو داود في «سننه»[٢]. وهذا السائل موحِّد مقرِّب لله سبحانه وتعالى وحده، لكن المكان الذي كان فيه معبود غير الله تعالى وقد عدم. أو [كان أولًا] محلًّا لاجتماعهم [في الجاهلية، لتعظيم أوثانهم

(١) في الأصل: التميمة.

(٢) برقم (٣٣١٧)، ومن طريقه البيهقي «السنن الكبرى» (١٥/ ٢٢) من طريق الأوزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير، قال أبو قلابة، قال: حدثني ثابت ابن الضحاك به.

وصحح إسناده ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ٤٣٩)، وقال: بوانة بضم الباء الموحدة وبعد الألف نون، موضع بين الشام وديار بكر. قاله أبو عبيد. وقال البغوي: أسفل مكة دون يلملم، وقال المنذري: هضبة من وراء ينبع.

والعكوف عليه] يصلح مانعًا، فلما علم ﷺ أنَّ ليس هناك شيء من ذلك، أجازه، ولو علم شيئًا مما سأل عنه ﷺ لمنعه صيانة للتَّوحيد، وقطعًا لذريعة الشِّرك، وصحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «**دخل الجنَّة رجل في ذباب، ودخل النَّار رجل في ذباب**»، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**مرَّ رجلان على قوم لهم صنم، لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئًا، قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا، فقرَّب ذبابًا، فخلُّوا سبيله فدخل النَّار، وقالوا للآخر: قرِّب، قال: ما كنت لأقرِّب شيئًا لأحد من دون الله عزّ وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنَّة**»[1].

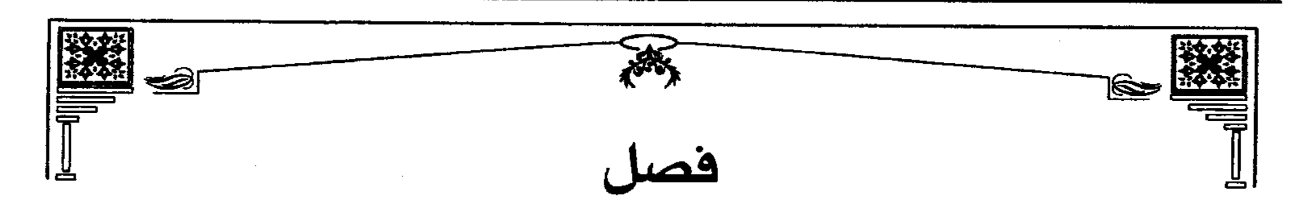
ففي هذا الحديث من الفوائد: كون المقرِّب دخل النَّار بالسبب الذي لم يقصده، بل فعله تخلّصًا من شرِّهم[2]، وإنَّه كان مسلمًا وإلَّا لم يقل دخل النَّار.

وفيه: ما ينبغي الاهتمام به من أعمال القلوب، التي هي المقصود الأعظم، والرّكن الأكبر، فتأمَّل في ذلك وانظر إلى فؤادك في جميع ما قالوه، وألق سمعك لما ذكروه، وانظر الحق، فإن الحق أبلج، والباطل لجلج، فبالنَّظر التَّام إلى ما كان عليه المشركون من تقريبهم لأوثانهم لتقرُّبهم إلى الله، لكونهم شفعاء لهم عند الله، وشفاعتهم بسبب أنَّهم رسل الله، أو ملائكة الله، أو أولياء الله، يعلم ضعف ما قاله ابن قاسم العبادي فيما نقلناه عنه فيما سلف، ويتبيَّن لك ما عليه النَّاس الآن والله المستعان، ولا ينفع فيه ما ذكره العراقي ذو البهتان.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» ص (١٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٦١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» برقم (٣٧٠٩)، والبيهقي في «الشعب» برقم (٦٩٦٢) كلهم من طريق طارق بن شهاب عن سلمان به، والصحيح وقفه على سلمان رضي الله عنه، ورجاله ثقات.

(٢) في المطبوع: ضرهم.



فصل

[ادِّعاء العراقي أنّ أهل نجد يكفِّرون آباءهم]

قال العراقي(١): ولقد جادلت بعض النَّجديِّين، فصار يكفِّر آباءه وأجداده. . . إلى آخر ما ذكره من الهذيان والكذب والبهتان.

والجواب أن يقال:

إنَّا قد أسلفنا غير مرَّة، أنَّ هذا العراقي ديدنه ـ والعياذ بالله ـ الكذب على الله ورسوله وصلحاء الأمة، ولا شك أنَّ ما ذكره من الحكاية، إما أنَّها مفتراة من قبله، وهو الظاهر.

وإمَّا أن يكون الرَّجل النجدي الذي تكلَّم معه من العوام، الذين لا وقوف لهم على أقوال العلماء الأعلام، وهذا العراقي لا صلاحية له أن يتكلَّم مع غير الجهلاء، حيث إنَّه لا يروج زيفه على العلماء، وكذلك كان إذا أحسَّ بمن له أدنى وقوف على الكتاب والسّنَّة، فرَّ منه فرار الكلب العقور(٢) من الأسد أو وخز الأسنة.

وأهل نجد لم يبتدعوا مذهبًا من تلقاء أنفسهم، بل الغالب منهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، والقليل على مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك ـ رحمهم الله ـ في الفروع والأصول.

وقد ذكرنا في غير موضع من هذا الكتاب، أنَّ ما نسب إليهم مثل هذا

---

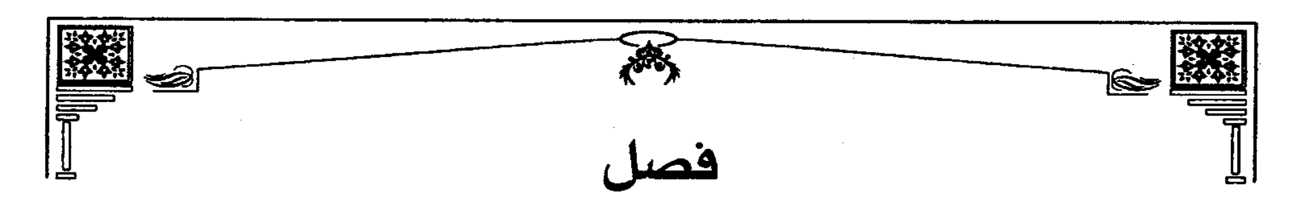
(١) ص (١٠٩).

(٢) في المطبوع: الأجرب.

العراقي من الترَّهات هو من تقوُّلات أعدائهم أعداء الله ورسوله ﷺ[1]، وقد سبق أول الكتاب من يكفره ابن عبد الوهاب فلا نتعب القلم بالكلام على شقاشق هذا العراقي، فبطلانها أظهر من الشمس في رابعة النهار.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «تاريخ نجد»، و«الآية الكبرى» بتحقيقي كلاهما للمؤلف.



فصل

[الحلف بغير الله جائز عند العراقي]

قال العراقي(١): فصل، وأمَّا الحلف بغير الله تعالى، فقد حكم بعض المبتدعة، بأنَّه من الشرك المخرج عن الملة الإسلامية [مطلقاً](٢)، وهذا مخالف لنصوص الشريعة [المطهَّرة]، فلنذكر الأحاديث الواردة في ذلك، أنَّ النبي ﷺ وأصحابه قد صدر منهم الحلف بذلك، لكن حمله العلماء على أنَّه جرى في لسانهم من غير قصد، أو للدليل على الجواز، ويكون النهي الوارد للكراهة، أو دليل للإباحة، كما ذهب إلى ذلك طائفة من العلماء منهم: أحمد بن حنبل في بعض الروايات عنه.

وقد اختلف العلماء في ذلك، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّه حرام، وبه قال بعض الحنابلة وشرذمة(٣) من الشافعية.

وعند مقتدي(٤) الحنابلة وجمهور الشافعية: مكروه كراهة تنزيه.

وقال عامة الحنفية ـ كما ذكره صاحب «الدر» ـ قال: وبه أفتوا. ونقله عن العيني: أنَّه لا يكره، وقيل بالكراهة عندهم.

والقول الثالث: إنَّه مباح، وهو قول طائفة من أهل العلم، ورواية عن

---

(١) ص (١٠٩).

(٢) في «صلح الإخوان»: . . ملة الإسلام، والزيادة منه.

(٣) في «القاموس» بالكسر: القليل من الناس.

(٤) في «صلح الإخوان»: متقدِّمي.

أحمد، ذكرها صاحب «الإنصاف» في تنقيحه، وذكرها ابن قدامة في «الشرح الكبير».

واستدلَّ من قال بالإباحة: بورود الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية بالحلف بغيره سبحانه.. وساق العراقي عدَّة آيات وأحاديث.. ثم قال[1]: نعم نهى النبي ﷺ عن الحلف بالآباء، وقال: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[2]، فدلّ على النهي، والنهي يشمل التحريم والكراهة التنزيهية، ولهذا اختار جل العلماء الكراهة التنزيهية، لوقوع هذه الأحاديث الواردة، فإنَّه ﷺ كثيراً ما ينهى عن شيء ويفعله؛ لبيان الجواز فيدلُّ على الكراهة، كما هو مقرر في كتب الفقه وأصوله، واعتذر عن وقوع الحلف بغير الله تعالى منه ﷺ ومن أصحابه، بأن هذا من باب الجري على اللسان من غير قصد، وكذلك يقال في المسلمين الذين يصدر منهم.

قال[3]: وفي «الصحيحين»: «**من حلف باللات والعزَّى فليقل لا إله إلا الله**»[4]، فجعل كفارة الحلف بالأصنام النطق: بكلمة التوحيد، فتكون حسنتها ماحية لذلك، أو ليندفع عن الحالف الشبهة ممن يعبد اللَّات والعزَّى، فإذا كان من حلف بالأصنام لا يخرج عن الملّة، فكيف من يحلف بالنبي ﷺ أو بالمسلمين على طريق الجري في اللسان، من غير قصد، أو بقصد، ولكنه ممن يرى جواز ذلك.. إلى أن قال: وأما قوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، وفي رواية: «**فقد كفر**» [رواه الترمذي]، فحمله العلماء على من عظَّم مخلوقاً كتعظيم الله، أو على الشّرك والكفر الأصغر، كما ذكره ابن القيِّم، وقال ابن تيميَّة: الحلف بغير

---

(١) ص (١١٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٦٢٤)، ومسلم برقم (٤٢١١) من حديث ابن عمر.

(٣) أي: العراقي.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٤٢١٥).

الله على قولين للعلماء، قول بالكراهة التنزيهيَّة، وقول بالتحريميَّة، وقال ابن عبد الهادي[١] تلميذ الشيخ ابن تيمية في «مغني ذوي الأفهام»: ويكره الحلف بغير الله، وجعل عليه علامة المذاهب الأربعة[٢].

والجواب أن يقال[٣]:

إنَّ في هذا الكلام من الجهل والخلط ما يتنزَّه عنه العاقل، فضلاً عن العالم. من ذلك: أنَّه قال في أوَّل كلامه: إنَّ كون الحلف بغير الله من الشرك[٤]، مخالف لنصوص الشريعة، ثم ساق في آخره حديث ابن عمر: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[٥]، ثم اعترف بالرِّواية الأخرى: «**من حلف**

---

(١) هو: يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد الصالحي الحنبلي، له مؤلفات كثيرة. توفي سنة (٩٠٩هـ) «الكواكب السائرة» (١/ ٣١٦).

(٢) ص (٢٢٣ ط السنة المحمدية).

(٣) بعد هذا يبدأ كلام الشيخ عبد اللطيف في كتابه «تحفة الجليس» ص (١٤١) وما بين معقوفتين زيادة منه.

(٤) في «تحفة الجليس» الحلف بغير الله ليس بشرك ولا كفر. وهذا هو الصواب.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٧٦)، وأبو داود برقم (٣٢٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٢٧٥)، والبيهقي في «سننه الكبرى» (١٠/ ٢٩) وغيرهم من طريق سعد بن عبيدة قال: سمع ابن عمر رجلاً يحلف: لا والكعبة، فقال ابن عمر: إني سمعت رسول الله ﷺ ثم ذكره. وقال البيهقي عقبه: وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر، لكنه ذكر بعدها من طريق الإمام أحمد [في مسنده (٢/ ١٢٥)] عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقمت وتركت رجلاً عنده من كندة، فأتيت سعيد بن المسيب، قال: فجاء الكندي فزعاً، فقال: جاء ابن عمر رجل، فقال: أحلف بالكعبة، قال: لا ولكن أحلف برب الكعبة، فإن عمر كان يحلف بأبيه فقال ﷺ: «**لا تحلف بأبيك..**».

قلت: وسعد بن عبيدة هو السّلمي. قال الكوفي: هو ثقة كوفي.

وأخرجه له البخاري في الوضوء، ولم يوصف بتدليس، فلعل الحادثة تكررت. =

بغير الله فقد كفر»[١]، فقف وتأمَّل هذه العبر!!..

ويقال[٢]: مسألة الحلف بغير الله، تظاهرت وتواترت النُّصوص النَّبويَّة بالنَّهي عنها، ودلَّت على أنَّه شرك لا يحل ولا يجوز، كما ذكره أصحاب الكتب السِّتة وأهل المسانيد، من حديث أبي هريرة وعمر وابنه وابن مسعود وغيرهم، وإنَّما ساق الترمذي حديث ابن عمر، والترمذي رحمه الله أثبت أنَّه شرك، وجعله كالرِّياء، والرِّياء شرك بالنصِّ والإجماع، وهو من الكبائر، إلاَّ أنَّه ليس مما ينقل عن الملّة، ويوجب الردَّة للآيات والأحاديث، وكلام التّرمذي[٣] يدلُّ على هذا، وقد جعله مثل الرّياء، وقاسه عليه في الحكم، وحمله على هذا الحمل والتأويل: أنَّ الرواية الأخرى، التي خرَّجها عن ابن عمر فيها تكفير من حلف بغير الله، والحكم بأنَّه كفر، وأراد الترمذي: أنَّ هذا الكفر ليس هو مما يخرج عن الملّة كالشِّرك الأكبر، بل كُفر دون كفر، وشرك دون شرك وظلم دون ظلم، كما قاله البخاري في «صحيحه»[٤]،

= قال ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٤/١٦٦) ـ بعد أن ذكر قول البيهقي السابق ـ قد رواه شعبة عن منصور عنه، قال: كنت عند ابن عمر. ورواه الأعمش عن سعد عن أبي عبد الرحمٰن السلمي عن ابن عمر.

ولفظ ابن حبان: كنت عند ابن عمر، فحلف رجل بالكعبة، فقال ابن عمر: ويحك لا تفعل ثم ذكره، قال الترمذي: وتفسير هذا الحديث عند بعض أهل العلم أنّ قوله: «فقد كفر أو أشرك» على التغليظ، والحجة في ذلك حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ سمع عمر يقول: وأبي وأبي، فقال: **«ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم»**، وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«من قال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله..»**.

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٥٣٨) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) ص (١٤١).

(٣) تقدم كلامه في الحاشية قريباً.

(٤) (١/١٩) باب كفران العشير وكفر دون كفر.

وتسميته هذا كفراً من باب التغليظ، هذا مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأمَّا كونه شركاً محرَّماً فلم ينفه الترمذي، ولم يتعرَّض له بتأويل بل أثبته وقال به؛ لأنَّه جعله مثل الرياء.

وهذا الجاهل اغترَّ في غير هذا المقام بكونه ترجم بالكراهة، والكراهة في عرف هذا الرجل إنما تطلق على التنزيه، هذا وجه ضلاله، ولم يدر أنَّ إطلاقها على كراهة التنزيه عُرف حادث، وأنَّ الكراهة في عرف الكتاب والسنَّة وقدماء الأمة تُطلق على التَّحريم، قال تعالى بعد أن ذكر المحرمات المتَّفق عليها في جميع الكتب السماوية: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، وفي الحديث: «**إنَّ الله يكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[١]، وأظن هذا، يحمل كل ما تقدَّم على كراهة التنزيه.

قال الترمذي رحمه الله تعالى: باب كراهة الحلف بغير الله، وساق بسنده حديث ابن عمر: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، وسكت الترمذي على هذا ولم يتعقَّبه بتأويل، ثم قال: باب وساق بسنده الرواية الأخرى عن ابن عمر: «**من حلف بغير الله فقد كفر**»[٢]، وتأوَّل لفظة «كفر» بأنَّها على وجه الزَّجر والتَّغليظ؛ لأنَّ الحلف بغير الله لا ينقل عن الملة، بل هو كالرِّياء في عدم الرِّدة، وإن كان شركاً[٣].

وأمَّا قوله في صدر كلامه: فقد حكم بعض المبتدعة، بأنَّ الحلف بغير الله من الشرك المخرج عن الملة، وأراد بالمبتدعة المانعين من عبادة غير الله

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٥٩)، ومسلم برقم (١٤٣٩) من حديث المغيرة بن شعبة بألفاظ متقاربة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ١٢٥ برقم ٦٠٧٢)، والترمذي في «سننه» برقم (١٥٣٥) من حديث ابن عمر.

(٣) «الجامع» للترمذي عند الحديث رقم (١٥٣٨)، وإلى هنا انتهى النقل من «تحفة الجليس» بتصرف.

كما هو مصطلحه، فهو كذب بحت وفرية ظاهرة، ما قال أحد ممن يعتدُّ به عندنا: إنَّه كفر مخرج عن الملّة، وقد يطلق العالم والمفتي ما أطلقه الرسول ﷺ في مثل هذا، ويقف حيث وقف، ومن أنكر هذا الإطلاق فقد أنكر على الرسول ﷺ.

على أنَّ ابن قيِّم الجوزيَّة قال: قد يكون ذلك شركاً أكبر، بحسب ما قام بقلب قائله[(١)].

وقال القاضي عياض من المالكية: وهذا ظاهر لا يخفى، إذا قصد تعظيم من حلف به، كتعظيم الله[(٢)].

وأمَّا استدلال هذا العراقي على عدم التحريم بقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين: ١]، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١][(٣)] وما أشبه ذلك. فهذا دليل على عدم وقوفه على كلام العلماء، فقد ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في «شرح صحيح البخاري»، [قال:] أمَّا ما ورد في القرآن من القسم بغير الله، ففيه جوابان:

أحدهما: أن فيه حذفاً، والتقدير وربّ الشمس، ونحوه.

الثاني: أن ذلك يختص بالله، فإذا أراد تعظيم شيء من مخلوقاته: أقسم به. وليس لغيره ذلك[(٤)]. انتهى.

---

(١) «مدارج السالكين» فصل ما يتاب منه.
(٢) «تحفة الجليس».
(٣) كتب في الحاشية من الأصل: قال الشعبي: وإنما أقسم الله تعالى بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين، ويعرِّفهم قدرته لعظم شأنها عندهم، ولدلالتها على خالقها.
(٤) «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٧ ط دار الفكر).

وأمَّا الاستدلال بقوله ﷺ للأعرابي: «**أفلح وأبيه إن صدق**»، فقد أجاب عنه أيضاً الحافظ المذكور في «فتح الباري».

وحاصل الجواب: أن لأهل العلم أجوبة: منها:

أنَّ هذا ليس جنس اليمين المقصودة؛ بل هو مما جرى على ألسنتهم من غير قصد، مثل قوله: «**تربت يداك**»(١)، «**ثكلتك أمك**»(٢)، «**ويح عمار**»(٣)، وهذا الجواب ذكره كثير من الناس، والنهي إنَّما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف، وإلى هذا جنح البيهقي(٤).

وقال النووي: إنَّه الجواب المرضي(٥).

ومنها: أنَّه كان يقع في كلامهم على وجهين:

أحدهما: للتعظيم.

---

(١) وردت هذه الجملة في عدة أحاديث منها: ما رواه مسلم في «صحيحه» برقم (٦٦٤) من حديث أم سلمة عندما جاءت المرأة تسأل هل على المرأة غسل.. فقال ﷺ: «وتربت يداك، فبم يشبهها ولدها»، وحديث عائشة عند مسلم أيضاً برقم (٣٥٢٧) في حديث الرضاع فقال: «تربت يداك أو يمينك»، ومنها: كما في مسلم برقم (٣٥٩٠): «فاظفر بذات الدين تربت يداك» وغيرها.

(٢) قالها النبي ﷺ لزياد بن لبيد كما أخرجه الإمام أحمد في «المسند» برقم (١٧٤٧٣) والترمذي برقم (٢٧٢٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب.
وقالها لمعاذ بن جبل كما في «المسند» والترمذي برقم (٢٦٨٣) فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكبّ الناس..»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقالها ﷺ لأعرابي كما في «المسند» أيضاً من حديث أبي أمامة الباهلي، وقالها لسعد بن مالك كما في «المسند»، والله أعلم.

(٣) قالها ﷺ لعمار عند بناء المسجد كما أخرجه البخاري برقم (٤٤٢)، قال ﷺ: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية».

(٤) «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٧ ـ ط دار الفكر).

(٥) في «شرح مسلم» (١/ ١٤٦ ـ دار الفكر).

والآخر للتأكيد، والنهي إنَّما وقع عن الأوَّل.

فمن أمثلة ما وقع في كلامهم للتأكيد لا للتعظيم، قول الشاعر[١]:

لعمر أبي الواشين إنِّي أحبها

وقول الآخر[٢]:

فإن تك ليلى استودعتني أمانة فلا وأبي أعدائها لا أذيعها

فلا يظن أنَّ قائل ذلك قصد تعظيم والد أعدائها، كما لم يقصد الآخر تعظيم من وشى به.

فدلَّ على أنَّ القصد بذلك تأكيد الكلام لا التعظيم[٣].

وقال البيضاوي[٤]: هذا اللفظ من جملة ما يزاد في الكلام لمجرد التقرير والتأكيد، ولا يراد به القسم كما تزاد صيغة النداء لمجرد الاختصاص، دون القصد إلى النداء، وقد تعقّب الجواب بأنَّ ظاهر سياق حديث عمر يدلُّ على أنَّه كان يحلفه؛ لأنَّ في بعض طرقه أنَّه كان يقول: «لا وأبي لا وأبي»، فقيل له: «لا تحلفوا»، فلولا أنَّه أتى بصيغة الحلف ما صادف النهي محلًّا.

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٧ ـ دار الفكر).

(٢) وهو: ابن الدمينة.

(٣) ويمكن أن يقال أيضاً أنَّ لعمري ليس بقسم، ففي «مسائل إسحاق الكوسج» (٢/ ٢١٤) قال إسحاق الكوسج، قلت ـ أي لأحمد بن حنبل ـ: يكره لعمري ولعمرك؟ قال: ما أعلم به بأساً. قال إسحاق: تركُه أسلم لما قال إبراهيم: كانوا يكرهون أن يقولوا: لعمر الله.

وعن عطاء ـ فيما رواه عبد الرزاق في «مصنفه» برقم (١٥٩٣٣) ـ قال: كان خالد بن العاص وشيبة بن عثمان يقولان إذا أقسما: وأبي، فنهاهما أبو هريرة عن ذلك، أن يحلفا بآبائهما، قال: فغيَّر شيبة، فقال: لعمري، وذلك أنّ إنساناً سأل عطاء عن لعمري وعن لاها الله إذاً أبهما بأس؟ فقال: لا، ثم حدَّث هذا الحديث عن أبي هريرة.

(٤) كما في «الفتح».

ومن ثَمَّ قال بعضهم: ـ وهذا[1] الجواب الثالث ـ أنَّ هذا كان جائزاً ثم نسخ، قاله الماوردي وحكاه البيهقي، وقال السبكي: أكثر الشُّراح عليه، حتى قال ابن العربي: وروي أنَّه ﷺ كان يحلف بأبيه، حتى نُهي عن ذلك، قال وترجمة أبي داود تدل على ذلك، يعني قوله: باب الحلف بالآباء، ثم أورد الحديث المرفوع الذي فيه: «**أفلح وأبيه إن صدق**»، قال السهيلي: ولا يصحُّ؛ لأنَّه لا يظن بالنبي ﷺ أنَّه كان يحلف بغير الله ولا يقسم بكافر، تالله إنَّ ذلك لبعيد من شيمته.

وقال المنذري: دعوى النسخ ضعيفة، لإمكان الجمع، ولعدم تحقق التاريخ..

ومنها: أنَّ في الجواب حذفاً، تقديره أفلح ورب أبيه. قاله[2] البيهقي.

ومنها: أنَّه للتعجب. قاله السهيلي، قال: ويدل عليه أنَّه لم يرد بلفظ: «أبي»، وإنَّما ورد بلفظ: [وأبيه، أو «وأبيك» بالإضافة إلى ضمير المخاطب، حاضراً أو غائباً، ومنها غير ذلك][3] مما يطول ذكره.

وأمَّا إنَّه ﷺ قاله لبيان الجواز، فلم أر من قال بذلك من أهل العلم، بل صرَّحوا بخلافه.

وأمَّا الاستدلال بقول أبي هريرة رضي الله تعالى عنه على تقدير ثبوته ـ فغير مفيد لاحتمال أن تكون الواو للعطف، على حد ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ وقوله:

وما بك والأيّامِ من عجب

(١) في «الفتح»: وهو.
(٢) في الأصل: قال.
(٣) «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٧).

فإنَّ عود الخافض لدى العطف على الضَّمير المجرور، ليس بلازم عند ابن مالك ومن تبعه.

وإبراهيم ﷺ كان تطوى له الأرض، وقد مرَّ في قصّة هاجر أم إسماعيل عليه السلام ما يؤيد ذلك، ويحتمل أن يقال: على تقدير الواو للقسم: إنَّ أبا هريرة قال هذا القول قبل سماعه النَّهي، وهو قوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، ويحتمل أن يقال: إنَّه كان مما يجري على ألسنتهم غير مقصود به القسم، وعلى كل حال: لا يسوغ الاستدلال به على جواز الحلف بغير الله تعالى.

وأمَّا الاستدلال بقول امرأة أبي بكر رضي الله تعالى عنهما: لا وقرة عيني إلخ، فمجاب عنه بمثل بعض ما سبق، والحديث الذي فيه هذا القول أورده البخاري في «صحيحه»[1] في عدَّة مواضع، فقال في باب أعلام النُّبوَّة: حدَّثنا موسى بن إسماعيل، حدَّثنا معتمر عن أبيه، حدَّثنا أبو عثمان أنَّه حدَّثه عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما أنَّ أصحاب الصفَّة كانوا أناساً فقراء، وأنَّ النبي ﷺ قال مرة: «**من كان عنده طعام اثنين، فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس**»، أو كما قال: وأنَّ أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة، وأبو بكر ثلاثة، قال: فهو أنا وأبي وأمي، ولا أدري، هل قال امرأتي وخادمي بين بيتنا وبين بيت أبي بكر، وأنَّ أبا بكر تعشَّى عند النبي ﷺ ثم لبث حتى صلَّى العشاء، ثم رجع فلبث حتَّى تعشَّى رسول الله ﷺ، فجاء بعدما مضى من اللَّيل ما شاء الله، قالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك، أو ضيفك؟ قال: أوعشَّيتهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء، قد عَرَضوا عليهم فغلبوهم، قال: فذهبت فاختبأت، فقال: يا

---

(١) برقم (٥٩٥)، و(٣٥٠٥).

غُنثر، فجدع وسب، وقال: كلوا، وقال: لا أطعمه أبداً؛ قال: وايم الله، ما كنا نأخذ من اللقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل، فنظر أبو بكر فإذا شيء أو أكثر، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس، قالت: لا وقرة عيني، لهي الآن أكثر مما قبل ثلاث مرار، فأكل منها أبو بكر، وقال: إنَّما كان الشَّيطان ـ يعني يمينه ـ ثم أكل منها لقمة، ثم حملها إلى النبي ﷺ، فأصبحت عنده، وكان بيننا وبين قوم عهد، فمضى الأجل فتفرقنا اثني عشر رجلاً، مع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل، غير أنَّه بعث معهم، قال: أكلوا منها أجمعون، أو كما قال، وغيره يقول فعرفنا. انتهى.

قال الحافظ العسقلاني في «شرحه»: قرة العين، يعبر بها عن المسرَّة ورؤية ما يحبُّه الإنسان ويوافقه، يقال ذلك لأنَّ عينه قرَّت، أي سكنت حركتها من التَّلفت، لحصول غرضها، فلا تستشرف لشيء آخر، فكأنَّه مأخوذ من القرار، وقيل: معناه أنام الله عينك، وهو يرجع إلى هذا.

وقيل: بل هو مأخوذ من القر، وهو البرد، أي أنَّ عينيه باردة لسروره، ولهذا قيل: دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة، ومن ثم قيل في ضده: أسخن الله عينيه، وإنَّما حلفت أمُّ رومان امرأة أبي بكر بذلك لما وقع عندها من السرور بالكرامة التي حصلت لهم ببركة الصديق رضي الله عنه وزعم الداودي أنَّها أرادت بقُرة عينها النبي ﷺ فأقسمت به، وفيه بعد.

و(لا)، في قولها: لا وقرة عيني، زائدة أو نافية، على حذف تقديره، لا شيء غير ما أقول[1]. انتهى.

---

(١) بنحوه في «الفتح» (٧/ ٢٧٧ ـ دار الفكر)، ونحوه عن النووي في شرحه على مسلم (١٤/ ١١).

فعلى هذا بطل استدلال العراقي؛ لأنَّها تريد بقُرة عينها، إقرار الله عينها أو إنامتها، وكل منهما من صفات الله الفعلية، ولا كلام في جواز القسم بها.

وأمَّا ما استدل به من حلف النبي ﷺ وبعض أصحابه بالعمر، كقوله ﷺ: «**فلعمري من أكل برقية باطل، لقد أكلت برقية حق**»(١)، وغير ذلك مما أورده العراقي.

فنقول في جوابه: قال في «المغرب»: العمر بالضم والفتح: البقاء، إلا أنَّ الفتح غلب في القسم، حتى لا يجوز فيه الضم، يقال: لعَمرك. ولعَمر الله لأفعلن، وارتفاعه على الابتداء، وخبره محذوف. انتهى(٢).

أي: قسمي أو يميني، والواو فيه للاستئناف واللام للابتداء.

قال في «القاموس»: وإذا أسقط اللام نصب انتصاب المصادر، وجاء في الحديث النهي عن قول: «لعمر الله» انتهى(٣).

قال الحموي في حاشية «الأشباه»: فعلى هذا ما كان ينبغي للمصنِّف أن يأتي بهذا القسم الجاهلي المنهي عنه. انتهى.

وفي شرح «النقاية» للقهستاني: لا يجوز أن يحلف بغير الله تعالى. ويقال: لعمر فلان، وإذا حلف ليس له أن يبر، بل يجب أن يحنث، فإنَّ البر فيه كفر عند بعضهم. كما في كفاية الشعبي. انتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٧٥)، وأبو داود برقم (٣٩٠١)، والنسائي في «الكبرى» برقم (٧٥٣٥)، والدارقطني في «سننه» (٤/ ١٩٨) من حديث خارجة بن الصلت عن عمه.

(٢) «المغرب في ترتيب المعرب» باب العين المهملة.

(٣) مادة (العمر).

أقول: لكن قال فاضل الروم حسن جلبي في حاشية المطوَّل: قوله لعمري يمكن أن يحمل على حذف المضاف، أي لواهب عمري، وكذا أمثاله مما أقسم فيه بغير الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ﴾، ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ ونظائره، أي ورب الشمس إلى آخره. ويمكن أن يكون المراد بقولهم: «لعمري» وأمثاله: ذكر صورة القسم لتأكيد مضمون الكلام وترويجه فقط، لأنَّه أقوى من سائر المؤكدات، وأسلم من التأكيد بالقسم بالله تعالى؛ لوجوب البر به، وليس الغرض اليمين الشرعي، وتشبيه غير الله تعالى به في التعظيم، حتى يرد عليه أنَّ الحلف بغير اسمه تعالى وصفاته عز وجل مكروه، كما صرح به النووي في «شرح مسلم»، بل الظاهر من كلام الحنفية: أنَّه كفر، إن كان باعتقاد أنَّه حلف يجب البر به، وحرام إن كان بدونه، كما صرح به بعض الفضلاء، وذكر صورة القسم على الوجه المذكور لا بأس به، ولهذا شاع بين العلماء، كيف وقد قال ﷺ: «**قد أفلح وأبيه**»، وقال عز من قائل: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]، فهذا جرى على رسم اللغة، وكذا إطلاق القسم على أمثاله. كذا حقَّقه العلاَّمة ابن عابدين في «حاشيته على الدُّر»[(١)].

وأمَّا استدلاله على عدم التحريم بقوله ﷺ: «**من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله**»[(٢)]، فهذا الاستدلال [عقيم] والفهم [سقيم]، ليس بشيء، والحديث دليل على التحريم، والاستدلال به عليه هو عين الفقه عن الله ورسوله؛ لأنَّه أمر من حلف بغير الله أن يكفِّر بتجديد الإسلام والإتيان بكلمة الإخلاص التي تضمَّنت البراءة من الشرك وإثبات التوحيد. وقد قال

(١) (١٨/١) ونقله هذا، من قوله: قال في المغرب.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٧٤١)، ومسلم برقم (٤٢١٤) من حديث أبي هريرة.

لقريش وغيرهم من عبَّاد الأصنام: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»[١]، وقال لعمه: «**قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»[٢]، فإذا كان حديث الترمذي يدلُّ على الكراهة، فهذا أيضاً إنَّما يدل عليها، فسبحان من حال بين قلوب هؤلاء وبين الفقه عنه، و[حجبها عن] معرفة المراد من كلامه وكلام رسوله، وفي الحديث أنَّ حسنة التوحيد تمحو الشرك وتكفره، فإنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً، أحبّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] قدَّس الله روحه بعد أن ذكر تحريم الحلف، واستدل له: ومعنى قول ابن مسعود: أن حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، مع أنَّ الكذب محرَّم بالإجماع.

وأمَّا قول العراقي في آخر كلامه هذا: وقال ابن تيمية: الحلف بغير الله على قولين للعلماء، قول بالكراهة التنزيهية، وقول بالتحريمية.

فلا يخفى أنَّه دلَّس هنا ولبَّس، وذلك أنَّ شيخ الإسلام قال في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»[٥]: لا يقسم بمخلوق مطلقاً، وهذا القسم منهي

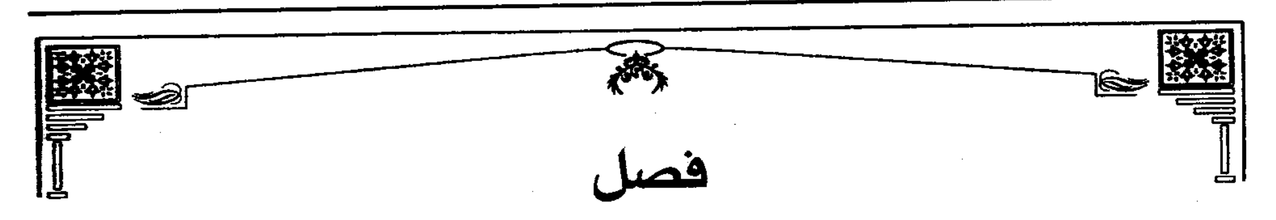
(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٧٦) من حديث ربيعة بن عباد من بني الديل وقال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٨٥): تفرد به أحمد.
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٧٩٧) من حديث ابن المسيب عن أبيه.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٤٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٠٥)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد»، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح.
(٤) انظر: «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٥٥١).
(٥) (١/ ٤٠٦).

عنه غير منعقد باتفاق الأئمة، وهل هو نهي تحريم أو تنزيه؟ على قولين، أصحهما أنَّه نهي تحريم، ولم يتنازع العلماء إلا في الحلف بالنبي ﷺ خاصة، فإنَّ فيه قولين في مذهب أحمد وبعض أصحابه كابن عقيل، طرد الخلاف في الحلف بسائر الأنبياء، لكن القول الذي عليه جمهور الأئمة، كمالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم: أنَّه لا تنعقد اليمين بمخلوق البتّة ولا يقسم بمخلوق البتة. وهذا هو الصواب. انتهى.

أمَّا تدليسه: فأسقط أول العبارة وآخرها[1]، وأمَّا تلبيسه فإنّ الشيخ قدم في عبارته نهي التحريم، والعراقي عكس؛ ليوهم أن نهي التنزيه هو الراجح، فقاتله الله ما أشغفه بالباطل والضلال، وتبت يداه ما أجرأه على تحريف المقال.

* * *

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٤٣)، ومن تدليسه: أنّ عبارة شيخ الإسلام: نهي تحريم أو تنزيه، والعراقي أبدل كلمة النهي بالكراهة.



فصل

[رأيه أنَّ «ما شاء الله وشئت»، لتعليم الأدب]

قال العراقي: (فصل) وأمَّا قول القائل: ما شاء الله وشئت، وأنا في حسب الله وحسبك، وما أشبه ذلك، فقد أطبق العلماء أنَّ الحديث الوارد فيه؛ لبيان تعليم الأدب، وليس من الشّرك الأصغر المحرم بالاتّفاق.

روى الحكيم التِّرمذي في «نوادر الأصول»، والنسائي وأبو داود بسند صحيح، عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**كنت أكره لكم أن تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد**». . . ثم ساق كلام ابن القيم في «الهدي النبوي» الدال على الكراهة. ثم قال: والظاهر من [هذا][1] الحديث وغيره: أنَّ النهي خاص بلفظ المشيئة فقط، ولا يتجاوز إلى غيرها، وحسن الأدب يقتضي أن يقاس عليه ما أشبهه، ولكن قد ورد في كلام الله وكلام رسوله وأصحابه، ما يقتضي الجواز.

منها: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]. . وساق آيات أخر. ثم قال[2]: وأمَّا السنَّة النبويَّة من الأحاديث الصِّحاح فكذلك بل أكثر.

منها: أنَّ الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم كانوا يقولون: الله ورسوله أعلم. .

---

(١) ص (١١٣).

(٢) ص (١١٤).

ومنها: قول الأنصار، كما في البخاري حين قالوا للنبي ﷺ: «الله ورسوله أمنُّ وأعظم». وساق جملة ما يماثل ذلك.. إلى أن قال: فإن قلت: فقد ورد أنَّه ﷺ قال لخطيب قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال ﷺ: «**بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله**»، قلت: ففي هذا أقوى دلالة على أنَّ العطف بالواو لا يضر، لأنَّه ما أنكر عليه قوله: من يطع الله ورسوله، وقال: «قل ومن يعص الله ورسوله»، فلو كان هذا ضارًّا لقال له: قل ومن يطع الله ثم رسوله، ومن يعص الله ثم رسوله، وإنَّما ذم هذا الخطيب لأنَّه جمع الله والنبي ﷺ في ضمير واحد يوهم الإشراك، فيكون خلاف الأدب في الجملة.. إلى أن قال: فإنْ قلت: فقد قال رسول الله ﷺ لمن قال: ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله ندًّا**»؟ والند المثل لله.

قلت: هذا الحديث له سبب، وهو أنَّ يهودياً قال لبعض الصحابة: نعم الناس أنتم لو لم تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد[1]. قطعاً لاعتراض اليهود لئلا يكون لهم ملمس من وجوه الطعن.. إلى آخر ما قال من الهذيان الدَّال على أن قائله لم يدرك شيئاً[2] من العرفان.

والجواب أن يقال:

إنَّ في كلام العراقي [خلطاً وخبطاً]، فإنَّه اعتمد في غالب ما ذكره على فهمه الفاسد، ولم يرجع إلى ما حرَّره العلماء الأعلام، أو أنَّه راجع ورآه مخالفاً لهواه، ولو وافقه لنقله، ألا ترى أنه نقل عبارة ابن القيم في «الهدي النبوي»[3] الدالة على كراهة، ما شاء الله وشئت؟! ظنًّا منه أنَّ الكراهة

---

(١) كذا في الأصل والصواب: ما شاء الله وما شاء محمد.

(٢) في ط: ليس عنده شيء.

(٣) «زاد المعاد» (٢/ ٣٢٠).

منصرفة إلى ما يجب، ولم يدر أنّها تطلق على التحريم، **وهو مراد ابن القيم** منها، فقد قال رحمه الله تعالى في كتابه: «الجواب الكافي» ـ لما ذكر نبذة من الشرك الأصغر ـ ومن ذلك قول القائل لمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عنه ﷺ أنَّه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟ قل: ما شاء الله وحده**»[1]، وهذا مع أنَّ الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة بقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]، فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السموات وأنت لي في الأرض، أو يقول: والله وحياة فلان، أو يقول لك: نذر لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله وفلان ونحو ذلك. فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش، يتبيَّن لك أنَّ قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنَّه إذا كان قد جعله لله نداً، فهذا قد جعل ما لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء، بل لعله أن يكون من أعدائه ندًّا لرب العالمين سبحانه. انتهى.

وروى ابن أبي حاتم[2] في «مستدركه» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، قال: هو الشّرك أخفى من دبيب النّمل على صفاة سوداء، في ظلمة اللّيل، ومنه قول الرّجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وفلان. انتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٧٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٩٨٨)، وابن ماجه برقم (٢١١٧) كلهم من طريق يزيد بن الأصم عن ابن عباس.

(٢) كذا في الأصل: مستدركه، وهو في «تفسيره» (٢٢٢).

وبه يعلم أنَّ قول العراقي: إنَّ النهي خاص بلفظ المشيئة مردود، بل إنَّ كلام الحافظ ابن القيم الذي نقلناه عن كتابه «الجواب الكافي» يدلُّ على أنَّ النهي عن قول القائل: أنا متوكل على الله وعليك: وأنا في حسب الله وحسبك، وأشباه ذلك أولى، وعليه يدل كلام كثير من العلماء.

قال العلامة المحدِّث الشَّيخ علي السَّويدي رحمه الله في كتابه «العقد الثمين»، بعد أن نقل قول المناوي في تعليل النَّهي، وهو قوله لما فيه من شائبة التشريك: فنهى عن ذلك نهي تنزيه رعاية للأدب، ودفعاً لذلك التوهم.. إلخ. ولم أر أحداً من الشافعية قال بالحرمة صريحاً، وإن كان ظاهر النص من النهي الجازم يفيدها، وعلى كل حال فهي من الشّرك الأصغر، كما ثبت التَّصريح به والله أعلم. انتهى.

وقد صرَّح الأصوليّون: بأنَّ حدَّ النَّهي استدعاء كفٍّ بالقول على سبيل الوجوب وهو الحتم، وأنَّه دال على فساد المنهي عنه في العبادات، سواء نهى عنها لعينها، كعبادة الحائض، أو لأمر لازم لها كالصلاة أوقات النَّهي، وصوم يوم العيد، أو لأمر مطلق على أصحِّ الوجهين، كالوضوء بماء مغصوب، والبيع وقت نداء الجمعة، وفي المعاملات أيضاً، سواء رجع النهي إلى نفس العقد، كبيع الحصاة، أو إلى أمر داخل فيه كالنهي عن بيع الملاقيح، وهو ما في بطون الأمهات، أو الأمر بالشيء نهي عن ضده، والنهي عن الشيء أمر بضده، فإذا قال: اسكن، كان ناهياً له عن التحرك، أو لا تتحرك كان آمراً له بالسكون، فتعيَّن أن يكون النهي عن التَّشريك أمراً بالتَّوحيد، وذلك منصرف إلى الوجوب، إذ هو متحتّم على كل أحد، كالنَّهي في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وغير ذلك، فكل هذا النهي وما في معناه متضمن [الطلب] الحتم على الخلق [بالبعد] عن المنهي عنه، سواء كان كفراً أو معصية.

وقول القائل: ما شاء الله وشئت، معصية بعد النهي الوارد عن هذه الصيغة بالواو، ولا يكفر مرتكبها، إلا أنَّه مشرك شركاً أصغر، يجب الكفّ عنه والتوبة منه، تغليباً لجانب أصل الإيمان المستصحب على وجود المعصية الصّادرة ممن حكم بإسلامه، والفاعل للمعصية الملتبِّس بها ضال ما لم يتب منها وينحاد عنها [عن طريقها]، فالعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدِّين، وقوامه كلّه لله تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

وأما قول العراقي: ولكن قد ورد في كلام الله ورسوله وأصحابه ما يقتضي الجواز.. إلخ. فمردود أيضاً؛ لأنَّ كلامنا ليس في منع مطلق التشريك بالواو، بل في منع التشريك في الأفعال المختصة بالله سبحانه، ألا ترى أنَّ النهي عن قول القائل: ما شاء الله وشئت: إنَّما هو لإيهام التَّشريك في مشيئة الله تعالى، والمشاركة التي وقعت في الآيات، والأحاديث المذكورة في كلام العراقي ليس من هذا القبيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وغير ذلك.

فقد أخبر الله تعالى أنَّه أغناهم وأنَّ رسوله أغناهم. وهو من الله حقيقة؛ لأنَّه الذي قدر ذلك، ومن الرَّسول حقيقة باعتبار تعاطي الفعل، وكذا الإنعام، أنعم الله على زيد بالإسلام؛ وأنعم النبي ﷺ عليه بالعتق، وهذا بخلاف المشاركة في المشيئة، فإنَّها منصرفة لله تعالى في الحقيقة، وإذا نسبت لغيره فبطريق المجاز(١)، وإنَّما جاز بدخول، «ثم»؛ لأنَّ مشيئة الله سابقة على مشيئة

(١) هذا فيه نظر؛ بل مشيئة العبد حقيقية ليست مجازية، وإنما نهى عن التشريك بالواو لإيهام أنَّ العبد شريك لله في مشيئته العامة، التي هي من خصائص الرب، وبالإتيان بـ«ثم» يندفع هذا الإيهام.

خلقه هكذا ذكره شرَّاح الحديث.

فاندفعت شبهة العراقي ولله تعالى الحمد. وبطل كل ما استدلَّ به، فإنَّه لا يدل على دعواه بوجه من الوجوه، كما لا يخفى على الفطن، فلا حاجة إلى إبطال ما بقي من هذيانه بعد وضوح الحق. والله أعلم.





فصل

[في إطلاق السيّد على غير الله تعالى]

قال العراقي[1]: (فصل) وأمَّا إطلاق لفظ السَّيِّد والمولى على غير الله تعالى، فقد ورد في كلام الله وأحاديث رسوله ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم والسلف وجميع العلماء، قال الله تعالى في حق يحيى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]. . وساق العراقي عدَّة آيات وأحاديث، اشتملت على لفظ السَّيِّد والمولى، مطلقين على غير الله تعالى، وبزعمه أنَّ ذلك لا يصحُّ لدى المانعين.

والجواب أن يقال:

إنَّ ما ذكره العراقي افتراء بحت، لا أصل له، بل هو كسائر مفترياته ومختلقاته، فإنَّه لم يذكر أحد ذلك إلا شذوذ من النَّاس، كما نقل ذلك الشّامي في حاشيته على «الدر». قالوا: لما روي أنَّه عليه الصلاة والسلام لما قالوا له: يا سيِّدنا، قال: «**إنَّما السيّد الله**»، قال الشَّامي: وفيه أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «**أنا سيّد ولد آدم**» وقال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾، وقيل: لا يطلق عليه تعالى. وعُزي إلى مالك، وقيل: يطلق عليه معرّفاً وعلى غيره منكَّراً، والصَّحيح: جوازه مطلقاً، وهو في حقِّه تعالى بمعنى العظيم المحتاج إليه غيره، وفي غيره: بمعنى الشَّريف الفاضل الرئيس، وتمامه في حاشية الحموي. انتهى.

---

(١) ص (١١٦).

وكان[١] من منع الإطلاق على غيره سبحانه أراد به المعنى الأول، وإلا فلا وجه للمنع بمجرّد الاتّحاد في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى.

وفي كتاب «الفواكه العذاب في معتقد الشيخ محمد بن عبد الوهّاب»[٢] أنَّ الله سبحانه قد سمَّى نفسه حيّاً عليماً، سميعاً بصيراً، ملكاً رؤوفاً رحيماً، وقد سمَّى بعض مخلوقاته حيّاً، وبعضها عليماً، وبعضها سميعاً بصيراً ملكاً رؤوفاً رحيماً، وليس الحيّ كالحيّ، ولا السّميع كالسّميع، ولا البصير كالبصير، ولا الرؤوف كالرؤوف، ولا الرحيم كالرحيم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وليس بين صفة الخالق والمخلوق مشابهة إلا في اتّفاق الاسم، وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها، على أن الله سبحانه بائن عن مخلوقاته، وهو فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، والعرش وما سواه فقير إليه، وهو غنيٌّ عن كلّ شيء، لا يحتاج إلى العرش، ولا إلى غيره ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. انتهى.

وكذا لا وجه للمنع من إطلاق المولى على غيره سبحانه، وقد ورد له

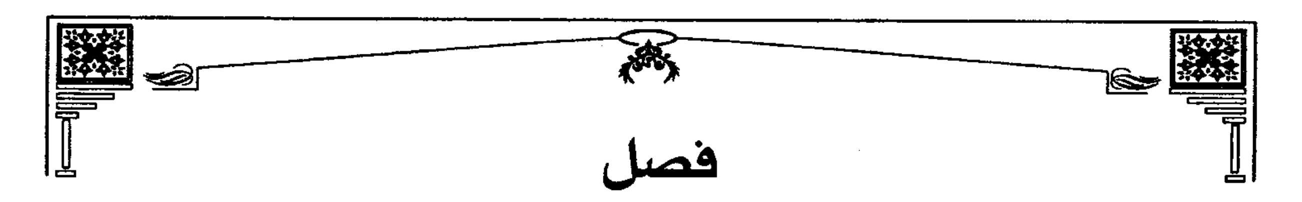
---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: وكأنَّ.

(٢) للشيخ حمد بن ناصر بن معمر (ت ١٢٢٥هـ)، والكتاب مطبوع بتحقيقي عن دار المعراج، وقوله هذا في ص (٢٨).

في اللغة عدّة معان. والكلام فيه كالكلام في السيد، ومن لم يتذكَّر وقوفه بين يدي مولاه لم يبال بما تكلم به فاه.

❊ ❊ ❊



فصل

[افتراؤه على الشيخ ابن عبد الوهاب]

وأمَّا قول العراقي[١]: فكيف يجوز لمن يدَّعي العلم أن يقول: إنَّ لفظ السَّيِّد والمولى بمعنى الإله، كما قاله ابن عبد الوهاب في بعض رسائله.

قال: ليس السّيد عندنا إلاّ الإلٰه.

فتكون هذه الآيات والأحاديث الصحيحة، فيها الكفر الصّريح على مقتضى مذهبه، حتى كفَّر صاحب «دلائل الخيرات»؛ لكونه يقول فيها، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد، فأحرقها لذلك، فإنّا لله وإنَّا إليه راجعون.. إلى آخر ما هذى به هذا العراقي من الكلام الفاحش الذي لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان.

فالجواب أن يقال:

إنَّ نسبة منع إطلاق هذين اللفظيْن على غيره سبحانه، إلى شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، من افتراءات العراقي وأمثاله.

كيف يقول ذلك؟! وقد صرَّح في كتاب «التَّوحيد» بحديث الصحيحين: «**لا يقل العبد: ربي، وليقل سيدي ومولاي**»[٢] كما نقله العراقي نفسه، هل

---

(١) ص (١١٨).

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ومسلم في «الصحيح» برقم (٥٨٢٩) بلفظ: «ولا يقل أحدكم اسق ربك، أطعم ربك، وضىء ربك، ولا يقل أحدكم ربي، وليقل سيدي ومولاي».

هذا إلا بهتان مبين؟ وهل تخفى عليه الأحاديث والآثار؟ وقد قرأ الكتب الستة والتفاسير الشهيرة، و[التي لا] يعرفها العراقي، الذي صرف عمره بحكايات «روض الرّياحين»(١)، وقصص «نزهة المجالس»(٢)، ومضحكات كتاب «هزُّ القحوف»(٣).

وأمَّا قوله: حتى كفَّر صاحب «دلائل الخيرات».. إلخ. فموجب للغرابة، فإنَّه لا يتصوَّر ممن يدَّعي الإسلام أن يفتري هكذا افتراء، ومتى كفَّره؟ وفي أي كتاب نقله وسطره؟ ويا سُبحان الله، إنَّ هذا العراقي أظنه(٤) من نطف اليهود ـ والعياذ بالله ـ فإنَّ فيه مشابهات كثيرة لهم، والشَّيخ محمد بن عبد الوهاب كان من أحوط النّاس في هذه المسألة، وقد سبق أول الكتاب [بيان] من يحكم عليهم بالكفر، وكان رضي الله تعالى عنه من أكثر الناس ذكراً لله تعالى، وصلاة على نبيّه ﷺ. ففي كتاب «التوضيح عن توحيد الخلاق»(٥).

فالشيخ محمد بن عبد الوهاب قد هدى فاهتدى، وهدى الله به من اهتدى، بعد الاسترشاد إلى الرشاد والانحياد(٦) عن أهل الفساد، وهو لا يفتر عن الأوراد فمما كان ملازماً له: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾

---

(١) في «مناقب الصالحين»، ومؤلفه عبد الله بن أسعد بن اليافعي (ت ٧٦٨هـ)، والكتاب مطبوع.

(٢) «ومنتخب النفائس» لعبد الرحمٰن الصفُّوري (ت ٨٩٤هـ).

(٣) «بشرح قصيدة أبي شادوف» ليوسف بن محمد بن عبد الجواد الشربيني (ت بعد ١٠٩٨هـ)، والكتاب مطبوع.

(٤) في ط: لا بد أنه.

(٥) «في جواب أهل العراق، وتذكرة أولي الألباب بطريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لمحمد بن غريب وآخرين، وهو مطبوع، والآن يُحقَّق كرسالة علمية مقدَّمة للجامعة الإسلامية لنيل درجة الدكتوراه من قِبَلِ أمين بن أحمد السَّعدي.

(٦) في ط: التباعد.

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٩]. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليِّ العظيم، سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللّهم بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد. السلام على النبي ورحمة الله وبركاته.

هكذا لا يفتر أبداً إلا وقت نوم أو درس، لكن لغربة الإسلام أُنكر عليه، وللحسد والبغضاء عُودي، ونسب كل فعل قبيح إليه، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العَليّ العظيم. وحسبنا الله ونعم الوكيل. انتهى.

ولم يضر الشّيخ ما نسبوه إليه كما لم يضّر القمر نبح الكلاب، كما قيل:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنّي كامل[1]

وكذا لا أصل لما افترى: أنَّ الشيخ أحرق «دلائل الخيرات»[2] أو أمر بحرقها، نعم إنَّ الذي أمر بحرقها وأفتي به، السّيد العلاّمة محمّد بن إسماعيل الأمير [الصنعاني][3] رحمه الله تعالى، لما فيها من الألفاظ التي لم ترد بها

---

(١) قائل هذا البيت هو أبو الطيب المتنبي من قصيدة طويلة مطلعها:
لك يا منازل في القلوب منازل أقصرت أنت وهنّ منكرة أواهل

(٢) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، في رسالة أرسلها إلى أحد علماء العراق وهو عبد الرحمٰن السويدي: . . وأما «دلائل الخيرات» فله سبب، وذلك أني أشرت إلى من قبل نصيحتي من إخواني، أن لا يصير في قلبه أجلُّ من كتاب الله، ويظن أن القراءة فيه أجلُّ من قراءة القرآن، وأما إحراقه والنهي عن الصلاة على النبي ﷺ بأي لفظٍ كان، فهذا من البهتان. =

السّنة، وصيغ الصلاة عنده توقيفية، كما هو رأي بعض العلماء.

= انظر: «مجموعة مؤلفات الشيخ» (٥/ ٣٧).

قلت: واسم الكتاب «دلائل الخيرات في الصلاة على سيِّد البريَّات» لمحمد بن سليمان الجزولي المغربي (ت ٨٦٣ أو ٨٧٠هـ). مطبوع.

وقد ملأه مؤلفه بالمبتدعات والمخترعات من الصلاة على النبي ﷺ، وقد ردَّ عليه عبد الله بن محمد الدويش رحمه الله في جزءٍ مستقل أسماه «الألفاظ الموضحات لأخطاء دلائل الخيرات». وهو مطبوع. قال صلاح الدين أحمد مقبول في كتابه «الأستاذ أبو الحسن الندوي، الوجه الآخر من كتاباته» ص (٤٨٧) (ت ٤): قال الشيخ حسين أحمد المدني (شيخ الندوي):

إنَّ الوهابية الخبيثة تستقبح جداً، قراءة «دلائل الخيرات»، و«القصيدة البردية»، والقصيدة الهمزية، ويجعلون بعض أبيات قصيدة البردة من قبيل الشرك، كقول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي لا ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

مع أنَّ أئمتنا وأكابرنا كانوا يأمرون مريديهم بقراءة مثل هذه الكتب ويجيزونها، والشيخ محمد قاسم النانوتوي، والشيخ الجنجوهي ـ رحمهما الله ـ أجازا قراءتها لآلاف من الناس، وكانا يقرآنها، وقد أنشد الشيخ محمد قاسم النانوتوي مثل هذا البيت الذي في قصيدة البردة، فقال: انصر أيها الكرم المحمدي؛ لأنَّه ليس لقاسمٍ أحد سواك، فإذا أنت لم تسأل عن حالنا، فمن يسأل ومن يكون لنا غيركِ؟!

وقد ردَّ عليه أيضاً ـ أي كتاب «دلائل الخيرات» ـ الشيخ عبد المحسن العباد في مجلة «الجامعة الإسلامية».

(١) هو العالم المجتهد عالم القطر اليماني (ت ١١٨٢هـ)، وتحذيره من كتاب «دلائل الخيرات» في الديوان، قافية الدال ص (١٧١). والشيخ الصنعاني رحمه الله أثنى على الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في قصيدة. ولكن هل تراجع عن ذلك أم لا؟ خلاف مذكور، فمنهم من يقول إنه تراجع عن مدح الشيخ، وأن ذلك بسبب وشاية وشى بها أحمد بن مربد التميمي وعبد الرحمٰن النجدي من أنَّ الشيخ يكفِّر المسلمين ويستبيح دماءهم، ومنهم من يقول إنه لم يتراجع. انظر «الديوان» للصنعاني فإن ثبتت القصيدة أو لم تثبت فإن الصنعاني لم يخالف دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

«وشفاء الأسقام»(١) مثل «دلائل الخيرات» في ذلك، فإنَّ فيه صيغاً كثيرة كلها مبتدعة، وقد اشتملت على إطراء وإغراق وألفاظ لم ترد في سنة، وعبارات لم تجيء من رسُول الله ﷺ.

والذي ينبغي لمن يريد اتِّباع الحديث والاقتداء بالسّلف الصّالح، أن يقتصر في ألفاظ الصلاة وصيغها، على ما ورد في كتب السنة الصحيحة، بل يختار منها ما هو أصح الصحيح، لا يتطرق إليه شبهة ولا ريبة، ليكون على تقوى من الله وعلى بصيرة من دينه، وصيغها الواردة في الأخبار والآثار كثيرة جداً، وجميع ما عد من الكيفيات ثمان وأربعون، والمروي منها عن النبي ﷺ ست وثلاثون، والباقي من الصحابة والتابعين، ومن أراد الوقوف عليها فعليه بكتاب «جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام» للحافظ ابن القيم عليه الرّحمة، فإنَّ فيه شفاء الأسقام؛ لأنَّه كتاب فرد في معناه، لم يسبق مؤلّفه إلى مثله في كثرة فوائده وغزارتها، بيَّن فيه الأحاديث الواردة في الصّلاة والسّلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلّم وميَّز صحيحها من حسنها ومعلولها، وبيَّن ما في معلولها بياناً شافياً، ثم ذكر أسرار هذا الدّعاء وشرفه، وما اشتمل عليه من الحكم والفوائد، ثم مواطنها ومحالها، ثم الكلام في مقدار الواجب منها، واختلاف أهل العلم فيه، وترجيح الراجح، وتزييف الزائف.

ثم إنَّ هذا العراقي الملحد، الذي حادّ الله ورسوله، عبَّر عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رضي الله عنه بلفظ الدجال في أواخر مقالته هذه.

والدجَّال اسم للكافر المعلوم، مع شهرة حال الشيخ وصلاحه وقوة إيمانه، وصلابة دينه، لم يأمر أحداً بمنكر ولا بزور، بل كان يأمر بإحياء السنة السنية، وينهى عن الشرور، و[يدعو إلى] إخلاص التوحيد لله، وقطع

---

(١) هناك عدة كتب بهذا العنوان، ولعلَّ الألوسي يقصد كتاب السبكي، الذي ردّ عليه ابن عبد الهادي، وقد تقدم.

الالتفات إلى ما سواه، وكان يأمر بالصدق والعفاف، وصلة الأرحام، وإكرام الضيوف والأرامل والأيتام، وكان يعظم أنبياء الله ورسله وأولياءه العظام، ولم ينحرف عن جادة الشريعة المحمدية قِيْد شَعَرةٍ[(١)]، ومن حكم الله تعالى ورسوله بكفره كفَّره.

وأنت أيّها العراقي! كما قد اشتهر لدينا حالك، وأثبته سوء منقلبك ومآلك: تأكل أموال اليتامى والمساكين، وتكذب على الله ورسوله والمسلمين، وتبيح شهادة الزّور، وتدعو لعبادة [مكان] أهل القبور، وتؤيّد كل منكر وضلال، وتحتج عليه بالشبه وأضعف الأقوال، وتلبِّس على العوام وتدلس على الجهلة الطغام، فبالله عليك أيّها المنصف! من الأحق باسم الدجال: أمحيي السنة ابن عبد الوهاب، أم هذا العراقي طاغية العراق؟! وشيخ أرباب الضلال؟! وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إلى الدّيان يوم الدّين نمضي ... وعند اللَّه تجتمع الخصوم[(٢)]

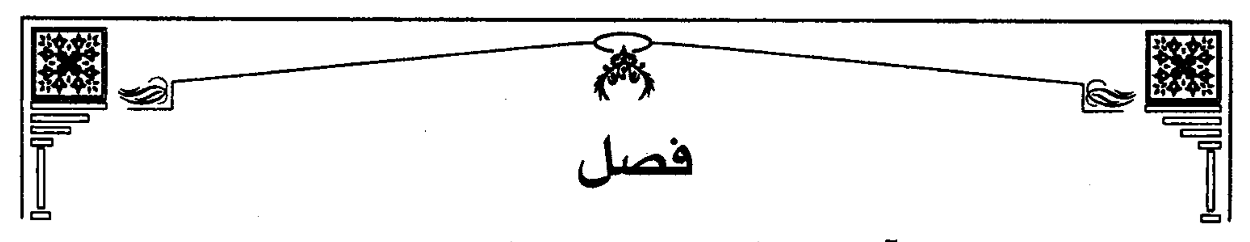
والله وليّ الهداية والتوفيق، نعم المولى ونعم الرفيق، لا رب غيره؛ ولا خير إلا خيره.

❃ ❃ ❃

---

(١) كتب في الحاشية أي: قدر شعرة.

(٢) هذا البيت للإمام علي بن أبي طالب، وهي في ديوانه ص (١٨٦ ط بيروت).
وأخرج البيهقي في «الشعب» برقم (٧٤٨٧) بإسناده، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٤٥٩) من طريق أنَّ يحيى بن خالد البرمكي لما حبس كتب من الحبس إلى الرشيد: إن كل يوم يمضي من بؤسي، يمضي من نعمتك مثله، والموعد المحشر، والحكم الديّان، وقد كتبت إليك بأبيات، كتب بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان.. ثم ذكرها.



فصل

[بيانه لبعض شبه المانعين ـ كما زعم ـ والرد عليه]

قال العراقي[1]: خاتمة الكتاب في بيان بعض شبه المانعين، التي هي من أقوى ما استدلوا بها، وكفَّروا الناس بسببها، أو حرَّموا ذلك عليهم.

أقول:

الشبه: جمع شبهة، وهي في عرف المناظرين: دليل فاسد في نفس الأمر، وقدا ختلق هذا العراقي ـ كما هو ديدنه وعادته ـ ما ذكره في خاتمته ونسأل الله تعالى أن يعيذنا من سُوء الخاتمة، من الدلائل التي زعم: أن أهل الحق أقاموها في إثبات مدعاهم، من إخلاص التوحيد لله تعالى، والمنع من دعاء غيره سبحانه، ولعمر الله لقد كذب في هذه العبارة اليسيرة في عدة مواضع، والعياذ بالله تعالى.

منها: قوله في التعبير: بالشبه، وسيأتي إن شاء الله تعالى إبطال ما أورده عليها وصحة الاستدلال بها، وإن كان القوم في غنى عنها.

ومنها: إسنادها إلى المانعين، مع أنَّه لم يتفوَّه أحد منهم بالاستدلال بها، وهم ولله تعالى الحمد في غنًى عن مثل ذلك، كيف والكتاب والسنة ناطقان بإخلاص التوحيد لله سُبحانه، وإبطال ما عليه العراقي من عبادة غير الله تعالى، ونداء الأولياء والصالحين في الملّمات، والغلو فيهم الذي قام

---

(١) ص (١١٨).

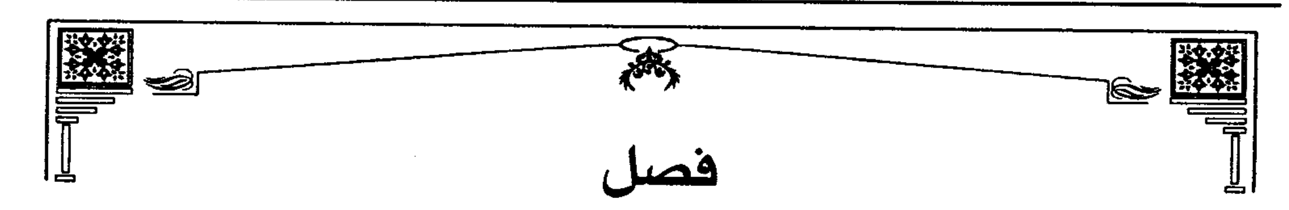
الإجماع، واتفقت كلمة العلماء والمجتهدين على تحريم ذلك؛ بل وجميع رسل الله وأنبياؤه صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين [إنَّما بعثوا به]، وما بعد الحق إلا الضلال. [فأنَّى تؤفكون].

ومنها قوله: التي هي من أقوى ما استدلوا بها.. إلخ. سُبحانك هذا بهتان عظيم، إذ قد ذكرنا أنَّه لم يستدل بها أحد، فضلاً عن أن تكون أقوى ما استدلّ به، وهلَّا نسب ذلك إلى كتاب أو إلى عالم من العلماء، أو طالب من الطلاَّب، وقد سبق نبذة من دلائلهم في عدَّة مواضع، وكان الذي دعا هذا العراقي على هذا الافتراء والكذب: ترويج زيفه على العوام، إذ لو ذكر من دلائلهم القويَّة وبراهينهم القطعيَّة ينكشف الغبار، ويتميّز اللّيل من النّهار، ويظهر لكل ذي عينين بطلان ما عليه [العراقي] من الزَّيغ والشَّين، وهذا أشبه شيء بمكائد الرّوافض، التي ذكروها في مقابلة [نصوص] أهل السّنة؛ طمعاً في استمالة العوام نحوهم، وقد ذكرناها مع ما يبطلها في غير هذا الموضع، أو أنَّ اتباعه لهواه، وميله لبدعته أعماه عن الحق وأصمَّه. فقد قيل: حبّك للشيء يعمي ويصم.

وقد ذكر العلماء أنَّ من علامة أهل البدعة، صرفهم الدلائل إلى ما تهواه أنفسهم، وجعل النّصوص تابعة لما هم عليه، لا أنَّهم تابعون لها، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي سهّل للعراقي الكذب على الله ورسوله، وصلحاء المؤمنين، أو يقال: إنَّه لمزيد جهله وعظيم غباوته لم يكن له وقوف على دلائل القوم، ولا لياقة له لفهم عباراتهم الجليَّة.

نسأل الله تعالى العفو والعافية.

* * *



فصل

[مطلب في تفسير العبادة]

قال العراقي(١): فأعظمها: أنَّ النداء لأهل القبور والطلب منهم، على نيَّة التوسُّل إلى الله بنوع دعائهم [منه تعالى](٢) أو كراماتهم عليه، يسمونه دعاء لغير الله تعالى، وقد قال تعالى عن الكفار: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] وما أشبه ذلك من الآيات.

ثم أجاب عن هذه الشّبهة ـ بزعمه ـ بما يطول ذكره.

وحاصل ما أجاب به: أنَّ الدعاء في مثل هذه الآيات هو العبادة، التي هي الرّكوع والسجود والذبح والتقرب، إلى ذوات المدعوِّين، على أنَّهم أرباب، وأنَّ نداء الصّالحين ليس بعبادة، وأورد على ذلك حكايات وعدَّة نصوص من الكتاب والسّنة، لا تدلُّ على مدَّعاه بوجه من الوجوه.

والجواب أن يقال(٣):

إنَّ كلامه هذا نشأ عن جهل باللُّغة والشَّرع، وما جاءت به الأنبياء والرُّسُل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، فإنَّ العبادة تتضمن غاية

---

(١) ص (١١٩).

(٢) زيادة من «صلح الإخوان».

(٣) بعد هذا يبدأ النقل من كتاب «تحفة الطالب والجليس» (ص ١٠٨ ـ ط دار العاصمة).

الخضوع و[غاية] الذل، ومنه طريق معبّد: إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام، هذا أصلها في اللغة.

وأمّا في الشرع: فهي اسم جامع لكلّ ما يحبُّه الله تعالى ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. قاله شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ـ قدس الله روحه[١] ـ.

وقال بعضهم: هي ما أمر به شرعاً من غير اقتضاء عقلي، ولا اطِّراد[٢] عُرفي[٣].

وقال بعضهم: هي فعل ما أمر الله به ورسُوله، وترك ما نهى الله عنه ورسُوله، ابتغاء وجه الله والدّار الآخرة.

فدخل في هذه التعاريف والحدود جميع أنواع العبادات، فلا يقصد بها غير الله، ولا تصرف لسواه.

وهذا الغبي! لم يعرف من أفرادها غير الرُّكوع والسُّجود، والذَّبح والتَّقرُّب. مع أنَّ دعاء المسألة من أفضل أنواعها وأجلِّها، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الدّعاء هو العبادة**»[٤]، والحصر يقتضي الاختصاص الادّعائي، والتَّمييز على سائر العبادات، قال بعض الشرَّاح: هو كقوله: «**الحج عرفة**»[٥]، أي ركن العبادة الأعظم: هو الدّعاء.

---

(١) «الفتاوى» له (١٠/ ١٤٩).

(٢) في الأصل: اطراء، والتصويب من «التحفة».

(٣) انظر: «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣/ ٨٦)، و«تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود في «سننه» برقم (١٤٨٠)، والترمذي برقم (٣٠٥٨)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وجوّد إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/ ٤٩).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/ ٤٤١)، وأبو داود في كتاب الحج من «سننه»=

وفي حديث أنس رضي الله عنه: «**الدعاء مخ العبادة**»[(١)]، ومخ الشيء خالصه ولبُّه. وكذلك قوله ﷺ: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدِّين**»[(٢)] والعماد والعمود: ما يقوم به الشيء ويُعتمد عليه، جعله عماداً، لأنَّه لا يقوم إلاّ به، وأنت ترى كلَّ العبادات الباطنة والظَّاهرة دالة على الطّلب، والمسألة على اختلاف المطلوب والمسؤول، وكان هذا هو الوجه في التعبير بالدعاء، دون العبادة في أكثر موارد القرآن والسنة.

ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**أفضل الدعاء يوم عرفة: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير**»[(٣)]،

= برقم (١٩٤٩)، والترمذي برقم (٨٨٤)، كلهم من طريق بكر بن عطاء، عن عبد الرحمٰن بن يعمر، أنا ناساً من أهل نجد أتوا رسول الله ﷺ وهو بعرفة، فسألوه فأمر منادياً فنادى: «الحج عرفة».

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٠٢)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، والطبراني في «المعجم الأوسط»، وفي «الدعاء».

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٢)، وقال: هذا حديث صحيح، فإن محمد بن الحسن هذا هو التل، وهو صدوق في الكوفيين، وأقرَّه الذهبي.
وأخرجه الشهاب في «مسنده» (١/ ١١٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (١/ ٣٤٤)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٢١) وقال: رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد وهو متروك.
وذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ٥١٣) في ترجمة التل، محمد بن الحسن مثالاً على مناكيره، وقال: صحّحه الحاكم، وفيه انقطاع.

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» برقم (٩٦٢)، والمحاملي في «الدعاء»، وأخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٦٢)، وقال: لا يتابع عليه. وقال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٣٩): لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث كما رأيت، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسنداً من وجه يحتج به، وانظر: «تلخيص الحبير» (٢/ ٢٧٢) لابن حجر، والبيهقي في «فضائل الأوقات»، وقال: وقد روي من حديث مالك موصولاً بإسناد آخر فوصله ضعيف، وروي من وجه آخر.

وقد سئل ابن عيينة عن معناه، فأنشد قول أميّة [بن أبي الصلت] في عبد الله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك؟ أن شيمتك الحياء[١]

قال في «القاموس»: الدعاء هو الرغبة إلى الله[٢]. انتهى.

وقال الحسين بن محمد النعمي: الدعاء في الأصل موضوع لأن يكون من فقير عاجز خاضع، لغني قادر عزيز قاهر. انتهى.

والدعاء: يرد في الكتاب والسّنة بمعنى الطلب والمسألة، بامتثال الأمر واجتناب النّهي، ويرد بمعنى المسألة والطّلب بالصيغة القوليّة، وقد فسّر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.. الآية [غافر: ٦٠]. بدعاء العبادة وبدعاء المسألة، والقولان معروفان والآية تشمل النّوعين. قاله شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] وغيره. وذكر أنّهما متلازمان فكل عابد سائل، وكل سائل عابد.

وقال رحمه الله تعالى: والدعاء والدّعوة في القرآن يتناول معنيين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.. وساق جملة من الآيات، ثم قال: ولفظ الصَّلاة في اللغة بمعنى الدّعاء، وسُمِّيت به لتضمُّنها معنى الدّعاء، دعاء العبادة والمسألة.. ثم قال: فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرُّده عنه، ولكن إذا جمع بينهما يراد بالسائل من يطلب بصيغة السؤال، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال، وسُمِّي الذكر دعاء لما فيه من التعريض بالمسألة.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٥٧٥)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ١٦٧)، وفي «فضائل الأوقات» وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» وغيرهم.

(٢) «القاموس المحيط» مادة (الدعاء).

(٣) «الفتاوى» (١٥/ ١٠).

قال: وهذه الصيغة صيغة الطلب والاستدعاء، إذا كانت مما لا يحتاج إليه الطّالب، أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه، ونحو ذلك، فإنَّها تقال على وجه الأمر، إمّا لما في ذلك من حاجة الطالب، وإما لما فيه من نفع المطلوب منه، وأمَّا إذا كانت من الفقير من كل وجه، للغني من كل وجه، فإنَّها سؤال محض بتذلّل وافتقار[1]. انتهى.

قال صاحب «دلائل الرسوخ»[2] ـ روَّح الله روحه ـ: وقد نصَّ على ما ذكره الشيخ من الفرق علماء المعاني، صاحب «المفتاح» وغيره، وفرَّقوا في الصيّغة الواحدة، نظراً للمخاطَب والمخاطِب ـ بكسر الطاء ـ فقالوا: هي من الأعلى أمر، ومن المساوي التماس، ومن دونه مسألة وطلب.

وقد فسر قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، بدعاء المسألة. قاله العلاّمة ابن القيِّم، وقوله[3]: إنَّه في هذه الآية أظهر، وذكر أنَّ استعمال الدعاء في العبادة والمسألة من استعمال اللفظ في حقيقته الواحدة ليس من المشترك ولا المتواطىء ولا المجاز. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ظاهر في دعاء المسألة، لمناسبة الحال والواقع.

وفي حديث عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه[4] لما فرَّ يوم الفتح إلى السِّيف وركب البحر، جاءتهم ريح عاصف، وظنّوا الهلكة أخلصوا الدّعاء لله،

---

(١) هذا النقل بتمامه من «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» (ص ١٠٨ ـ ١١٢).

(٢) هو كتاب «التحفة» كما أشرت إلى ذلك. وقوله هذا يبدأ من (ص ١١٢).

(٣) في «التحفة» وقرّر.

(٤) هو: الصحابي الجليل عكرمة بن عمرو بن هشام القرشي المخزومي، قتل يوم اليرموك في خلافة عمر رضي الله عنه. «الإصابة».

وصاروا يتواصون بذلك، ويقول بعضهم لبعض، لا ينجي في مثل هذا إلاّ الله، فقال عكرمة: إن كان لا ينجي في الشّدة إلاّ هو تعالى، فكذلك لا ينجي في الرخاء إلا هو، وقال: لئن أنجاني الله لأرجعنَّ إلى محمد، ولأضعنَّ يدي في يده، فكان ذلك وأسلم، وحسن إسلامه رحمه الله تعالى ورضي عنه والقصة معروفة عند أهل العلم[١].

وفي الحديث: «**دعوة أخي ذي النّون، ما دعا بها مكروب إلاَّ فرَّج الله عنه**»[٢]، سمَّاها دعوة وهي سؤال وطلب، وتوسّل بالتّوحيد.

والعراقي يقول: لا تُسمَّى دعاء، وإنَّما هي نداء.

وهذا ردٌّ على رسول الله، وتكذيب بآيات الله، وقول على الله بغير علم.

وفي «السنن» من حديث حصين بن عبد الرحمٰن الخزاعي: أنَّ النبي ﷺ قال له حين أسلم: «**كم كنت تعبد**»؟ قال: سبعة، واحد في السّماء وستة في الأرض، قال: «**فمن الذي تعدّ لرغبتك ورهبتك**؟ قال: الذي في السماء»[٣] ومن هذا الباب: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٥٩) و«السنن الكبرى» (٩/ ٢١٢) و(٨/ ٢٠٢ - ٢٠٥) انظر: «الإصابة».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٧٠)، والترمذي برقم (٣٦٤٣)، والنسائي في «الكبرى» برقم (١٠٣٩١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤١)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٥) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٣) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم (٣٦٢١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني»؟ والطبراني في «معجمه الكبير» (١٨/ ١٧٤)، و«الأوسط»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠﴾.. الآية [الأنعام: ٤٠]، وهذا الدّعاء ظاهر في دعاء المسألة حال الشّدة والضّرورة. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ...﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥]، وما زال أهل العلم يستدلُّون بالآيات التي فيها الأمر بدعاء الله، والنّهي عن دعاء غيره على المنع من مسألة المخلوق ودعائه بما لا يقدر عليه إلاّ الله، وكتبهم مشحونة بذلك، لا سيّما شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، اللذين يزعم هذا العراقي أنَّه على طريقتهما..

يوضِّح هذا: أنَّ ما لا يقدر عليه [إلاّ الله][(١)] من الأمور العامَّة الكليَّة، لهداية القلوب، ومغفرة الذّنوب، والنّصر على الأعداء، وطلب الرّزق من غير جهة معيَّنة، والفوز بالجنة، والإنقاذ من النَّار، ونحو ذلك، غاية في القصد والإرادة، فسؤاله وطلبه غاية في السؤال والطّلب، وفي ذلك من الذلّ، وإظهار الفاقة والعبودية ما لا ينبغي أن يكون لمخلوق، أو يقصد به غير الله تعالى، وهذا أحد الوجوه في الفرق بين دعاء المخلوق فيما يقدر عليه من الأسباب العادية الجزئية وبين ما تقدّم.

مع أنَّ سؤال المخلوق قد يحرم مطلقاً، ومسألة المخلوق في الأصل محرمة، وإنَّما أبيحت للضرورة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وثبت عنه ﷺ أنَّه بايع نفراً من أصحابه «**أن لا يسألوا الناس شيئاً**»[(٢)]، فكان أحدهم يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد: ناولنيه. وقد اشتهر عنه ﷺ: أنَّه منع من تعليق الأوتار والتمائم وأمر بقطعها، وبعث رسوله بذلك، كما في «السنن» وغيرها، وقال: «**من**

---

(١) الزيادة من «تحفة الجليس»، ولا زال الألوسي ينقل عنه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» برقم (٢٣٥٦) عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه.

تعلَّق شيئاً وكل إليه»[(١)]، بل نهى عن قول الرجل: «ما شاء الله وشئت»، وقال لمن قال له ذلك: «**أجعلتني لله نداً**»[(٢)]؟ ومنع من التبرّك بالأشجار والأحجار، وقال لأبي واقد الليثي وأصحابه من مسلمة الفتح لما قالوا له: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط: «**قلتم والذي نفسي بيده، كما قال بنو إسرائيل لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»[(٣)]، ونهى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٣١٠)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٠١٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» من حديث عبد الله بن عكيم، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢١٦) قال: أخبرنا. . . عن أخيه عيسى قال: دخلت على أبي معبد الجهني، وهو عبد الله بن عكيم، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٨٥) جزم أن أبا معبد الجهني هو عبد الله بن عكيم (٥/ ١٧٦).

قال في «المجمع»: رواه الطبراني في ترجمة معبد الجهني في الكنى، قال: وقد قيل إنه عبد الله بن عكيم.

قلت ـ أي الهيثمي ـ: فإن كان هو فقد ثبتت صحبته بقوله سمعت.

وفي إسناده محمد بن أبي ليلى، وهو سيّىء الحفظ وبقية رجاله ثقات.

قلت: ولكن للحديث شواهد منها حديث أبي هريرة كما في «السنن» للنسائي باب الحكم في السحرة، ومنها أيضاً حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه كما في «المسند» للإمام أحمد (٤/ ١٥٤). وقال الترمذي: وحديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، وعبد الله بن عكيم لم يسمع من النبي، وكان في زمن النبي ﷺ، يقول: كتب إلينا رسول الله.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»؟ وابن ماجه برقم (٢١٧٧) من حديث ابن عباس.

قال في «مصباح الزجاجة»: هذا إسناد فيه الأجلح بن عبد الله مختلف فيه، ضعّفه أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد، ووثقه ابن معين والعجلي ويعقوب بن سفيان، وباقي رجال الإسناد ثقات. . وله شاهد من حديث قتيبة رواه النسائي.

(٣) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم (٢٢٠٧)، وأبو داود الطيالسي في «مسنده» برقم (٥٣٤٧)، وابن حبان في «صحيحه» برقم (٦٥٨٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة»؟ باب غزوة حنين، وغيرهم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأبو واقد الليثي اسمه الحارث بن عوف. وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة.

عن الصلاة عند القبور، وإن لم يقصدها المصلِّي، ولعن من فعل ذلك، وأخبر أنَّهم شرار الخلق عند الله[١]، ونهى عن الذبح لله في مكان يذبح فيه لغيره[٢]، حسماً لمادة الشرك، وقطعاً لوسائله وسدًّا لذرائعه، وحماية للتوحيد، وصيانة لجانبه، فمن المستحيل شرعاً وفطرة وعقلاً، أن تأتي هذه الشريعة المطّهرة الكاملة بإباحة دعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم في الملمّات والمهمّات، كقول النصراني: يا والدة المسيح اشفعي لنا إلى الإلٰه، أو يا عيسى أعطني كذا وافعل بي كذا، وكذلك قول القائل: يا علي، أو يا حسين، أو يا عباس، أو يا عبد القادر، أو يا عيدروس، أو يا بدوي، أو فلان وفلان، أعطني كذا، أو أجرني من كذا، أو أنا في حسبك، ونحو ذلك من الألفاظ الشركيّة التي تتضمن العدل بالله والتسوية به تعالى وتقدس، فهذا لا تأتي شريعة ولا رسالة بإباحته قط، بل هو من شعب الشرك الظاهرة الموجبة للخلود في النار، ومقت العزيز الغفّار.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٧٢).
وأما لعن من اتخذ ذلك، فقد أخرج الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٨)، وأخرجه البخاري برقم (١٣٦٦)، ومسلم برقم (١١٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٣٠٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٥/ ٢٢) عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد النبي ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة، فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة، فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟» قال: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم»؟ قال: لا، قال النبي ﷺ: «أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم».
وصحّح إسناده ابن حجر في «بلوغ المرام» (١/ ٢٧٣ ـ ط دار المعرفة).

وقد نصّ على ذلك مشايخ الإسلام، حتى ذكره ابن حجر في «الإعلام» مقرراً له. وتأويل الجاهلين والميل إلى شبه المبطلين: هو الذي أوقع هؤلاء وأسلافهم الماضين، من أهل الكتاب والأميين في الشرك بالله ربّ العالمين. فبعضهم يستدل على شركه بالمعجزات[1] والكرامات، وبعضهم برؤيا المنامات، وبعضهم بالقياس على السّوالف والعادات، وبعضهم بقول من يحسِّن به الظنّ، وكلٌّ هذه الأشياء ليست من الشّرع في شيء، وعند رهبان النصارى وعبَّاد الصليب والكواكب من هذا الضرب شيء كثير.

وبعضهم أحذق من هذا العراقي وأمثاله، الذين لم يفهموا من العبادة، سوى الركوع والسُّجود، ولم يجدوا في معلومهم سواه، فأين الحب والخضوع، والتوكل والإنابة، والخوف والرجا، والرغب والرّهب، والطّاعة والتقوى، ونحو ذلك من أنواع العبادة الباطنة والظاهرة؟ فكلٌّ هذا عند العراقي يصرف لغير الله ولا يكون عبادة؛ لأنَّ العبادة ما فسر [ها هو] به فقط، بل عبادته في عدة مواضع تفهم أنَّ السجود لا يحرم إلا على من زعم الاستقلال، وقد رأينا كثيراً من المشركين، ولم نر مثل الرجل في جهله ومجازفته وبلادته، ولولا ما نقصده من انتفاع من اطّلع على هذا الكتاب[2]، لم نتعرَّض لرد شيء من كلامه، لظهور بطلانه.

ويزيد هذا ظهوراً ما جاء في الحديث من قوله ﷺ: **«من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته خدوشاً أو خموشاً في وجهه يوم القيامة»**[3]، وقوله ﷺ: **«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس على وجهه مُزعة**

---

(١) في ط: بالخوارق.

(٢) في «التحفة»: هذه الرسالة.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٦٤٥)، وقال: حديث ابن مسعود حديث حسن، وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير من أجل هذا الحديث، وعزاه في «مشكاة المصابيح» (١/ ٥١١) لأبي داود والنسائي وابن ماجه والدارمي.

لحم»[١]، وقوله ﷺ: **«من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسدّ فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك له بالغنى أو بموت عاجل أو غنى عاجل»**[٢]، وقوله ﷺ: **«لا تحل المسألة إلا لثلاثة: لذي غرم مفظع، أو فقر مدقع، أو لذي دم موجع»**[٣]، هذا في سؤال الخلق ما يقدرون عليه من الأسباب العادية الجزئية. فكيف ترى بما لا يقدر عليه إلا الله من الأمور العامة الكلية؟.

وعلى زعم هذا العراقي لا يكره شيء من ذلك، ولا يمنع منه لمن قصد الصالحين ودعاهم.

وقوله: على أنَّهم أرباب.

يريد به أنَّ دعائها ومسألتها بطريق التسبّب والشفاعة[٤] لا يضر[٥]. ومن بلغت به الجهالة والعماية إلى هذه الغاية، فقد استحكم على قلبه الضّلال والفساد، ولم يعرف ما دعت إليه الرّسل سائر الأمم والعباد، ومن له أدنى نهمة في العلم والتفات إلى ما جاءت به الرّسل يعرف أنَّ المشركين من كل أمة في كل قرن، ما قصدوا من معبوداتهم وآلهتهم التي عبدوها مع الله تعالى،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٢١٤)، ومسلم برقم (١٠٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٦٧٢)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٣٦٣)، وأبو داود برقم (١٦٤٦)، والبيهقي في «سننه الكبرى» (٦/ ١٧٢) وغيرهم من حديث ابن مسعود، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/٥٥٨)، وأبو داود برقم (١٦٤٢)، والترمذي برقم (٦٥٣)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/٣٦).
ومعنى مدقع: شديد يفضي بصاحبه إلى الدقعاء، وهو التراب ومفظع: شديد شنيع.
والدم الموجع: هو أن يتحمل الإنسان دية، فيسعى فيها حتى يؤديها إلى أولياء المقتول، فإن لم يؤدها قتل المتحمَّل عنه، فيوجعه قتله. انظر: «النهاية».

(٤) في «التحفة»: الساعة.

(٥) إلى هنا انتهى النقل من «تحفة الطالب والجليس..» ص (١٢٨).

إلا التسبّب والتوسّل والتّشفع، ليس إلا، ولم يدَّعوا الاستقلال والتّصرف لأحد من دون الله، ولا قاله أحد منهم، سوى فرعون والذي حاجَّ إبراهيم في ربه، وقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فهم في الباطن يعلمون أنّ ذلك لله وحده.

قال تعالى في بيان قصدهم ومرادهم بدعاء غيره: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨] الآية، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ [الزمر: ٤٣]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر تعالى: أنّهم تعلقوا على آلهتهم، ودعوهم مع الله للشفاعة والتقرُّب إلى الله بالجاه والمنزلة، وأحبّوهم مع الله محبة تأله وتعبد، لنيل أغراضهم الفاسدة، ولم يريدوا منهم تدبيراً ولا تأثيراً ولا شركة، ولا استقلالاً.

يوضحه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١، ٣٢]، وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]، وقوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ

ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦١ ـ ٦٣].

فتأمَّل هذه الآيات وما فيها من الحجج والبيِّنات تطلعك على جهل هذا العراقي وأمثاله، وأنَّهم ما عرفوا شرك المشركين، وما كانوا عليه من القصد والدِّين، ولم يعرفوا ما كان عليه أنبياء الله وأتباعهم من توحيد ربِّ العالمين، وتأمل كيف استدلَّ سبحانه وتعالى على توحيد إلهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له بما أقرَّ به الخصم، واعترف به من توحيد ربوبيته، واستقلاله بالملك والخلق والتَّأثير والتَّدبير، وهذه عادة القرآن دائماً يعرج على هذه الحجّة؛ لأنَّها من أكبر الحجج وأوضحها، وأدلّها على المقصود، فسبحان من جعل كلامه في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة والجلالة والفخامة، والدلالة والظهور، فأي شبهة بعد هذا تبقى للماحل المغرور؟

أيضاً فليس كل سبب يباح، بل من الأسباب ما هو محرم، وما هو كفر: كالسّحر، والتكهُّن. والغبي! يظن أنَّ الدَّليل يسلِّم له إذا أراد السّبب لا الاستقلال. وعبَّاد الكواكب وأصحاب النيرنجيَّات، ومخاطبات النّجوم، يرون أنَّها أسباب ووسائل نافعة، ويظنّونها كالأسباب العادية، وعبَّاد القبور والأنفس المفارقة يرون أن تعلُّق قلب الزائر وروحه بروح المزور سبب لنيل مقصوده، وتحصيل نصيب مما يفيض على روح ذلك المزور، كما ذكره الفارابي وغيره من عبَّاد الكواكب والأنفس المفارقة.

وقد قال بعض السلف: ما عبدت الشَّمس والقمر إلاَّ بالمقاييس[1].

---

(١) ذكره الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٤٦٦) عن أبي شبرمة. انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٤٧١)، وورد مثله عن ابن سيرين كما رواه ابن حزم في «الإحكام» (٨/ ٣٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٧٦). وبعده يبدأ نقل الألوسي من كتاب «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» ص (١٢٨).

وقد علَّق سبحانه الحكم بالكفر وإباحة الدَّم والمال بنفس الشِّرك، وعبادة غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، والفتنة: الشِّرك.

وقال تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ الآية [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

ومن المشتهر عندهم أنَّ تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بالعليّة، وهذا الأحمق! زاد في غير موضع من كتابه قيداً، فقال: لا يشرك إلاَّ من قصد واعتقد الاستقلال من دون الله، وفي تلبية المشركين في الجاهلية: لبّيك لا شرك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك[1]. فهؤلاء لم يدَّعوا الاستقلال، وعلى زعم هذا ليسوا بمشركين!

وأمَّا قوله: وإنَّ نداء الصالحين ليس بعبادة.. إلخ[2].

فهو من أدلِّ الأشياء على جهله، وعدم ممارسته لشيء من العلم وإن قلَّ، فإنَّ النِّداء: هو رفع الصَّوت بالدّعاء، أو الأمر أو النهي، ويقابله النجا: الذي هو المسارَّة وخفض الصَّوت، هذا بإجماع أهل اللغة، كما حكاه ابن القيم في «نونيته»، وشيخ الإسلام في «تسعينيته»، وليس قسيماً للدعاء، كما ظنه الغبي! قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [الكهف: ٥٢] الآية، فما فعلوه هو عين ما أمروا به، وكفى بهذه الآية حجة على إبطال قوله.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٢٧٦٨) عن ابن عباس قال: كان المشركون يقولون لبيك لا شريك لك، فيقول رسول الله ﷺ: «ويلكم قد قد» فيقولون... ثم ذكره.

(٢) في «التحفة»: وقوله: وهذا نداء لا دعاء.

وقال تعالى: ﴿أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [ص: ٤١]، ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [مريم: ٢، ٣]، وسمَّى هذا النداء دعاء في كتابه العزيز، قال عن نوح عليه السلام: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: ١٠]، وقال: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وفي الحديث: «**دعوة أخي ذي النّون، ما دعا بها مكروب إلاَّ فرَّج الله عنه**»، وفيه أيضاً: «**لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً**»[(١)]، يعني الشَّيطان الذي تفلَّت عليه ﷺ [من اللَّيل] وفيه: «**ألا أنبئكم بأوّل أمري وآخره؟ دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى**»[(٢)]، يشير بدعوة سليمان إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ الآية [ص: ٣٥]، وبدعوة إبراهيم إلى قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٢٩] فسمَّى هذه المسألة دعوة، والتَّاء فيها للوحدة، وقال معاذ رضي الله تعالى عنه في الطَّاعون: «إنَّه ليس برجز، إنَّه دعوة نبيِّكم، وموت الصَّالحين قبلكم، ورحمة

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٤٦٩٠)، ومسلم برقم (١١٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٤٣٥ ـ ط دار المعرفة) عن خالد بن معدان القلاعي أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى»، وكذلك أخرجه في «تاريخه» (٣/ ١٣٠).

وابن هشام في «السيرة» (١/ ١٧٥ ـ ط الحلبي). وهذا الإسناد مرسل.

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٠٠) موصولاً عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟.. فذكره. قال الحاكم: خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل، فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة، فإنه صحيح الإسناد، وإن لم يخرجاه. وأقره الذهبي.

ربكم»(١)، يشير إلى قوله ﷺ: **«اللَّهم اجعل فناء أمَّتي بالطَّعن والطَّاعون»**(٢)، فانظر هذه النّصوص وما أفادت من إطلاق اسم الدّعاء على المسألة والطّلب.

والحاصل: أنَّ المؤمن يكفيه أنَّ دعاء الموتى والغائبين لا يعرف عن أحد من أهل العلم والإيمان، الذين لهم لسان صدق في الأمة، ولم تأت به شريعة من الشرائع، بل المنقول عن جميع الأنبياء يرده ويبطله.

فإنَّ الله تعالى حكى أدعيتهم وتوجهاتهم، وما قالوه وأمروا به، وندب عباده إلى الاقتداء بهم، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقد أجمع المسلمون على ذمِّ البدع وعيبها، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: **«أنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإنَّ كل بدعة ضلالة»**(٣)، وهذا الوجه كاف في الجواب للاتفاق على

---

(١) «التمهيد» لابن عبد البر (٨/ ٣٧١ ـ ط الرسالة).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٧١)، والبيهقي في «الدلائل» وعزاه في «كنز العمال» برقم (٢٨٤٤٨) للبارودي عن أبي موسى الأشعري. وأخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (١٨٢٤٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» رواه أحمد والطبراني في «الكبير» ورجال أحمد ثقات.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود وابن ماجه في «سننه» برقم (٢٤٣)، =

وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة[١].

وقوله: ولو كان مطلق النّداء والطَّلب.. إلخ.

مناد على جهله وغباوته، إذ لم يقل أحد أنَّ مطلق النداء والطلب يكون دعاء عبادة، بل [المعلوم بالبداهة أنَّ دعاء العبادة هو] النداء بما لا يقدر عليه إلا الله، وطلب ذلك من حي أو ميّت، وهذا هو الذي قام الإجماع على تحريمه، فبطل جميع ما أورده من النصوص[٢]، فلا حاجة إلى إتعاب البنان بالكلام عليها. والله ولي التوفيق[٣].

* * *

= والدارمي برقم (٩٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٥/ ٩٢)، و«شعب الإيمان» (٦/ ٦٦ ـ ط العلمية) في فضل الجماعة والألفة، و«الاعتقاد»، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٥) وغيرهم.

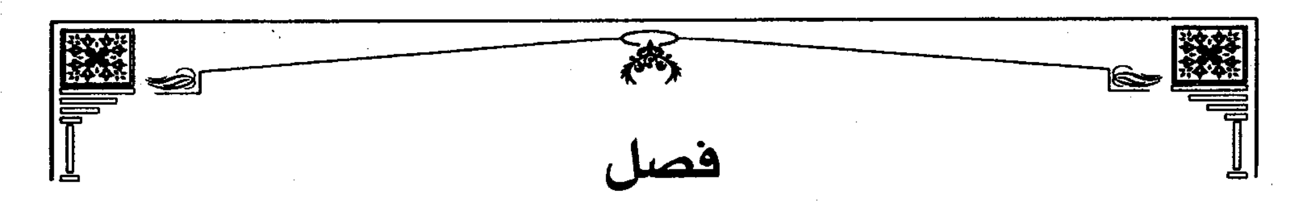
قال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٣٥/ ١٨): .. الحديث المشهور، هو صحيح.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ليس له علَّة.

(١) إلى هنا انتهى النقل من «التحفة» ص (١٣٧).

(٢) في ط: مما زعمه نصوصاً.

(٣) قال الشيخ الفقي رحمه الله: بل الفطر السليمة، والإنسانية العاقلة، تأبى كل الإباء أن تدعو غير الله أو أن تتخذ من دونه ولياً؛ لأنّ الكل خلقه، وهم جميعاً متساوون في هذا الخلق، أصلهم من تراب ثم من نطفة، ثم أجنة في بطون أمهاتهم، ثم مصوَّرون ومقرُّون بتدبير الله وقدرته وحكمته، والكل تحت قهره وتحت سننه الكونية، في جوع وعطش وتعب وراحة، ونوم ويقظة ومرض وصحة وحياة وموت: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، ولن يتخذ أنبياء أو أولياء أو شيئاً من الخلق على غير ذلك إلا كافر بسنن الله، مغيِّر لخلق الله، قاتل لإنسانيته، مميت لفطرته، فلا يكون الكلام مع هؤلاء أولاً إلا بعد بذل الجهد في إيقاظ إنسانيتهم، وبعث الحياة الفطرية فيهم بإنقاذهم من التقليد الأعمى الذي هو سبب كل هذا البلاء والكفر.



فصل

[العراقي لا يفرِّق بين توحيد الربوبيّة والألوهيّة]

قال العراقي[١]: الشّبهة الثّانية: أنَّهم قالوا: إنَّ المشركين الذين أُرسل لهم رسول الله ﷺ، كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية، وإنَّما أشركوا في العبادة فقط، وهي[٢] أنَّهم كانوا ينادون الأنبياء والصَّالحين..

ثم أجاب عن هذه الشبهة بمحض هذيان، وحاصل ما أجاب به: إنكار كون المشركين الذين أرسل إليهم رسُول الله ﷺ، كانوا يقرّون بتوحيد الرُّبوبية.

والجواب أن يقال:

أوَّلاً: لم يستدلّ أحد من المانعين بما ذكر على الوجه الذي قرَّره، وعلى فرض تسليم الاستدلال به لا يرد ما أورده بوجه من الوجوه، حيث إنّه لم يفرِّق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فلذا خبط خبط عشواء.

وإذا بسطنا ذلك يتبيَّن فساد قوله وبطلانه، حتَّى لصغار المتعلِّمين، فنقول وبالله التَّوفيق وبيده أزمَّة التَّحقيق: توحيد الربوبية هو الذي أقرَّت به الكفار جميعهم، ولم يخالف أحد منهم في هذا الأصل إلا الثنويَّة، وبعض المجوس، وأمَّا غيرهما من سائر فرق الكفر والشّرك، فقد اتفقوا على أنَّ خالق العالم ورازقهم، ومدبر أمرهم، ونافعهم وضارهم، ومجيرهم واحد، لا ربَّ ولا خالق، ولا رازق ولا مدبّر، ولا نافع ولا ضار، ولا مجير غيره،

---

(١) ص (١٢٤).

(٢) في «صلح الإخوان»: هي.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، ولا يستقيم التّوحيد للربوبية فضلاً عن توحيد الألوهية، إلا بتوحيد الصّفات المترتب على توحيد الذَّات؛ لأنَّ صفاته تعالى لا تشبه صفات المخلوقين، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

وأهل الكلام يسمُّون هذا النوع من التّوحيد: توحيد الأفعال، لما ذكره بعض المحققين: أنَّ صفة الربوبية تستلزم جميع صفات الفعل، وصفة الألوهية تستلزم جميع أوصاف الكمال والجلال.. إلى آخر ما قال.

وأمَّا توحيد الألوهية: فهو إفراد العبادة لله الواحد الصمد؛ لأنَّ «الإله» من يقصد للعبادة، ويعامل بما يجب على المكلّفين، من إفراد الإلٰه الحق به من سائر وجوه المعاملات، التي هي من العبادات المختصّة بإلٰه الأرض والسّموات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، والقرآن طافح من أمثال ذلك، [بل ما أنزل إلا لذلك].

ولا شكَّ أن من عبد غيره سبحانه وتعالى، فقد جعل ذلك الغير شريكاً لإلٰه الحق في إلٰهيّته، سواء سمَّاه إلهاً أم لم يسمِّه، فإنَّ هذا الفعل الصادر منه جعل واتخاذ، والله تعالى قد عبَّر عن شركهم هذا بالجعل والاتخاذ، فقال عز من قائل: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾، ﴿وَجَعَلُوا۟﴾، و﴿يَجْعَلُونَ﴾، إلى غير ذلك من صدور الآيات البينات التي ردّ الله عليهم بها.

إذا علمت هذا تبيَّن لك: أنَّ المعركة بين أهل التَّوحيد والمشركين في الألوهيّة فقط. وأنَّ أهل التّوحيد يفردونه سبحانه بحقوقها، والمشركون يجعلون بعضها لمن تألَّهوه من متخذاتهم ففرقوا دينهم، وقد أمروا بجعل[1] جميع [الدِّين] له كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، أي من شوائب الشّرك، وجميع الرّسل من أوّلهم إلى آخرهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته، وقد ردَّ الله سبحانه على من خالف هذا الأصل، وحكم على الوصل بحكم الفصل، وهم المشركون الذين وحَّدوه بالرّبوبيّة، وأشركوا به في الألوهية توحيدهم، فأقامه حجّة بالغة، وسلطاناً مبيناً قامعاً للشرك في الألوهية، موجباً لإفراده فيها أيضاً، وأنَّه ينبغي أن لا يعبد غيره كما أنَّه لا خالق غيره ولا رب سواه.

فقد تبيَّن لك أنَّ أكثر المشركين كانوا مقرين بتوحيد الرّبوبيّة، وإنَّما أشركوا في الألوهية، وعلى ذلك كتب العقائد [السلفية] والحديث والتَّفسير، والحكم باتحاد التوحيدين[2] نشأ من جهل هذا العراقي أو [لكتاب الله وسنَّة رسوله، وتقليده الأعمى للذين زعموا أنفسهم علماء ومؤلفين من المقلدين أمثاله، الذين كل مؤلفاتهم أو أكثر ما فيها ضلال وبُعد عن الهدى، أو نشأ من] حبه لضلاله و[اتباعه] هواه، ومخالفته لما جاءت به الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولربَّما اعتقد أنَّ أفعال إخوانه ومن على شاكلته ليس مشركاً في الألوهية ولا عبادة لغير الله، نبأ[3] على تصديقهم بالرسول، وما جاء به من عند الله تعالى.

---

(١) في الأصل: بجعلهم الجميع.
(٢) في ط: التوحيد.
(٣) كذا في الأصل، ولعلها بناءً.

فيقال له: لا يفيد ذلك [الزعم الكاذب] مع إظهار الأعمال الشّركية [الدالة على عقيدة الشّرك] وما يصادم ما جاء به الرّسُول ﷺ، وذلك كمن صدق بما ذكر ثم شد الزنار.

وإن تصلَّف هذا العراقي وادعى أنَّ أفعال إخوانه عبدة القبور، لا تشبه أفعال المشركين، فتلك عبادة وأفعال إخوانه ليس بعبادة.

يقال له: إنَّك لم تفهم [ما] معنى العبادة. وهي على ما سبق: اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالتّوحيد، فإنَّه عبادة في نفسه، والصّلاة والزكاة والحج وصيام رمضان، والوضوء وصلة الأرحام وبرّ الوالدين، والدّعاء والذّكر والقراءة وحبّ الله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدّين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكّل عليه، والرّجاء لرحمته والخوف من عذابه، والاستغاثة به، وغير ذلك مما رضيه وأحبّه، فأمر به وتعبَّد الناس فيه، وأنت خبير بأن العراقي ومن وافقه من أتباع الشَّيطان وعبدة القبور، إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم، في برٍّ أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع ولا يرى ولا يسمع، فمنهم من يدعو الخضر وإلياس، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس. ومنهم: من يستغيث بأحد الأئمة.

ومنهم: من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة، ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه بتضرعه ودعاه، ولا يكاد يمر له ببال، أنّه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، والله سبحانه أخبر عن المشركين، أنَّهم إذا أصابتهم شدة دعوا الله مخلصين له الدِّين، ولا يدعون غيره تعالى في تلك الحالة، فبالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين أهدى سبيلاً؟ وأي الداعيين أقوم قيلاً؟ وإلى الله سبحانه المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضَّلالة، وغرقت سفينة الشّريعة، واتخذت الاستغاثة بغير

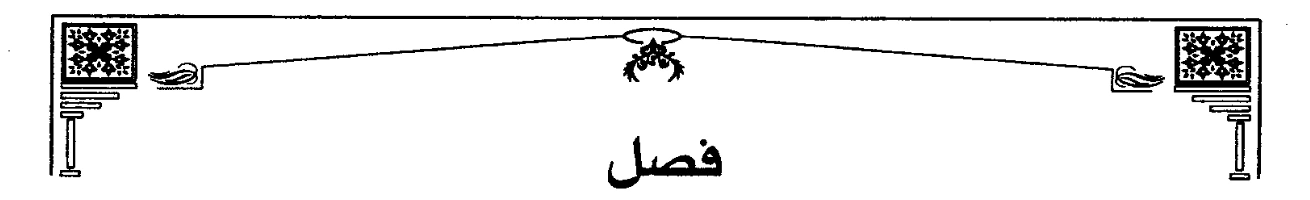
الله تعالى للنجاة ذريعة، وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف، وحالت دون النّهي عن المنكر صنوف الحتوف.

ثم إنَّ العراقي ـ عامله الله بعدله ـ كأنَّه لم يشتمَّ رائحة العلم، ولا قرأ مقدماته، حتى حكم باتحاد الرّب والإله في المفهوم، توهُّماً منه أنَّ الاتحاد في الماصدق[1] يستلزم الاتحاد في المفهوم، وأنَّ التَّرادف يستلزم التّساوي، وهذا جهل بالنّسب بين الألفاظ، وما كفاه هذا الخبط العظيم، حتى أخذ يتكلَّم على أهل الحق بكلام [لا يصدق إلا عليه][2]. ويثبت صفته المذمومة لغيره، فتبّاً لشيبته الضالة، وسحقاً له من رجل لم تحنّكه التَّجارب.

* * *

(١) كذا في ط، والأصل. ولعل الصواب المقاصد.

(٢) في الأصل: صادق عليه.



فصل

[تفسير الإله عند العراقي وبناؤه الخاطئ عليه]

قال العراقي[١]: الشّبهة الثّالثة: أنّهم قالوا: الإله ما تألهه القلوب محبة ورجاء وخوفاً وتوكلاً، وبنوا على هذا، أنّ من أحبَّ النّبي ﷺ والصّالحين، وخافهم ورجاهم فقد اتّخذ إلهاً، وظاهر قولهم هذا: أنَّ مجرَّد هذا التألّه يكون كفراً ـ والعياذ بالله ـ. ثم هذى في الجواب عن هذه الشّبهة بما تود أذن المؤمن [أن تكون] عنه صمّاء.

ومن جملة ما قال: أمّا الإله فهو المعبود بحق، أو باطل. والعبادة عبارة عن الانقياد والطّاعة، بأنواع ما يتقرَّب به العابدون، كالسّجود والركوع والذّبح تقرباً لذات المذبوح له، من غير ما يأمر الله به ورسوله، مع اعتقاد ربوبيته[٢] كالأصنام مثلاً، وأمّا الطّاعة والانقياد من غير السّجود والرّكوع لغير الله تعالى من الأنبياء والعلماء في غير معصية الله، فليس من العبادة؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] إلى آخر كلامه.

والجواب أن يقال:

إنَّ هذا العراقي قد خلع ـ والعياذ بالله ـ جلباب الحياء عنه، ولم يراقب[٣] وقوفه بين يدي مولاه جلّ شأنه وعزّ علاه، فأخذ يتكلّم ما خطر على

(١) ص (١٣١).

(٢) مع اعتقاد ربوبيته. ليست في «صلح الإخوان».

(٣) في ط: يراع.

قلبه، وألقاه شيطانه على لسانه، ولم يستح من تكذيب النَّاس له، حتى إنَّه قد حدَّثني بعض من أثق به، أنَّ هذا الضال المبتدع قد أخبره بخبر ظهر كذبه للعيان، فلمَّا عاتبه على هذا الكذب، قال له: لأي شيء تعاتبني على الكذب، والحال أنَّ الأنبياء يكذبون!! انظر إلى تجاسر هذا المفتري وإلى أيِّ درجة وصل، وإلى ضلاله إلى أيِّ حد انتهى؟

وما كفاه الافتراء على المؤمنين، حتى ترقى إلى القدح برسُل رب العالمين!! فعياذاً بك اللّهم من هذا البلاء العظيم، وكم كان يقصُّ في مجالسه على ضعفاء العقول من العوام قصصاً تقشعرُّ منها جلود العقلاء، وكان يخبرهم أنَّ القيامة تقوم سنة خمس وتسعين بعد المئتين والألفْ، ويبرهن لهم على ذلك، فلمَّا مضى الوقت الذي عيَّنه لهم تغافل عنه، وربما أبدى لهم بعض الأعذار الباردة، فمن كانت هذه صفته كيف يستحي من الافتراء على أناس أظهروا شركه للعيان، وكفره بالبرهان.

وأعجب من هذا تَقَوُّل أمثال هذا العراقي من المبتدعة والغلاة على أهل الحق، القاصرين الألوهية على خالق الخلق، أنهم ينتقصون الرسُول الأكرم والنّبي الأعظم ﷺ، وينسبون إلى جنابه ما لا يليق بأعتابه، وكذا ينسبونهم إلى الإنكار على خُلَّص عباد الله وبعض الأولياء، وأهل الانتباه، سبحان إلٰه الخلق ما أحلمه؛ وما أجل سلطانه وما أعظمه، لا إلٰه إلا أنت، تعاليت عمّا يقول الظّالمون علوًّا كبيراً.

فاستمع ما كتبه الشيخ عبد الله ابن العلاّمة الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب ـ تغمدهم الله تعالى برحمته ـ حين ذهاب الأمير محمد بن سعود ـ عليه الرحمة ـ لفتح الحرمين الشريفين، وقد قرأ هناك بمحضر علماء المذاهب الأربعة، على ما في كتاب «إتحاف النبلاء في تراجم المحدثين والفقهاء» عند ترجمة العلاّمة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، وذلك قوله:

إنَّ مذهبنا في أصول الدين: مذهب أهل السنّة والجماعة، وطريقتنا: طريق السلف التي هي الطريق الأسلم، بل الأحكم، خلافاً لمن قال: طريقة الخلف أتقن، وهي أنّا نقرُّ آيات الصّفات والأحاديث على ظاهرها، ونكل معناها إلى الله تعالى، كما قال مالك في الاستواء.

ونعتقد أنَّ الخير والشرّ كله بمشيئة الله تعالى، ولا يكون في ملكه إلاَّ ما أراد، وأنَّ العبد لا يقدر على خلق أفعاله، بل له كسب يترتب عليه الجزاء. والثَّواب فضل، والعقاب عدل، ولا يجب على الله لعبده شيء، وأنَّه يراه المؤمنون في الآخرة بلا كيف ولا إحاطة.

ونحن أيضاً بالفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا ننكر على من قلَّد أحداً من الأئمة الأربعة دون غيرهم، لعدم ضبط مذهب الغير، كالرافضة والزيدية والكراميّة ونحوهم، ولا نستحق لمرتبة الاجتهاد المطلق، ولا أحد علينا يدَّعيها، إلا أنَّنا في بعض المسائل إذا صحَّ لنا نصٌّ جلي من كتاب أو سنّة غير منسوخ ولا مخصّص ولا معارض بأقوى منه، وقال به أحد الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب، كإرث الجدِّ والإخوة، فإنا نقدِّم الجد بالإرث، وإن خالف مذهب الحنابلة، ولا نفتّش على أحد من مذهبه. ولا نعترض عليه إذا اطّلعنا على نصٍّ جليٍّ مخالف لمذهب أحد الأئمة، وكانت المسألة مما يحصل به شعار ظاهر كأمر الصلاة، فإنَّا نأمر الحنفيّة والمالكيّة مثلاً بالمحافظة على نحو الطّمأنينة بالاعتدال والجلوس بين السّجدتين؛ لوضوح دليل ذلك، بخلاف جهر الإمام الشافعي بالبسملة فلا نأمره بالإسرار، وشتّان بين المسألتين، فإذا قوي الدليل أرشدناهم من نصٍّ، وإن خالف المذهب، وذلك إنَّما يكون نادراً، ولا مانع من اجتهاد في بعض المسائل دون بعض، فلا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد المطلق، وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى اختيارات لهم في بعض المسائل،

مخالفين للمذهب الملتزمين لتقليد صاحبه، ثم إنا نستعين على فهم كتاب الله بالتفاسير المتداولة المعتبرة، ومن أجلها لدينا «تفسير» ابن جرير، و«مختصره» لابن كثير. وكذا البغوي والبيضاوي، والخازن والحدَّادي والجلالين وغيرها.

وعلى فهم الحديث بشروح للأئمة المبرِّزين، كالعسقلاني والقسطلاني على البخاري والنووي على مسلم، والمناوي على «جامع الصغير»[١].

ونحرص على كتب الحديث، خصوصاً الأمهات الست وشروحها، ونستعين بسائر كتب المذاهب في سائر الفنون، أصولاً وفروعاً وقواعد وسراً ونجوى[٢]، وصرفاً.

وجميع علوم الآلة ولا نتلف شيئاً من المؤلفات أصلاً، إلا ما اشتمل على ما يوقع النّاس في الشّرك، «كروض الرّياحين»، أو يحصل بسببه خلل في العقائد كعلم المنطق، على أنّا لا نفحص عن مثل ذلك، إلا إن تظاهر به صاحبه معانداً وما اتّفق عليه بعض البدو في إتلاف بعض كتب أهل الطّائف، إنَّما صدر منه لجهله، وقد زجر هو وغيره عن مثل ذلك، ولا نرى سبي العرب، ولم نفعله ولا نقاتل غيرهم، ولا نرى قتل النساء والأطفال.

وأمَّا ما يكذب علينا ستراً للحق وتلبيساً على الخلق، بأنّا نفسّر القرآن برأينا، ونأخذ من الحديث ما وافق فهمنا، من دون مراجعة شرح ولا معول على شيخ، وأنا نضع من رتبة نبينا ﷺ لقولنا النّبي رمّة في قبره، وعصا أحدنا أنفع له منه، وليس له شفاعة وأن زيارته غير مندوبة، وأنه كان لا يعرف معنى لا إلٰه إلا الله، حتى أنزل عليه. وإنَّا لا نعتمد أقوال العلماء، ونتلف مؤلَّفات

---

(١) كذا في الأصل وشرح المناوي، هو «فيض القدير»، وهو مطبوع وتوجد منه نسخة خطية باسم «فتح القدير».

(٢) كذا في الأصل.

أهل المذاهب، لكون الحقّ والباطل فيها، وأنَّا مجسِّمة، وأنَّا نكفِّر الناس على الإطلاق، أهل زماننا ومن بعد الست مئة إلا من هو على ما نحن عليه.

ومن فروع ذلك: أنَّا لا نقبل بيعة أحد، إلاَّ إذا أقرَّ عليه بأنَّه كان مشركاً، وأن أبويه ماتا على الشرك بالله، وأنَّا ننهى عن الصّلاة على النبي ﷺ ونحرِّم زيارة القبور المشروعة مطلقاً، وأنَّا لا نرى حقاً لأهل البيت، وأنَّا نجبرهم على تزويج غير الكفؤ لهم، وأنَّا نجبر بعض الشيوخ على فراق زوجته الشابة، لتنكح شاباً بلا مرافعة[1] لدينا ولا وجه لذلك.

فجميع هذه الخرافات وأشباهها لمَّا استفهمنا عنها من ذكرنا، كان جوابنا عليه في كل مسألة: سبحانك هذا بهتان عظيم، فمن روى عنَّا شيئاً من ذلك، أو نسبه إلينا فقد كذب علينا وافترى، ومن شاهد حالنا وحضر مجالسنا، وتحقَّق ما عندنا، علم قطعاً أنَّ جميع ذلك وَضَعه علينا وافتراه أعداء الدين، وإخوان الشَّياطين، تنفيراً للنّاس عن الإذعان لإخلاص التّوحيد لله تعالى بالعبادة، وترك أنواع الشرك الذي نصَّ الله على أن لا يغفره، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فإنَّا نعتقد أنَّ من فعل أنواعاً من الكبائر، كالقتل للمسلم بغير حق، والزّنى والرّبا وشرب الخمر، وتكرَّر منه ذلك، لا يخرج بفعل ذلك عن دائرة الإسلام، ولا يخلَّد في دار الانتقام، إذا مات موحداً لله تعالى، في جميع أنواع العبادة.

والذي نعتقد أنَّ رتبة نبينا ﷺ أعلى مراتب المخلوقين على الإطلاق، وأنَّه حيٌّ في قبره حياة مستقرّة، أبلغ من حياة الشّهداء المنصوص عليها في التَّنزيل، إذ هو ﷺ أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلام من يسلّم عليه، وتُسنُّ زيارته، إلا أنَّه لا تشد الرّحال إلا لزيارة المسجد والصّلاة فيه، وإذا

---

(١) في الأصل: مرافقه، وصححت في الحاشية، وفي ط: موافقه.

قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس، ومن أنفق أنفس أوقاته بالصَّلاة عليه الواردة عنه، فقد فاز بسعادة الدَّارين وكُفي همّه وغمّه، كما جاء في الحديث، ولا ننكر كرامات الأولياء، ونعترف لهم بالحق وأنَّهم على هدى من ربّهم، مهما ساروا على الطّريقة الشرعيَّة والقوانين المرعيَّة، إلا أنَّهم لا يستحقُّون شيئاً من أنواع العبادة، لا حال الحياة ولا بعد الممات، بل نطلب من أحدهم الدُّعاء في حال الحياة، بل ومن كل مسلم، فقد جاء في الحديث: «**دعاء المرء مستجاب لأخيه..**» إلى آخره.

ونثبت الشّفاعة لنبينا ﷺ يوم القيامة حيثما ورد، وكذا سائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حيثما ورد أيضاً، ونسألها من الله تعالى المالك لها والآذن فيها لمن شاء من الموحِّدين، الذين هم أسعد الناس بها، كما ورد بأن يقول أحدنا متضرِّعاً إلى الله تعالى: اللّهم شفِّع نبينا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة، أو عبادك الصّالحين، أو ملائكتك، ونحو ذلك.

ولا يلزم أن نكون مجسِّمة وإن قلنا بالجهة، كما ورد الحديث بها، ونقول فيمن مات: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤]، ولا نقول بكفر من صحَّت ديانته، واشتهر صلاحه وعلمه وورعه وزهده، وحسنت سيرته، وبالغ في نصح الأمة وإن كان مخطئاً في هذه المسألة أو غيرها، كابن حجر الهيتمي المكي، فإنَّا نعلم كلامه في «الدر المنظم» ولا ننكر سعة علمه، ولهذا نعتبر ما بقي من كتبه كـ«شرح الأربعين» و«الزواجر» وغيرها ونعتمد على نقله.

هذا ما نحن عليه مخاطبين من له عقل وعلم(١)، وهو متَّصف

---

(١) في ط: دين.

بالإنصاف، خال عن الميل إلى التعصُّب والاعتساف، ينظر إلى ما يقال لا إلى من قال.

وأمَّا من شأنه لزوم مألوفه وعادته، سواء كان حقاً أو غير حق مقلداً، فهو ممن قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، عادته وجبلَّته أن يعرف الحقَّ بالرِّجال لا الرِّجال بالحق، فلا نخاطبه وأمثاله، فجنود التوحيد بحمد الله منصورة وراياتهم بالسعد والإقبال منشورة. انتهى كلامه ملخصاً.

[في فوائد الصلاة على النبي ﷺ][1]:

وقال الإمام الحافظ العلاّمة الشَّهير بابن القيِّم ـ عليه الرّحمة ـ في كتابه «جلاء الأفهام في الصّلاة على خير الأنام»[2]، في باب تعداد فوائدها وثمراتها، وهو أحد الأئمة المانعين [من] الاستغاثة بغير الله ودعاء غيره سبحانه، على خلاف ما يزعم هذا العراقي ما نصّه:

الفائدة الثالثة والثّلاثون: أنّها ـ يعني الصَّلاة على النَّبي ﷺ ـ سبب لدوام محبّته للرّسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتمُّ إلاّ به؛ لأنَّ العبد كلَّما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبّه، تضاعف حبّه له وتزايد شوقه، واستولى على جميع قلبه، وإذا أعرض عن ذكره وإحضاره وإحضار محاسنه بقلبه، نقص حبّه من قلبه، ولا شيء أقر لعين [العبد][3] المحب من رؤية محبوبه، ولا أقر لقلبه من ذكره وإحضاره وإحضار محاسنه، فإذا قوي هذا في

---

(١) زيادة توضيحية.

(٢) ص (٦١٦).

(٣) زيادة من «جلاء الأفهام».

قلبه، جرى لسانه بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، ويكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحبُّ ونقصانه في قلبه، والحسُّ شاهد بذلك، حتى قال بعض الشعراء[١] في ذلك:

عَجِبتُ لمن يَقُولُ ذَكَرتُ حبي   وَهَلْ أنسى، فأذكُرُ ما نَسِيتُ

فتعجَّب هذا المحب ممن يقول: ذكرت محبوبي؛ لأنَّ الذِّكر يكون بعد النِّسيان، ولو كمل حب هذا لما نسي مِحبوبه، وقال آخر:

أريد لأنْسَى ذِكْرَها، فكأنَّما   تمثَّل لي ليلى بكلّ طريق[٢]

فهذا أخبر عن نفسه أنَّ محبَّته لها مانعٌ له من نسيانها.

وقال آخر[٣]:

يُرادُ من القَلْب نِسيانُكُم   وتأبى الطباع على النّاقِلِ

فأخبر أنَّ حبَّهم وذكرهم قد صار طبعاً له، فمن أراد منه خلاف ذلك، أبت عليه طباعه أن تنتقل عنه، والمثل المشهور: من أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره، وفي هذا الجناب الأشرف أحق ما أنشده:

لو شُقَّ عن قلبي رأى[٤] وَسْطه   ذكرك والتَّوحيد في سطر[٥]

فهذا قلب المؤمن: من توحيد الله وذكر رسوله مكتوبان فيه، لا يتطرَّق

---

(١) هو الشبلي كما في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٧٥ ـ ط دار الفكر) للغزالي.

(٢) فوقها تصحيح: سبيل وفي «جلاء الأفهام»: سبيل. وقائل هذا البيت هو كثيِّر. «ديوان كثيِّر» ص (١٧٦).

(٣) هو: أبو الطيب المتنبي.

(٤) في «جلاء الأفهام»: ففي.

(٥) القائل هو العباس بن الأحنف.

إليهما محو ولا إزالة، ولما كانت كثرة ذكر الشيء موجبة لدوام محبته، ونسيانه سبباً لزوال محبته وإضعافها، وكان الله سبحانه هو المستحقُّ من عباده نهاية الحبّ، مع نهاية التَّعظيم، بل الشّرك الذي لا يغفره الله تعالى، هو أن يشرك به في الحب والتَّعظيم فيُحبُّ غيره، ويُعظِّم من المخلوقات [غيره][1] كما يحب الله ويعظِّمه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر سبحانه أنَّ المشرك يحبّ النّد كما يحب الله، وأنَّ المؤمن أشد حبًّا لله من كل شيء.

وقال أهل النار في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ومن المعلوم أنَّهم إنَّما سوَّوهم به سبحانه في الحب والتأله والعبادة، وإلا فلم يقل أحد قط: إنَّ الصنم أو غيره من الأنداد مساو لرب العالمين في صفاته وفي أفعاله، وفي خلق السّموات والأرض، وفي خلق عباده أيضاً، وإنَّما كانت التَّسوية في المحبة والعبادة.

وأضلّ من هؤلاء وأسوأ حالاً، من سوَّى كلَّ شيء بالله سبحانه في الوجود، وجعله وجود كل موجود، كامل أو ناقص، فإذا كان الله قد حكم بالضَّلال والشَّقاء لمن سوَّى بينه وبين الأصنام في الحب ـ مع اعتقادهم تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذَّات والصّفات والأفعال ـ فكيف بمن سوَّى الله في الموجودات في جميع ذلك، وزعم أنَّه ما عبد غير الله في كل معبود. انتهى ما هو المقصود.

فقد تبيَّن لك من جميع ما نقلنا أنَّ محبة الرسول ﷺ، فرض عين على

---

(١) زيادة من «جلاء الأفهام».

كل مؤمن ومؤمنة، ومن انتفى عنه الحب انتفى عنه الإيمان، وأما الغلو في المحبة كما غلت النصارى في المسيح بأن يثبت للرسول عليه الصلاة والسلام خصائص الألوهية، بأن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله مما أسلفنا غير مرة، وكذا سائر الأنبياء والصّلحاء، فقد ذكرنا في عدّة مواضع من هذا الكتاب أن ذلك من الأفعال الشّركيّة، التي جاء الرّسول بإبطالها ومحوها.

ومحبة الرّسول ﷺ في امتثال أوامره، لا في مخالفته ومضادته[1]: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، ونهى الله عن الغلو فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] إلى ﴿ٱلْحَقَّ﴾.

والقرآن مملوء من إبطال أن يكون في المخلوقات من يشبه الرّب تعالى، أو يماثله في شيء من صفات الألوهيّة وخصائصها، فهذا هو الذي قصد بالقرآن إبطال لما عليه المشركون، والمشبِّهون العادلون بالله غيره، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلاً للخالق والند الشّبه، يقال: فلان ند فلان ونديده أي مثله. ومنه قول حسّان:

أتهجوه ولست له بند ... فشركما لخيركما الفداء

ومنه قول النبي ﷺ لمن قال له: ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله ندًّا**»[2].

وقال جرير:

أأنتم تجعلون إليَّ ندًّا ... وما أنتم لذي حسبٍ نديدُ

(١) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٦١).

(٢) تقدم.

وقال ابن مسعود وابن عباس: لا تجعلوا لله أكْفاء من الرّجال، تطيعونهم في معصية الله.

وقال ابن زيد: الأنداد الآلهة التي جعلوها معه.

وقال الزجّاج: أي لا تجعلوا لله أمثالاً. فالذي أنكره الله سبحانه عليهم تشبيه المخلوق به، حتى جعلوه ندًّا لله، يعبدونه كما يعبدون الله، وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، فأنكر هذا التَّشبيه عليهم، وهو أصل عبادة الأصنام، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، أي يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلاً وشبهاً. قال ابن عباس: يريد عدلوا بي من خلقي الحجارة والأصنام، بعد أن أقرُّوا بنعمتي وربوبيتي.

وقال الزجّاج: أعلم الله سبحانه أنه خالق ما ذكر في هذه الآية، وأن خالقها لا شيء مثله، واعلم أنَّ الكفار يجعلون له عديلاً، والعدل: التسوية، يقال: عدل الشيء بالشيء إذا ساواه، ومعنى يعدلون به يشركون به غيره..

ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبِّهين إنَّهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، فاعترفوا أنَّهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه، إذ جعلوا لله تعالى شبهاً وعدلاً من خلقه، سووهم به في العبادة والتعظيم، والله سبحانه أجل وأعظم، وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلِّهم.

ولكن المشبِّهون المشركون يغلون فيمن يعظِّمونه، فيشبِّهونه بالخالق..

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فتأمَّل كيف ذكر هذا النفي تقريراً للتوحيد وإبطالاً لما عليه أهل الشرك،

من تشبيه آلهتهم وأوليائهم به، حتى عبدوهم[(١)] معه، فحرَّفها المحرِّفون وجعلوها ترساً لهم في نفي صفات كماله وحقائق أسمائه وأفعاله.

وهذا التَّشبيه الذي أبطله الله سبحانه نفياً ونهياً: هو أصل شرك العالم وعبادة الأصنام، ولهذا نهى النّبي ﷺ أن يسجد أحد لمخلوق مثله، ويحلف بمخلوق، أو يصلِّي إلى قبر، أو يتَّخذ عليه مسجداً، أو يعلِّق عليه قنديلاً، أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان. ونحو ذلك، حذراً من هذا التّشبيه الذي هو أصل الشّرك.

وأمَّا إثبات صفات الكمال فهو أصل التَّوحيد.

فتبيَّن أنَّ المشبّهة هم الذين يشبِّهون المخلوق بالخالق، في العبادة والتعظيم والخضوع والحلف به، والنذر له والسّجود له، والعكوف عند بيته، وحلق الرأس له والاستغاثة به والتّشريك بينه وبين الله تعالى في قولهم: ليس [لي] إلا الله وأنت، وأنا متكل على الله وعليك، وهذا من الله ومنك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما شاء الله وشئت، وهذا لله ولك وأمثال ذلك، فهؤلاء هم المشبِّهة حقًّا، لا أهل التَّوحيد المثبتون لله ما أثبته لنفسه، والنَّافون عنه ما نفاه عن نفسه، الذين لا يجعلون لله ندًّا من خلقه، ولا عدلاً ولا كفواً ولا شبيهاً[(٢)]، وليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع.

فمن تدبَّر هذا الكلام[(٣)] حقَّ التدبير، تبيَّن له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام، وتبيّن له سرّ القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبِّهة الممثِّلة، ولا سيِّما إذا جمعوا إلى هذا التَّشبيه تعطيل الصِّفات والأفعال، كما هو الغالب عليهم، فيجمعون بين تعطيل الرّب سُبحانه عن صفات كماله،

(١) في الأصل: عبدوه، والصواب ما أثبت.
(٢) في «إغاثة اللهفان»: ولا سميًّا.
(٣) في «إغاثة اللهفان»: الفصل.

وتشبيه خلقه به[١]. ولو رضي لنا جلَّ شأنه أن نثبت لنبيّه ﷺ ما اختصَّ به، لأسرعنا في امتثال أمره، كما قال العلاّمة ابن القيّم عليه الرّحمة:

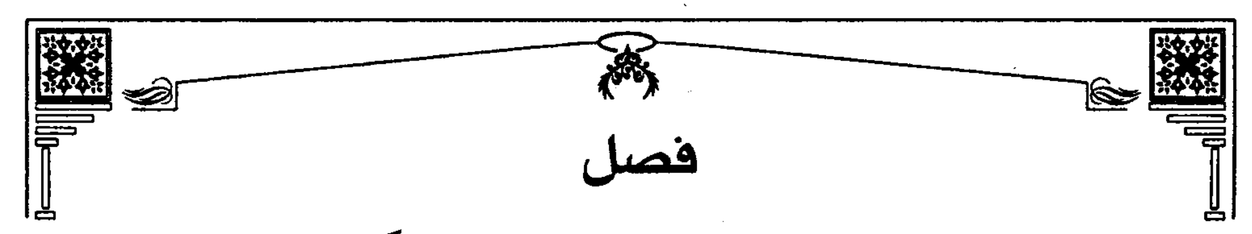
واللَّه لو يرضى الإلٰه سجودنا كنا نخرُّ له على الأذقان[٢]

فبطل كلَّ ما أورده العراقي بحمد الله، فلا نتعب القلم بنقله والتكلّم عليه، ومن أُعطي قلباً سليماً وبصيرة ليس عليها حجاب الغفلة، اكتفى بما ذكرنا. والله ولي التوفيق.

* * *

(١) هذا النقل من قوله: والقرآن مملوء. بتمامه من «إغاثة اللهفان» (١/ ١٦٣) لابن القيم.

(٢) في «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» ص (٢١٥ ـ ط دار عالم الفوائد) رقم البيت (٤٠٣٧)، والبيت فيه: والله لو يرضى الرسول بدل الإله.



فصل

[استدلاله بآيات وأحاديث في الشَّفاعة وجعلها عامة في الحياة والممات]

قال العراقي[(١)]: الشّبهة الرابعة: أنَّ الشَّفاعة لا تطلب من أحد؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، قالوا: فلا يجوز طلب الشَّفاعة لا من النَّبي ولا من غيره؛ لأنَّ الشَّفاعة وإن وجدت من غيره تعالى فهي بإذنه.

قال[(٢)]: والجواب: أنَّ هذه الآية واردة في الأصنام من أحجار وأخشاب يعتقد الكفار أنَّها أرباب؛ قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾[(٣)] [الأنعام: ٩٤]. . إلى آخر ما قال.

والجواب أن يقال:

إنَّ العراقي قد جرى على عادته السَّابقة أيضاً، من الافتراء والكذب والبهت الذي هو ديدنه، يظهر ذلك مما سنقرِّره إن شاء الله تعالى.

فنقول: إنَّ المانعين قد أطالوا الكلام في هذا المقام، فاللاّزم تحرير ملخّص ما ادّعوه، وأقاموا الدّليل عليه، ثم ذكر ما أجابوا به عن دلائل المجيزين، فأقول وبالله أستعين:

---

(١) ص (١٣٦).

(٢) أي: العراقي.

اعلم أنَّ الحاصل من متفرِّقات أقوالهم، أنَّه يجب إفراد الله سبحانه وتعالى بعبادته وتوحيده في معاملته؛ لأنَّ الله سُبحانه أرسل نبيّنا محمّداً ﷺ داعياً إلى الله ناهياً عن عبادة غيره، وأنزل عليه كتاباً مبيناً، بيَّن فيه أحوال المشركين، وما كانوا عليه من الشّرك بإله العالمين، وكان شركهم أن نصبوا أصناماً اعتقدوها مقرِّبة لهم عند الله، إمّا لكونها على صور ملائكته، وإمّا لكونهم اعتقدوا أنَّ الله سبحانه قد شرَّفها بذواتها، كما شرَّف الكعبة، وإما لكونها صور أنبياء، كما هو معلوم عند النّاظرين السّابرين لأحوال المشركين، أنَّ منهم من عبد المسيح، ومنهم من عبد عُزيراً، ومنهم من عبد أناساً صالحين، كما قالوا في اللات ـ في قراءة من شدَّد التاء ـ أنَّه كان رجلاً يلتُّ السويق، فيطعمه للحجيج بمكة، وأنَّهم عبدوها مع الله سبحانه وقد كانت عندهم بقيَّة من دين إبراهيم الخليل ﷺ، فكانوا يحجُّون ويلبُّون ويستغفرون ويطعمون الطّعام، ويستعملون أخلاق الكرام، وكانوا أيضاً يفردون الله سبحانه بالخلق والرّزق وملك السموات والأرض، وبملك السّمع والأبصار، وأنَّه يجير ولا يجار عليه، إلى غير ذلك مما أخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز، بقوله عزَّ من قائل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله سبحانه: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]، وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن

تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠، ٦١] أيُّ إلٰه مع الله فعل ذلك؟ وهذا استفهام إنكار، وهم مقرون بأنَّه لم يفعل هذا إلٰه آخر مع الله، ومن قال من المفسِّرين: إنَّ المراد هل مع الله إلٰه آخر فقد وَهِمَ، فإنَّهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥].

ولما كانوا معترفين مقرِّين بأنَّ الله سبحانه الرّب الواحد، خالق كلّ شيء فاعل هذه الأمور الجسام، المعدُّ للرغبات والرهبات العظام، وذلك بنقل الله عنهم [وحكايته عن] معتقدهم في آيات كثيرة، ومن أصدق من الله قيلاً، و[ما] كانوا أيضاً يتخذون آلهتهم [أولياءهم إلاّ على أنَّها] شفعاء لهم تقرِّبهم إلى الله زلفى، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، كما قال سبحانه عن صاحب يس: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٢، ٢٣].

فكان جلّ أحوال المشركين مع آلهتهم التوكّل عليهم، والالتجاء إليهم بشفاعتهم ظنًّا منهم أنَّها نافعة عند الله تعالى، فردَّ الله سبحانه عليهم وأبان معتقدهم المسؤول لديهم، فأخبرنا [الله] تعالى في كتابه أنَّ الشفاعة كلّها بجميع أنواعها له، وأنَّه لا تكون إلاّ من بعد إذنه ورضاه عن المشفوع له، وهم المشار إليهم في الحديث، الذي رواه البخاري أنَّ أبا هريرة رضي الله تعالى عنه قال للنّبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «من

قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»(١)، فهؤلاء المخلصون هم الذين أخلصوا الدِّين كلَّه لله، فجعلوا الشَّفاعة والتوكل والرّجاء والالتجاء، وغير ذلك من خواص الألوهيّة حقوقاً ثابتة لله تعالى، لم يعطوها لـ [أحدٍ] غيره فوحَّدوه(٢) بها، وأخلصوا الدعوة له، فهم المؤمنون الموحدون، وبكتابه الذي أنزله على نبيّه مهتدون، وبما أمر به نبيّه عاملون، وبوعده الحق واثقون.

وحقيقة الشفاعة المأذون فيها: أنَّ الله سبحانه هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص والتَّوحيد، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشَّافعين الذّين أذن لهم فيه، ليكرمهم على حسب مراتبهم، وينال نبينا ﷺ منه المقام المحمود الذي يغبطه به الأوّلون والآخرون، وكما كان النّبي ﷺ يشفع لأمته [في حياته] بدعاء واستسقاءٍ واستغفارٍ، مما هو شفاعة منه لهم، فكذلك في عرصات القيامة يفتح الله عليه في الدعاء فيشفعه، ومن تأمل بعين الاستبصار، علم أنَّ المقصود بنفي الشَّفاعة نفي الشّرك، وهو أن لا يعبد إلا الله، كما قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ولا يدعى غير الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، و[أن] لا يسأل غيره، و[أن] لا يتوكّل على غيره، لا في شفاعة ولا في غيرها، فكما أنَّه ليس للمؤمن أن يتوكل على أحد في أن يرزقه، وإن كان الله يأتيه برزقه بأسباب، كذلك ليس له أن يتوكَّل على غير الله في أن يغفر له ويرحمه في الآخرة بشفاعة وغيرها، مما لم يأذن الله به، فالشّفاعة التي نفاها القرآن مطلقاً هي ما كان فيها شرك، وتلك منفية مطلقاً.

والشَّفاعة المثبتة: ما تكون بعد الإذن يوم القيامة، ولا تكون إلا لمن ارتضى من أهل التَّوحيد والإخلاص، فهذه الشَّفاعة من التّوحيد، ومستحقها

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٩٩).

(٢) في الأصل: فوجدوه.

أهل التّوحيد، فمن كان موحِّداً مخلصاً، [قد] قطع [كل] رجائه عن غير الله، ولم يجعل له [ولم يتخذ في أي أمر له] ولياً ولا شفيعاً من دون الله.

إذا تبيَّن هذا، فالمشركون قد كانت عبادتهم لآلهتهم، هذا الالتجاء والرّجاء والدّعاء لأجل الشّفاعة، معتقدين أنَّها المقربة لهم، فبسبب هذا الالتجاء والاعتقاد أريقت دماؤهم، واستبيحت[١] أموالهم، وسبيت نساؤهم وأولادهم.

وقد أرسل الله [محمداً] ﷺ بكلمة التَّوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله ليعدلهم[٢] عمَّا هم عليه من الضّلالات والجهالات، [إلى الهدى والعلم الصّحيح]، وأوجب عليهم إفراد الحق سبحانه بالألوهيّة التي من أعظم خواصّها هذا الالتجاء والرجاء، وأن لا يجعلوا [شيئاً من ذلك] لغيره من نبي مرسل أو ملك مقرّب، وقد تعبَّدهم الله باعتقاد هذا التوحيد، والعمل بمقتضى هذه الكلمة المشتملة على التَّجريد والتَّفريد، اللذين هما حقيقة التوحيد، فهذا الالتجاء بطلب الشفاعة ورجائها عبادة، لا تصلح إلا لله [وهي حقه على خلقه بصفة ربوبيته وتفضله ورحمته، لا ينبغي أن يصرف منها شيء لغيره]، ومن صرف [شيئاً من] حق الله وأنها شرك، فإنه مشرك كشرك الأولين.

فإن قلت: إنَّ الأولين كانوا يعبدونهم ونحن لا نعبدهم.

فالجواب: أنَّ عبادتهم، هي نداء الالتجاء الذي أنت فيه، وكما أنّك تدعو النّبي ﷺ الذي بعث بإخلاص الدّعوة لله، وحاشاه أن يرضى بذلك، ولا يرضيه إلا ما يرضي ربه من التّوحيد، فإنه قد أمر ونهى وحذّر، وبصّر

(١) في ط: غنمت.

(٢) في ط: ليردهم.

وأرشد وبلغ ونصح الأمة، وأزال عنا الغمة، فهدانا إلى السبيل(١) المستقيم، والنّعيم المقيم، وتدعو غيره ملتجئاً إليهم بطلب الشفاعة منهم، كذلك الأولون كانوا يدعون صالحين وأنبياء ومرسلين، طالبين منهم الشفاعة عند ربِّ العالمين، فبهذا الالتجاء والتوكّل على هذه الشّفاعة والرجاء أشركوا.

ولئن قلت: إنَّ النبي ﷺ مأذون [له] بالشّفاعة، ونحن نطلبها ممن هو مأذون [له] فيها.

فالجواب: أنَّه ﷺ الآن موعود بالشّفاعة ووعد الله حق، لكنها مشروطة بـ[يوم القيامة، وأنَّها] بعد الإذن ورضاه عن المشفوع فيه، فلا تطلب منه الآن، ولو كانت تطلب منه الآن لجاز لنا أن نطلبها أيضاً ممن وردت الشفاعة لهم، كالقرآن والملائكة والأفراط والحجر الأسود والصالحين، ولجاز لنا أن ندعوهم ونلتجىء إليهم، ونرجوهم بهذه الشفاعة، إذ لا فرق بين الجميع بالثبوت والإذن، فنصير إذاً والمشركين الأولين في طريق واحد وحال واحد، ولم نفترق إلاّ بالأعمال(٢) الظاهرة وقول كلمة التوحيد من غير عمل بما فيها و[لا] اعتقاد لحقيقتها، ولا يقدم على ذلك من له أدنى مسكة من عقل، أو فكرة فيما صحَّ من النقل.

ومن نظر بعين الإنصاف وتجنب سبيل الاعتساف، ونظر إلى ما كان عليه الأولون، وعرف كيف كان شركهم، وبماذا أرسل لهم النّبي ﷺ وكيف(٣) التوحيد، وما معنى الإله، والتأله؟ وتبصَّر في العبادات وأنواعها، تحقَّق [له] أن هذا الالتجاء والتوكل والرجاء بمثل طلب الشفاعة، هو الذي نُهِيَ عنه [وحورب من أجله] الأولون، وأرسل لأجل قمعه المرسلون، وبذلك

---

(١) في ط: الصراط.

(٢) في ط: بالأسماء.

(٣) في ط: ما هو.

نطق الكتاب وبيَّنه لنا خير من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، سيِّما إذا استغيث بهم لدفع الشدائد والملمَّات، ولرفع الكرب المهمَّات، ممّا لا يقدر على دفعه ورفعه إلا خالق الأرض والسموات، وقد كان المشركون الأولون، إذا وقعوا في شدة دعوا الله مخلصين له الدّين ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ومن فعل هذا بحالتي الشدّة والرّخاء، بل في قسمي المنع والعطاء، فقد غلا وجاوز حدَّه، واستحقَّ أن يكون سيف الرّسالة غمده، قال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

إذا علمت هذا ظهر لك بطلان قول العراقي: إنَّ هذه الآية واردة في الأصنام.. إلخ. فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب، كما نبَّه عليه الأصوليّون، وإلا لتعطلت جميع المسائل، وكذا قوله: فهي ردٌّ على الكفّار لا على المسلمين.. إلخ. فإنا قد ذكرنا أنه لا فرق بين الفعلين، ولا تغاير بين الصنيعين، فما يستوجبه أحدهما يستوجبه الآخر، فإنَّه سبحانه إذا ذمَّ فعلاً ورتَّب عليه حكماً، لا يختصُّ به فرد دون فرد، ولا شخص دون غيره[1].

وأمَّا ما أورده من الآيات والأحاديث، فهو لا يضرُّ المانعين، بعد أن تبيَّن لك مرادهم بالشفاعة المنفيَّة.

وأما قوله[2]: وصحَّ أنَّ النّبي ﷺ يستغفر لأمّته في قبره، والاستغفار شفاعة.

فهو ممَّا يدلُّ على غاية جهله والعياذ بالله، وأيُّ دليل يدلّ على ذلك؟

---

(١) في ط: شخص.
(٢) أي العراقي ص (١٣٧).

وحديث عرض الأعمال [على فرض صحته] بعيد بمراحل عمَّا هنالك. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤]، مخصوص في حياته عليه الصلاة والسلام، كما نبَّه عليه الأئمة الأعلام[1]، وقد أسلفنا لك سابقاً أنَّه لم يقل أحد بالتّعميم في الحياة وبعد الممات، وهذا التأويل ظاهر الفساد، وممَّا يدلُّ على بطلانه قطعاً أنَّه لا يشك مسلم أن من دُعي إلى رسول الله ﷺ في حياته، وقد ظلم نفسه ليستغفر له، فأعرض عن المجيء وأباه مع قدرته عليه، كان مذموماً غاية الذم، مغموصاً[2] بالنفاق، ولا كذلك من دعي إلى قبره ليستغفر له، ومن سوَّى بين الأمرين وبين المدعوَّين وبين الدعوتين، فقد جاهر بالباطل، وقال على الله وكلامه ورسوله وأمناء دينه غير الحقّ، بل ربَّما دلّت الآية على خلاف هذا التّأويل؛ وذلك لأنّه سبحانه صدَّرها بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ...﴾ [النساء: ٦٤]، وهذا يدلُّ على أنّ مجيئهم إليه ليستغفر لهم إذ ظلموا أنفسهم طاعة له، ولهذا ذمَّ من تخلَّف عن هذه الطاعة، ولم يقل مسلم قط أنّ على من ظلم نفسه بعد موته، أن يذهب إلى قبره ويسأله أن يستغفر له، ولو كان هذا طاعة له، لكان خير القرون قد عصوا هذه الطّاعة وعطّلوها، ووفّق لها هؤلاء الغلاة العصاة، وهذا بخلاف قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾ [النساء: ٦٥]، فإنّه نفى الإيمان عمن لم يحكِّمه، وتحكيمه هو تحكيم ما جاء به حياً وميتاً، ففي حياته كان هو الحاكم بينهم بالوحي،

---

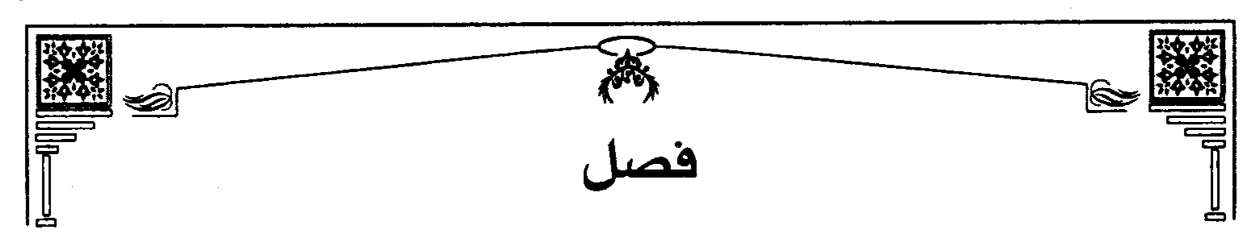
(١) في «صيانة الإنسان» ص (٢٩ و٣٢): من أنّ الآية وردت في قوم معينين من أهل النفاق.

(٢) في الأصل: مغموضاً.

وبعد وفاته ﷺ نوّابه وخلفاؤه، يوضِّح ذلك أنه قال: «**لا تجعلوا قبري عيداً**»، ولو كان شرع لكلّ مذنب أن يأتي إلى قبره ليستغفر له لكان القبر أعظم أعياد المذنبين، وهذا مصادمة صريحة لدينه وما جاء به.

وما بقي من كلامه كله غير وارد على المقصود، بل ربما دلَّ على نقيض مدَّعاه، وقد أسلفنا لك مراراً ما يتعلَّق به، فلا فائدة في الكلام عليه سوى إتعاب القلم، والله تعالى أعلم.

* * *



فصل

[استدلال العراقي على جواز الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله والرد عليه]

قال العراقي(١): الشّبهة الخامسة: استدلالهم على منع الاستغاثة [والتوسل](٢)، بقوله ﷺ لابن عباس: «**إذا استعنت فاستعن بالله، وإذا سألت فأسأل الله**»، وبقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] قال:

فالجواب: إنّ هذا الدليل عام في الأحياء وغيرهم، ولا يختصُّ بأهل القبور كما يزعم هؤلاء، ومعناه رفع الهمّة عن المخلوق، فهو أولى لمن أراد، وإلا فالصّحابة كانوا يستعينون بالنبي ﷺ، وببعضهم بعضاً، بل أمر الله تعالى بالتعاون كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى عن ذي القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]، وقال ﷺ: «**الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**».. إلى آخر ما قال من العبارات السخيفة والاستدلالات الضعيفة، التي تسلّي المحزون وتضحك الثكلى.

والجواب: أن يقال لهذا العراقي:

راحت مشرقةً ورحت مغرِّباً شتَّان بين مشرِّقٍ ومغرِّب

فإنّ في كلامه ما يردُّ عليه، ويوجِّه سهام الطّعن إليه؛ لأنّ الدّليل إذا عمَّ

(١) ص (١٣٧) من كتاب «صلح الإخوان» لداود بن سليمان.

(٢) زيادة من المصدر السابق.

الأحياء وغيرهم، صار الاستدلال به على المطلوب أظهر، وإثبات المدَّعى به أجلى، على أنّ المانعين للاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله سُبحانه، لم يخصِّصوا ذلك المنع بأهل القبور فقط، بل أرادوا بالمنع مطلقاً كما سنبيِّن ذلك إن شاء الله تعالى، وما أدري من أين جاء بالمعنى الذي فسَّره به؟! وهو قوله: ومعناه رفع الهمة عن المخلوق!.

وقد شدَّد العلماء النكير على من قال برأيه في كتاب الله سبحانه، وكان أبو بكر الصّدِّيق رضي الله تعالى عنه يقول: أيُّ سماء تظلني وأيُّ أرضٍ تقلّني إن قلت في كتاب الله تعالى ما لا يريده(١).

ذكر ذلك كثير من المفسِّرين عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ . . .﴾ [عبس: ٣١] الآية(٢).

اللّهم إنا نعوذ بك من عصبيَّة تجر إلى مثل هذه البليّة. ثم فرّع على ذلك المعنى قوله: فهو أولى لمن أراد، أي رفع الهمَّة عن الملخوق! وعدم الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا تعالى، أولى لمن أراد رفع الهمة، والذي لا يريد رفع الهمة عن المخلوق فلا أولويَّة! بل الاستغاثة بالله وبالمخلوق سواء بالنظر إليه، ولا تتوجَّه سهام الملام عليه.

هذا ما يدلُّ عليه كلامه، ويقتضيه قوله، وإلاّ فالصّحابة.. إلخ.

فانظر بالله عليك أيّها الذي فتح الله عين بصيرته، وسلَّم قلبه من داء الغفلة، والجهالة إلى هذا الإلحاد، والمضادة لما جاءت به الرسل وحملة الدين المبين، وإلى تجاسر هذا الزائغ الذي أضلَّ سبيل المؤمنين، وسلك

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ٤٩٩) والبيهقي في «الكبرى» (٥/ ٥١٢).

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير، و«الكشاف» للزمخشري، و«الدر المنثور» للسيوطي.

طريق الهالكين، فغدا يصرف كلام الله تعالى ورسوله ﷺ إلى ما هو بعيد عما قصداه بألف ألف منزل، كل ذلك لترويج بدعته وضلالته وإقراراً لغلوه، عافانا الله تعالى عن مثل هذه البليّة، والدّاء الذي لا ينجع فيه دواء، ولا بدَّ لنا من بسط المقال ليتَّضح الحال، ويظهر للعيان ما عليه هذا العراقي من الضلال، **فنقول وبالله تعالى التّوفيق:**

اعلم أنَّ الاستغاثة بالشيء طلب الإغاثة والغوث منه، كما أنّ الاستعانة طلب الإعانة منه، فإذا كانت بنداء من المستغيث للمستغاث كان ذلك سؤالاً منه، وظاهر أنّ ذلك ليس توسلاً به إلى غيره، إذا قد جرت العادة أنَّ من توسَّل بأحدٍ عند غيره أن يقول لمستغاثه: أستغيثك على هذا الأمر بفلان، فيوجِّه السؤال إليه، ويقصر أمر شكواه عليه، ولا يخاطب المستغاث به، ويقول له: أرجو منك وأريد منك وأستغيث بك، ويقول: إنّه وسيلتي إلى ربي، وإن كان كما يقول فما قدر المتوسِّل إليه حق قدره، وقد رجا وتوكل والتجأ إلى غيره. كيف واستعمال العرب يأبى عنه، فإنَّ من يقول: صار لي ضيق فاستغثت بصاحب القبر فحصل الفرج، يدلُّ دلالة جليّة على أنه قد طلب الغوث منه، ولم يفد كلامه أنّه توسَّل به، بل إنَّما يراد هذا المعنى إذا قال: توسَّلت أو استغثت عند الله بفلان، أو يقول لمستغاثه: استغثت إليك بفلان، فيكون حينئذٍ مدخول الباء متوسَّلاً به، ولا يصحُّ إرادة هذا المعنى، إذا قلت: أستغيث بفلان وتريد التوسَّل به، سيَّما إذا كنت داعيه وسائله، بل قولك هذا نصٌّ على أنَّ مدخول الباء مستغاث وليس مستغاثاً به، والقرائن التي تكتنفه من الدّعاء وقصر الرّجاء والالتجاء شهود عدول، ولا محيد عما شهدت به ولا عدول، فهذه الاستغاثة وتوجّه القلب إلى المسؤول بالسؤال والإنابة محظورة على المسلمين، لم يشرِّعها لأحدٍ من أمَّته رسول رب العالمين. وهل سمعتم أنَّ أحداً في زمانه ﷺ أو ممن بعده في القُرون المشهود لأهلها بالنجاة والصدق، وهم أعلم منا بهذه المطالب، وأحرص على نيل مثل تيك

الرغائب، استغاث بمن يزيل كربته التي لا يقدر على إزالتها إلا الله؟ أم كانوا يقصرون الاستغاثة على مالك الأمور ولم يعبدوا إلا إياه؟.

ولقد جرت عليهم أمور مهمة، وشدائد مدلهمّة في حياته ﷺ، وبعد وفاته، فهل سمعت عن أحدٍ منهم أنّه استغاث بالنبي ﷺ؟ أو قالوا: إنَّا مستغيثون بك يا رسول الله؟ أم بلغك أنّهم لاذوا بقبره الشريف، وهو سيِّد القبور حين ضاقت منهم الصّدور؟ كلا لا يمكن لهم ذلك، وأنَّ الذي كان بعكس ما هنالك، فلقد أثنى الله عليهم ورضي عنهم. فقال عزَّ من قائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] مبيناً لنا أن هذه الاستغاثة أخص الدّعاء وأجلى أحوال الالتجاء، وهي من لوازم السائل المضطر، التي يضطرُّ إلى طلب الغوث من غيره، فيخصُّ نداءه لدى استغاثته بمزيد الإحسان في سرِّه وجهره، ففي استغاثته بغيره تعالى عند كربته، تعطيل لتوحيد معاملته.

فإن قلت: إنّ للمستغاث بهم قدرة كسبية وتسببية، فتنسب الإغاثة إليهم بهذا المعنى كما يزعمه هذا العراقي وأضرابه.

قلنا: إنَّ كلامنا فيمن يستغاث به عند إلمام ما لا يقدر عليه إلا الله، أو لسؤال ما لا يعطيه ويمنعه إلاّ الله، وأما فيما عدا ذلك مما يجري فيه التعاون والتعاضد بين الناس، واستغاثة بعضهم ببعض، فهذا شيء لا نقول به، ونعدُّ منعه جنوناً كما نعدُّ إباحة ما قبله شركاً.

والعراقي ـ عامله الله تعالى بعدله ـ أورد نصوص المباح في الممنوع، واستدلَّ بدلائل المشروع على غير المشروع ـ قاتله الله ما أجهله وما أبعده عن الحق وأضلَّه ـ وكون العبد له قدرة كسبية لا يخرج بها عن مشيئة رب البريَّة، لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يستعان به ولا يتوكَّل عليه، ولا يلتجأ في ذلك إليه، فلا يقال لأحدٍ حيٍّ أو ميت قريب أو بعيد: ارزقني أو

أمتني، أو أحي ميّتي، أو اشف مريضي، إلى غير ذلك مما هو من الأفعال الخاصة بالواحد الأحد الفرد الصمد، بل يقال لمن له قدرة كسبية قد جرت العادة بحصولها ممّن أهّله الله تعالى لها، أعنِّي في حمل متاعي أو غير ذلك، والقرآن ناطق بحظر الدعاء عن كل أحد لا من الأحياء ولا من الأموات، سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو غيرهم، وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة أو بغيرها، فإنّ الأمور الغير[1] المقدورة للعباد لا تطلب إلاّ من خالق القدر[2] ومنشئ البشر، كيف والدعاء عبادة، وهي مختصَّة به سُبحانه، أسبل الله علينا بفضله عفوه ورضوانه، فالقصر على ما تعبَّدنا فيه من محض الإيمان، والعدول عنه عين المقت والخذلان.

وبالجملة فالاستغاثة والاستعانة، والتوكّل أغصان دوحة التوحيد المطلوب من العبيد.

ثم تكلم العراقي بكلام هو محض هذيان، يظهر ذلك لأقلّ الصبيان، فلا حاجة إلى ردِّه وإبطاله، وقد قدَّمنا غير مرة ما يدلُّ على فساد أمثاله.. إلى أن قال: وقد أمرنا الله تعالى بالاستعانة بالأعراض، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، ولم يقل تعالى استعينوا بالله، ولكن لمّا كانت الاستعانة بهذه مأموراً بها من الله كأنها استعانة به. انتهى كلامه الفاسد واستدلاله الكاسد، فما أدري ما أقول فيه؟ وأيُّ عبارة تصف ما فيه من الجهل والتمويه، وقد ذكر المفسِّرون في تفسير هذه الآية تفسيراً مقبولاً، وكلاماً معقولاً.

قال البيضاوي رحمه الله تعالى في «تفسيره» عند الكلام على هذه الآية الكريمة ما نصّه: واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة متصل بما قبله فالمخاطب به بنو

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: غير.

(٢) سبق التنبيه على هذا.

إسرائيل، كأنَّهم لمَّا أُمروا بما شقَّ عليهم، لما فيه من الكلفة، وترك الرياسة، والإعراض عن المال عولجوا بذلك، والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلاً على الله، أو بالصّوم[١] الذي هو صبر عن المفطرات، لما فيه من كسر الشهوة، وتصفية النفس، والتوسُّل[٢] بالصلاة والالتجاء إليها، فإنَّها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنيَّة، من الطهارة وستر العورة، وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النيَّة بالقلب، ومجاهدة الشّيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين، وكف النفس عن الأطيبين، حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب، روي أنّه عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر، فزع إلى الصلاة[٣]، ويجوز أن يراد بها الدعاء. انتهى[٤].

وفي تفسير «روح المعاني»[٥] لخاتمة المفسِّرين، العلامة الألوسي ـ عليه الرحمة ـ: لما أمرهم سبحانه بترك الضلال والإضلال، والتزام الشرائع، وكان ذلك شاقاً عليهم ـ لما فيه من فوات محبوبهم وذهاب مطلوبهم ـ عالج مرضهم بهذا الخطاب.

والصبر حبس النفس على ما تكره، وقدَّمه على الصلاة ـ لأنَّها لا تكمل إلاّ به ـ أو لمناسبته لحال المخاطبين؛ أو لأنَّ تأثيره ـ كما قيل ـ في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ـ واللام ـ فيه للجنس.

---

(١) كتب فوقها: جواب لما.

(٢) كتب في الحاشية: عطف على انتظار.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» وسنن أبي داود برقم (١٣١٩) عن أبي حذيفة قال: كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

(٤) «تفسير» البيضاوي (١/٣١٦ ـ ط دار الفكر).

(٥) (١/٢٤٨).

ويجوز أن يراد بالصبر نوع منه ـ وهو الصوم ـ بقرينة ذكره مع الصلاة، والاستعانة بالصبر على المعنى الأول، لما يلزمه من انتظار الفرج والنجح ـ توكلاً على من لا يخيِّب المتوكِّلين عليه ـ ولذا قيل: الصبر مفتاح الفرج، وبه ـ على المعنى الثاني ـ لما فيه من قهر[(١)] الشَّهوة وتصفية النّفس الموجبة[(٢)] للانقطاع إلى الله تعالى، الموجب لإجابة الدعاء.

وأمَّا الاستعانة بالصلاة فلما فيها من أنواع العبادة مما يقرِّب إلى الله تعالى، قرباً يقتضي الفوز بالمطلوب، والعروج إلى المحبوب، وناهيك من عبادةٍ تكرَّر في اليوم والليلة خمس مرات، يناجي العبد فيها علام الغيوب، ويغسل بها العاصي درن الذنوب[(٣)].

وقال في باب الإشارة في هذه الآية[(٤)]:

واطلبوا المدد والعون ممن له القدرة الحقيقية بالصبر على ما يفعل بكم؛ كي[(٥)] تصلوا إلى مقام الرضا، والصلاة التي هي المراقبة وحضور القلب لتلقي تجلّيات الرب. . . إلخ.

فتبيَّن بما ذكر أن الآية ليست مما نحن فيه، إذا لم يرد سبحانه بأمر الاستعانة بالصبر والصلاة نداءهما، وطلب الحوائج منهما، وذلك ظاهر، بل الآية من قبيل قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقد سبق أنّ المراد بها الأعمال الصالحة.

وقوله: وما استدلَّ به المانع لا يصحُّ. . إلخ.

كلام يوجب العجب! ولا يصدر إلاّ عمن زال عقله وذهب! وأعجب

---

(١) في «التفسير»: كسر.

(٢) في «التفسير»: الموجبين.

(٣) في «التفسير»: العيوب.

(٤) ص (٢٥٠) من الجزء نفسه.

(٥) في «التفسير»: لكي.

منه قوله قبل أسطر: وأنا أتعجّب لمن يورد هذا الحديث والآية، على منع السؤال والاستغاثة من أهل القبور.. إلخ.

فأي شيء لمن بلغت وقاحته إلى هذه الدرجة! حتى جعل الآية والحديث كلًّا منهما دليلاً على جواز شركه، وقد قال المفسِّرون ـ عند الكلام على هذه الآية ـ: المعنى نعبدك ولا نعبد غيرك، نستعينك ولا نستعين غيرك، فإنَّ تقديم المفعول هنا للتعظيم والاهتمام والدلالة على الحصر، نصَّ على ذلك البيضاوي رحمه الله، وأمّا الحديث فهو أولُّ دليل على إخلاص العبادة له سبحانه، وإفراده بخصائص الألوهية.

ففي كتاب «فتوح الغيب والغنية» للشيخ العالم الزَّاهد عبد القادر الجيلاني[1] رحمه الله تعالى، ما نصُّه: ينبغي لكل مسلم موحِّد أن لا يتَّكل إلاَّ على الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يعتقد التصرّف إلاّ لله، وأن يجعل مرآة عمله حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت راكباً خلف رسول الله ﷺ، فقال: «**يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعت على أن يضرُّوك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف**».

ويكفيك أيها المسترشد قوله تعالى ـ في الفاتحة التي تقرؤها في صلاتك ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فلا تعبد غيره ولا تستعن إلاّ به، ولا تطلب إلا منه، فهذا هو التوحيد. انتهى.

---

(١) في الأصل: الكيلاني، والجيلاني هو عبد القادر بن عبد الله أبو صالح بن جنكي. دوست ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو محمد الجيلي الحنبلي. (ت ٥٦١هـ) «الوافي بالوفيات» (١٩/ ٣٨).

وهكذا قال شرَّاح الحديث من العلماء العاملين، وأهل الله العارفين.

قال العلامة المناوي[١] في شرحه: أي اسأل [الله] تعالى وحده في السؤال وخُصّه به، فإنّ خزائن الوجود بيده، وأمرها إليه، فالاعتماد في كل الأمور عليه، إذ لا قادر ولا مانع ولا معطي ولا ضار، ولا نافع إلاّ هو، فبقدر ما يميل العبد إلى مخلوق يبعد عن ربه لضعف يقينه، وقال بعض العارفين: لا تبعد نية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال، فلا تطلب إلاّ منه الاكتفاء به، والاقتصار على ما عنده، واقتدِ بهدي الأب الرحيم إبراهيم الخليل عليه السلام، لما وضع في المنجنيق، فأتاه روح القدس، فقال: ما حاجتك؟ فقال: أما إليك فلا، وأمَّا إليه فحسبي من سؤالي علمه بحالي.

ولقد أحسن المتنبي[٢] حيث يقول:

تجنَّبْ كِرام النَّاسِ واستغنِ عنهمُ ... ولا تطلبنَّ الدهرَ فضلَ كريمِ
فإنّ الأيادي للكرامِ مذلَّةٌ ... فكيف إذا كانت يدٌ للئيمِ

وقال بعض العارفين: من احتجت إليه هنت عليه، فلا تظهر الحاجة لغير الله تعالى، ولا تنزلها بسواه، فإنّه يمقت على ذلك ولا تصيب خيراً، ولقد أحسن من قال:

اللَّهُ يغضبُ إنْ تركتَ سؤالهُ ... وبُنيَّ آدم حين يُسألُ يغضبُ[٣]

---

(١) «فيض القدير» (١/ ٤٩٥) الناشر: المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر سنة ١٣٥٦هـ.

(٢) هو: أحمد بن حسين بن حسن الجعفي، أبو الطيب المتنبي، شاعر الزمان، الكوفي الأديب، بلغ الذروة في النظم، وأربى على المتقدمين، وسار ديوانه في الآفاق. توفي سنة (٣٥٤هـ). «سير» (١٢/ ٣١٧ ـ ط دار الفكر).

(٣) أخرجه الخطابي في «العزلة» وساق بسنده ـ قال: قال أبو عبد الله النباجي: أرفض الناس مشغلة، قد بخل الناس بمثل الخردلة، ولا تسأل الناس وسل من أنت له.
قال أبو سليمان: أنشدني الخزيمي، فذكره.

فإذا استعنت فاستعن بالله وحده، إذ لا معين غيره ولا اعتماد إلاّ عليه، ولا استناد إلاّ إليه، وهو الذي بيده العصمة والتَّأييد والنعمة والتَّسديد، وغيره عاجز عن كل شيء، والاستعانة إنما تكون بقادر على الإعانة، وأما من هو كَلٌّ على مولاه، لا قدرة له على إنقاذ ما يهواه لنفسه فضلاً عن غيره، فكيف يُؤهَّل للاستعانة أو يتمسَّك بسببه، ومن كان عاجزاً عن الدَّفع والنفع لنفسه، فهو عن غيره أعجز، فليت الفجل يهضم نفسه، فاستعانة مخلوق بمخلوق كاستعانة مسجون بمسجون.

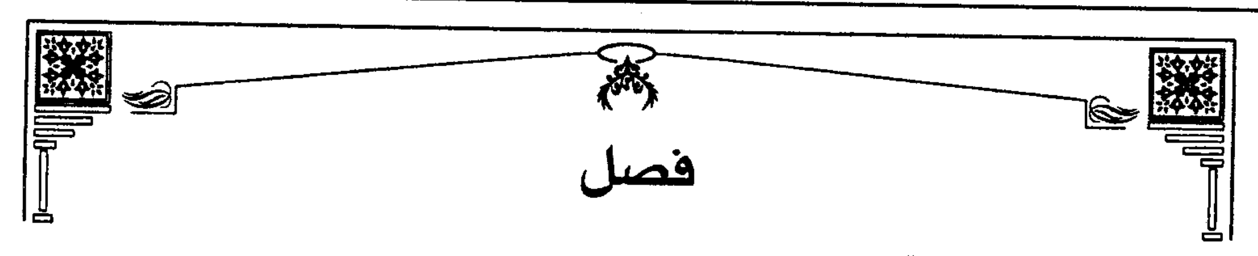
وقال بعض العارفين: لا تطلب معونة المخلوق فتوجَّه عليك الحقوق، وقد لا تفي بها، وعليك بالافتقار والانكسار والذلّة، والاضطرار إلى من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. انتهى.

ثم ذكر العراقي كلاماً حاصله: أنّ مسألة الأموات والغائبين ودعائهم في الحوائج والشّدائد، مبنيَّةٌ على مسألة خلق الأفعال، وأنَّ أهل السنة يثبتون ذلك لمن اعتقد أنَّ الله خالق أفعال العباد، وأنّ من أنكر دعاء الصالحين ونداءهم، فهو من المعتزلة؛ لأنّ إنكاره مبنيٌّ على اعتقاده أنّ العبد خالق لأفعال نفسه.

والجواب: أن يقال:

أيُّ حجة في هذا على أنّ الأولياء والصالحين يدعون بما لا يقدر عليه إلا الله، فمسألة خلق الأفعال لا تلازم بينها وبين دعاء الأولياء والصالحين بوجه ما، وإنما أتي هذا من جهة ظنه، أنّ من قال بأنّ الله يخلق أفعال العباد يباح له دعاء الصّالحين، ومن قال: إنّ العبد يخلق أفعال نفسه يحرم عليه ذلك هذا ظن الأحمق! لم يفرِّق بين مذهب المعتزلة والقدرية ودين المشركين من العرب والصابئين.

❀ ❀ ❀



فصل

[الشّبهة السّادسة من شبه العراقي وتسميته أئمة الدعوة بالخوارج]

قال العراقي(١): الشّبهة السّادسة: استدلُّوا بتفسير ابن عباس، في روايةٍ عنه، في قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، وبقراءة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّتَ﴾ [النجم: ١٩] ـ بتشديد التاء ـ وأنّهم كانوا أناساً صالحين فعبدوهم من دون الله. هكذا يذكر الخوارج(٢) المكفِّرون للمسلمين يقولون: فعبدوهم.

قال: والجواب أنَّهم جمعوا بين الكذب والخيانة في النقل، ولبَّسوا [على الناس](٣)، وهذا شأن من أراد ترويج بدعته.. إلى آخر ما قال!.

والجواب [أن يقال]: إنَّ هذا العراقي معدوم الحياء ـ والعياذ بالله تعالى ـ كما سبق غير مرّة، فلذلك تراه مُغرًى بالكذب على الله ورسوله وحملة دينه، ولهذا سمَّى من قصر التَّوحيد على الله تعالى، وحرَّم مخالفة الله ورسوله ﷺ

---

(١) ص (١٣٩).

(٢) هكذا يتهم هذا العراقي وأشباهه أئمة الدعوة، بأنّهم خوارج، وقد أبدى وأعاد في ذلك عثمان بن منصور، وألّف في ذلك مؤلفات، وقد لاقى الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن في ذلك، وقال له الشيخ: إنك ترى الشرك في هذه الأزمنة، وتؤلِّف المؤلفات في الخوارج، وكان عثمان بن منصور يقصد أئمة الدعوة بتلك المؤلفات.
انظر: «الصراع بين الإسلام والوثنية» لعبد الله القصيمي (١/ ٤٦٩).

(٣) زيادة في «صلح الإخوان».

خوارج، وقد سبق أول الكتاب المراد منهم، ونسب تكفير المسلمين إليهم، وقد سبق أيضاً تكذيب هذا القول بأتمِّ وجه.

وقوله: إنَّهم جمعوا بين الكذب.. إلخ. هذا وصفه ـ كما سبق لك مراراً ـ من خيانته في النَّقل والتلبيس والتَّدليس، وأن جميع ما أتى به هو مذهب مبتدع، ودين ما أنزل الله به من سلطان. وفي المثل: رمتني القرعى بدائها وانسلَّت[1]. وما أحقه بقول القائل:

إذا رمتُ هجواً في فلانٍ تصدُّني خلائق قبحٍ عنه لا تتزحزحُ
تجاوزُ قدرَ الهجو حتى كأنَّه بأقبح ما يُهجى به المرء يمدحُ[2]

ثم نقول: إنَّ المانعين لم يقولوا إلا ما قاله جمهور المفسِّرين، ومنهم البيضاوي رحمه الله تعالى: إنَّ وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، هي أسماء رجال صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا صوَّروا [صورهم] تبركاً بهم، فلمَّا طال الزمان عُبدوا، وقد انتقلت إلى العرب. وكان ودّ لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحِمْير. هذه عبارة البيضاوي[3].

وقال رحمه الله تعالى عند الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ

---

(١) هذا المثل ذكره غير واحد، ويضرب لمن يعيِّر صاحبه بعيب هو فيه. وأصله أنَّ سعد بن زيد مناة تزوج رهم ابنة الخزرج، وكانت من أجمل النساء، وكان ضرائرها إذا ساببنها يقلن لها: يا عفلاء، فقالت لها أمها: إذا سابينك فابدئيهن بذلك، ففعلت رهم ذلك مع ضرَّتها. فقالت: رمتني بدائها وانسلَّت، دون لفظة القرعى.
انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب»، و«مجمع الأمثال» وغيرهما.

(٢) القائل هو أبو الحكم عبد الله الباهلي (ت ٥٤٩هـ) قاله يهجو أبا الوحش الشاعر. «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (١/ ٥٦٩ ـ ط دار الكتب العلمية).

(٣) (٥/ ٣٩٤) آية ٢٣ من سورة نوح.

﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ الآية [النجم: ١٩، ٢٠]، ما نصُّه: هي أصنام كانت لهم، فاللَّات: كانت لثقيف بالطائف، أو لقريش بنخلة، وهي فعلة من لوى؛ لأنَّهم كانوا يلوون عليها، أي: يطوفون، وقرأ هبة الله ورويس[1] عن يعقوب اللات ـ بالتشديد ـ على أنّه سُمِّي به؛ لأنّه صورة رجل كان يلتُّ السويق بالسَّمن ويطعم الحاج.

والعُزَّى: سَمُرة لغطفان كانوا يعبدونها، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها. وأصلها تأنيث الأعز.

ومناة: صخرة كانت لهذيل وخزاعة أو لثقيف، وهي فعلة من مناه إذا قطعه، فإنّهم كانوا يذبحون عندها القرابين، ومنه منى، وقرأ ابن كثير: مناءة، وهي مفعلة من النوء، فإنّهم [كانوا] يستمطرون الأنواء عندها تبركاً بها. انتهى[2].

وعلى ذلك غالب التَّفاسير المعتبرة.

فظهر مما نقلنا: أنَّ الذي جمع بين الكذب والخيانة، في النَّقل والتّلبيس هو العراقي ومن نحا نحوه من الأغبياء، وقد علمت أنَّ الذي أوقع المشركين السّابقين في شبكة الشرك [هو] غلوّهم في المخلوق، وإثبات خصائص الألوهية لغير الله سبحانه، كما هو ديدن غلاة زماننا، كالعراقي وأضرابه.

قال الحافظ ابن القيم عليه الرحمة في كتابه «إغاثة اللّهفان»[3]:

---

(١) في الأصل: رديس، والصواب ما أثبت، وهو محمد بن المتوكل أبو عبد الله اللؤلؤي البصري المعروف برويس، توفي بالبصرة سنة ٢٣٨هـ. «غاية النهاية في طبقات القراء» (٢/ ٢٣٤).

(٢) «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٥٥) سورة النجم آية (١٩ ـ ٢٠).

(٣) (٢/ ٣١٤) ط المكتب الإسلامي.

فصل

وتلاعُبُ الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسبابٌ عديدة، تلاعبَ بكل قوم على قدر عقولهم.

فطائفةٌ: دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى، الذين صوّروا تلك الأصنام على صورهم، كما تقدّم في قوم نوح، ولهذا لعن النبيُّ ﷺ المتّخذين على القبور المساجد والسّرج، ونهى عن الصّلاة إلى القبور، وسأل ربَّه سبحانه أن «**لا يجعل قبره وثناً يُعبد**». ونهى أمَّته أن يتخذوا قبره عيداً، وقال: «**اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وأمر بتسوية القبور، وطمْس التماثيل.

فأبى المشركون إلاَّ خلافه في ذلك كلّه، إمّا جهلاً، وإما عناداً لأهل التَّوحيد، ولم يضرَّهم ذلك شيئاً. وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين.

وأمَّا خواصُّهم فإنَّهم اتخذوها ـ بزعمهم ـ على صور الكواكب المؤثِّرة في العالم عندهم، وجعلوا لها بيوتاً وسدنة وحُجَّاباً [وحَجّاً][1] وقرباناً، ولم تزل هذه في الدنيا قديماً وحديثاً.. إلى أن قال بعد نحو صحيفة[2]:

ومنهم: من يعبد أصناماً اتّخذوها على صورة الكواكب وروحانيتها بزعمهم، وبنوا لها هياكل ومتعبَّدات، لكل كوكب منها هيكل يخصُّه، وصنم يخصُّه، وعبادة تخصُّه.

ومتى أردت الوقوف على هذا، فانظر في كتاب «السر المكتوم في مخاطبة النجوم» المنسوب إلى ابن خطيب الري[3] تعرف سر عبادة الأصنام، وكيفية تلك العبادة وشرائطها.

---

(١) زيادة من «إغاثة اللهفان».

(٢) ص (٣١٨).

(٣) هو: الفخر الرازي.

وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الأصنام، فإنَّهم لا تستمرُّ لهم طريقة إلاَّ بشخص خاص، على شكل خاص ينظرون إليه، ويعكفون عليه.

ومن ههنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصناماً، زعموا أنَّها على صورتها.

فوضع الصنم إنَّما كان في الأصل على شكل معبودٍ غائب، فجعل الصنم على شكله وهيئته وصورته، ليكون نائباً منابه وقائماً مقامه، وإلاّ فمن المعلوم أنَّ عاقلاً أن(١) ينحت خشبة أو حجراً بيده، ثم يعتقد أنَّه إلٰهه ومعبوده.

قال: ومن أسباب عبادتها أيضاً: أنَّ الشَّياطين تدخل فيها، وتخاطبهم منها، وتخبرهم ببعض المغيَّبات، وتدلُّهم على بعض ما يخفى عليهم، وهم لا يشاهدون الشَّياطين، فجهلتهم وسَقَطهم يظنُّون أنَّ الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب، وعقلاؤهم [يقولون](٢): إنَّ تلك روحانيات الأصنام، وبعضهم يقول: إنَّها الملائكة. وبعضهم يقول: إنَّها العقول المجرَّدة.

وبعضهم يقول: هي روحانيات الأجرام العلويّة، وكثير منهم لا يسأل عما عهد؛ بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلهاً، ولا يسأل عمَّا وراء ذلك.

وبالجملة، فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان، ولم يتخلَّص [منها] إلا الحنفاء، أتباع ملَّة إبراهيم، وعبادتها في الأرض من قبل نوح، وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجَّابها، والكتب المصنَّفة في شرائع عبادتها، طبقت الأرض.

قال إمام الحنفاء ﷺ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ

---

(١) في «إغاثة اللهفان» لا ينحت.

(٢) من «إغاثة اللهفان».

﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] إلى أن قال[1]: ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظّاً من الإلهيَّة، وشبّهوه بالله سبحانه وتعالى، وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم الذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسله وأنزل كتبه فإنكاره الردّ على أهله.

فهو سبحانه يَنْفي وينهى أن يُجعل غيره مثلاً وندًّا له، وشبهاً له، لا أن يُشبَّه هو بغيره، إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مِثلاً لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلاً وشبَّهت به الخالق، فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم، وإنَّما الأوَّلُ هو المعروف في طوائف أهل الشّرك، غُلوًّا فيمن يعظِّمونه ويحبُّونه، حتى شبَّهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهيَّة، بل صرَّحوا أنَّه الإله، وأنكروا جعل الآلهة إلهاً واحداً، وقالوا: ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، وصرَّحوا بأنَّه إله معبود، يُرجى ويُخاف ويُعظَّم ويُسجد له، ويُحلف باسمه، وتُقرَّب له القرابين، إلى غير ذلك من خلائص العبادة، التي لا تنبغي إلاّ لله.

فكل مشرك فهو مشبَّه لإلهه ومعبوده بالله سبحانه، وإن لم يُشبِّهه به من كلِّ وجه، حتى إنَّ الذين وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب، كقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] وإنَّ ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وإنَّه استراح لما فرغ من خلق العالم، والذين جعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عن ذلك كله علوّاً كبيراً؛ لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلاً، ثم يشبهون به الخالق تعالى، بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالاً، لا قصداً أن يكون غيره أصلاً فيها، وهو مشبَّه به.

ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من أبطل الباطل، لكونها في نفسها نقائص وعيوب.. إلخ.

---

(١) ص (٣٢٢).

وقال رحمه الله في موضع آخر من كتابه: «إغاثة اللّهفان في مكائد الشيطان»[١] ما نصُّه: والمقصود: أنَّ العدوَّ كادهم وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين: كفاراً ومؤمنين. فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث. وكان أول ما كاد به عُبَّاد الأصنام، من جهة العكوف على القبور، وتصاوير أهلها ليتذكَّروهم بها كما قصَّ الله سبحانه قصَّتهم في كتابه، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

قال البخاري في «صحيحه»[٢] عن ابن عباس: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت.

وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم: [الذين كانوا يقتدون بهم][٣] لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذ ذكرناهم، فصوَّروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنَّما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر فعبدوهم.

وقال هشام بن محمد السائب الكلبي: أخبرني أبي، قال: أول ما عبدت الأصنام أنَّ آدم عليه السلام، لما مات، جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند؛ ويقال للجبل: بود[٤]. وهو أخصب جبل في الأرض[٥].

---

(١) (٢/ ٢٩٣).

(٢) كتاب التفسير من «صحيحه» باب سورة إنا أرسلنا.

(٣) زيادة من «إغاثة اللهفان».

(٤) كذا في الأصل والمطبوع. وفي «إغاثة اللهفان»: نوذ.

(٥) انظر: «فتح الباري» (٨/ ٦٦٩).

قال هشام: فأخبرني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: فكان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة، فيعظِّمونه، ويترحَّمون عليه، فقال رجل من بني قابيل [بن آدم: يا بني قابيل][1] إنَّ لبني شيث دَوَاراً يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شيء، فَنَحت لهم صنماً، فكان أول من عملها.

قال هشام: فأخبرني أبي قال: كان ودٌّ، وسُواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، قوماً صالحين، فماتوا في شهرٍ فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أنِّي لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً، قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظِّمه، ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول، وكانت عُملت على عهد بُرد بن مهلايئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، ثم جاء قرن آخر فعظَّموهم أشد من تعظيم القرن الأوَّل، ثم جاء من بعدهم القرن الثَّالث، فقالوا: ما عظَّم أوّلونا هؤلاء إلاّ وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم وعظموا أمرهم، واشتدَّ كفرهم، فبعث الله إليهم إدريس فدعاهم فكذبوه، فرفعه الله مكاناً عليًّا، ولم يزل أمرهم يشتدُّ ـ فيما قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: ـ حتى أدرك نوح، فبعثه الله نبيًّا، وهو يومئذ ابن أربع مئة سنة وثمانين سنة، فدعاهم إلى الله في نبوَّته عشرين ومئة سنة، فعصوه وكذَّبوه، فأمره الله أن يصنع الفلك، ففرغ منها وركبها وهو ابن ست مئة سنة، وغرق من غرق، ومكث بعد ذلك ثلاث مئة سنة وخمسين سنة، فكان بين آدم ونوح ألفا سنة ومئتا سنة، فأهبط الماء هذه الأصنام من أرضٍ إلى أرض، حتى قذفها إلى أرض جُدة، فلما نضب الماء [و] بقيت على الشط، فسفت الريح عليها حتى وارتها[2].

---

(١) زيادة من «إغاثة اللهفان».

(٢) في الأصل: دارتها. وانظر كتاب «الأصنام» للكلبي.

قلت[١]: ظاهر القرآن يدل على خلاف هذا: وأنَّ نوحاً لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وأنَّ الله أهلكهم بالغرق بعد أن لبث فيهم هذه المدة. انتهى.

فتبيّن لك من جميع ما ذكرناه، أن نداء غير الله تعالى والاستغاثة به والالتجاء إليه في الملمات، هو من الغلو في المخلوق وإعطائه حظًّا من الإلهية، وهو سبب عبادة الأصنام واتخاذها آلهة من دون الله.

فقول العراقي: فانظر إلى هؤلاء الذين يشبِّهون الأنبياء والصالحين من هذه الأمة بالأصنام.. إلخ، ناشيء من غباوته وضلاله، إذ قد ذكرنا قريباً فيما نقلناه عن الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى أنَّ وضع الصنَّم إنَّما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعل الصَّنم على شكله وهيئته وصورته ليكون نائباً منابه وقائماً مقامه، وإلا فمن المعلوم أنَّ عاقلاً لا ينحت خشباً أو حجراً بيده، ثم يعتقد أنَّه إلٰهه ومعبوده.

فالعبادة إنَّما هي لمن[٢] صور الصَّنم على صورته، ثم لو فرضنا أنَّ العبادة كانت منهم للأصنام أنفسها، ولم يكن عبدتها يلاحظون من صوِّرت على صورهم[٣]، فهلَّا يكون السجود لمخلوق كائناً من كان، والالتجاء إليه وطلب ما لا يقدر عليه إلا الله [منه]، والنذر إليه، والحلف به، وغير ذلك من خصائص الإلهية عبادة؟ وقد ظن هذا الغبي! أنَّ الإشراك لا يكون إلاّ بعبادة الأخشاب والأحجار، فيلزمه أن لا يكون النَّصارى أشركوا بغلوِّهم في عيسى ومريم رضي الله عنهما، ومفاسد سوء الفهم، أكثر من أن تُحصى.

---

(١) لا زال الكلام لابن القيم رحمه الله تعالى.

(٢) في ط: للمؤله الذي.

(٣) في الأصل: صورها.

وأمَّا قوله: والحديث رد عليهم.. إلخ، فمما يضحك الثكلى! بل لا تجد له معنى ولا محصلاً، وكان مراده أنَّ الأفعال الشركية لا تكون شركاً، ما لم تسمَّ(١) عبادة، فيلزم أن لا يكون السجود مثلاً لغير الله تعالى شركاً، ما لم يقصد السَّاجد العبادة ويسمِّيه بها، سبحانك هذا بهتان عظيم!! وقد صرَّح العلماء أنَّ المسمَّيات ليست بتابعة للأسماء. فالذهب مثلاً ذهب، وإن سمَّيناه رصاصاً أو لم نسمه باسم.

وأما قوله: ما تفعل هذه الأمة من الطلب والسؤال، على طريق التوسل من الأنبياء والصالحين؟.. إلى قوله: فأين هذا في شريعتنا من أولئك الأنصاب؟.. إلخ.

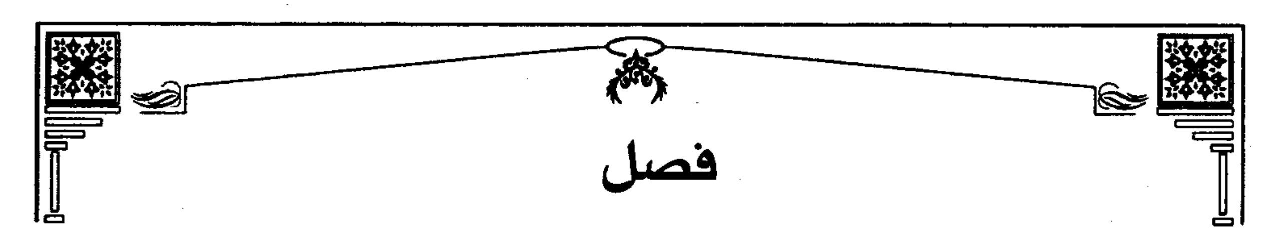
فالجواب عن هذه العبارة الركيكة والكلام السّخيف قد سبق غير مرّة. وذلك أن يقال: إنَّ غالب عبدة الأصنام لم تكن عبادتهم لها سوى ما ذكره العراقي، كما يدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٓ﴾ [الزمر: ٣]، وغير ذلك من الآيات فطلب ما لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه، والنداء في الشدائد والالتجاء ونحوه من أيِّ مخلوق كان، هو عين عبادة الأصنام من غير فرق عند ذوي البصائر والأفهام، والتفرقة بينهما من غير فارق، ومن فرَّق فهو زائغ مارق، وكون الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وكذا الخلص من عباد الله أحياء في قبورهم حياة برزخية، لا يقتضي أن يثبت لهم شيء من الخصائص الإلهية، كما أنَّ حياتهم الحقيقية لا تقتضي ذلك، وهم(٢) صلوات الله وسلامه عليهم إنَّما مقصودهم الأصلي، قصر الألوهية على الواحد الأحد الفرد الصمد، وإخلاص التوحيد له سبحانه، وإبطال الشرك، ومحو شُعبه وذرائعه، فمن

(١) في ط: يسمها فاعلها.
(٢) أي: الأنبياء.

أثبت لهم ضد ما يقصدونه فهو من أعدى الناس لهم، وقد هدروا دمه وأباحوا أمواله، وإن ظنَّ أنَّه في ذلك يتقرب إليهم [وعظمهم]، ويظهر حبه لهم، كما أنَّ النصارى لما أطلقوا على المسيح ابن الإله لمزيد حبهم له [بزعمهم]، صار ذلك سبباً لمقتهم، وطردهم عن أبواب رحمة الله سبحانه، وبراءة عيسى صلوات الله عليه منهم.

وقد بقي كلام للعراقي لا فائدة في إبطاله سوى تسويد القرطاس، حيث إنَّه لا يخفى فساده على أحد من الناس.





فصل

[شبهة العراقي في أنَّ النداء والتوسل ليس من العبادة]

قال العراقي[١]: الشّبهة السَّابعة: استدلَّ المكفرون للأمة المحمدية المتوسِّلين بالصالحين، بأنَّهم أوثان [و] بأنَّهم يشابهون المشركين[٢] في اتخاذهم الأصنام آلهة لتقرِّبهم إلى الله زلفى، والمؤمنون يقولون: إنَّما نتوسَّل بهم ونناديهم ليقرِّبونا إلى الله زلفى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

قال: والجواب أنَّ هذه الشّبهة لا ينخدع لها، إلاّ صقيع العقل عادم العلم من جهات متعددة.. إلى آخر ما قال من الباطل والضلال [والعبارات السمجة الركيكة].

والجواب أن يقال:

عمَّا هذى به في هذا المقام كالجواب عن هذيانه السابق، فإنه لا يزال يكرر مباحثه[٣] من قلة بضاعته، ومزيد ضلالته وجهالته، ومع ذلك فلا نترك الكلام عليه، وتوجيه سهام الحق إليه، ليتبيَّن أنَّ للحق رجالاً وللحروب أبطالاً، لا يَدَعون الجبان يصول ولا يتركون الباغي يقول ما يقول.

---

(١) ص (١٤١).

(٢) في هامش الأصل: كذا عبارته، ولا يخفاك ما فيها من الركَّة.

(٣) في ط: سخافاته.

أما قوله: استدلَّ المكفرون للأمة المحمدية.. إلخ.

فهو من جملة كذبه وافترائه الذي سوَّد به وجه القراطيس، وزوَّره الذي ماثل به مسيلمة، وضاهى به إبليس، فإنَّ أحداً من المانعين لم يكفِّر شخصاً من المسلمين، إنَّما كفروا من حكم بكفره سيِّد المرسلين، وضلَّلوا من شهد بشركه الأساطين من العلماء وحملة الدين، وقد ذُكر في أوائل الكتاب مما ينفع في البحث ذوي الألباب، ما ينفع المتبصر في هذا الباب، ثم إنَّه لم يستدل أحد من المانعين بما ذكره؛ بل هذا أيضاً افتراء منه ـ عامله الله تعالى بعدله ـ نعم ذكروا أنَّ طلب ما لا يقدر عليه إلا الله من غيره سبحانه ونداءه في الشدائد، هو كصنيع المشركين مع أصنامهم، والآيات الرادة على هؤلاء شاملة لغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ونحوها من الآيات.

فهذه الموصولات في كلام الله وكلام رسوله ﷺ واقعة على كل مدعو ومعبود، نبياً أو ملكاً أو صالحاً إنسياً أو جنياً، حجراً أو شجراً، متناولة لذلك الوضع، فإنَّ الصلة كاشفة ومبينة للمراد، وهي واقعة على كل مدعوٍّ من غير تخصيص، وهي أبلغ وأدل وأشمل من الأعلام الشخصية والجنسية، وهذا هو الوجه في إيثارها على الأعلام.

وشرط الصلة: أن تكون معهودة عند المخاطب، تقول: جاء الذي قام أبوه، لمن يعهد قيام الأب، ويجهل النسبة بينه وبين من جاء، والمعهود عند كل من يعقل من أصناف بني آدم: أن الأنبياء والملائكة والصحالين قد عُبدوا مع الله، وقصدهم المشركون بالدعاء في حاجاتهم وملماتهم، كما جرى لليهود والنصارى في عبادة الأنبياء والأحبار والرهبان، وكما جرى لقوم نوحٍ

في ودٍّ وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، وكما جرى للعرب في عبادة الملائكة.

واللاّت وهو رجل صالح كان يلتُّ السَّويق للحاج[1]، وهذا أوضح من أن يحتاج لتقرير، وأظهر من أن يتوقف على كشف وتفسير، فإنَّ العربي سليم الذُّوق والفطرة يُعرف بعربيَّته وفطرته. وجميع المفسِّرين يقرِّرون هذا بضروب من العبارات والتقريرات ويفهمها الذّكي، ومن خص الأصنام في بعض المواضع فهو لا يمنع أنَّها عبدت باعتبار من هي على صورته.

وقد ذكر هذا ابن كثير في «تفسيره»، وذكره غيره من أهل العلم. وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فإن نازع هذا [الغبي] في عموم النفي، فهو على مذهب من قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، وإن سلم العموم وزعم أنَّ دعاء الصّالحين ونداءهم ليس بعبادة ولا دعاء، فقد خرج عن المعقول والمنقول، وأتى بجهالة حمقاء خرج بها عما قاله جميع أئمة العلم والهدى، وقوله تعالى عن نبيِّه يوسف عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩]، هو من هذا الباب، فإن تفرُّق الآلهة والأرباب يصدق بعبادة الأنبياء والصالحين، ومن نازع في هذا فليس من جملة العقلاء، ولا ممن يعرف الضروريّات التي يعرفها الحمقى، هذا لو لم يرد في عبادة الأنبياء والصالحين والملائكة نصوص خاصة.

[أما] وقد جاء في ذلك ما فيه الهدى والشفاء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨٠]، والأرباب هنا هم الآلهة المعبودة، فإنَّ الرب وضع للمعبود كما

(١) في ط: للحجاج.

وضع للمالك والمربي والخالق، وليس هذا من المشترك، ولا من المتواطىء بل هو من استعمال اللفظ في حقيقته اللغوية والشرعية، وقال تعالى فيمن عبد الصالحين بطاعتهم من دون الله، وغلا في الأنبياء: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

فسَّرها النبي ﷺ لعدي بن حاتم، بطاعتهم في التحليل والتحريم المخالف لأحكام الله تعالى[1]، وقال تعالى فيمن عبد الصَّالحين: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ الآية [الإسراء: ٥٦]، وهذه فيمن عبد الصَّالحين من الجن والإنس والملائكة، كما فسَّرها بذلك غير واحد من السّلف، ويدل عليه قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقد وصفهم بأنَّهم لا يملكون كشف الضرِّ ولا تحويله من حال إلى حال، وإن قل، كما يفيده النكرة في سياق النفي، فبطل دعاؤهم بما لا يقدر عليه إلا الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [سبأ: ٢٢] تنفي أن يكون لهؤلاء المدعوين ملك في السموات والأرض ولو قل، كمثقال ذرَّة، وهذا هو الذي يعبِّر عنه بالاستقلال، ونفى أن يكون لهم فيها شرك ولو قلَّ، كما يفيد قوله: ﴿مِن شِرْكٍ﴾ فإنَّه يفيد استغراق النفي، ونفى أن يكون له منهم من ظهير يعاونه ويؤازره، وإذ أبطل الملك والشّركة والمعاونة، لم يبق سوى الشَّفاعة فنفاها بقوله: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٩] فإنَّ هذا يفيد إبطال الشَّفاعة التي ظنَّها المشرك، ودعا غير الله لأجلها، وقد دلَّ القرآن على نفيها في مواضع.

والشفاعة المثبتة التي دلَّ عليها الاستثناء، وجاءت بها الأحاديث

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٠٩ ط مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ).

النبوية، نوع آخر غير ما ظنه المشركون، وحقيقتها: أنَّ الله تعالى إذا أراد رحمة عبده ونجاته أذن لمن شاء في الشَّفاعة رحمة للمشفوع فيه، وكرامة للشّافع، وقيّدت الشّفاعة المثبتة بقيود.

منها: إذنه تعالى للشَّافع، ونكتة هذا القيد وسرّه، صرف الوجوه إلى الله تعالى وإسلامها له، وعدم التعلق على غيره لأجل الشفاعة، ولذلك يساق هذا بعد ذكر التوحيد، وما[1] يدلُّ على وجوب عبادة الله وحده، وهذا الموضع لم يفهمه كثير من النَّاس، ظنوا أنَّ الاستثناء يفيد إثبات الشَّفاعة مطلقاً، وطلبها من غير الله، فعادوا إلى ما ظنَّه المشركون وقصدوه، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ومنها: أنَّه لا يشفع أحد إلا فيمن رضي الله قوله وعمله، قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ومن الآيات الخاصة بمن يدعو الملائكة وأمثالهم، قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ الآية [سبأ: ٤٠][2]، وقال تعالى في شأن المسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، فتأمَّل ما فيها من العلوم إن كنت من ذوي الألباب والفهوم.

---

(١) في ط: مما.

(٢) قراءة نافع: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة﴾ بالنون في ﴿نحشرهم﴾ و﴿نقول﴾، أما قراءة حفص فهي بالياء ﴿يحشرهم﴾ و﴿يقول﴾ والمؤلف ذكر قراءة نافع.

[و] منها: أنَّ اتخاذ الأنبياء والصالحين آلهة شرك، ينبغي تنزيه الرب تعالى عنه، وفيها براءة أولياء الله ممن أشرك بهم. وفيها: أنَّ الرسل ما أمرت الخلق إلا بما أرسلوا به من عبادة الله تعالى وحده. وفيها: برهان ما جاءت به الرسل من الأمر بالعبادة، وأنَّ الرب الذي عمَّت ربوبيته جميع خلقه هو المستحق أن يعبد، وأنَّ العبد المربوب، ولو(1) علت درجته، كعيسى وغيره من الرسل أو الملائكة، لا يكون شريكاً لربه ومالكه: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، والقرآن كلُّه يدل على هذا، ولكن من عادة القرآن مراعاة ما تقتضيه الحال، فيطنب في محل الإطناب، ويوجز في محل الإيجاز. والبلاغة: مطابَقة الكلام لمقتضى الحال.

وأمَّا قول العراقي: إنَّ المشركين الكفار اتخذوا من دون الله أولياء، أي أرباباً.. إلخ.

فقد أراد به التفرقة بين الفريقين، أعني هو وأضرابه المغالين في خلص عباد الله والمشركين، وحاصل ما فرق به: أنَّ المشركين كانوا يسمّون أولياءهم أرباباً، وهؤلاء لا يسمُّونهم بهذا الاسم، وأنَّ معاملتهم مع أوليائهم كانوا يسمونها عبادة، وهؤلاء لا يسمون استغاثتهم بالصالحين، وطلب ما لا يقدر عليه إلا الله منهم، ونداءهم في الملمَّات ودفع الشدائد، والالتجاء إليهم والنذر لهم والحلف بهم، [لا يسمون ذلك] عبادة ـ ثم أورد نصوصاً دالة بزعمه الفاسد ـ على وجوب اتخاذ الأولياء. وهذا كله باطل قاده إليه سوء فهمه واتباعه لهواه وبدعته، فإنَّه قد سبق أنَّ الرب وضع للمعبود، كما وضع للمالك والمربي والخالق، وكذا(2) لا يلزم أن لا يكون العمل عبادة إلاّ

---

(١) في ط: مهما.

(٢) في ط: وكذلك.

بالتسمية، **فمن سجد لآخر فقد اتخذه ربًّا وعبده، وإن لم يسمِّ سجوده عبادة، والمسجود له ربًّا، كما أسلفنا ذلك**.

وقد مرَّ أيضاً مراراً عديدة: أن طلب[1] ما لا يقدر عليه إلا الله ونحو ذلك من خصائص الألوهية. والعبادة ليست[2] منحصرة بالركوع والسجود، وأما استدلاله على وجوب اتخاذ الأولياء بالمعنى الذي أراده وهو الاستغاثة بهم ونداؤهم وغير ذلك، بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١]، فمما يدل على أنَّه ما عرف شيئاً من العلوم ولا تبين له محل النزاع، فإنه سبحانه أخبر بهذه الآية، أنَّ المؤمنين ينصر بعضهم بعضاً، ويعين بعضهم بعضاً فيما يدخل تحت مقدور العباد، وقوله ﷺ: «**المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»[3]، بمنزلة التَّفسير لهذه الآية، ولم يقصد سبحانه بهذه الآية وأمثالها أن يلتجيء بعض المؤمنين إلى بعض، وأن يتوكَّل بعضهم على بعض، وأن يستغيث بعضهم ببعض، بل هذا المعنى عين ما أبطله الله سبحانه بكتابه الكريم، وأرسل لمحوه أنبياءه ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فانظر إلى جهل هذا العراقي إلى أين انتهى وبلغ؟!

وقوله: وأما التقريب إلى الله زلفى.. إلخ. فقد أراد به أنَّ نداء أنبياء الله ورسله، وعباده الصالحين ودعاءهم وطلب الحوائج منهم غير ذلك جائز؛ لأنَّهم وسائط بيننا وبين الله تعالى، وهذا بعينه ما أراده المشركون من غير فرق.

---

(١) في ط: أن العبادة طلب.

(٢) في الأصل: ليس.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٧٥)، ومسلم برقم (٦٥٣٧) من حديث أبي موسى رضي الله تعالى عنه.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله ورحمه رسالة في هذا المطلب سمَّاها: «الرسالة الواسطية»[(١)] فراجعها إن شئت، فإنَّ الرسل صلوات الله عليهم وورثتهم، إنَّما وساطتهم[(٢)] بين العباد وبين الله في تبليغ أوامره ونواهيه، وبيان الحلال والحرام، وغير ذلك مما وردت به الشرائع، لا أنَّهم وسائط في موت أحد و[لا] حياته، ولا مرضه و[لا] شفائه ونحو ذلك، وهذه الأمور لا يحتاج فيها إلى توسيط أحدٍ لله، فهو سبحانه يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وهو السميع العليم، وليس هو جل شأنه كأحد ملوك الأرض، الذين لا يعلمون أنفسهم، فضلاً عن إحاطة معرفتهم بأهل مملكتهم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فيلزم أن يكون سبحانه وحده المعبود المألوه المخوف المرجو، المستغاث المستعان به المتوكل عليه، الذي إليه الرغبة والرهبة، وإليه التوجه والعمل، [و] الذي يؤمَّل وحده لكشف الشدائد، وتفريج الكربات، ومغفرة الذنوب، الذي خلق الخلق وحده، ورزقهم وحده، وأحياهم وحده، وأماتهم[(٣)] وحده، ويبعثهم وحده، ويغفر ويرحم، ويهدي ويضل، ويسعد ويشقي وحده، ليس لغيره من الأمر شيء كائناً من كان، بل الأمر كله لله.

وأقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً، وأرفعهم لديه ذكراً وقدراً، وأعمهم عنده شفاعة، ليس له من الأمر شيء، ولا يعطي أحداً شيئاً، ولا يمنع أحداً شيئاً، ولا يملك لأحد ضرًّا ولا رشداً، وقد قال ﷺ لأقرب

---

(١) طبعت أكثر من طبعة وعليها شروحات.

(٢) في ط: هم الواسطة.

(٣) في ط: يميتهم.

الخلق إليه[(١)] وهم ابنته وعمه وعمته: **«يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً»**[(٢)].

هذا هو التعظيم الحق المطابق لحال المعظم النافع للمعظم في معاشه ومعاده، الذي هو لازم إيمانه وملزومه.

وأما التعظيم باللِّسان: فهو الثناء عليه بما هو أهله، مما أثنى به على نفسه وأثنى به عليه ربه، من غير غلو ولا تقصير، فكما أنَّ المقصِّر المفرِّط تارك لتعظيمه، فالغالي المفرِّط كذلك، وكل منهما شر من الآخر من وجه دون وجه، وأولياؤه سلكوا بين ذلك قواماً.

وأما التعظيم بالجوارح: فهو العمل بطاعته والسعي في إظهار دينه، وإعلاء كلماته، ونصر ما جاء به، وجهاد من خالفه.

ثم إنَّ العراقي أورد في هذا المقام كثيراً من الآيات والآثار التي هي بمعزل عن المقصود. والعجب منه أنَّه أورد بعض النّصوص الواردة في الشَّفاعة يوم القيامة، كشفاعة الولد لوالده وبالعكس، ونحو ذلك دليلاً على مطلبه، وهو جواز دعاء الصالحين والتوسل بهم والاستغاثة بهم، وهكذا شأنه في كل ما كتبه ـ عامله الله بعدله ـ.

واستسقاء الضحاك بيزيد[(٣)] بن الأسود، كاستسقاء الصحابة بالنبي ﷺ

---

(١) في ط: إليهم.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٢٦٠٢) من حديث أبي هريرة، ومسلم في صحيحه برقم (٥٢٤) من حديث عائشة، عند البخاري: أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف، اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أمّ الزبير بن العوّام عمّة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد اشتريا أنفسكما من الله، لا أملك من الله شيئاً سلاني من مالي ما شئتمان».

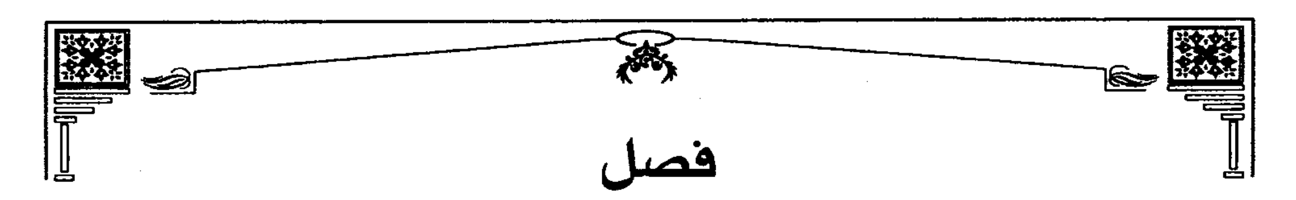
(٣) في الأصل: بزيد.

لما كان بين أظهرهم ـ يعني ـ أنَّهم كانوا [في حياته] يطلبون منه أن يدعو لهم بالسّقيا فيسقون، وهكذا في كل زمان يخرج صلحاء الأمة، فيدعون الله تعالى أن يغيثهم ويمطرهم.

وأين هذا من محل النِّزاع؟ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وفيما ذكرنا كفاية، إذ لو أخذنا نتكلم على كل ما اشتمل عليه كلامه من الغلط والشطط، وذكرنا ما فيه من المخالفات لطال الكلام جدًّا، فلذلك اقتصرنا على هذا المقدار، على أن ذلك مما لا يخفى على من شم رائحة العلم، فضلاً عن ذوي المعرفة والأبصار.





فصل

[العراقي يرى أنَّ الشِّرك لا يقع إلاّ قرب يوم القيامة]

قال العراقي(١): الشُّبهة الثَّامنة: أنَّ هؤلاء جعلوا زيارة قبور الأنبياء والصَّالحين، والتوسّل بهم كالأصنام، واستدلُّوا بقوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تعبد اللات والعزَّى»**(٢)، وبقوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تختلف أليات نساء دوس على ذي الخلصة»**(٣) اسم صنم..

ثم قال: والجواب: أنَّ كلام الرَّسول حق، وقد أخبر النبي ﷺ [بذلك](٤)، ولكن متى؟ بعد الدجَّال، ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج، وبعد أن لا يبقى على وجه الأرض من في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان.

ثم أخذ يتكلم بكلام حاصله: أنَّ الإشراك بالله سبحانه لا يقع إلاّ بعد قيام السّاعة، ومقصوده: أن ما يفعله القبوريون مع أهل القبور من الغلوّ والهجر ليس بشرك، والشرك لا يقع إلاَّ قرب يوم القيامة.

---

(١) ص (١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٤٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى..» الحديث.

(٣) متفق عليه في حديث أبي هريرة وفيهما: «حتى تضطرب» بدل «حتى تختلف» و«حول» بدل «على».

(٤) زيادة من «صلح الإخوان».

والجواب [أن يقال]:

إنَّ كلام العراقي في هذا المقام أيضاً، قد اشتمل على ما لا يخفى على ذوي الأفهام من الخبط والكذب على الله ورسوله وعباده المؤمنين، ولو أردنا استيعاب ذلك لطال الكتاب جداً، وها نحن نذكر ما لا بد منه، ليكون الواقف على بصيرة من أمره، ونبيّن أنَّ الزّيارة التي جعلها المانعون من شعب الشرك هي ليست الزيارة المطلقة(١)، فنقول وبالله تعالى التّوفيق:

روى بريدة عن رسول الله ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»(٢)، ففي هذا الحديث تصريح بوقوع النهي في صدر الإسلام عن زيارتها؛ لكونها مبدأ عبادة الأصنام، وكان ابتداء ذلك الدّاء العضال في قوم نوح النّبي عليه الصّلاة والسّلام، كما أخبر الله سبحانه في كتابه، فقال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٣].

قال ابن عباس وغيره من السّلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه الصّلاة والسلام، فلمّا ماتوا عكف النّاس على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم. فلما كان منشأ عبادة الأصنام من جهة القبور، نهى النّبي ﷺ أصحابه في أول الإسلام عن زيارة القبور، سدًّا لذريعة الشّرك؛ لكونهم حديثي عهد بكفر، ثم لمَّا تمكّن التّوحيد في قلوبهم

(١) الزيارة: هي القصد، وفي العرف: قصد المزور إكراماً له، واستئناساً به. «المصباح المنير» (١/ ٢٦٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٢٤/ ٣٤٣) وغيرها: زيارة القبور، قصدها لأجل السلام على الأموات والدعاء لهم، وهي من العبادات لله تعالى، التي يتشفع بها الداعي والمدعو له.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ١٤٥ برقم ١٢٣٥)، ومسلم في «صحيحه» (٣٧/ ١٩٧٧) بلفظ أتم من هذا.

أذن لهم في زيارتها وعلَّمهم كيفيَّتها، تارة بفعله، وتارة بقوله، وذلك في الأحاديث الكثيرة، بعضها في الإذن وبعضها في التّعليم، وفي ضمنها بيان الفائدة التي في الإذن.

فمن ذلك: ما رواه الحاكم عن أبي ذر ﵁ أنَّ النبي ﷺ قال له: «**زر القبور تذكَّر بها الآخرة**»[١]، وذلك لأنَّ الإنسان إذا شاهد القبر، وتذكر الموت وانقطاع هذه الحياة، وانقطاع ما ألفه من اللذَّات، وشاهد ببصيرته ما يصير إليه من ضيق اللُّحود وصولة الدّود، وهو لا يدري ما يصير إليه من الحساب وصعوبة الجواب، صار له عظة واعتباراً، وحقّ له أن يفيض من عينه على نفسه دمعاً مدراراً.

وقد كان الرَّبيع بن خثيم[٢] إذا وجد غفلة خرج إلى القبور، وبكى ويقول: كنا وكنتم، ثم يحيي الليل كلَّه، فيصبح كأنَّه نُشر من قبره[٣].

قال السبكي[٤]: وهذا المعنى ثابت في جميع القبور، ودلالة القبور على ذلك متساوية، كما أنَّ المساجد غير الثلاثة متساوية. وقد روى ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**إنِّي كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإن فيها عبرة**»[٥]، وعن علي بن أبي طالب ﵁، أنَّه ﷺ قال: «**إنِّي كنت نهيت**

---

(١) أخرجه الحاكم، وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٢/ ١٣٧).

(٢) في الأصل: خيثم، والصواب ما أثبت، وهو: الربيع بن خثيم بن عائذ، أبو يزيد الثوري الكوفي، الورع أحد الأعلام. مات بعد قتل الحسين ﵁ بسنة (٦٣هـ). «سير» (٤/ ٢٨٥)، و«الحلية» (٢/ ١٠٥).

(٣) ذكر القصة في «صفة الصفوة» عن عيسى بن فروخ، والمناوي في «فيض القدير» (٤/ ٦٢).

(٤) ذكر قول السبكي المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٨١).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٣٠). وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال في «المجمع» (٣/ ٦١): =

عن زيارة القبور فزوروها، فإنَّها تذكركم الآخرة»[١]، وعن ابن مسعود أنَّه ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنَّها تزهد في الدنيا**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه [أنَّه] ﷺ قال: «**زوروا القبور فإنَّها تذكّر الموت**»[٣].

وعن بريدة رضي الله عنه [أنَّه] ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر، ولا تقولوا هجراً**»[٤].

وعن أنس رضي الله عنه عنه ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنَّها ترق القلب وتدمع العين، وتذكِّر الآخرة، ولا تقولوا هُجراً**»[٥].

قال العلماء: ليس للقلوب ـ سيَّما القاسية ـ أنفع من زيارة القبور، فزيارتها وذكر الموت يردع عن المعاصي، ويليِّن القلب القاسي، ويذهب الفرح وتهون المصائب، وزيارة القبور تبلغ في رفع رين القلب، واستحكام دواعي التّوبة من الذّنب، ما لا يبلغه غيها، فإنَّه وإن كان مشاهدة المحتضَر تزعج أكثر، لكنه غير ممكن في كلِّ وقت، وقد لا تتفق لمن أراد علاج قلبه، بخلاف الزيارة.

= رجاله رجال الصحيح، قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢/ ١٣٧): وفيه أيوب بن هانىء مختلف فيه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» برقم (١٥٧١)، والحاكم في «مستدركه» برقم (١٣٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ أتم.

(٣) رواه مسلم (٢٣٠٤)، ورواه الحاكم، وابن ماجه مختصراً.

(٤) تكرّر قول بريرة بدل بريدة، أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٦١)، والنسائي في «سننه» برقم (٢٠٣٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢٣٧)، والحاكم من وجهين (١/ ٥٣٢).

وللزيارة آداب: منها: أن لا يكون عكوفه على الأجداث فقط، فإنَّها حالة تشاركه فيها البهائم، بل يقصد بها وجه الله، وإصلاح فساد قلبه[١]، وما فيه نفع للميِّت، بدعائه له، وقد كان الإذن منه ﷺ بعد أن تمهَّدت قواعد الإسلام، وانمحقت كلمات الشّرك، فأَمِنَ مما كان يحذره على أمَّته، ولكنَّه ﷺ احتاط، فنهى عن الهُجر - بضم الهاء - وهو الباطل من القول.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة - قدَّس الله روحه -: قد أذن النبي ﷺ في زيارتها بعد النهي، وعلَّله بأنَّها تذكرْ الموت والدار الآخرة، وأذن إذناً عاماً في زيارة قبر المسلم والكافر، والسَّبب الذي ورد عليه لفظ الخبر يتناول الكافر، والعلَّة موجودة في ذلك كله، وقد كان النبي ﷺ يأتي قبور البقيع والشّهداء للدّعاء والاستغفار لهم، فهذا المعنى يختص بالمسلمين. انتهى[٢].

وإذا رأيت هذا الإذن لم تجده في جميع رواياته مطلقاً؛ بل مقيّداً بالنّهي عمَّا هو مخالف لما حمل الشارع على الإذن فيه، من التّعليل الذي هو المقصود من هذه الإباحة.

وقد علَّمنا ﷺ كيفية الزيارة كما علَّم بريدة، أنَّه ﷺ كان يعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: **«السَّلام عليكم يا أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، نسأل الله لنا ولكم العافية»**[٣].

وروي عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت لرسُول الله ﷺ: كيف أقول يا رسُول الله في زيارة القبور؟ قال: **«قولي السَّلام على أهل الدِّيار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون»**[٤].

---

(١) «فيض القدير» (٤/٨٨).

(٢) انظر: «الأخنائية».

(٣) أخرجه مسلم برقم (٩٧٥).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٩٧٤).

وروي عن أبي هريرة ﵁ أنَّه ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله عن قريب لاحقون**»[(١)].

وعن ابن عبّاس ﵄ أنَّه ﷺ مرَّ بقبور المدينة فأقبل عليهم، فقال: «**السّلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر**»[(٢)]، فإنَّه ﷺ بيَّن لنا فائدة زيارة القبور، وهي إحسان الزّائر إلى نفسه، وإلى أهل القبور.

أما إحسانه إلى نفسه فذكر الموت والآخرة، والزّهد في الدّنيا، والاتّعاظ والاعتبار.

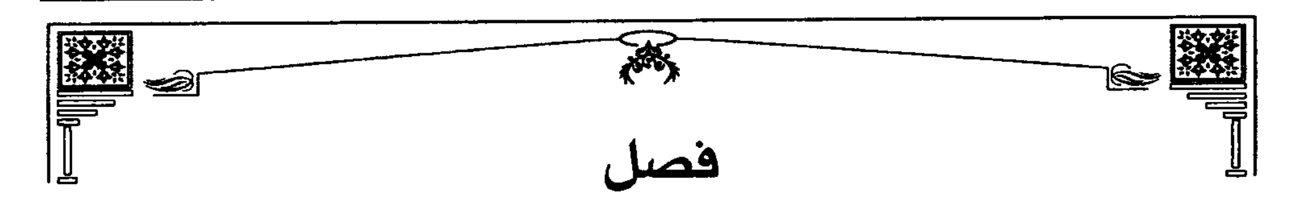
وأما إحسانه إلى أهل القبور، فبالسلام عليهم، كما كانوا في حال حياتهم، والدعاء لهم بالرحمة والمغفرة، وسؤال العافية لهم من جميع محنهم.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٠٥٣)، والطبراني في «الكبير» «١٢/ ٨٤»، وقال الترمذي: حديث ابن عباس حديث حسن غريب.



فصل

[كيد الشّيطان ببني آدم حتى عظّموا القبور]

فانظر كيف مهدَّ لنا [النبي] ﷺ أصول هذا الأمر، الذي أباحه لنا بجميع أموره، ولم يبق لنا شعبة نتشبَّث بها، خوفاً علينا من كيد الشّيطان وشروره، فإنَّ الشّرك بقبر الرجل المعروف بالصّلاح، أقرب إلى النّفس من الشّرك بالأحجار، لما أنَّ للشيطان من دسائس[1] يلقيها في قلوب بني آدم، وقد أدخلها في قوالب يريهم أنَّها [بظواهرها] شرعيَّات، [وما هي إلاّ زخارف] وهنّ تمويهات، ثم إذا ألفوها لم تكد أن تفارقها النّفوس ولو قطّعت بالسّيوف.

فممَّا ألقاه إليهم بكيده أن قال: إنَّ هؤلاء قوم صالحون وعند الله مقرّبون، ولهم [عنده] ما يشاؤون، ولهم الجاه الأعلى، والمقام الرَّفيع الأسمى، فمن قصدهم لا يخيِّب سعيه، ولا يطيش رأيه، وإنَّ ببركتهم تدفع البليّات وتقضى الحاجات، وبشفاعتهم يتقرَّب زوَّارهم إلى الله الغفَّار، فتحطَّ عنهم بشفاعتهم عند الله الأوزار.. إلى غير ذلك من الدلائل التي يملأ بها قلوب أهل الأماني، بمثل هذه المعاني فيتلاعب بعقولهم السخيفة وآرائهم النَّحيفة[2]، ويحسِّن لهم البدع والمنكرات، بما يلقيه إليهم من الحكايات والخرافات، ويحثُّهم على التقرّب إلى أهل القبور بما يقدرون عليه من النّحر والنّذور والطّواف، والتّزيين بالزِّين[3] المحرَّمة من القصب والذّهب والفضّة

---

(١) في ط: وساوس.

(٢) في ط: الضعيفة.

(٣) في ط: وتزيينها بالزينة.

وتعليق القناديل، وإيقاد شموع العسل، وتصفيح الجدران والأعتاب، والسّقوف والأبواب بالفضة والذّهب وغيرهما، ممّا يجاوز الحساب، ويفهِّمهم أنَّهم كلَّما زادوا في مثل ذلك أحسنوا كل الإحسان، فدخلوا الجنان، ثم ما كفاه ذلك حتى استخفَّهم، فدعاهم إلى أن يطلبوا منهم النصر على الأعداء، والشّفاء من عضال الدّاء، فأجابوه إلى ما دعاهم مسرعين، وزادوا على ذلك بأن طلبوا منهم بقاء الحياة لأولادهم، فتراهم يقولون: قد علقنا أولادنا عليهم! ومنهم من يطلب منهم النسل إذا كان عقيماً! والشفاء إذا كان سقيماً! وكثيراً منهم[1] يطلب منهم منصباً فيه أخذ أموال العباد، والسعي في الأرض بكل فساد، فيجيء إليهم ويلازمهم، معتقداً أنَّ من لازمهم قضيت حاجته، ونجحت سعايته، واقترنت سعادته، وإذا فتحت أبواب بيوت قبورهم المذهبة، ورفعت ستور الأبواب المطلاة المطرَّزة، وفاحت تلك الروائح المسكيَّة من الجدران المخلَّقة، وجد هذا الزائر في فؤاده من الخشية والرعب ما لا يجد أدنى معشار جزء من عُشْره بين يدي خالق السموات والأرضين! وإلٰه جميع العالمين، فيدخل إلى القبر خاشعاً ذليلاً متواضعاً لا يخطر في قلبه مثقال ذرّة من غير إجلاله، منتظراً فيض كرمه ونواله! فأقسم بالله أنَّه لم يتصوره بشراً قد وضع بأكفانه في لحده، ولو سلّمنا أنَّه خطرت له وهو عنده تلك الخطرة لتعوَّذ بالله منها، ووقف عند حدّه، ويا خيبة[2]! من أنكر عليهم حالهم، ويا شناعة من ردَّ عليهم أمرهم! ويا خسارة من علَّمهم وأرشدهم! فإنَّ ذلك عندهم قد تنقّص حقَّ الأولياء، وهضمهم مرتبتهم من السموِّ والارتقاء. فبالله عليك أيُّها النَّاظر! إلاّ ما قابلت أفعالهم هذه، مع ما ورد عن سيِّد الأنام ﷺ متأملاً كيفيَّة إذنه بالزيارة بعد المنع، وانظر إلى سبب المنع

---

(١) في الأصل: وكثيراً ممن يطلب منهم، والمثبت من ط.

(٢) في ط: مصيبة.

والإذن، وما علَّل النبي ﷺ [به] الإذن وجعله في حكم الغاية له والشَّرط، وقد نهى عن أشياء كثيرة ربَّما تقع، كما ثبت كلّ ذلك في الأحاديث الصَّحيحة، وكان يعلِّمهم كيفيَّة القول والعمل، ويفعل أمامهم ويفصل لهم هذه الجمل سدّاً للذرائع، وقطعاً عن هذه المطامع؛ ولم يزل هذا دأبه ﷺ حتى أوصى بما يناسب ذلك، ولم تزل الصَّحابة والسَّلف الصَّالح على هذا العمل المتَّبع الراجح، إلى أن ظفر إبليس بهؤلاء الأخلاف، فحين دعاهم أجابوه من غير خلاف.

وقد تبيَّن لك الفرق بين الزّيارة الشّرعيَّة والزّيارة البدعيَّة بل الشركيَّة، وقد تكلَّم على كلتا الزيارتين العلامة ابن القيم في «إغاثة اللهفان» بما يقرُّ العين، ومن وقف على هذا الكتاب عرف أنَّ ما أباحه هذا العراقي وأضرابه من القبوريين شرك من غير ارتياب، ومن ذهب إلى مشاهد أهل البيت، وغيرهم من الأولياء في بغداد، في مواسم الزِّيارات، تحقَّق ما ذكرناه، واستقلَّ بالنَّظر إلى فعل هؤلاء ما كان يفعله المشركون عند آلهتهم، كالعُزَّى واللات، وقد رأيت والله بعيني رأسي من سجد للأعتاب! معرضاً عن ربِّ الأرباب! ولا أقول إنَّ العوام فقط على هذا المنوال، فكم قد رأينا وسمعنا عمَّن يدَّعي العلم قد فعل هذه الأفعال! وأمَّا من ينتسب إلى طريقة من الطَّرائق الكثيرة فعنده، أنَّ الاستمداد من روحانيَّة مشايخهم والاستغاثة بهم من الواجبات الشَّهيرة، فلا حفظ الله لهم حريماً، ولا صان لهم أديماً، ونسأله سبحانه أن يطهِّر الأرض من أمثالهم ويريح المسلمين من كفرهم وضلالهم.

وأمَّا قوله: واستدلُّوا بقوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تعبد اللات. .**» إلخ، فكذب صريح، فإنَّه لم يستدلّ أحد من المانعين، على عدم جواز نداء غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه غيره سبحانه بمثل هذا الدَّليل، ومن ادَّعى ذلك فعليه البيان. فسقط ما ذكره العراقي من الكلام السخيف كله، ولم تبق

لنا حاجة إلى تزييفه وإبطاله من أصله، لكن لا يبعد أن يقال: إنَّ زيارة قبور الصالحين لا على الوجه[1] المشروع مقدِّمة من مقدِّمات ذلك، وطريق من الطّرق الموصلة إلى ما هنالك، بل إنَّ المنصف إذا وازن بين الفعلين رآهما من نزغة واحدة، ولم يفرق بين الاثنين.

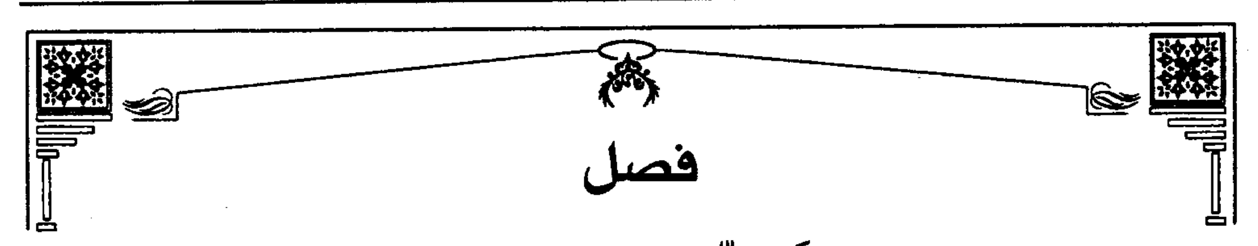
وقوله: لا كما يذكره الخوارج.. إلخ. مردود بما ذكرنا سابقاً، وأراد بالخوارج المانعين لعبادة غير الله تعالى، وقد سبق أوَّل الكتاب بيان ما كان عليه الخوارج، وتبيَّن هناك أنَّهم الذين ابتدعوا في الدِّين ما لم يأذن به الله، كهذا العراقي وأضرابه، ولا بدع في هذا التعبير من مثل هذا الملحد! فقد أطلق إخوانه من اليهود والمشركين، على سيّد الكائنات ﷺ كثيراً من مثل هذه الألفاظ، كما حكى الله تعالى ذلك في كتابه العزيز.

وقوله: المكفِّرة للأمة المحمَّدية.. إلخ. قد تقدَّم الكلام عليه أيضاً، وتقدَّم أنَّ المانعين لم يكفّروا إلاّ من حكم الله تعالى ورسوله ﷺ بكفره.

❋ ❋ ❋

---

(١) في ط: على غير.



فصل

[شبهة أنَّ الشّيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب والرد عليه]

قال العراقي في كلامه على هٰذه الشبهة(١): وقد أخبر النَّبي ﷺ أنَّ الشّيطان قد أيس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب، قال: قال البغوي وغيره: وجزيرة العرب من عدن إلى ديار بكر، فيدخل فيها الحجاز والشَّام ومصر والعراق. . إلى آخر ما قال ممَّا يدلُّ على أنَّ مقصوده، أنَّه لم يقع في هذه الأقطار وما حوته من البلاد، عبادة غير الله تعالى، فلا يكون ما عليه هو وأصحابه الذين هم على شاكلته شركاً وإلحاداً.

والجواب [أن يقال]:

إنَّ كلامه قد اشتمل على مخالفات لأهل العلم كثيرة، وعلى تحريفٍ وكذبٍ لا يسع بيانه مثل هذا الكتاب، ولنقتصر على المهم من ذلك فنقول:

ذكر البخاري في باب هل يستشفع إلى أهل الذّمة ومعاملتهم، من «صحيحه»: وقال يعقوب بن محمد: سألت المغيرة بن عبد الرحمٰن، عن جزيرة العرب؟ فقال: مكة والمدينة واليمامة واليمن. قال يعقوب: العرج أول تهامة. انتهى.

وفي «فتح الباري شرح صحيح البخاري» في هذا الباب: وقال الزَّبير بن بكَّار في أخبار المدينة: أخبرت عن مالك عن ابن شهاب، قال: جزيرة

(١) ص (١٤٤).

العرب: المدينة. قال الزّبير: قال غيره: جزيرة العرب ما بين العذيب إلى حضرموت. قال الزّبير: وهذا أشبه، وحضرموت آخر اليمن.

وقال الخليل بن أحمد: سُمِّيت جزيرة العرب؛ لأنَّ بحر فارس وبحر الحبشة والفرات ودجلة أحاطت بها، وهي أرض العرب ومعدنها، وقال الأصمعي: هي ما لم يبلغه ملك فارس من أقصى عدن إلى أطراف الشَّام.

وقال أبو عبيدة: من أقصى عدن إلى ريف العراق طولاً، ومن جُدَّة وما والاها من السَّاحل إلى أطراف الشام عرضاً، والعَرْج ـ بفتح المهملة وسكون الراء، بعدها جيم ـ موضع بين مكة والمدينة. وهو غير العرَج ـ بفتح الراء ـ الذي من الطائف.

وقال الأصمعي: جزيرة العرب ما بين أقصى عدن أبين إلى ريف العراق طولاً، ومن جُدة وما والاها إلى أطراف الشام عرضاً. وسُمِّيت جزيرة العرب: لإحاطة البحار بها، يعني بحر الهند، وبحر القلزم، وبحر فارس، وبحر الحبشة، وأضيفت إلى العرب، لأنَّها كانت بأيديهم قبل الإسلام، وبها أوطانهم ومنازلهم، لكن الذي يمنع المشركون من سكناه منها الحجاز خاصة، وهو مكة والمدينة واليمامة، وما والاها، لا فيما سوى ذلك مما يطلق عليه اسم جزيرة العرب؛ لاتّفاق الجميع على أنَّ اليمن لا يمنعون منها، مع أنَّها من جملة جزيرة العرب، هذا مذهب الجمهور، وعن الحنفية يجوز مطلقاً إلا المسجد، وعن مالك يجوز دخولهم الحرم للتجارة، وقال الشافعي: لا يدخلون الحرم أصلاً، إلا بإذن الإمام، لمصلحة المُسلمين خاصة. انتهى ما في «فتح الباري»[1].

وفي عمدة ابن رشيق القيرواني: قال أبو عبيدة: هي أي جزيرة العرب في الطّول: ما بين حفر أبي موسى إلى أقصى اليمن، وفي العرض ما بين

(١) (٦/ ٢٨٤ ـ ط دار الفكر).

يبرين إلى السَّماوة، وقال الأصمعي: هي ما بين بحران والعذيب، حكاه ابن قتيبة عن الرياشي عنه.

قال: وحكى عنه أبو عبيدة أنَّها في الطّول: من أقصى عدن إلى ريف العراق. وفي العرض: من جدة وما ولاها من طراز البحر إلى طراز الشام. انتهى.

وفي المناوي «شرح جامع الصغير»: مثل ما نقله القيرواني عن أبي عبيدة، وفيه: سُمِّيت جزيرة العرب؛ لأنَّ البحار والأنهار اكتنفتها من أكثر الجهات، كبحر البصرة وعمان وعدن، وبحر الشّام والنّيل ودجلة والفرات، قال أهل الهيئة: جملة ولاية العرب من الحجاز واليمن والطائف وغيرها، وبواديهم واقعة بني الضّلع الغربي من بحر فارس، والشّرقي من بحر القلزم، فلذا تُسمَّى العمارة الواقعة بينها: جزيرة العرب. انتهى[1].

ومثل ذلك في كتاب «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب»، و«السبائك»، و«تاريخ جزيرة العرب»، وغيرها مما يطول استقصاؤه.

فتفريع العراقي على ما نقله عن البغوي ـ والله أعلم بصحة نقله ـ ليس بسديد؛ لأنَّه لم يقل أحد من أئمة هذا الشأن: إنَّ الشام ومصر والعراق من جزيرة العرب، وهكذا شأن االعراقي هذا التَّساهل في كل شيء، فكأنَّ الأمور تابعة لما يتوهَّمه، والحق تابع لما يراه. ووالله إنِّي لآسف أن يكون مثله من [أهل] الملة المحمَّدية، فضلاً أن يعدَّ من أهل السنّة والجماعة!

وفي «نهاية الأرب»[2]: ودور هذه الجزيرة على ما ذكره السّلطان عماد الدِّين صاحب حماة في «تقويم البلدان»: سبعة أشهر وأحد عشر يوماً تقريباً

---

(١) «فيض القدير» (٢/ ٣٥٧).

(٢) «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» للقلقشندي في الفصل الرابع في ذكر مساكن العرب.

بسير الأثقال، فمن البلقاء إلى الشَّراة: نحو ثلاثة أيام، ومن الشّراة إلى أيلة نحو ثلاثة أيام، ومن أيلة إلى الحجاز، وهي فرضة المدينة النبوية نحو عشرين يوماً، ومن الحجاز إلى ساحل الجحفة نحو ثلاثة أيام، ومن ساحل الجحفة إلى جدة، وهي فرضة مكة المشرَّفة ثلاثة أيام، ومن جدة إلى عدن نحو من شهر، ومن عدن إلى سواحل مهرة نحو من شهر، ومن مهرة إلى عمان من البحرين نحو من شهر، ومن عمان إلى هجر من البحرين نحو من شهر، ومن هجر إلى عبّادان من العراق نحو خمسة عشر يوماً، ومن عبَّادان إلى البصرة نحو يومين، ومن البصرة إلى الكوفة نحو اثنتي عشرة مرحلة، ومن الكوفة إلى بالس نحو عشرين يوماً، ومن بالس إلى سلميّة نحو سبعة أيام، ومن سلميّة إلى مشارف الغوطة[1] نحو أربعة أيام، ومن مشارف غوطة دمشق إلى مشارف حوران نحو ثلاثة أيام، ومن مشارف حوران إلى البلقاء نحو ستّة أيّام، فهذا هو الدور المحيط بجزيرة العرب. انتهى.

وقد علمت أنَّ ما ذكره العراقي خارج عن الدور، فلا يعد من الجزيرة بوجه من الوجوه، وكيف يسوغ إدخال العراق ومصر والشام في جزيرة العرب، وفي هذه المواضع من عبَّاد الأوثان ما لا يحيط به نطاق الحصر والإحصاء، والعراقي قد ناقض نفسه بنفسه، ثم إنَّا لو سلَّمنا أنَّ تلك المواضع داخلة في الجزيرة، والحديث الذي أورده يشملها، فلا فائدة له في ذلك؛ لأنَّ الحديث لا يدلّ على عدم وقوع الكفر في جزيرة العرب، وانتفاء الإلحاد منها، فإنّ الدلالة على ذلك مما لا يحتاج في إبطالها إلى دليل، سيَّما على زعم العراقي، أنَّ العراق والشام ومصر داخلة في تلك الجزيرة، وقد ارتدّ عند وفاة النبي ﷺ بعض قبائل العرب الساكنين في [صميم] جزيرة العرب، الذين[2] قاتلهم

(١) في الأصل: إلى مشاريق غوطة.. ومن مشاريق غوطة.. إلى مشاريق حوران.

(٢) في ط: حتى.

الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه، بعد أن حكم [هو والصحابة] بكفرهم، ولا يبعد أن يقال: مراد النبي ﷺ بقوله: «**إنَّ الشّيطان قد يئس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب**»(١)، أنَّ الشّيطان لا يطمع أن يعبده المؤمنون في جزيرة العرب، وهم المصدِّقون بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من عند ربه المذعنون له الممتثلون لأوامره، المنتهون عما نهى عنه، ولا شك أنَّ من كان على هذه الصفة [فهو على بصيرة ونور من ربه]، لا يطمع فيه الشيطان أن يعبده.

وأما من تَسمَّى باسم الإسلام وتعاطى كل ما نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام، فهو باسم المنافق أحق منه باسم المؤمن، وإن صام وصلَّى فيما يسر ويعلن، فمن التجأ إلى غير الله وتوكَّل عليه [ودعاه] في سرِّه ونجواه، لم يكن مؤمناً برب العالمين و[لا] مقراً بوحدانية إلٰه السموات والأرضين.

فوجود مثل هذا في جزيرة العرب لا ينافي الحديث الصّحيح، كما لا يخفى على من له قلب [سليم] وعقل رجيح، وإطلاق المصلِّين على المؤمنين كثير في كلام العارفين.

قال المناوي في «شرح الجامع الصغير» ـ عند الكلام على الحديث السابق ذِكْره ـ: «إنَّ الشيطان قد يئس». في رواية: «أيس» أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب، أي من أن يعبده المؤمنون، يعني من أن تعبد الأصنام ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: ٤٤].

قال البيضاوي: عبادة الشّيطان عبادة الصّنم، فجعل عبادة الصَّنم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٢٢)، وأخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢/ ١١٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤/ ٧٣)، وغيرهم عن جابر بن عبد الله، وقال في «المجمع» (١٠/ ٢٧): رواه البزار وإسناده حسن.

عبادته؛ لأنَّه الآمر به الداعي إليه. وعبَّر عن المؤمنين بالمُصلّين، كما في حديث: «**نهيت عن قتل المُصلّين**»، لأنَّ الصلاة هي الفارقة بين الإيمان والكفر، وأظهر الأفعال الدالة على الإيمان.

قال: والمراد أنَّ الشّيطان أيس أن يعود أحد من المؤمنين إلى عبادة الصَّنم، ويرتدّ إلى شركه في جزيرة العرب.. أو لأنَّ المراد أنَّ المصلّين لا يجمعون بين الصلاة وعبادة الشيطان(١). انتهى ما هو المقصُود.

ويحتمل أن يراد بالمصلِّين: أناس معلومون(٢)، بناء على أن تكون أل للعهد، وأن يراد بهم الكاملون فيها، بناء على أن تكون للكمال، وهم خير القرون. يؤيِّد ذلك قوله ﷺ في آخر الحديث: «**ولكن في التَّحريش بينهم**».

قال المناوي: خبر مبتدأ محذوف، أي هو في التَّحريش، أو ظرف لمقدر، أي يسعى في التحريش، أي في إغراء بعضم على بعض، وحملهم على الفتن والحروب والشحناء.

قال القاضي: والتّحريش الإغراء على الشيء بنوع من الخداع، من حرش

---

(١) «فيض القدير» (٢/ ٣٥٧).

(٢) قال الشيخ الفقي ﷺ: المراد من المصلين من يصلون الصلاة المعتبرة عند الله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، أي الذين يفقهون ما يقولون: ويعقلون كل كلمة يقولونها وكل حركة يتحركون بها في الصلاة، فلا يستطيع الشيطان: أن يغوي من يكبِّر الله وهو فاهم، ومن يحمده ويثني عليه ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وغيرها، وهو فاهم، وغيرها من القرآن كله، وإنما لعب الشيطان بالمقلِّدين الذين هم عن صلاتهم ساهون، فذكر المصلين في الحديث قيد لازم، وبه العبرة لا بالمكان ولا بالزمان، فالمؤمن الفاهم عن الله ورسوله الفقيه في دينه حيث كان ومتى وجد لا يغلبه الشيطان، والمقلد الأعمى الذي يدين دين الآباء والشيوخ لا يكون إلا لعبة في يد الشيطان، ولو كان حول الكعبة طائفاً وعندها مقيماً وعاكفاً.

الضب الصيّاد خدعه، وله [للشيطان] من دقائق الوساوس ما لا يفهمه إلا البصير بالمعارف الإلهيَّة.. ثم قال بعد أسطر: وقال الطّيبي: لعلّ المصطفى ﷺ أخبر بما يكون بعده من التَّحريش، الواقع بين صحبه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، أي أيس أن يعبد فيها، ولكن طمع في التّحريش، وكان كما أخبر ﷺ فكان معجزة. والتَّحريش: الإغراء على الشيء كما مرَّ من حرش الضّب الصّياد، أي يخدعهم ويغري بعضهم على بعض، ولمَّا ذكر العبادة أولاً سمَّاهم المصلِّين تعظيماً لهم، ولما ذكر الفتنة أخرجه مخرج التحريش، وقد انتشر الآن تلبيسه وهو الإغراء بين البهائم توهيناً وتحقيراً لهم[1].

قال حجة الإسلام[2]: روي أنَّ إبليس تمثَّل لعيسى عليه الصّلاة والسّلام فقال: قل لا إلٰه إلا الله، فقال: كلمة حق ولا أقولها بقولك، وذلك لأنَّ له تحت الخبر تلبيسات لا تتناهى، وبه يهلك العلماء والعبّاد، والزّهاد والفقراء والأغبياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر، ولا يرضون لنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة.

قال الحجّة: وقد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد، والمذاهب والأعمال، فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له، ليعلم أنه لمّة ملك أو لمّة شيطان؟ وأن يحقِّق النَّظر فيه بنور البصيرة، لا بهوى من الطَّبع، بل بنور اليقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١][3]. انتهى[4].

---

(١) العبارة في «فيض القدير».. أخرجه مخرج التحريش، وهو الإغراء بين البهائم توهيناً وتحقيراً. قال حجة.

(٢) في ط: الغزالي. وهو محمد بن محمد بن محمد الغزالي. (ت ٥٥٥هـ). له كثير من المصنفات.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/٣ ط دار الفكر).

(٤) «فيض القدير» (٢/٣٥٧).

وأنت تعلم أنَّ الدَّليل متى طرقه الاحتمال بطل الاستدلال. فلا يفيد الحديث ما ادَّعاه العراقي أصلاً.

وأنا أقول في عدم منافاة قول المانعين لمدلول الحديث المذكور: إنَّ أنواع الشّرك كثيرة، والمشركون مختلفون، ولذلك قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فجمع الظّلمات، وهي ما عدا الحق، ووحَّد النور وهو الحق، فمن المشركين من كان يعبد الأصنام وهي جمع صنم، وهو ما يصور وينقش [على صورة إنسان أو غيره] ليعبد.

ومنهم: من كان يعبد الشَّمس، ومنهم: من كان يعبد القمر، ومنهم: من كان يعبد الملائكة، ومنهم: من كان يعبد الجن، ومنهم: من كان يعبد الأنبياء والصَّالحين بسبب المغالاة فيهم، ومنهم: من كان يعبد النار، ومنهم: من كان يعبد البقر، ومنهم: من كان يعبد الخيل.. إلى آخرين ممن استوعب أكثرهم الحافظ ابن القيم عليه الرحمة في كتابه «إغاثة اللهفان»(١). حتى إنَّ عبّاد الأصنام لم يتَّفقوا على رأيٍ واحد، ولم يسلكوا في طريقة واحدة، كما نبَّه على ذلك الحافظ ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ في كتابه: «اقتضاء الصراط المستقيم».

إذا عرفت ذلك فلا يلزم من قول المانعين: إنَّ من التجأ إلى غير الله سبحانه، وطلب ما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى، قد أشرك به وألحد في دينه، وطعن في إيمانه ـ مخالفة لقوله ﷺ ـ: «**إنَّ الشيطان قد أيس من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**»، على أي احتمال كان من الاحتمالات

(١) انظر فيه: ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق.

السّابقة، وإن قلنا: إنَّ نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله سُبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦] ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، شامل للنهي عن جميع أنواع الشِّرك؛ وذلك لأنَّه سبحانه نظر إلى الأمر المشترك الجامع بين الأنواع المختلفة، وهو منشأ الشّمول والعموم.

وأمَّا قول العراقي: ولكنّ أعداء الله الخوارج صدَّقوا بالحديث الأول، مع أنَّه لا ملمس لهم فيه، وكذبوا بالحديث الثّاني.. إلخ، فهو كلام قد اشتمل على محض الافتراء والكذب، وقصد بأعداء الله: القوم الذين قصروا التّوحيد عليه سبحانه، وحافظوا على حدوده وأوامره ونواهيه، وذبُّوا عن دينه بأسنَّتهم وألسنتهم، واتخذ نفسه ومن هو على شاكلته من الملحدين في دين الله، الملتجئين إلى غيره، المحرِّفين لكلمه [عن مواضعه]، من أحبّاء الله تعالى وأوليائه، وما أشبه هذا بقول اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله: صدقوا بالحديث الأول.. إلخ. افتراء وبهتان، فإنَّ المانعين، ولله تعالى الحمد، صدَّقوا بكل ما جاء به الرسول ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣]، ولم يستدلّ أحد بالأول، كما أنَّه لم يردّ أحد الحديث الثاني، بل إنَّه عين معتقدنا، وأمَّا العراقي وأضرابه فلم يصدِّقوا بشيء مما جاء به الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام وإن صدَّقوا بالبعض فقد كفروا بالبعض الآخر، فهم ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، يدلُّك على ذلك ما أسلفناه في بيان ما اشتمل عليه كلامه من الخلط والخبط.

وأما قوله: وذلك أنَّهم قد بنوا قواعد مذهبهم.. إلخ.. فقد ذكرنا في مواضع مما سبق ما يردُّه ويبطله، ويثبت أنَّ نداء غير الله سبحانه بما لا يقدر عليه غيره من شعب الشّرك.

وقوله: علمنا العبادة التي هي الدِّين.. إلخ. لا أصل له، وحديث الإسلام لا يدلُّ على حصر العبادة فيما حواه[1]، وقد سبق أيضاً بيان المراد بالعبادة في كلام الله ورسوله.

وقوله: فانظر إلى العبادة المختصّة.. إلخ. مما يدلُّ على جهله، حيث ساوى بين الشّرك الظّاهر والخفي! فإنَّ الرّياء شرك خفيٌّ كما نبَّه عليه الأجلّة ولا كذلك الالتجاء إلى غيره سبحانه في كلِّ ما ينوب، وكون التوسُّل ليس بعبادة قد مرَّ إبطاله. على أنَّ قوله: بل هو محض عبوديّة لله، يناقضه! وهو ممّا يوجب العجب، حيث جعل عبادة غيره عبادة له! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

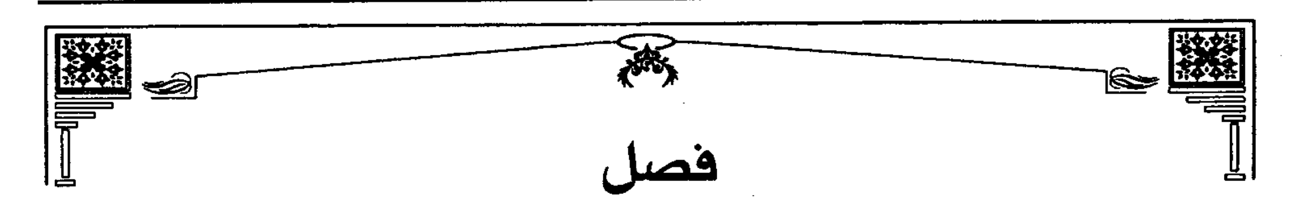
وقوله: حيث نظر المسلم.. إلخ.

[هو] بعينه كلام عباد الأصنام والمشركين الطّغام، فقد كانوا يقولون في أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٓ﴾ [الزمر: ٣]، وسيأتي إبطال ذلك إن شاء الله قريباً.

وقوله: كما أنَّ المسلم.. إلخ. مما يدلُّ على أنّه لم يتصوّر محل النزاع، ولا عرف مثار البحث والدِّفاع، فإنَّ طلب الدّعاء من الأحياء مسألة، ونداء غير الله تعالى أمواتاً وأحياءً بما هو من خصائص الألوهية مسألة أخرى، وبين المسألتين بون بعيد، وفرق ما عليه من مزيد.

* * *

(١) في ط: سماه.



فصل

[عدم فهم العراقي لكلام شيخ الإسلام في الوسائط]

قال العراقي[١]: الشّبهة التّاسعة: استدلالهم بعبارة كتاب «الإقناع»، في فقه الحنابلة عن الشَّيخ ابن تيميَّة: منْ جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكّل عليهم: كفر إجماعاً، وجعلوا توسّل أهل السّنة والجماعة بالأنبياء والصّالحين ممن جعل بينه وبين الله وسائط [يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم][٢]. قال: والجواب عن هذه الشّبهة من وجوه:

الأول: أنَّ مراد الشّيخ بهذه [الوسائط][٢] ما يعتقده الكفّار من الأرباب - إلى أن قال بعد كلامٍ طويل في نقل نصوص شيخ الإسلام للدلالة على ذلك المراد.

الوجه الثّاني: أنَّ الشّيخ ابن تيميّة وابن القيّم صرَّحا [في جميع كتبهما][٢] أنَّ الطّلب من أهل القبور ودعاءهم لا يكون شركاً مخرجاً عن الملّة، بل عندهما بحسب نفسهما ممنوع تحريماً.. ثم أطال الكلام.

وذكر وجهاً ثالثاً، ورابعاً وخامساً، وسادساً، حاصلها: أنَّ مراد ابن تيمية أنَّ اتخاذ الوسائط المخرج عن الملّة ليس هو ما عليه القبوريون من الاستغاثة بهم وندائهم في الشّدائد، على طريق التّسبب والالتجاء إليهم في المهمَّات[٣]، بل ما كان عليه الجاهلية من اتّخاذ الأصنام أرباباً.

---

(١) ص (١٤٥).

(٢) زيادة في «صلح الإخوان».

(٣) في ط: الملمات.

✍ والجواب عما ذكره العراقي تفصيلاً:

وبيان ما اشتمل عليه كلامه من الزيغ يطول جدًّا. ولكن نشير إلى الجواب إجمالاً، ورُبَّ إشارة أبلغ من تصريح، فنقول:

إنَّ شيخ الإسلام قدَّس الله روحه صرَّح في كثير من كتبه بما نقله صاحب «الإقناع» عنه، ولو استوعبنا نصوص كلامه لاحتاج ذلك إلى أسفار كثيرة، وما لا يدرك كلُّه لا يترك كلُّه.

قال رحمه الله تعالى(١) في مسألة رجلين تناظرا: فقال أحدهما: لا بدّ لنا من واسطة بيننا وبين الله، فإنَّا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك.

✍ [الجواب]:

الحمد لله ربّ العالمين، إن أراد بذلك أنَّه لا بدّ من واسطة يبلِّغنا أمر الله [ونهيه ودينه] فهذا حقٌّ، فإنَّ الخلق لا يعلمون ما يحبّه الله ويرضاه، وما أمر به وما نهى عنه، وما أعدّه لأوليائه من كرامته، وما وعد به أعداءه من عذابه، ولا يعرفون ما يستحقُّه الله من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، التي تعجز العقول عن معرفتها، وأمثال ذلك، إلاّ بالرّسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده، فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقرِّبهم الله لديه زلفى، ويرفع درجاتهم، ويكرمهم في الدّنيا والآخرة.

وأمّا المخالفون للرسل فإنَّهم ملعونون، وهم عن ربهم ضالّون محجوبون، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦]، وقال

---

(١) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

قال ابن عبَّاس: تكفّل الله تعالى لمن قرأ القرآن [وتدبَّره]، وعمل بما فيه بأن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. وقال تعالى عن أهل النَّار: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]، وقال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

ومثل هذا في القرآن كثير، وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنّصارى، فإنَّهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده، وهم الرّسل الذين بلَّغوا عن الله تعالى أمره وخبره، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل.

والسُّور التي أنزلها الله تعالى بمكة، مثل: الأنعام والأعراف وذوات ﴿الر﴾ و﴿حم﴾ و﴿طس﴾، ونحو ذلك، هي متضمّنة لأصول الدين، كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر.

وقد قصَّ الله تعالى قصص الكفَّار الذين كذَّبوا الرُّسل، وكيف أهلكهم ونصر رسله، والذين آمنوا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

فهذه الوسائط تطاع وتتبع، ويقتدى بها، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإن أراد بالواسطة: أنَّه لا بدَّ من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار، مثل: أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألونه ذلك، ويرجعون(١) إليه فيه. فهذا من أعظم الشّرك الذي كفَّر الله به

---

(١) في «الفتاوى»: يرجون.

المشركين، حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء، يجتلبون بهم المنافع ويدفعون[١] بهم المضار.

لكنَّ الشَّفاعة لمن يأذن الله له فيها حق، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وقال طائفة من السّلف: كان أقوام يدعون المسيح والعُزير والملائكة، فبيّن الله تعالى لهم أنَّ الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضرِّ عنهم ولا تحويلاً، وأنَّهم يتقرَّبون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]، فبيَّن سبحانه أنَّ اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر. فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكَّل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذّنوب

(١) في «الفتاوى»: ويجتنبون.

وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسدَّ الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].. إلى أن قال رحمه الله: وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، ومثل هذا كثير في القرآن.

ومن سِوَى الأنبياء من مشايخ العلم والدِّين، فمن أثبتهم وسائط بين الرَّسول وأمَّته يبلِّغونهم النَّاس ويعلِّمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم، فقد أصاب في ذلك، وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة، لا يجتمعون على الضَّلالة، وإن تنازعوا في شيء ردُّوه إلى الله والرَّسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل واحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسُول الله ﷺ، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام: **«العلماء ورثة الأنبياء، فإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»**[1].

---

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد (١٩٦/٥)، وأبو داود في «سننه» برقم (٣٦٤٢)، والترمذي في «جامعه» (٢٧٥٢)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٢٢٧)، وابن حبان في «صحيحه» برقم (٨٨)، وغيرهم كلهم عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ =

وإن[١] أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه، كالحجَّاب الذين بين الملك ورعيَّته، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، فالله إنَّما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أنَّ الوسائط عند الملوك يسألون الملك الحوائج للناس لقربهم منه، والنَّاس يسألونهم أدباً منهم، أن يباشروا سؤال الملك؛ أو لأنَّ طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك، لكونهم أقرب من الطَّالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط [بين الخلق وبين الله] على هذا الوجه، فهو كافر مشرك، يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وهؤلاء مشبّهون لله [بالملوك]، شبَّهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أنداداً، وفي القرآن من الردّ على هؤلاء ما لم تتَّسع له هذه الفتوى، فإنَّ الوسائط التي بين الملوك وبين الناس تكون على أحد وجوه ثلاثة:

إمّا لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه، ومن قال: إنَّ الله تعالى لا يعلم أحوال عباده، حتى يخبره بتلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم،

= قال: حديث بلغني أنك تحدِّثه عن رسول الله ﷺ، قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا.

قال: أما قدمت لتجارة؟

قال: لا.

قال: ما جئت إلاّ في طلب هذا الحديث. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً..»، وفيه: «إن العلماء ورثة الأنبياء». قال في «المجمع» (١/ ٣٣٥): رواه البزار ورجاله موثقون.

وأخرجه ابن قانع في «معجم الصحابة» كما ذكره الحافظ في «الإصابة» ثم قال: أورده ابن قانع فوهم وهماً قبيحاً، فأورد من طريق عاصم بن رجاء عن داود بن جميل عن كثير بن قيس، سمعت رسول الله ﷺ يقول!! فذكره.. وهذا سقط منه الصحابي.. «الإصابة»، وانظر: «تهذيب التهذيب»، و«التقريب» في ترجمة كثير بن قيس.

(١) في مطبوعة الشيخ حامد: وأمّا من.

فهو كافر. بل هو سبحانه يعلم السّر وأخفى، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، وهو السَّميع البصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللّغات على تفنُّن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرَّم بإلحاح الملحِّين.

والوجه الثاني: أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يعينونه، فلا بدَّ له من أنصار وأعوان، لذلّه وعجزه، والله سُبحانه ليس له ظهير ولا ولي من الذلّ، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، وكلُّ ما في الوجود من الأسباب، فهو خالقه وربه ومليكه، فهو الغنيُّ عن كلِّ ما سواه وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم، وهم في الحقيقة شركاؤهم في الملك، والله تعالى ليس له شريك في الملك، بل لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

والوجه الثَّالث: أن يكون الملك ليس مريداً لنفع رعيته، والإحسان إليهم ورحمتهم، إلا بمحرِّك يحرِّكه من خارج، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظه أو من يدلّ عليه، بحيث يكون يرجوه ويخافه، تحرّكت إرادة الملك وهمّته في قضاء حوائج رعيَّته، إما لما حصل في قلبه من كلام النَّاصح الواعظ المشير، وإمّا لما يحصل له من الرغبة والرهبة من كلام المدل عليه، والله تعالى هو ربُّ كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأشياء إنَّما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض، فجعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له، ويشفع فيه ونحو ذلك، فهو الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب

هذا المحسن الدَّاعي الشَّافع من إرادة الإحسان والدُّعاء والشّفاعة، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يُكرهه على خلاف مراده، أو يُعلمه ما لم يكن يعلم، أو من يرجوه الربُّ ويخافه، ولهذا قال النبي ﷺ: **«لا يقولنّ أحدكم اللَّهمَّ اغفر لي إن شئت، اللّهمّ ارحمني إن شئت، ولكن ليجزم المسألة، فإنَّ الله لا مكره له»**(١).

والشّفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه، كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فبيَّن أنَّ كل من دعا من دونه ليس له نصيب ولا شرك في الملك، ولا هو ظهير، وأنّ شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له، وهذا بخلاف الملوك، فإنَّ الشّافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكاً لهم في الملك، وقد يكون مظاهراً لهم معاوناً لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم، والملك يقبل شفاعتهم تارة لحاجته إليهم، وتارة لخوفه منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه، ومكافأتهم لإيفائهم عليه، حتى أنَّه يقبل شفاعة ولده، وزوجته لذلك، فإنَّه محتاج إلى الزّوجة وإلى الولد، حتى لو أنَّه أعرض عنه زوجته وولده لتضرَّر بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه، فإنَّه إذا لم يقبل شفاعته خاف أن لا يطيعه، أو أن يسعى في ضرره، وشفاعة العباد بعضهم

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» برقم (٣٨٥٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٦٠٧) والطبراني في «الدعاء» برقم (٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه لكنهم كلهم قالوا: ليعزم بدل ليجزم.

عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبته أو رهبته.

والله تعالى لا يرجو أحداً ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الغني، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ٦٦ ـ ٦٨]، والمشركون يتَّخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشّفاعة.. إلى أن قال بعد نحو صحيفة: وكل داع شافع دعا الله سبحانه وتعالى وشفع، فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله تعالى وقدره ومشيئته، وهو الذي يجيب الدّعاء ويقبل الشّفاعة، فهو الذي خلق السّبب والمسبّب، والدّعاء من جملة الأسباب التي قدّرها الله سبحانه وتعالى، وإذا كان كذلك فالالتفات إلى الأسباب وحدها شرك في التّوحيد، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشّرع، بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى، والله يقدر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء، والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى، والأدنى للأعلى، فطلب الشّفاعة والدّعاء من الأنبياء، كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي ﷺ في الاستسقاء، ويطلبون منه الدّعاء، بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعبّاس عمّه، والناس يطلبون الشّفاعة يوم القيامة من الأنبياء، ومحمد ﷺ هو سيّد الشّفعاء، وله شفاعات يختص بها، ومع هذا فقد ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ فإنَّه من صلّى عليَّ مرة صلَّى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنّها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة**

حلّت عليه شفاعتي يوم القيامة»[١].

وقد قال لعمر ـ لما أراد أن يعتمر وودَّعه ـ: «**يا أُخي لا تنساني من دعائك**»، فالنبي ﷺ قد طلب من أمته أن يدعوا له، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم، بل أمره بذلك لهم، كأمره بسائر الطّاعات التي يثابون عليها، مع أنّه ﷺ له مثل أجورهم في كل ما يعملونه، فإنّه قد صحَّ عنه أنَّه ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن دعا إلى الضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[٢]، وهو داعي الأمة إلى كل هدى، فله مثل أجورهم في كل ما اتبعوه فيه [من الهدى]، وكذلك إذا صلّوا عليه فإنَّ الله يصلّي على أحدهم عشراً، وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه [الله] من دعائهم له، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه، وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه ـ ثم قال[٣] بعد أسطر:

والمقصود هنا أنَّ الله لم يأمر المخلوق أن يسأل مخلوقاً، إلاّ ما كان مصلحة لذلك المخلوق [مما يقدر عليه]، إمّا واجب أو مستحب، فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلاّ ذلك، فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك؟ بل قد

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١١/ ٣٨٤) والإمام أحمد في «مسنده» برقم (٧٥٨٨) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج البخاري نحوه من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة».

(٢) أخرجه مسلم برقم (٦٩٨٠)، وأبو داود برقم (٤٦٠٩)، والترمذي برقم (٢٦٧٤) وغيرهم من حديث أبي هريرة كلهم قالوا: «من الإثم مثل آثام» بدل «من الوزر مثل أوزار».

(٣) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

حرّم على العبد أن يسأل العبد ما له إلا عند الضّرورة، وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور، فهذا مثاب على ذلك، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور، فهذا من نفسه أُتي، ومثل هذا السؤال لا يأمر الله تعالى به قطُّ، بل قد نهى عنه، إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصد لنفعه ولا لمصلحة، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه [وحده] ويأمرنا أن نحسن إلى عباده، وهذا لم يقصد لا هذا ولا هذا، فلم يقصد الرَّغبة إلى الله ودعاءه وهو الصَّلاة، ولا قصد الإحسان إلى الخلق الذي هو الزَّكاة، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال، لكن فرق بين ما يؤمر العبد به وما يؤذن له فيه، ألا ترى أنَّه ﷺ قال في حديث السَّبعين ألفاً الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب: «**إنَّهم لا يَسْتَرقُون**»، وإن كان الاسترقاء جائزاً. وهذا قد بسطناه في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أنَّ من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه، كالوسائط التي تكون بين الملوك والرّعيَّة فهو مشرك، بل هذا دين المشركين عبّاد الأوثان، كانوا يقولون إنَّها تماثيل الأنبياء والصَّالحين، وإنَّها وسائل يتقرَّبون بها إلى الله، وهو من الشّرك الذي أنكره الله على النَّصارى، حيث قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، أي: فليستجيبوا لي إذا دعوتهم بالأمر والنَّهي، وليؤمنوا بي أني أجيب دعاءهم لي بالمسألة والتضرُّع، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٧، ٨].. إلى أن قال بعد نحو صحيفة: وقد كان النبي ﷺ يحقِّق هذا التَّوحيد لأمّته، ويحسم عنهم مواد الشّرك، إذ هذا تحقيق قولنا: لا إلٰه إلا الله، فإنَّ الإلٰه كما سبق، هو الذي تألهه القلوب

بكمال المحبة والتَّعظيم، والإجلال والإكرام والرّجاء والخوف، حتى قال لهم: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد**»، وقال له ﷺ رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟ قل ما شاء الله وحده**»، وقال: «**من كان حالفاً فليحلف باللَّه أو ليصمت**»، وقال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، وقال لابن عبَّاس: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جفّ القلم بما أنت لاق، فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلاّ بشيء كتبه الله لك، ولو جهدت أن تضرّك لم تضرّك إلا بشيء كتبه الله عليك**».

وقال أيضاً ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النَّصارى عيسى ابن مريم، إنَّما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»، وقال ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد**»، وقال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ حيث ما كنتم فإنَّ صلاتكم تبلغني**»، وقال في مرضه: «**لعن الله اليهود والنَّصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذّر ما صنعوا، قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتّخذ قبره مسجداً، وهذا باب واسع.

ومع علم المؤمن أنَّ الله ربَّ كل شيء ومليكه، فإنَّه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب، كما جعل المطر سبباً للنَّبات، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وكما جعل الشَّمس والقمر سبباً لما يخلقه بهما، وكما جعل الشَّفاعة والدّعاء سبباً لما يقضيه بذلك، ومثل صلاة المسلمين على جنازة الميت، فإنَّ ذلك من الأسباب التي يرحمه الله تعالى بها، وبها يثيب المصلِّين عليه.

لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أنَّ السَّبب المعيَّن لا يستقلّ بالمطلوب، بل لا بدّ معه من

الأسباب الأخرى، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب، ولم يدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما شاء النَّاس لا يكون إلاّ أن يشاء الله عزَّ وجل.

الثَّاني: لا يجوز أن يعتقد أنَّ الشيء سبب إلاّ بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم، أو [علمه] يخالف الشرع [واتخذه مع ذلك سبباً] كان مبطلاً، مثل من يظن كون النَّذر سبباً في دفع البلاء، وحصول النَّعماء، وقد ثبت في «الصَّحيحين» عن النَّبي ﷺ أنّه نهى عن النَّذر، وقال: «**إنَّه لا يأتي بخير، وإنَّما يستخرج به من البخيل**»[١].

الثَّالث: الأعمال الدينيَّة لا يجوز أن يتّخذ منها شيئاً سبباً، إلاّ أن تكون مشروعة، فإنَّ العبادات مبناها على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله، فيدعو غيره، وإن ظنَّ أنَّ ذلك سبب في حصول بعض أغراضه، ولذلك[٢] لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشَّريعة[٣] وإذا ظنَّ ذلك [محصِّلاً لأغراضه] فإنّ الشَّياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان، فلا يَحلُّ له ذلك، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، إذ الرَّسول ﷺ بعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله تعالى به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة. انتهى كلامه تغمَّده الله تعالى برحمته[٤].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٠٨)، ومسلم برقم (٤٢٤٧) من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما.

(٢) في ط: وكذلك لا ينبغي للمؤمن أن.

(٣) في ط: التي لم يشرعها الله.

(٤) «الفتاوى» (١/ ١٢١ ـ ١٣٧).

وقد صرّح في كثير من كتبه بمثل ذلك، فتبيَّن بذلك أن نقل صاحب «الإقناع» هو الحق الحريُّ بالاتباع، وأنَّ ما فهمه العراقي من كلام شيخ الإسلام بعيد عن مرامه بألف عام، وإذا ثبت [ذلك] المقصود فلا حاجة إلى بيان ما في كلام العراقي المردود، على أنَّا قد أبطلنا مثله مراراً، وبيّنا ما اشتملت عليه من السَّهو(١) جهاراً.

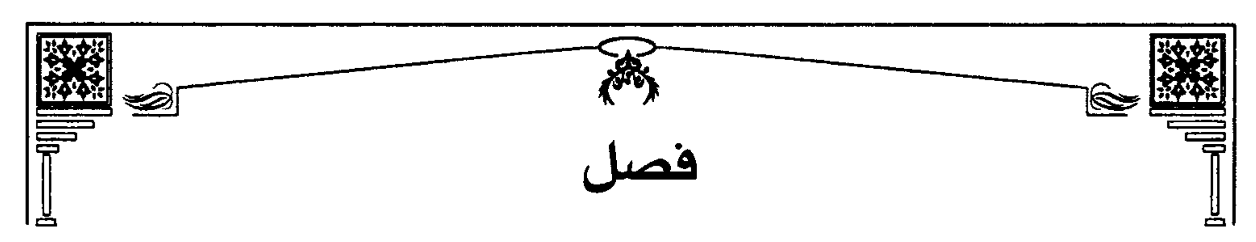
ومن العجيب ما ذكره في الوجه الثَّالث: من احترام الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم لآثار النّبي ﷺ وجعله دليلاً على اتّخاذ الوسائط.

انظر إلى جهل هذا الجاهل إلى أين بلغ؟ فإنَّه ما فرَّق ـ والأمر لله تعالى ـ بين الاحترام واتّخاذ الواسطة، فليلزم على قوله أنَّ كل من احترم شيئاً، فقد اتخذه واسطة بينه وبين الله، ولا يخفى بطلان هذا على صغار الطَّلبة، وكذا ما ذكره في الوجوه الباقية، فإنَّها والله غير صالحة للنظر فيها أصلاً، وكيف يناقش المحموم في هذيانه؟!

نسأل الله تعالى العفو والعافية في [الدِّين] والدّنيا والآخرة.

* * *

(١) في ط: اللغو.



فصل

[توجيهه لحديث: «لعن الله..» بأنه من سجد على القبور]

قال العراقي(١): استدلالهم بقوله ﷺ: **«لعن الله اليهود والنَّصارى، اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** رواه البخاري وغيره.

قال: والجواب: أنَّ المساجد جمع مسجد. وهو ما يسجد عليه، كما هو مقتضى اللُّغة العربية. فالملعون من سجد على القبور واتّخذها مسجداً، أي محل السّجود، بأن تكون نفسها مسجداً، أمّا إذا اتّخذ بجنبها مسجداً أو سجد على الأرض، وهو بعيد عن القبر، أو بين المسجد والقبر فاصل، كما هو الغالب فلا يدخل في هذا الوعيد المفهوم من هذا الحديث.. ثم ساق عدَّة نقولات في تأييد ما زعمه.

✍ والجواب [أن يقال]:

إنَّ العراقي لم يبيّن كيفيَّة استدلال المانعين بهذا الحديث. ويُفهم من سياق كلامه أنَّهم أوردوه دليلاً على أن لا يُدعى غير الله تعالى، ولا يُلتجأ إلاّ إليه سبحانه، وأنَّ من التجأ إلى غيره فيما هو من خصائص الألوهية، فقد ألحد وتجاوز الحد، مع أنَّه لم يُعهد أنَّ أحداً استدلَّ على تلك الدّعوى بهذا الدَّليل، ولا قال هذا القول شخص من أرباب التّحصيل، والذي قالوه: إنَّ النبي ﷺ أراد بهذا الحديث، تحذير أمَّته مما صنع اليهود والنّصارى من

(١) ص (١٤٨) وهي الشبهة العاشرة.

الغلوّ، الذي أوصلهم إلى الشرك والإلحاد[١]، لا أنَّ نفس بناء المساجد على القبور شرك، إذا لم يقل بذلك أحد[٢]، حتى إنَّ السَّلف كانوا ينهون عن كثرة التردّد لتلك الملاحظة.

ففي كتاب «إغاثة اللهفان» للحافظ ابن القيِّم رحمه الله تعالى: قال سعيد: حدثنا عبد العزيز بن محمد، أخبرني ابن أبي سهل، قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة يتعشَّى، قال: هلّم إلى العشاء، فقلت: لا أريده، فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلَّمت على النَّبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلِّم، ثم قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلُّوا عليّ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيثما كنتم**»؛ ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء.

وفيه قال شيخ الإسلام قدَّس الله تعالى روحه: إنَّ قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيداً، فقبر غيره أولى بالنَّهي كائناً من كان، ثم إنَّه قرن ذلك بقوله: «**ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً**»، أي لا تعطِّلوها من الصَّلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحرّي النّافلة في البيوت، ونهى عن تحرِّي العبادة عند القبور، وهذا ضدَّ ما عليه المشركون من النَّصارى وأشباههم، ثم إنَّه عقب النهي عن اتخاذه عيداً

---

(١) في ط: الالتجاء.

(٢) الألوسي ﷺ في تقرير هذا، يريد أنه لا سبيل لأصحاب البدع، الاستدلال بوجود القبر النبويِّ في مسجده عليه الصَّلاة والسَّلام. فهذه الشبهة قد تولاَّها العلماء بالردِّ والدفع، وأما بناء المساجد على القبور، فهو محرم؛ لأنَّه يقود إلى الشرك ويكون سبباً إليه، والله أعلم.

بقوله: «**وصلّوا عليّ، فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم**»، يشير بذلك إلى أنَّ ما ينالني منكم من الصَّلاة والسَّلام، يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم [منه]، فلا حاجة بكم إلى اتّخاذه عيداً، وقد حرَّف هذه الأحاديث بعض من أخذ شَبهاً من النصارى بالشِّرك، وشَبهاً من اليهود بالتّحريف، فقال: هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتبار(١) قصده وإتيانه، ونهى أن يُجعل كالعيد الذي إنَّما يكون في العام مرَّة أو مرَّتين، فكأنَّه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحول إلى الحول، واقصدوه كل ساعة، وكل وقت.

وهذا مراغمة ومحادَّة ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ وقلب للحقائق، ونسبة الرسول ﷺ إلى التَّدليس والتَّلبيس بعد التّناقض، فقاتل الله أهل الباطل أنَّى يؤفكون؟ ولا ريب أنَّ من أمر الناس باعتبار أمر وملازمته وكثرة انتيابه، بقوله: لا تجعلوه عيداً، فهو إلى التَّلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدّلالة والبيان، فإن لم يكن هذا تنقيصاً فليس للتنقيص حقيقة فينا، كمن يرمي أنصار الرّسول ﷺ وحزبه بدائه ومصابه وينسل، كأنَّه بريء.

ولا ريب أنَّ ارتكاب كلِّ كبيرة بعد الشِّرك، أسهل إثماً وأخف عقوبة من تعاطي مثل ذلك في دينه ﷺ وسنته، وهكذا غُيِّرت ديانات الرّسل، ولولا أنَّ الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابِّين عنه، لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله، ولوا أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضُّلاّل، لم ينه عن اتّخاذ قبور الأنبياء مساجد، و[لم] يلعن فاعل ذلك، فإنَّه إذا لعن من اتَّخذها مساجد يُعبد الله فيها، فكيف بملازمتها والعكوف عندها، وأن يعتاد قصدها وانتيابها، ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول؟ وكيف يسأل ربَّه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد؟ وكيف يقول أعلم الخلق بذلك، ولولا ذلك لأُبرز قبره، ولكن خشي أن يتخذ مسجداً، وكيف يقول: «**لا تجعلوا قبري**

---

(١) في ط: اعتياد.

عيداً وصلُّوا عليّ حيثما كنتم»؟ وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلاَّل، الذين جمعوا بين الشّرك والتّحريف؟!

وهذا أفضل التَّابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما نهى ذلك الرَّجل أن يتحرَّى الدّعاء عند قبره ﷺ، واستدلَّ بالحديث، وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جدّه علي، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال. وكذلك ابن عمِّه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته؛ كرِه أن يقصد الرّجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد ورأى أنَّ ذلك من اتخاذه عيداً. انتهى.

ثم إنَّ ما ذكره العراقي في حمل الحديث على السّجود على القبر مخالف لما ذكره أئمة الحديث، ففي صحيح البخاري ما نصّه: باب ما يكره من اتّخاذ المساجد على القبور. ولما مات الحسن بن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم ضربت امرأته القبَّة على قبره سنة ثم رُفعت، فسمعوا صائحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه آخر: بل يئسوا فانقلبوا.

حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن هلال هو الوزَّان؛ عن عروة، عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النّبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «**لعن الله اليهود والنَّصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، قالت: ولولا ذلك لأُبرز قبره، غير أنِّي أخشى أن يتخذ مسجداً. انتهى.

فقد أورد البخاري رحمه الله تعالى هذين الحديثين للدَّلالة على مدَّعاه، والاتِّخاذ أعمُّ من البناء، ومناسبة الأول لحديث الباب: أنَّ المقيم في الفسطاط، لا يخلو من الصَّلاة هناك، فيلزم اتخاذ المسجد عند القبر، وقد يكون القبر في جهة القبلة فتزداد الكراهة، وقال ابن المنيِّر: إنَّما ضربت الخيمة هناك للاستمتاع بالميِّت بالقرب منه، تعليلاً للنّفس، وتخييلاً باستصحاب المألوف من الأنس، ومكابرة للحسِّ، كما يُتعلّل بالوقوف على

الأطلال البالية، ومخاطبة المنازل الخالية؛ فجاءتهم الموعظة على لسان الهاتفين بتقبيح ما صنعوا، وكأنَّهما من الملائكة أو من مؤمني الجن، وإنَّما ذكره البخاري لموافقته للأدلَّة الشرعيّة، لا أنَّه دليل برأسه.

وأمّا حديث عائشة، ففي «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، قال الكرماني: مفاد الحديث منع اتّخاذ القبر مسجداً، ومدلول التَّرجمة اتخاذ المسجد على القبر ومفهومهما متغاير، ويجاب بأنَّهما متلازمان وإنْ تغاير المفهوم. انتهى.

وقال البخاري بعد عدَّة أبواب: باب بناء المسجد على القبر، وأورد فيه حديث عائشة في لعن من بنى على القبر مسجداً، قال الشَّارح العسقلاني ناقلاً عن الزَّين بن المنيِّر: كأنَّه قصد بالترجمة الأولى اتِّخاذ المساجد في المقبرة؛ لأجل القبور بحيث لولا تجدُّد القبر ما اتّخذ المسجد، ويؤيده بناء المسجد في المقبرة على حدته لئلا يحتاج إلى الصَّلاة، فلا يوجد مكان يصلّي فيه سوى المقبرة فلذلك نحا به منحى الجواز. انتهى.

قال: وقد تقدَّم أنَّ المنع من ذلك، إنَّما هو حال خشية أن يُصنع بالقبر كما صَنع أولئك الذين لُعنوا. وأمَّا إذا أمن ذلك فلا امتناع، وقد يقول بالمنع مطلقاً من يرى سدَّ الذَّريعة، وهو هنا متّجه قوي. انتهى.

فتبيَّن بما نقلناه أنَّ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لعن الله اليهود..**» إلخ، وعيدٌ يتناول من اتخذ القبور مساجد، أي بناها عليها تعظيماً ومغالاة، كما صنع اليهود والنّصارى وغيرهم من المشركين، حتى جرّهم ذلك إلى عبادتهم، وأنت تعلم أنَّ جميع مشاهد الصَّالحين اليوم من هذا القبيل، وما غرَّ ضعفاء العقول في عبادتها إلا ما شاهدوه من الزَّخارف على قبورهم، من تعليق السّتور، وإيقاد السرج، والتّحلية بالذّهب والفضَّة، والله يعلم أنَّ كلّ ما نشاهده من المساجد المعمورة، إنَّما ذلك بسبب ما فيها من القبور، إجلالاً

لقدرها[١]، ولذلك ترى المساجد التي ليس فيها قبر أحد من الصّلحاء، خاوية على عروشها ولا يذكر فيها اسم الله إلا في أوقات قليلة، وقد عمّ هذا البلاء جميع بلاد المسلمين إلاّ ما ندر وقل، ولا ينجع الإنكار على ذلك شيئاً، بل ربّما أوقعوا المنكر في مهاوي الهُلك وبدَّعوه وضلّلوه، وهذا زمن غربة الدين الذي أخبر به النَّبي ﷺ. نعوذ بالله من سوء المنقلب، ونسأله سبحانه حسن العاقبة.

وما ذكره العراقي من كون مرقد نبي الله إسماعيل ﷺ في المسجد الحرام، عند الحطيم، ليس مما نحن بصدده إذ لم يدفن هناك لقصد تعظيمه، والاختلاف إليه بالزّيارة، بل إنَّ ذلك كان على سبيل الاتّفاق، ولذا لا ترى أحداً ممن قصد بيت الله الحرام خطر بباله ذلك القبر؛ بل لم يكن له أثر هناك أيضاً، وكذا يقال في أمر الله تعالى بالاتخاذ من مقام إبراهيم مصلًى، فإنَّه بعيد عمَّا نحن فيه، وهذا كما كان ابن عمر رضي الله عنهما يتتبّع المواضع التي صلَّى فيها النبي ﷺ، مع أنَّ البيضاوي ذكر في تفسير الآية عدَّة وجوه، فقد قال بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، على إرادة القول أو عطف على المقدر عاملاً لإذا، واعتراض معطوف على مضمر تقديره: ثوبوا إليه واتخذوا، على أنَّ الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهو أمر استحباب، ومقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه[٢]، أو الموضع الذي كان فيه حين قام عليه ودعا النّاس إلى الحج، أو رفع بناء البيت،

(١) في المطبوع: لقدر المقبورين.

(٢) قال الفقي رحمه الله: ذكر الله تعالى: ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ في سورة البقرة، والمراد منه المكان الذي كان يقوم فيه للصلاة والدعاء، وهو غير المقام الذي هو الحجر، الذي كان يقوم عليه حين ارتفع البناء، والذي جعله الله في سورة آل عمران، آية على بقاء البيت على قواعد إبراهيم، وأنّه لذلك أولى بالحج من بيت المقدس الذي هدم مراراً بيد الوثنيين، حتى انتقل عن مكانه الذي بناه عليه إبراهيم، وهذا واضح لمن تدبر الآيات وفهم مقاصدها.

وهو موضعه اليوم، رُويَ أنَّه ﷺ أخذ بيد عمر، فقال: «**هذا مقام إبراهيم**»، فقال، عمر: أفلا نتخذه مصلًّى؟ فقال: «**لم أؤمر بذلك**»، فلم تغب الشمس حتى نزلت. وقيل: المراد به الأمر بركعتي الطواف[1]؛ لما روى جابر أنَّه ﷺ: لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلّى خلفه ركعتين وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وللشافعي في وجوبهما قولان، وقيل: مقام إبراهيم، الحرم كله، وقيل: مواقف الحج، واتخاذها مصلًّى، أن يُدعى فيها ويتقرّب إلى الله تعالى. انتهى.

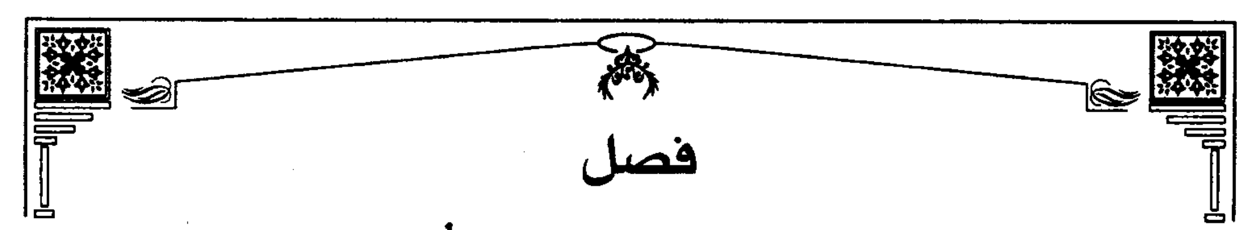
فأيُّ دلالة في الآية حينئذٍ على ما زعمه العراقي؟ وما أدري ما قصد العراقي ـ عامله الله تعالى بعدله ـ بقوله: أمَّا من اتَّخذ مسجداً في جوار رجل صالح، أو وليٍّ في مقبرته وقصد به الاستظهار بروحه.. إلخ.

فعلى ما أظن أنَّه أراد بالاستظهار الاستغاثة، والاستعانة، وعنى بوصول الأثر ما يزعمه عبَّاد الكواكب من الاستمداد من روحانيّتها، فانظر فهل بعد هذا الشرك شرك عظيم؟ ومع ذلك يقول: لا للتَّعظيم والتّوجّه.. إلخ، فانظر إلى خبط هذا الجاهل الغافل عن دينه ويقينه، فإنَّه كما يلوح من كلامه أنَّ الاستظهار بروحه، ووصول أثر من آثار عبادته ليس من التَّعظيم في شيء، وإنَّما التَّعظيم في عرفة الرّكوع والسّجود، فإذا لم يركع ولم يسجد أحد لقبر صالح لا يكون معظِّماً له، وهذا هو الغلوّ الذي نهى الله عنه ورسوله ﷺ.

ومن وقف على ما في كلام هذا الرجل وأمثاله من الزيغ والاعوجاج، حمد الله سبحانه على العافية من مثل هذه البليّة.

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٠٢) من حديث ابن عمر، والطبراني في «الكبير»، والفاكهي في «أخبار مكة» من حديث عمر بن الخطاب.



فصل

[توجيهه لحديث: «لتركبُّن...» في عمل المبتدعات، والردّ عليه]

قال العراقي[١]: الشّبهة الحادية عشرة: استدلالهم بقوله ﷺ: **«لتركبنّ سَنن من كان قبلكم حذو القذَّة بالقذة، حتى لو أنَّ أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه»**، قالوا: يا رسول الله من هم، اليهود والنصارى؟ قال **«فمن؟»**.

ثم أجاب عن هذه الشّبهة بقوله: إنَّ هذا الحديث اتفق العلماء أنَّه في عمل المبتدعات، التي لا تُخرج فاعلها من الإيمان، بدليل قوله: **«حتى لو أنَّ أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه»**، وبدليل قوله: **«لا تزال طائفة من أمَّتي قائمين بأمر الله، لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»**[٢]، وقوله ﷺ كما في البخاري: **«لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم الدنيا، أن تنافسوها»**[٣]، وقوله ﷺ كما في «الصحيحين»: **«إنَّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب»**[٤]، فهذا الحديث وارد في حق أهل البدع.. إلى آخر ما قال.

---

(١) ص (١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٠/ ١٩٢٠) من حديث ثوبان، وبرقم (١٧٤/ ١٠٣٧)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان.

(٣) متفق عليه من حديث عقبة بن عامر.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٦٥/ ٢٨١٢) من حديث جابر، وليس هو عند البخاري.

✍ والجواب [أن يقال]:

إنَّ هذا الحديث من الأحاديث المتَّفق على صحّتها، وأورده البخاري في كتاب الاعتصام من «صحيحه»: قال حدثنا محمد بن عبد العزيز، حدثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»(١).

وفي «فتح الباري» قال عياض: الشّبر والذِّراع والطَّريق ودخول الجحر، تمثيل للاقتداء بهم في كل شيء مما نهى عنه الشَّرع وذمّه.

وقوله: قال: «**فمن؟**» هو استفهام إنكار والتّقدير، فمن هم غير أولئك؟ وقد أخرج الطبراني من حديث المستورد بن شدَّاد رفعه: «**لا تترك هذه الأمة شيئاً من سنن الأولين حتى تأتيه**»(٢)، ووقع في حديث عبد الله بن عمرو عند الشَّافعي بسند صحيح: «**لتركبنَّ سنّة من كان قبلكم حُلوها ومرَّها**»(٣)، قال ابن بطَّال: أعلم ﷺ أنَّ أمّته ستتَّبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء، كما وقع للأمم قبلهم، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأنَّ الآخر شرّ، وأنَّ السَّاعة لا تقوم إلا على شرار النَّاس، وأنَّ الدِّين إنَّما يبقى قائماً عند خاصة من النَّاس.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٦٨٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» برقم (٣١٣) من حديث المستورد بن شداد، وقال: لا يروى هذا الحديث عن المستورد إلا بهذا الإسناد تفرد به ابن لهيعة، قال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ١٨٦) عن الشافعي، وقال: هذا موقوف.

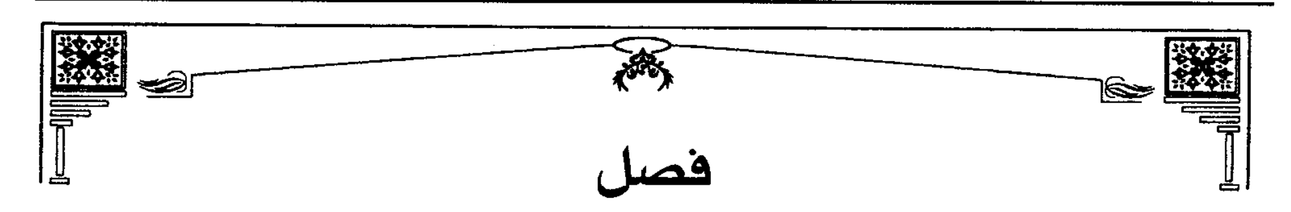
قلت: وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ وسيقع بقيَّة ذلك. انتهى[(١)].

فالمانعون يقولون: إنَّ هذا الحديث قاله عليه الصَّلاة والسَّلام حثًّا لأمته على اتباع سنته، ولزوم طريقته، وتحذيراً لهم من موافقة أهل الكتابين الذين كانوا قبل، وإخباراً بما سيقع بعده من غُربة الدِّين، والعمل بأعمال المشركين، ولا شكّ أنَّ المغالاة في المخلوق ليس من الشَّريعة المحمَّديَّة، بل من عمل اليهود والنَّصارى، [وهذا] الذي أضلَّهم وأخرجهم عن مرضاة الله.

ففي الحديث دلالة صريحة في المنع عمَّا يهواه العراقي من إباحة ما يفعله العوام عند قبور الصَّالحين، التي أصبحت اليوم كأوثان المشركين؛ لأنَّه من أفعال اليهود والنَّصارى، التي لعنوا عليها، وباءوا بمقت الله وغضبه.

❊ ❊ ❊

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٣٠١ ط دار المعرفة).



فصل

[تخبّط العراقي في أمر البدعة]

وأمَّا قول العراقي:

إنَّ هذا الحديث، اتَّفق العلماء أنَّه في عمل المبتدعات.. إلخ.

فجوابه: أنَّ اتفاق العلماء على فرض تسليمه: أنَّ الحديث في عمل المبتدعات لا يضرُّ المانعين شيئاً؛ لأنَّ المبتدعات تشمل كل ما حدث في الدِّين، حتى الإشراك به وعبادة غيره سبحانه، وقد سبق أنَّ ما اشتمل عليه الحديث تمثيل للاقتداء بهم في كل شيء مما نهى عنه الشَّرع وذمَّه؛ وكذا حديث المستورد الذي رواه الطَّبراني: «**لا تترك هذه الأمة شيئاً من سنن الأولين حتى تأتيه**»(١)، ومن جملة سنن الأوَّلين: أنَّهم عبدوا غير الله، وأشركوا به سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

قال عدي بن حاتم للنبي ﷺ: ما عبدوهم، [قال]: «**ولكن أحلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرَّموا عليهم الحلال فأطاعوهم**»(٢)، فمن أطاع أحداً في دين لم يأذن به الله، من تحليل أو تحريم أو استحباب أو إيجاب، فقد لحقه من هذا الذَّمِّ نصيب، كما يلحق الآمر النَّاهي أيضاً نصيب، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

٢١]، فمن ندب إلى شيء يتقرَّب به إلى الله أو أوجبه بقوله أو فعله، من غير أن يشرعه الله، فقد شرع من الدِّين ما لم يأذن به الله، ومن اتَّبعه في ذلك فقد اتَّخذه شريكاً لله، شرع من الدِّين ما لم يأذن به الله، ومن تلاعب الشَّيطان بالأمَّة الغضبيَّة، عبادتهم العجل من دون الله، وقد شاهدوا ما حلَّ بالمشركين من العقوبة والأخذة الرّابية.

ومن تلاعبه بهم: أنَّهم يزعمون أنَّ الفقهاء إذا أحلّوا شيئاً كان حلالاً، وإذا حرَّموه صار حراماً، وإن كان نصّ التّوراة بخلافه، وهذا تجويز منهم لنسخهم ما شاؤوا من شريعة التّوراة، فحجروا على الرّبِّ سبحانه أن ينسخ ما يريد من شريعته، وجوَّزوا ذلك لأحبارهم وعلمائهم، كما تكبَّر إبليس أن يسجد لآدم، ورأى أنَّ ذلك يغضُّ منه، ثم رضي أن يكون قوَّاداً لكلِّ عاصٍ وفاسق، وكما أبى عبَّاد الأصنام أن يكون النَّبي المرسل إليهم بشراً، ثم رضوا أن يكون إلـههم ومعبودهم حجراً، وكما نزَّهت النّصارى بتاركتهم[1] عن الصَّاحبة والولد، ولم يتحاشوا من نسبة ذلك إلى الله سبحانه، وما كان عليه اليهود والنَّصارى مما لا يسع المقام ذكره من الزَّيغ والاعوجاج، قد اتّبعهم عليه من شابههم من هذه الأمَّة، ولا سيِّما علماء السّوء الذين حرّفوا كلام الله ورسوله إلى ما تهواه أنفسهم، وأحلُّوا وحرَّموا أشياء بمقتضى آرائهم ووفق مطلوبهم.

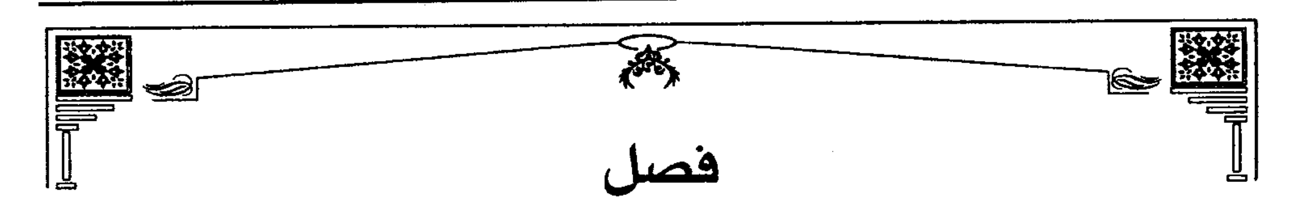
وقصر البدعة على بعض ما كانوا عليه جهل بحدود ما أنزل الله، ولمَّا

---

(١) جمع: بتريك، والصواب أن يقاله بطريق وبطارقة أو بطريك وبطاركة، قال في العين: بطرق: البطريق: العظيم من الروم، والبطريق: القائد لأهل الشام والروم.
وقال الصاحب بن عباد في «المحيط في اللغة»: البطرك البطريق: وهو السيد من سادات المجوس أيضاً. وقال في «القاموس المحيط»: البطريق ككبريت القائد من قوّاد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل.

خفي المراد بالبدعة على هذا الغرِّ الزَّائغ عن المحجَّة وأمثاله، وجب بسط القول فيها وبيان أقسامها، ليكون الواقف على هذا المقام على بصيرة من أمره فنقول:





فصل

[بسط الألوسي رحمه الله القول في البدعة]

اعلم أنَّ البدعة لغة: المحدثة مطلقاً.

واصطلاحاً[١] ـ إذا قوبلت بالسنة ـ: يراد بها المحدثة في الدِّين، إما بزيادة أو نقصان، وهي السَّيئة التي ليس لها أصل ظاهر من الكتاب والسنَّة، أو سند صحيح استنبطه علماء الأمَّة، فأمّا ما كانت حسنة ناشئة عن هذه الأصول فهي قد تكون مباحة، كالمواظبة على أكل لب الحنطة مثلاً، وقد تكون مستحبَّة كبناء المنارة، وتصنيف الكتب، وقد تكون واجبة كنظم الدَّلائل لردِّ كيد الملاحدة وشُبه الفرق الضالَّة.

وقد وقع من ذلك عن الصَّحابة شيء كثير، كما وقع لأبي بكر وعمر، ولزيد بن ثابت في جمع القرآن، فإنَّ عمر أشار به على أبي بكر خوفاً من اندراس القرآن بموت الصَّحابة رضوان الله عليهم؛ لما كثر فيهم القتل يوم اليمامة وغيره، فتوقَّف أبو بكر لكونه صورة بدعة، ثمَّ شرح الله صدره لفعله؛ لأنَّه ظهر له أنَّه يرجع إلى الدِّين، وأنَّه غير خارج عنه، ولمَّا دعا زيد بن ثابت وأمره بالجمع، قال له [زيد]: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: والله إنَّه حق[٢].

وكما وقع لعمر في جمع النَّاس لصلاة التَّراويح في المسجد، مع

---

(١) لو قال المؤلف هنا شرعاً لكان أولى.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٠٧) والطيالسي في «مسنده» من حديث زيد بن ثابت والبيهقي في «شعب الإيمان».

تركه ﷺ لذلك، بعد أن كان فعله ليالي. وقال ـ أعني عمر ـ: نعمت البدعة هي[١]؛ لأنَّها وإن سمَّاها بدعة باعتبار معناها اللغوي، فليس فيها ردٌّ لما مضى، وزيادة في الدِّين، بل هي من الدِّين، لأنَّه ﷺ علَّل التَّرك بخشية الافتراض، وقد زال بوفاته ﷺ، ومنشأ الذمِّ ما قاد إلى شيء من مخالفة السنة ودعا إلى الضّلالة.

قال ابن حجر المكّي ما حاصله: إنَّ البدع منقسمة إلى الأحكام الخمسة؛ لأنَّها إذا عُرضت على القواعد الشرعية[٢] لم تخل عن واحد من تلك الأحكام، فمن البدعة الواجبة على الكفاية: الاشتغال بالعلوم العربيَّة، المتوقِّف عليها فهم الكتاب والسنَّة، كالنَّحو والصّرف، واللّغة والمعاني والبيان.

ومن المحرَّمة: مذاهب سائر البدع المخالفة لما عليه أهل السنَّة والجماعة.

ومن المندوبة: إحداث نحو المدارس، وكل إحسان لم يعهد في العصر الأول.

ومن المكروهة: زخرفة نحو المساجد.

ومن المباحة: التوسُّع في لذيذ المآكل والمشارب. انتهى.

والقول الفصل الموضِّح لما تقدَّم: هو أنَّ البدعة لها معنيان:

أحدهما: **لغوي**، وهو المحدث مطلقاً، سواء كان من العادات أو العبادات.

وثانيهما: **شرعي**، وهو الزيادة في الدِّين والنقصان منه، من غير إذنٍ من الشَّارع، لا قولاً ولا فعلاً، ولا صريحاً ولا إشارة.

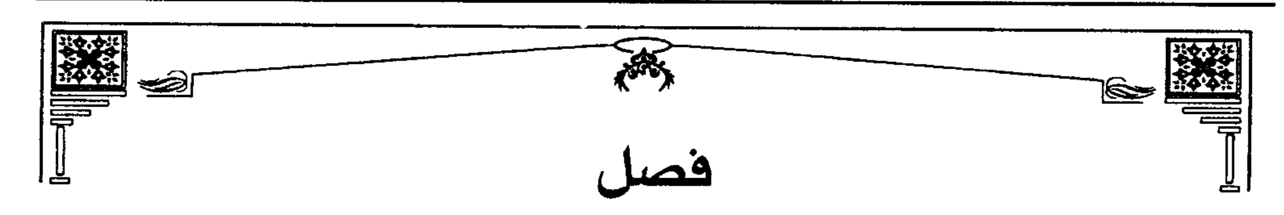
---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٦).

(٢) في الأصل: الشركية.

فالبدعة التي هي ضلالة كما في الحديث، هي بحسب معناها الشَّرعي. فيقتصر بها على غير العادات من العبادات، التي هي لأصول الشَّريعة من الكتاب والسنة، والإذن من الشارع مخالفات، فالمنارة عونٌ لإعلام وقت الصَّلاة، وتصنيف الكتاب عونٌ للتَّعليم، ونظم الدلالة لردِّ الشُّبه ذبّاً عن الدِّين، فكلُّ ذلك مأذون فيه؛ لأنَّ البدعة الحسنة ما لم يحتج إليه الأوائل واحتاج إليه الأواخر، وعند الاستقراء لا توجد هذه البدعة في العبادات البدنيَّة المحضة، كالصَّوم والصَّلاة والذِّكر والقراءة، بل لا تكون البدعة فيها إلاَّ سيئة.





فصل

[في إطلاق البدعة]

قال ابن حجر المكّيُّ في «شرح الأربعين» ما نصُّه:

وإنَّ البدع السَّيئة، وهي ما خالفت شيئاً من ذلك صريحاً أو التزاماً، قد ينتهي إلى ما يوجب التَّحريم تارة، والكراهة أخرى، وإلى ما يظن أنَّه طاعة وقربة، فمن الأوّل الانتماء إلى جماعة، يزعمون التّصوّف ويخالفون ما كان عليه مشايخ الطّريق من الزّهد والورع وسائر الكمالات المشهورة عنهم، بل كثير من أولئك إباحيَّة لا يحرِّمون حراماً، لتلبيس الشَّيطان عليهم أحوالهم القبيحة الشّنيعة، فهم باسم الفسق أو الكفر أحق منهم باسم التَّصوف والفقر[1].

ومنه ما عمَّت به البلوى من تزيين الشَّيطان للعامَّة، تخليق حائط أو عمود أو تعظيم نحو عين، أو حجر أو شجرة، لرجاء شفاء أو قضاء حاجة، وقبائحهم في هذا ظاهرة غنيَّة عن الإيضاح والبيان، وقد صحَّ أنَّ الصَّحابة

(١) قال حامد الفقي رحمه الله: من فهم حقيقة الإسلام الذي جاءت به رسل الله من أولهم إلى آخرهم، وعرف حقيقة ما كان عليه أعداء الرسل في كل وقت، عرف أن التصوف هو أساس دين المشركين من قوم نوح إلى الآن، وأنه شرُّ البدع وأخبث الخبائث، وأن زهدهم وتقشُّفهم كان في القساوسة ورهبان النصارى، وفي كل كاهن للمشركين، فلا يغتر بهذه الظواهر والصور إلا جاهل بحقيقة ما شرع الله لرسله واقع تحت تخدير الشيطان وتزيينه ولا يكثر ذلك إلا من المقلدين المتدينين بدين الآباء والشيوخ الذين ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ . . .

رضي الله تعالى عنهم مرّوا بشجرة سدر قبل حنين كان المشركون يعظّمونها، وينوطون بها أسلحتهم، أي يعلّقونها بها، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى لموسى**: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] **«لتركبنَّ سَنن من كان قبلكم»**.

ومن الثَّاني: ومنشؤه أنَّ الشَّارع يخصّ عبادة بزمن أو مكان أو شخص أو حال، فيعمّمونها جهلاً وظنًّا أنَّها طاعة مطلقاً، نحو صوم يوم الشّك أو التَّشريق والوصال، ومنه التَّعريف بغير عرفة.. ثم قال: ومنه الصلاة ليلة الرَّغائب أول جمعة في رجب، وليلة النِّصف من شعبان، فهما بدعتان مذمومتان.. ثم قال: والكلام في خصوص إحيائهما بالكيفية المشهورة بين العوام، فلا ينافيه الأمر بالقيام ليلتها، أي ليلة النصف من شعبان.. إلى آخر ما قال.

قال المحدِّث الشيخ علي السويدي البغدادي[1] ـ بعد ذكره الكلام السَّابق ـ أقول: ومن أعظم البدع: الغلو في تعظيم القبور، فلقد اتخذوها في هذا الزمان معابد، يعتقدون أنَّ الصَّلاة عندها أفضل من الصَّلاة في جميع بيوت الله، وهم وإن لم يصرِّحوا، ولكن طُبعت قلوبهم على ذلك، فتراهم يقصدونها من الأماكن البعيدة، وربُّما أن تكون بحذائهم مساجد مهجورة، فيعطلونها، [وإذا ألجئوا للصلاة فيها صلُّوا كارهين، وتلك يهرعون إليها][2] وإذا لحقوا على الصَّلاة فيها ولو في أوقات الكراهة كانت[3] أفضل عندهم

---

(١) تقدَّم التعريف به. وقوله هذا في كتاب «العقد الثمين» ص (٢١٥).

(٢) هذه زيادة من مطبوعة الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله، ويلاحظ أنها من عنده وليست من كتاب الألوسي ولا الكتاب الأصل الذي نقل عنه الألوسي.

(٣) في ط: وهي.

من الصَّلاة في الأوقات الفضيلة في المساجد، وتلك المساجد التي بحذاء القبور ليست مقصودة لكونها بيوتاً لله، بل لكونها حضرات لمن انتسبت إليه من أهل تلك القبور، يدلّك على ذلك كله: أنَّهم لا يسمُّونها إلاَّ حضرات، فإذا قلت لأحدهم: أين صلَّيت؟ قال لك: صلَّيت في حضرة الشيخ فلان، وليس مقصودهم إلا التقرُّب به وبحضرته، وكلما أكثر الرَّجل الترداد إلى القبور، ولو كانت مشتملة على أنواع المنكرات من ستور الحرير والدِّيباج والتَّرصيع بالفضة والعقيان، فضلاً عن غيرها [مما صارت به أصناماً]، كان مشهوراً بين النَّاس بالدِّيانات مغفور الزلاّت مقرَّباً عند أصحاب تلك الحضرات، ولقد امتلأت قلوب العوام من رجائهم ومخافتهم، فتراهم إذا عضلت عليهم الأمور أوصى بعضهم بعضاً بقصد أصحاب القبور.

وكذلك إذا وقع(١) على أحد يمين بالله، حلف به من غير أدنى وجل أو حذر، وإذا قيل له: احلف بفلان عند قبره، خصوصاً إذا أمره بالغسل لهذا اليمين، ليكون ذلك من أقوى العبادات، خاف خوفاً يظهر على جميع جوارحه! فلو سلّمنا أنَّه أدخل إلى قبره ارتعدت فرائصه، وانحلَّت قواه. وربما إنَّ أحدهم لكثرة أوهامه وشدّة خوفه تبطل حواسه، فيزدادون كفراً وتضحك عليهم الشياطين جهراً، وترى كثيراً منهم يعلِّقون مرضاهم عليهم، فيأخذون المريض وهو في غاية شدَّته، فيدخلونه على قبره، والسَّعيد عندهم من يدخلونه داخل شبَّاكه، ويتعلَّق بستر قبره، والرزيَّة العظمى: أنَّهم في حالتي السَّرَّاء والضَّرَّاء يتلاعب إبليس بهم، فإن مات مريضهم، قالوا: ما قبلنا الشيخ فلان، يعنون به صاحب القبر، وإن صادف القدر فعوفي، سيَّما إذا وافق مطلوبهم ذلك الوقت، فرحوا بما عندهم من الكفر! فأرسلوا القرابين، ومعها شموع العسل موقدة من بيوتهم، إظهاراً لقدرة صاحب القبر، وتنبيهاً على

---

(١) في ط: لزم.

فضيلته، وكثيراً ما ينشرون الرَّايات له على طريقة أهل الجهل من الأعراب، من أن: من يفعل شيئاً عظيماً نشرت له راية بيضاء. وقد رأيت من لم يفعل ذلك، ولكنه ينصب راية بيضاء على سطح داره ثلاثة أيَّام، يصيح كل يوم وقت المغرب بأعلى صوته: الرَّاية البيضاء المبنيَّة لفلان بيض الله وجهه!!

وبالجملة فأكثر البدع الخبيثة نشأت من هنالك، حتى يروى[١] أنَّ أناساً بدمشق الشَّام ينذرون للشَّيخ عبد القادر الجيلي قنديلاً يعلّقونه في رؤوس المنائر، ويستقبلون به جهة بغداد، ويبقى موقداً إلى الصّباح، وهم يعتقدون أنَّ ذلك من أتمِّ القربات إليه، كأنَّهم يقولون بلسان حالهم: أينما توقدوا فثمَّ وجه عبد القادر، فيا لله العجب ما هذه الخرافات؟! وأين دين الله الذي قد مات؟! بال الشَّيطان في عقولهم وأضلَّهم عن سبيلهم! ولا ترى أحداً ينهى وينكر عن أمثال ذلك.

وأعظم مما هنالك، ومن أقبح المنكرات ما يستعملها جميع النساء عند وضع الإناث ولا سيَّما في شدَّة الطَّلق، فإنَّهنّ يستغثن بعلي بن أبي طالب! وكلَّما اشتدَّ الطَّلق صاحت النِّساء بأعلى أصواتهن داعيات ومستغيثات به ليفرِّج عنهن! ما قد كربهنَّ، ومن يسمعهنَّ يتيقّن إشراكهن، وقلَّما تسلم امرأة منهنَّ في هذا الحال العظيم، والخطب الجسيم، وكثير منهن يزعمن أنَّه الموكل بالأرحام، والموكول إليه في هذه الأحوال العظام[٢].

والحاصل لو أراد الإنسان أن يفصل منكرات القبور، وتكيات المتصوفة، ومنكرات الحيطان، والآبار والصخور والأحجار والتّماثيل، وكذا منكرات المساجد والحمَّامات والطّرقات والأسواق والبوادي والأمصار، فضلاً عن الدّخول في منكرات المجالس والملابس والبيع والشّراء، وما

---

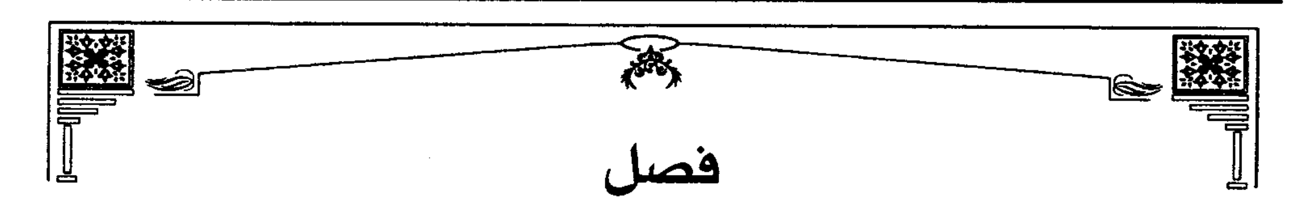
(١) في «العقد الثمين» حتى أني رأيت بدمشق.

(٢) إلى هنا انتهى النقل من «العقد الثمين».

ابتدعوه فيها وجعلوه كالسنة المأمور بها؛ لضاق عنه نطاق التحرير وعجز عن ضبطه من تصدَّى للتسطير. وقد ذكر شيخ الإسلام في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» نبذة من ذلك.

والمقصود من نقل هذا الكلام كله: أنَّ البدعة تطلق على كل ما حدث في الدِّين مما ليس منه، [بل من أدخلها في البدع الخبيثة]، حتى عبادة غير الله تعالى، خلافاً لما زعمه العراقي.





فصل

وأمَّا قول العراقي: حتى لو أنَّ أحدهم.. إلخ. فمردود؛ لأنَّ قوله: حتى لو أنَّ.. إلخ. غاية في دناءة المعاصي وخسّتها. فإنَّ مثل ذلك مما تأباه الطَّبيعة البشريَّة والغيرة الإنسية[1]، ولو كان الرجل من المشركين أو يجحد إلٰه العالمين؛ لا أنَّه غاية لجميع الذّنوب.

وقوله: وبدليل قوله: «لا تزال طائفة» مردود أيضاً، إذ لا دليل فيه على ما ذهب إليه بوجه من الوجوه؛ لأنَّ الخطاب في قوله: «لتتبعن».. إلخ، ليس عاماً لجميع الأمة، على ما اعترف به العراقي نفسه. فلا يناقض حديث «لا تزال طائفة».. إلخ.

ثم إنَّ هؤلاء الطّائفة هم ورثة الرَّسول ﷺ وأتباع دينه، والذين هم على ما كان عليه السَّلف، وهؤلاء هم أهل السنة، لا كالعراقي وأضرابه الذين شرعوا في الدِّين ما لم يأذن به الله، وبدّلوا وغيّروا وحرّفوا كلام الله، وسنة رسوله ﷺ إلى ما تهواه أنفسهم وأعراضوا عن الله تعالى إلى غير سبحانه.

وفي الحديث كلام يطول ذكره إن أردته فارجع إلى «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وغيره من الشروح عند الكلام على الاعتصام بالكتاب والسنة.

وأمَّا حديث: **«لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي»**.. إلخ. فالمخاطبون

---

(١) في المطبوع: الإنسانية.

الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم، كما نبّه على ذلك شُرَّاح الحديث، وهذا الحديث من أعلام النُّبوة، فقد وقع بين الصَّحابة من التَّنافس ما هو معلوم، وأمَّا حديث: «**إنَّ الشَّيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب**»، فقد تقدَّم الكلام عليه في الشبهة الثامنة، وذكرنا هناك أنَّه لا ملمس فيه لما يزعمه العراقي بوجه من الوجوه فلا حاجة إلى الإعادة.

وأمَّا قوله: فهذا الحديث ـ يعني ـ حديث «لتركبن».. إلخ، وارد في حق أهل البدع، وأمَّا أهل السنة والجماعة فهم الفرقة الناجية.. إلى آخر كلامه، فكلام حق، لكن لا كما يزعمه أنَّ عبّاد القبور هم أهل السنة و[أن] الذين يعبدون الله مخلصين له الدين هم أهل البدع، بل الأمر بالعكس، كما لا يخفى على من له قلب [سليم]، وقد بيّنا ذلك مراراً.

وما نقله عن شرَّاح الحديث لا أصل له، وقد أسلفنا لك عبارة «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وما نقله عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة، لا يفيده، إذا لم يقل أحد: إنَّ جميع الأمة توافق الأمم السَّابقة في ضلالها، فقول شيخ الإسلام: ليس الحديث إخباراً عن جميع الأمَّة صحيح، وقد صرَّح هو وغيره، أنَّ عبّاد القبور من أكثر الناس موافقة لليهود والنصارى، فلا يفيد العراقي هذا النَّقل بوجه من الوجوه.

وأمَّا قوله[1]: فدلَّ كلامه أنَّ أهل المغرب وأهل الشام وبيت المقدس.. إلى آخر ما هذى به، فلا يفيده شيئاً؛ لأنَّه ليس المراد بأهل المغرب جميع أهل المغرب، ولا بأهل الشام وبيت المقدس جميعهم؛ لأنَّ ذلك باطل بالبداهة.

قال الحافظ العسقلاني عند الكلام على قوله ﷺ: حتى يأتي أمر الله

(١) ص (١٥١).

وهم ظاهرون: أي على من خالفهم، أي: غالبون، أو المراد بالظهور: أنَّهم غير مستترين، بل مشهورون. والأول أولى.

وقد أطال الكلام في حديث «قبض العلم»، وفي الجمع بين الحديثين، وذكر أنَّ المراد بأمر الله تعالى: هبوب الرِّيح، وأنَّ المراد بقيام الساعة ساعتهم، وأنَّ المراد بالذين يكونون ببيت المقدس الذين يحصرهم الدجَّال إذا خرج، فينزل عيسى إليهم[١] فيقتل الدجَّال، ويظهر الدِّين في زمن عيسى عليه السلام، فتبيّن لك أنَّه لا يلزم من الظهور والغلبة على المخالفين، الاقتدار على إزالة الضلال والباطل، ألا ترى أنَّ غالب بلاد المسلمين فيها من العلماء العارفين والفقهاء[٢] المتبحِّرين الذين لا يخاصمهم مخاصم إلا أفحموه، ولا يبارزهم مبارز إلا غلبوه وألزموه، ومع ذلك لا قدرة لهم على إزالة ضلال المخالفين، وإلحاد المنكرين، بل إنَّ المسلمين على اختلاف فرقهم، ظاهرون في بلادهم على غيرهم من سائر الملل والأديان، ومع ذلك لا قدرة لهم على إطفاء نار ضلالهم وباطلهم، فكيف يدَّعي عاقل ـ فضلاً عن فاضل ـ أنَّ البلد الذي فيه الطَّائفة الظَّاهرون ليس فيه منكر وضلال، ومن البديهي الأولى: أنَّ هذه البلاد

---

(١) في ط: عليهم.

(٢) قال الشيخ حامد الفقي في طبعته: آية العلم والفقه والصلاة: عدم السكوت على منكر يظهر خصوصاً الشرك الذي شاع وانتشر في بلاد هؤلاء، ولو كان هؤلاء علماء عارفين فقهاء، ما شاع الفساد وعم البلاد ولكنه الجهل بالعلم والدين أوهم المقلدين أن الصلاح والفقه هو الوسوسة والتنطع في الطهارة والنجاسة، والصلاة والصيام والاعتكاف وتسويد الصحف بكتابة الفروع وحشوها بكثرة القيل والمقال، وترك العامة وشأنهم في ضلالهم وكفرهم، وما أصيبت الأمم إلا بذلك الجهل الفاحش فقوموا أيها المسلمون من غفلتكم، وأخرجوا من مساجدكم وزواياكم وجاهدوا البدع والمنكرات، واهدموا الشرك من قلوب الناس، وافتحوا لهم بأعمالكم صراط الله المستقيم وأروهم أن للصوم والصلاة والعبادات ثمرات طيبات: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾.

التي ذكرها العراقي قد أصبحت اليوم منبع كل فساد، ومظهر كل شرك وإلحاد، قد شاع فيها الزنى واللواطة وشرب الخمور. إلى فضائح أخرى، منها السماء تمور، ومع ذلك فيها من العلماء من عرف الحق، وظهر فيه على أهل الباطل، فلا ينازعهم منازع، ولا يناضلهم مناضل، ولا يضرّهم من خالفهم، ولا يزيغهم ما صادفهم، كما أنَّ مثل العراقي من الملحدين لم يضر من ظهر عليه في بلده من العلماء المتقنين، بل لم يزالوا ولله الحمد يلقمونه وأضرابه الحجر، ويمزّقون باطله شذر مذر، وقد فرح بما فهمه من الحديث على زعمه الفاسد، وجعله دليلاً على إباحة القبب المشتملة على كل المفاسد. مع تصريح علماء مذهبه وغيرهم بالنَّهي عن ذلك، والرّدع عن سلوك هاتيك المسالك، فما أشغف هذا العراقي بالباطل والضلال، نسأله سبحانه العفو والعافية، عن مثل هذه الحال.

وأما قوله: ويجعلون بلاد نجد المدعوِّ عليها. فقد تبيّن لك بطلانه في أول الكتاب وأنَّ المراد بنجد المدعو عليها: العراق بلاد هذا الملحد[1].

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، في باب قول النبي ﷺ: **«الفتنة من قبل المشرق»** ما نصُّه، من جملة كلام: كان أهل المشرق يومئذٍ أهل كفر، فأخبر النبي ﷺ أنَّ الفتنة تكون من تلك الناحية. فكان كما أخبر، وأوّل الفتن كان من قبل المشرق، فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين، وذلك مما يحبه الشَّيطان، ويفرح به، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة، وقال الخطابي: نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة. وأصل النَّجد: ما

---

(١) انظر: «غاية الأماني» (٢/ ١٤٨) و«صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» ص (٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٠)، و«العراق في أحاديث الفتن» لمشهور حسن ص (٣٤، ٣٥٧).

ارتفع من الأرض. وهو خلاف الغور، فإنَّه ما انخفض منها، وتهامة كلها من الغور، ومكة من تهامة. انتهى.

وعرف بهذا ما قاله الداودي أنَّ نجداً من ناحية العراق، فإنَّه توهّم أنَّ نجداً موضع مخصوص، وليس كذلك، بل كل شيء ارتفع بالنسبة إلى ما يليه يُسمّى المرتفع نجداً، والمنخفض غوراً. انتهى كلام الحافظ.

وقد سبق أنَّ عبد الله بن عمر قال: يا أهل العراق، ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم الكبيرة، سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الفتنة تجيء من هاهنا**، وأومأ بيده نحو المشرق، **من حيث يطلع قرنا الشيطان**»، فظهر أنَّ المراد بالمشرق في الحديث: العراق. ولا بدع فهو منبع كل فساد ومنشأ كل إلحاد[1]؛ فما أصلف هذا العراقي، وما أجهله حيث رمى بعيبه من لا تجد مثل هذا العيب له، وبلاد نجد اليوم ولله تعالى الحمد، قد سلمت من داء سائر بلاد المسلمين، وهي على ما كل عليه السّلف من شعائر الموحِّدين، وسائر البلاد قد عراها ما عراها مما يسودُّ منه وجه القرطاس، وتبيَّض منه لمم المداد، والعيان أجلى شاهد وأقوى دليل، ولا يكاد ينازع فيه إلاَّ أعمى البصر والبصيرة، وصاحب النَّظر الكليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل[2].

وهذا آخر ما منَّ الله تعالى به من الكلام، الذي هو في قلوب أعداء الله

---

(١) ومن استقرأ التاريخ بان له أنَّ كثيراً من الفتن الكبرى كان مصدرها العراق، فالذي حصل بين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما، وبين علي والخوارج، وموقعة صفين والجمل.. وغيرها وغيرها، وهذه الفتن قد أخبر عنها ﷺ، ولا زالت العراق تتجرَّع مرارة الفتن حتى وقتنا هذا. وإلى الله المشتكى.

(٢) قال الشيخ عبد اللطيف في «مصباح الظلام» ص (٣٣٦): إنه لا يقول مسلم بذم علماء العراق لما ورد فيها، وأكابر أهل الحديث وفقهاء الأمة، وأهل الجرح والتعديل أكثرهم من أهل العراق.

كالسّهام، فالحمد لله على نعمه التي لا تحصى، وآلائه التي لا تستقصى، والصَّلاة والسَّلام على الحبيب الأعظم والشَّفيع لعصاة أمَّته حيث لا ينفع النَّدم، وعلى آله وأصحابه وجنده وأحزابه.

هذا ونسأله سبحانه أن يثبّتنا بالقول الثَّابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة، وأن يلهمنا رشدنا ويثبتنا على نهج الاستقامة، ويحفظنا من موجبات النَّدامة، ويسبل علينا ثياب لطفه الساترة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

وصلَّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه خير آل وخير أصحاب، وكان ذلك عصر يوم الاثنين غرَّة ذي الحجة الحرام من شهور سنة ١٣٠٦ السَّادسة بعد الثلاث مئة والألف من هجرة مصباح الظلام، عليه [من الله] أفضل الصَّلاة وأكمل السَّلام.



فهرس المحتويات